شكري المبخوت

الطلياني

رواية

التنوير

شكري المبخوت

الطّلْيَاني

الكتاب: الطلياني/ رواية
المؤلف: شكري المبخوت

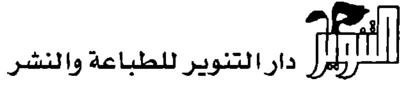
عدد الصفحات: 344 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-48-1

رقم الناشر: 14/443-57

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:



تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332 فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

شكري المبخوت

الطّلْيَاني

رواية



الزقاق الأخير

1

لمْ يفهم أحد من الحاضرين في المقبرة يومها لمَ تصرّف عبد النّاصر بذاك الشّكل العنيف. ولمْ يجدوا حتى في صدمة موت الحاج محمود سببًا مقنعًا.

كان الإحساس العام أنّ النار تخلّف الرّماد. فأين وقار الحاج محمود وأناقته في جبّته السكرودة التونسيّة وشاشيّته الإسطنبوليّ أو في بدلته الإفرنجيّة وقبّعته المستديرة، على حدّ سواء، من طيش ابنه بسروال «الدجينز» وسترة «الدّنقري» والشّعر الأشعث واللّحية المعفاة؟ فحتى وسامة الفتى، التي جمعت جمال الأصول الأندلسيّة لأمّه وجدّته ومخايل الوسامة التّركيّة لأبيه وجدّه، تلاشت في تلك الهيئة التي جعلته أقرب ما يكون إلى «هبّاطة» الميناء و«بانديّة» الحيّ الذين لم ينالوا ولو حظًّا يسيرًا من التّعليم.

كانت مقبرة الزلّاج في حالة خشوع، لا تسمع في أرجائها إلّا التّكبير وأصوات القرّاء يرتّلون ما تيسّر من آي القرآن الكريم. وكان موكب الدّفن كبيرًا على قدر ما يكنّه أهل الحيّ للحاج محمود وللعائلة كلّها من تقدير. فالموتى لا يتساوون، والجنازة دليل على رأس مال المتوفّى وعلى ما في رصيد العائلة من المعاني والرموز والمكانة.

حضر يومها، إضافة إلى العائلة الموسّعة، الجيران وأبناء الحيّ والأحياء المجاورة وأناس عاديّون عديدون وأصدقاء ابنيْ المغفور له من الفنّانين والمثقّفين والجامعيّين ورجال الإعلام وحتى رجال السّياسة وبعض الوزراء. وأكثرهم كان من أصدقاء عبد النّاصر وأخيه صلاح الدّين الباحث الجامعيّ المرموق والخبير لدى مؤسّسات ماليّة دوليّة.

أقيمت صلاة الجنازة في الباحة الكبرى للمقبرة. فخيّم الصمت واصطف النّاس يؤدّون الواجب. كنت، منذ سمعت النبأ، إلى جانب عبد الناصر الذي لم أفارقه إلّا لساعات قليلة. كان معنا جمع من رفاقنا. وقفنا على الجانب الأيمن من الباحة حذو عرصة ننتظر الفراغ من صلاة الجنازة لنشيّع الحاج إلى مثواه الأخير مع المشيّعين. اقترب منّا توفيق خال عبد النّاصر. سمعته يوشوش له، يدعوه إلى الوقوف مع الواقفين للصلاة: «عيب! التحق بأخيك في الصّفّ الأوّل ماذا يقول عنّا النّاس؟ استرنا على الأقلّ يوم دفن والدك». نهره عبد الناصر ممتعضًا حانقا: «تعرف كما يعرفون أنّني لا أصلّي ولا أصوم».

سار الحشد وراء سيارة البلديّة في اتّجاه طريق سيدي أبى الحسن الشاذلي فتقدّم عبد النّاصر الصّفوف. التفت فلمح الإمام. كان بدينًا يلبس جبّته العكريّ. حدّق متثبّتا فوقعت عيناه على عينيه. طأطأ الإمام رأسه مرتبكًا. ظلّ ينظر إليه وهو يسير في الموكب وراء سيّارة دفن الموتى مثلنا.

حين وصلنا إلى مكان الدّفن علت أصوات المكبّرين من كلّ جانب. وُضِع التّابوت قرب حفرة القبر وشرع في قراءة الفاتحة ثمّ تتالت الأدعية. لم يبسط عبد الناصر يديه عند تلاوة الفاتحة وترديد الأدعية دون بقية الخلق المتحلّقين حول القبر والتّابوت. رأيته شاخصًا في جارهم الإمام الذي كان يتحاشى أن ينظر إليه ويتعمّد تلاوة القرآن وترديد الأدعية مغمضا عينيه. كانت عمامته تكاد تحجب تينك العينين.

بدا عبد النّاصر متوتّرًا. ربّت خاله على كتفه ثمّ تفطّن صلاح الدين إلى توتّره فعانق أخاه الصّغير. سالت على خدّيه دمعات حين احتضنه. أغمض عينيه ومسح دموعه. ما إن فتحهما حتى رأى الإمام داخل الحفرة على يساره يتسلّم الجثّة استعدادًا للحدها.

لا أحد من الجمع الغفير المتحلّق حول القبر فهم لِمَ علا صراخ الإمام. لم يشهد الحادثة إلّا من كان في الدّوائر الأولى.

-«يلعن دين والديك، يا منافق، يا نذل، يا ساقط، أُخرج من غادي يا نيـ***..

كان الإمام يتأوّه ويئنّ أنينًا مرًّا. نزفت الدّماء من فمه فاختلطت بقميصه السّكري وبدعيّته فاتحة اللّون ولطّخت قطرات منها جواربه البيضاء. كان يتألّم ويتوجّع في شبه غيبوبة.

تعالى الصّخب واختلطت الأصوات: «الإمام غارق في دمائه»، «عبد النّاصر الطلياني ضرب الإمام»، «لقد جنّ ابن الحاج محمود المسكين»، «لا أدري ماذا وقع، لا أرى إلّا الإمام ينزف فمه دمًا»، «الطلياني يصرخ ويسبّ الإمام»، «ابن الحاج في حالة هستيريا»، «عيب والله عيب أن يقع هذا في جنازة»، «أستغفر الله العظيم، عشنا وشفنا»، « استرنا يا ربّ».

من كانوا في الدّائرة الأولى رأوْا عبد النّاصر يوجّه ضربة بحذاء « البرودكان» إلى وجه الإمام الذي كان في الحفرة يستعدّ لدفن المرحوم. كانت صرفقتها مسموعة ممّا يدلّ على قوّتها. دخل عبد النّاصر في حالة هيجان صارخا يرمي الإمام الشّيخ علّالة بأقذع النّعوت التي لا تليق إلّا بأسافل القوم. لم يكفه ذلك، ارتمى عليه يريد إشباعه لكمًا وربّما نوى خنقه لو لا أنّني انتزعته منه ثمّ أخذته مع بعض الأصدقاء بعيدًا وهو سادر في صياحه وسبابه وتهديده، يرغي ويزبد إلى أن فقد الوعي.

عجّل الحاضرون بدفن الحاج محمود ولم يقف أيّ من أفراد العائلة

لتقبّل العزاء من الحاضرين. فقد ألهت الدّهشةُ الجميعَ، صلاح الدين والخال توفيق وكبار العائلة والمعزّين أيضا، عن إتمام مراسم التعزية.

حصل هذا في أواخر شهر جوان أو بداية شهر جويلية من سنة 1990 تاريخ وفاة الحاج محمود. كان الحاضرون يومها، قد عاينوا أوّل فضيحة في الحيّ، وربّما في البلاد، يذهب ضحيّتها الميّت.

2

لئن لازم صلاح الدّين الصّمت معبّرا عن أسفه فإنّ بقيّة أفراد العائلة، من النساء بالخصوص،نهشوا لحم عبد النّاصر نهشًا.

أمّا أخته الكبرى«جويدة» التي طلّقت منذ سنوات بعد زواج لم يدم أسبوعا فقد بادرت إلى اتّهام الكتب الفاسدة التي كان يقرؤها منذ صغره، كتب تدعو إلى الكفر والفساد والعياذ بالله!

وأمّا أمّه، الحاجّة زينب، سيّدة البيت الحديديّة، فقد اتّهمت خلطة السّوء من الصّعاليك الذين كانوا يدرسون معه بالجامعة ويأتي بهم إلى غرفته في الطّابق العلوي يملأونها دخانًا كثيفًا مُتَهامسين أحيانًا، متحدّثين بصخب يصل حدّ العراك أحيانًا أخرى. وهمهمت في خضمّ التعليقات الغاضبة: «ولد الحرام لا ينتظر منه غير العيب».

وأمّا أخته الصّغرى «يسر» التي يكنّ لها محبّة خاصّة فقد كانت تلحّ على تفهّمه بعد خيبته في زواجه. كانت تردّد في صيغة حكمة لا حكمةَ فيها: «اعذروا عبد الناصر،كلّ إنسان وظروفه».

أمّا أختاه الوسطيان فقد ظلّتا صامتتين تكتفيان بالتعبير عن الامتعاض من كلّ ما تسمعان بحركات الشفتين والحاجبين وإدارة الوجه والتحديق في الحاضرين والنظر إليهم شزرا. فـ«سكينة» قالت، بعد أن سمعت أختها الكبرى تفسّر ما أتاه عبد الناصر.   هذا ظاهر من صلاتك وعبادتك، لو

اعتنيت بسلوكك لكان أفضل». كانت تهمس إلى «بيّة»، وهي أكبر من سكينة بسنتين. فبادلتها همسا بهمس إذ مالت برأسها لتعلّق على ما جاء في كلام الحاجة أمّها ساخرة: «ولد الحرام، من هي أمّه؟».

وأمّا خاله توفيق، وهو متديّن حديثًا، فأرجع الأمر إلى فساد متأصّل في أخلاق الطلياني تدلّ عليه ملابسه وهيئته وشربه الخمر وعيشته البوهيميّة.

وعبّر الجيران، من جهتهم، عن تعاطفهم مع العائلة الكريمة الفاضلة معلّلين ما وقع بحكمة الأقدمين من أنّ في كلّ عائلة بيضة فاسدة، «حارمة».

الشّخص الوحيد الذي كان يبتسم، ابتسامة غامضة ملتبسة تجمع الرّضى إلى شيء من الخبث وبعض الشّماتة هو زوجة الإمام، جارة العائلة بنفس الزّقاق، «للّا جنينة». قالت لهم:

- «عبد النّاصر على حقّ ولو كنت مكانه لفعلت أكثر ممّا فعل».

اندهش الجميع وأشاحوا بوجوههم عنها. فهم يعتبرونها، رغم أنّها لم تتجاوز الأربعين إلّا بسنتين أو ثلاث، قد بدأت منذ سنوات تخرّف وصغُر عقلها لأنّها تخالط كثيرًا أطفال الحيّ تعويضًا عن حرمانها من الإنجاب. ويستدلّون على ذلك بأنّها متحجّبة وزوجة إمام ولكنّها لا تؤدّي واجباتها الدّينيّة. وحتى زوجها الإمام الشّيخ علّالة نفض يديه منها ويدعو لها، صباح مساء في صلاته وفي غير صلاته، بالهداية.

ولكنّ هذا كلّه إنّما هو ظواهر الأمور. فما وقع أمرٌ فعلاً شنيع وبقيت أسئلة عديدة معلّقة. إذ تساءل من تبقّى من أصدقائنا المشتركين أسئلة لم أجد الشجاعة لإجابتهم عنها وقتها: لِمَ فعل عبد النّاصر ما فعل؟ هب أنّ له مبرّرًا لضرب الشّيخ علّالة فلِمَ اختار يوم دفن أبيه؟ لِمَ انتابته تلك الحالة الهستيريّة ليجد نفسه في المصحّة يحقنون له حقنًا لإزالة التّشنّج؟ وهل يليق تصرّفه الأرعن بشخص في الثلاثين من العمر؟

وإلى الآن لم يفهم أحدٌ من أبناء الحيّ أو ممّن حضروا في المقبرة أو ممّن قَدِموا للعزاء في البيت أو ممّن واسوا العائلة في حفل الفرق شيئًا من أسرار تلك النازلة.

لا أحد فهم عدَا للّا جنينة على ما بدا للحاضرين ولكنّها لم تبحْ بشيء وتركت الأمر في مجمع أسرارها.

شعاب الذكريات

1

انتهت جميع المراسم وبقي السّرّ علكة يلوكها أفراد العائلة خلال زياراتهم العائليّة وتستذكرها الجارات على عتبات منازلهن ويستعيدها أبناء الحيّ في جلساتهم الخمريّة. ولكن لا أحد كان يجرؤ على أن يتحدّث إلى عبد النّاصر. فقد انهار إثر الحادثة وبدأ ينحدر إلى نحبه في ما ظنّ الجميع. شحب وجهُه وذهب ألقُه ونحل نحولا مرضيًّا بعد أن غرق في الكحول والسّجائر والعزلة حسب المعلومات الشّحيحة التي ذكرتها باقتضاب شديد أخته يسر، الوحيدة التي كان يحبّ أن يراها في بيته. فقد كان يترك لها مفاتيح البيتين اللّذين سكنهما بعد أن كلّفها خلال فترات عديدة بالبحث عن معينات منزليّة من الحيّ والإشراف عليهن في التنظيف. كان يغدق عليها الأموال منذ أن أصبح صحفيّا مترسّما في الجريدة الناطقة باسم الحكومة. فتح لها حسابًا جاريًا بالبريد تجمع فيه أموالها. وحين كانت تستكثر ذلك كان يجيبها:

– «أريدك أن تشتري لجهازك أفضل ما يوجد. بعد أسبوع سيأتي الخطّاب».

كانت تضحك وتمازحه:

– «بعد أسبوع! لا لا أستطيع الانتظار، أريد عريسا غدا».

كانت تضع رأسه بين يديها وتقبّل جبينه وقد اغرورقت عيناها دمعًا. ولكن آخر مرّة أعادا فيها هذه الإسطوانة، وهو يستعدّ للطلاق من زينة، قالت له لترفع من معنويّاته:

- «ومن أين لي برجل حقيقيّ مثلك؟».

أجابها ببرود وهدوء محذّرًا:

- «إيّاك أن يكون مثلي!».

- «يا حسرة عليك! أنت سيّد الرّجال ولكنّها لم تكن من «كارك».. لم تكن مناسبة».

ابتسم ابتسامة صفراء. وامتلأ صوته بشجن لم تألفه منه أبدا وردّ عليها:

- «أنا الذي كان غير مناسب. تأكّدي ممّا أقول.. أنا لا أصلح لشيء البتّة».

2

طلبت الحاجّة زينب من صلاح الدّين أن يؤدِّيَ دوره بصفته أخًا أكبر ويقرّع عبد النّاصر على الأقلّ أو يفهم أسباب الفضيحة التي تسبّب فيها. كلّفته من موقع الأمّ القويّة التي كانت تسيطر على العائلة كلّها بدءًا من المرحوم إلى يسر أصغر بناتها ولم يخرج، في الواقع، عن طوعها إلّا عبد النّاصر. كان، في عينيها، صعلوكا خارج السرب. إنّه الحبّة السّوداء الفاسدة في بيدرها. كلّفته بأنْ يطفئ النّارَ التي أشعلها «ولد الحرام» وينظّف عرض المرحوم والعائلة كلّها. فقد تركهم أضحوكة بين النّاس بعد كلّ الاحترام والتّقدير وكلّ الإجلال والعزّ.

كان صلاح الدّين يستمع إليها متظاهرًا بالتّفاعل والموافقة والحرص على أداء المهمّة الجسيمة إلى حدّ كادت معه الأمّ تقتنع بأنّها استعادت شرف العائلة. قالت له:

- «أموتُ وأعرف لِمَ فعل ما فعل؟».

كانت «جويدة» تؤدّي معها دورها المعهود بصبّ الزّيت على النّار. وقع بين كمّاشة لسانين سليطيْن.

والواقع أنّ ما فعله عبد النّاصر بدا لصلاح الدّين أمرًا مشينًا ولكنّ واقعيّته وتعفّفه عن التفاصيل وبراغماتيّته جعلته يرى أنّ المسألة انتهت ولا فائدة من العودة إلى الوراء. ثمّ إنّ أخاه الأصغر قد اختار منذ سنوات نمطًا آخر من الحياة واختطّ لنفسه مسارا شخصيّا مختلفا حاد به عن مواضعات العائلة. ما عساه يفعل معه وهو في الثلاثين؟لم يعد ذاك الطّفل أو المراهق الذي يمكن تأديبه أو نصحه أو تقويمه. ومن الأجدى تفهّمه وتركه على حاله تلك.

لم يبق لصلاح الدّين إلّا أن يُظهر الإدانة الشّديدة لعبد النّاصر أمام أمّه وأخته الكبرى وأنْ يربح الوقت حتى يقفل راجعا إلى سويسرا بعد يوم أو يومين. انقطعت صلته بالبلاد منذ سنوات عديدة. ولا يحبّ العودة إلى العائلة ومشاكلها التي لا تنتهي. كان صلاح الّدين، خلال بعض عطل الصّيف، يأتي إلى تونس، برفقة كارلا زوجته، ليصطاف في شواطئ جربة أو طبرقة أو سوسة أو الحمّامات دون أن يُعلم العائلة ودون أن يرى أيَّ واحد منهم عدا عبد الناصر إذا سنحت الفرصة. لم يكن يزورهم إلّا عندما يشارك في بعض النّدوات التي تنظّمها هذه الجامعة أو تلك أو عند حضوره إلى تونس بصفته أستاذًا زائرًا أو خبيرا ضمن وفود عمل تابعة لهيئة دوليّة للتّباحث مع المسؤولين التّونسيّين في ملف من الملفّات الاقتصاديّة. فهو من كبار الخبراء ويُعتمد عليه كثيرًا في كلّ ما يتّصل باقتصاد المغرب العربي وإفريقيا وسياستيْهما الماليّة. وحتّى البيت الذي اشتراه في حيّ النصر وأثّثه أحسن تأثيث لا يشغله إلّا أيّاما معدودات. لذلك طلب من عبد الناصر، إثر طلاقه من زينة، أن يتّخذه مسكنا.

3

صبيحة يوم عودته إلى سويسرا حمل صلاح الدّين باقة زهور وذهب ليعود أخاه. رتّبت يسرُ اللّقاء بعد استشارة عبد النّاصر. كان مايزال منهكًا ولم يدخل بعد في عزلته التّامّة. رفض أن يرى من طلب رؤيته ولم يقبل إلّا أخاه الأكبر.

كان من الواضح أن عبد النّاصر لا يريد الحديث في أيٍّ شيء. ولولا بقيّة احترام يكنّه لأخيه واعتزازه به لنجاحه العلميّ والمهنيّ الدّوليّ وأياديه البيضاء عليه في أوقات تحصيله الجامعيّ وبعيد تخرّجه سنة 1986 لرفض زيارته.

كان يعتبر نفسه نقيضًا لأخيه ولكن حين يسأله أصدقاؤه أو من يلتقي بهم من أصحاب الأعمال ورجال الإعلام والسّياسيّين عن صلاح الدّين وما قد يكون من قرابة بينهما كان يجيب «هو أخي الأكبر» وكان يسمّيه «الباشا» ويسترسل في ذكر خصاله العلميّة وتواضعه وخبرته ونزاهته وتعويله على نفسه للوصول إلى أعلى المراتب.

والحقّ أنّ العلاقة بينهما ملتبسة. فصلاح الدّين بحكم رتبته الجامعيّة ومكانته الدّوليّة كان يفسّر ما يبلغه عن أخيه الأصغر حين يقارن أحدهم بين مسيرتيهما على أنّه إنسان حرّ له أسلوب تفكير شخصيّ وربّما كان نمط عيشه لا يناسب مجتمعًا محافظًا مثل المجتمع التّونسي لا يعترف بالحرّية الشّخصيّة ولا يحترم اختيارات الفرد. فلو لم يعش في سويسرا لكان ربّما مثل عبد النّاصر.

بيد أنّ هذا الاحترام المتبادل بين الأخوين جاء بأَخَرة. ففي أوائل الثّمانينات، ولمّا يزل عبد الناصر طالبًا وإن طالت به فترة طلب العلم (أو قل طلب السّياسة في الجامعة!)، كانت تدور بينهما نقاشات حادّة في البيت أثناء الزّيارات القليلة التي كان يؤدّيها صلاح الدّين إلى تونس وإلى العائلة.

كانت نقاشات تنتهي بتوتّر سرعان ما يقطعه صلاح الدّين لأنّه قد يجرّ إلى ما لا يحمد عقباه. فالأخ الأصغر كان معارضًا شرسًا لسياسة الدّوائر الماليّة العالميّة وعلى رأسها البنك العالميّ وصندوق النّقد الدّولي. ويعتبر سياسة التّكييف الهيكلي للاقتصاد التّونسي الذي شارف على الإفلاس، على حدّ تعبيره، تدخّلاً إمبرياليًّا في القرار السياديّ يمنع بناء اقتصاد وطني ويكرّس نهج التبعيّة والاستعمار الجديد والعمالة والسّياسة اللّيبيراليّة المتوحّشة.

أمّا صلاح الدّين فكان يرى، بمنطق رجل الاقتصاد والخبير المطّلع على الاقتصاد العالمي وتوجّهاته، أنّ المسألة ترتبط باختيارات محدّدة للتّموقع في الفضاءات الاقتصاديّة وبالخصوص في علاقة الاقتصاد التّونسي بالاقتصادات الأوروبيّة وعلى رأسها فرنسا وألمانيا. ويركّز على أنّ السّياسة الاجتماعيّة في التّعامل مع الملفّ الاقتصادي مجرّد شعبويّة أدّت إلى أزمة مع الاتّحاد العامّ التونسيّ للشغل سنة 1978 وإلى أحداث الخبز سنة 1984.

كانت نقاشات بيزنطيّة لم يتمكّن فيها طالب الحقوق من إقناع الخبير الاقتصادي. وبالمقابل عجز الجامعيّ المدافع عن اقتصاد السوق عن الحدّ من فورة الشابّ المفعم بقيم الثورات الاشتراكيّة وبما التهمه من الكتب الحمراء. وعادة ما تنتهي المناقشة باتّهام الطّالب بالتّطرّف اليساري القائم على الجهل بقوانين الاقتصاد واتّهام رجل الاقتصاد بأنّه لا يعرف «رأس المال» لكارل ماركس ولا يفهم التّناقض الجذري بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وأنّه يسير، عن وعي أو عن غير وعي، في ركاب مصّاصي دماء الشعوب.

بيد أنّ ما لم يتصارحا به هو أنّ صلاح الدّين كان معجبًا بحماسة أخيه ويرى أنّ وعيه السّياسي قد نضج وأنّه فتى ملتزم يبني شخصيّته

على طريقته. وكانت تعجبه جرأته وفصاحته وقدرته على الاحتجاج لآرائه. وأمّا عبد النّاصر فكان منبهرًا بالمعرفة الدّقيقة التي يمتلكها أخوه خصوصًا حين يقدّم له تجارب اقتصاديّة لم يسمع بها من قبل في حلقات النّقاش بالجامعة ولم يطّلع عليها رغم مطالعاته الكثيرة أو حين يقدّم أرقامًا ومؤشّرات محلّية وإقليميّة ودوليّة تسند كلامه. وأكثر ما يعجبه في أخيه هدوؤه أثناء النّقاش ورصانته ووضوح رؤيته إلى الأشياء رغم الاختلاف الجذري بينهما.

4

كان سي محمود، رحمه الله، يتدخّل بين الفينة والأخرى ليعلّق منتصرًا لابنه الأكبر متّهمًا الأصغر بأنّه يتجاوز الحدود ويدعوه إلى التّأدّب عند الحديث مع «سيّده» صلاح الدّين!.

وكم كان عبد النّاصر يعجب بدفاع أخيه عنه حين يردّ على أبيه «دعه يتكلّم، في حديثه أشياء مهمّة» أو «لم يقلّل أدبه إنّه متحمّس في الدّفاع عن رأيه» أو «رجاء أبي لكلّ رأيه». وكان الأب يصمت منكسرًا. فيرى عبد النّاصر في أخيه وغريمه السياسي محاربًا فكريًّا شهمًا يحترم عدوّه. فيزيد انبهاره بشخصه دون أن يصبح لديه مثلا أعلى.

وقد نُقشت في ذهنه حادثة مازال صداها يرنّ في أذنه إلى الآن. كانت العائلة مجتمعة في فناء الدّار ونسائم الصّيف تحمل معها عبق «عنبر اللّيل». وفي غفلة من الجميع بدأ النّقاش يحتدّ بين عبد النّاصر وصلاح الدّين حول الوضع السّياسي أو الاقتصادي أو شيء من هذا القبيل. تعالى صوت عبد النّاصر رغم محافظة صلاح الدّين على هدوئه. خرج الأب إلى وسط الدّار بعد أن صلّى العشاء، كان الجميع ينصت إلى الأخوين ولا أحد على الأرجح فهم شيئا عدا توتّر عبد النّاصر. صرخ سي محمود في وجه ابنه الأصغر:

- «متى ستكفّ عن وقاحتك وأنت تتحدّث إلى سيّدك خوك؟!».

أجاب عبد النّاصر منفعلا:

- «ليس لي سيّد ولست عبدًا لأحد. لقد تركت أخلاق العبيد لكم».

- «اِخرس يا كلب!».

قالها الأب ويداه ترتعشان ويهمّ بضرب الفتى الوقح. نهض عبد النّاصر بعد هذه الإهانة على مسمع من الجميع. أمسكه صلاح الدّين من يده وهو يتمنع ويتفلّت. هدّأ من روعه والتفت إلى أبيه موجّها إليه الخطاب:

- «يا حاجّ، عليك أن تفخر بابنك. إنّ النّاس يحسدونك عليه. وهو أفضل مني ثقافة وتجربة وعمقًا في التّفكير مقارنة بي حين كنت في سنّه. لا تكن قاسيًا. ليس بين طلبتي ولا زملائي الأساتذة في سويسرا مَنْ يناقش نقاشا رفيعا مثله. تأكّد ممّا أقول».

تسمّر الأب في مكانّه صامتًا مندهشًا. رأى عيون سكينة وبيّة وقد احمرّت جرّاء الدّموع التي كانتا تداريانها.

ظلّت الحاجة زينب، ولم تكن وقتها حاجّة، جامدة في مكانها. والأرجح أنّ مديح صلاح الدين لم يرق لها ولكن ما بيدها الحديديّة من حيلة.

ابتسمت جويدة ابتسامة عريضة مصطنعة على سبيل مجاملة الأخ الأكبر ولا ريب. أمّا يسر فقد ربّتت على كتف عبد النّاصر الذي احتضنه صلاح الدّين بحنوٍّ.

أجال الفتى المشاكس نظره في الجالسين على البسط المفروشة أرضًا. نظر مبتسمًا إلى أبيه ابتسامة تحدٍّ وغادر الفناء في اتّجاه السّقيفة.

حدّثته يسر، بعد أيّام، عمّا دار من نقاش بعد خروجه. لقد غيّر صلاح

الدّين نظرة الجميع إليه ولامهم جميعًا على فكرتهم الخاطئة عنه. فارتفعت، إثر تلك الحادثة، أسهمه في سوق العائلة.

5

انتظر صلاح الدين أمام «الأنترفون» بعض الوقت قبل أن يرحّب به عبد النّاصر ويفتح له باب العمارة. كان يلبس «جوغينغ» رماديّا. بدا شاحب الوجه، أنحف ممّا وصفته له يسر. أمامه «ترمس» قهوة. في التّلفاز تدور قناة للصّور المتحرّكة. كانت السّاعة تشير إلى حوالي العاشرة صباحًا.

سأله أسئلة عاديّة عن أحواله وصحّته. شكره على الزّهور التي أخذ يتأمّلها.

قال وهو يصبّ له فنجان القهوة:

- «دائما متميّز حتى في الزّهور التي تختارها!».

لم ينتظر صلاح الدّين طويلاً للدّخول في الموضوع. حدّثه بصراحة عن حيرة العائلة ودهشتها ممّا وقع وعن الضّغوط المتأتّية من أمّه المتسلّطة. ذكر له أنّه لم يأت ليحقّق ما طُلب منه ولكنّه أتى ليطمئنّ على أخ أو صديق. وأضاف:

- «لا أعرف لِمَ فعلتَ ذلك. ولكنّني متأكّد من أنّ لك أسبابك.. لا أخفي عليك أنّني أرتاح أكثر لو عرفتها غير أنّني لا أريد إزعاجك. قلقي كلّه عليك لا على ما فعلت».

- «أنا لست بخير، ولن أكون.. فلم أكن من قبل بخير».

- «ما هذا التّشاؤم، عبدو».

- «أعرف أنك واقعي وذكيّ. لذلك أصارحك. اِعلم أنني لا أصلح لشيء... أنا فاشل.. مخفق.. خائب ولا أريد أن أعترف بذلك لنفسي».

- «أراك لا تنظر إلّا إلى نصف الكأس الفارغة وهذا طبيعي في وضعك الحالي».

- «الكأس كلّها مهشّمة منذ البدء. ولم أقدر على رأب صدعها وإن أوهمت نفسي بقدرتي على ذلك».

فهم صلاح الدّين أنّ الحديث سيأخذ منعرجًا مأساويًّا وأنّ عبد النّاصر كئيب منهار. سأله عن عمله ومشاريعه وعلاقته بالصحيفة الأجنبيّة التي أصبح يراسلها. ابتسم عبد النّاصر ثمّ قال:

- «لا صلة لما قلته لك بالانهيار العصبيّ الذي تفكّر فيه. أنا في تمام صحوي وصحّتي النّفسيّة.. أرى الأشياء بوضوح.. كنت دائمًا أراها بوضوح.. عكس ما يتوهّم النّاس».

أشعل سيجارته الثّانية من سيجارة فارقت شفتيه منذ ثوان وواصل:

- «أتعرف لِمَ لا أنهار عصبيًّا؟».

- «لا»

- «لأنّني اعتدت منذ صغري على أن تكون لي حياة مزدوجة ظاهرها يراه النّاس وأنغمس فيها كلّيًّا ببذاءتها وعيوبها.. حياة عبد النّاصر البوهيمي المارق غير المنضبط.. أعرف أنّها لا تعجب العائلة الغارقة في كذبتها الكبرى..

قاطعه صلاح الدين:

- «صورتك ليست بهذا السّوء!».

- «أنت غادرت منذ سنوات البلاد وتحلّ ضيفًا على بلادك وعائلتك.. لا تَسْعَ إلى الرّفع من معنويّاتي. أحدّثك عن نفسي لأنّني أعرف أنّ تفكيرك غير تفكير هؤلاء الحمقى الكذّابين البائسين في تونس».

شرد قليلا، عبّ أنفاسًا متتالية من سيجارته ثمّ قال:

- «ما أنقذني من الانهيار هو شخص آخر بداخلي. ليس ضميرًا ولا نفسًا لوّامة. شخص من عقل خالص، بارد، لا مشاعر له ولا أحاسيس، قاطع كالسّيف.. إنّه بوصلتي حين تختلط السّبل. لولاه لوصلت إلى الانحراف الخالص والإجرام المجّاني أو لتلاشيت وانتحرت».

كان صلاح الدين ينظر إليه وهو يتحدّث دون أن تعبّر قسمات وجهه عن أيّ شيء. ولكنّه لاحظ أنّ عبد النّاصر يتكلّم لأوّل مرّة بهدوء ورصانة. ذهبت حماسته وتلاشى شغفه وتوتّره ولكنّه لم يفقد اتّقاد ذهنه.

دون مقدّمات، وبطريقة مباغتة طلب عبد الناصر من صلاح الدّين أن ينظر إليه في عينيه ففعل رغم اندهاشه. حينها سأله:

- «لماذا هربت إلى فرنسا وتركت «جنينة»؟».

فاجأه السّؤال. صمت وهو يستجلي ما وراء السؤال ثمّ قال:

- «لماذا تسألني عن أمر مرّت عليه سنوات عديدة؟ ثمّ إنّني لم أهرب لقد تحصّلت على منحة دراسيّة لم تكن متاحة إلّا للمتفوّقين».

- «أعرف هذا كلّه تركتَ «جنينة» وحيدة فدمّرتها».

- «كنتَ صغيرًا ولم تكن ملمًّا بكثير من التّفاصيل».

- «ما أعرفه أنّكما كنتما عاشقيْن وفضضت ختمها ولم تشأ الزّواج منها».

- «لا لا، ليست الأمور بهذه البساطة. من صنع هذه الخرافة؟».

- «ألم تكونا عاشقيْن؟».

- «عن أيّ عشق تتحدّث بين تلميذ يستكشف الحياة وفتاة مدلّلة أفسدها أبوها، انقطعت عن الدّراسة فبحث لها عن زوج على صغر سنّها؟ أتريدني أن أدفع الفاتورة؟».

- «أيّة فاتورة؟».

- «اِسمع عبد النّاصر. حديث يبقى بيننا لأنّ تقليب دفاتر الماضي، والمرأة على ذمّة رجل، لا يليق بي ولا بك».

- «اتّفقنا».

- «كانت جنينة تبدو أكبر من عمرها الحقيقي. امرأة كاملة مثيرة مغرية. وبلغني أنّها تتحدّث عنّي لأبناء الحيّ بإعجابٍ شديدٍ. كنت غارقًا في كتبي. يحمرّ وجهي خجلا لرؤية الفتيات. لم أجرؤ يومًا على الاقتراب منها رغم أنّها كانت تأتي إلى بيتنا وكانت الحاجّة تعاملها كواحدة من بناتها، لم أجرؤ على ذلك إلى أن وقع المحظور..

سكت كالمتذكّر ثمّ استأنف:

- «قضت ذات صائفة، يومين في بيتنا.. أذكر أنّ الحاج الشّاذلي سافر إلى المنستير ليشارك بفرقته للإنشاد الديني في أحد الاحتفالات بعيد ميلاد بورقيبة وتركها بيننا. تسلّلت إلى غرفتي، في تلك القيلولة من أواخر شهر جويلية وبداية شهر أوت، نزعت ثيابها أمامي. كانت أوّل مرّة ألمس فيها جسد فتاة. وكان ما كان. ولكن ما لا تعرفه أنت أنني بقدر فرحي بتلك التجربة شعرت بندم شديد، أشدّ ممّا تتصوّر، لأنّها كانت يتيمة وكانت تربيتي المحافظة تعتبر ما فعلته عيبًا كبيرًا. ولم يخفّف عنّي وطأة الإحساس بالذّنب إلّا علمي بأنّها كانت لها صلات مع شبّان آخرين وكانت الخادمات يشجّعنها على ذلك ويتواطأن معها بل يشاركنها أحيانًا بعض المغامرات. كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة. كان الجميع يعرف كلّ شيء ولكن سياسة الصّمت تسود».

- « ظننت سيرتها هذه قد طرأت بعد سفرك..

- «لماذا أكذب عليك بعد كلّ هذه السّنوات؟ أحدّثك حديث الصّديق لصديقه. ثمّ أذكر أنّ أبي راسلني وأنا في فرنسا ليبسط علي المسألة ويتّهمني بالتّعدّي على الحرمات وهدّدني بعقاب إلهي يحلّ بمن يضحك

على بنات الخلق واليتيمات.. لم أجبه وقتها، وتعمّدت البقاء في فرنسا خلال الصّيف لأعمل في حقول العنب أو لأسافر إلى بلدان أخرى. ولم أعد إلى تونس إلّا حين كذبوا عليّ بأنّ أبي على فراش الموت ويريد رؤيتي. حدّثت أبي وأنكرت الأمر جملة وتفصيلاً، وأجلسني مرغمًا مع الحاج الشّاذلي بن. ي. كرّرت الحكاية واتّهمت ابنته بالكذب والفساد الأخلاقي. أعلمته بأنّ الماء يجري تحت رجليه في غفلة منه. صدّقني. وبعدها علمت أنّه مات. لعلّه مات كمدًا بعد أن سمع روايتي لما وقع. كنت أدافع عن نفسي لأنّهم يريدونني تيّاسًا في حفل المحافظة على الأخلاق الحميدة وسمعة عائلة سي الشاذلي ومكانته الدّينيّة ومجده الأثيل. ربّما كنت سببًا في تزويجها من الدّرويش علالة أو سببًا في وفاة والدها. ولكنّني لا أريد أن أدفع فاتورة مبغى الحاج الشّاذلي، الكلّ دخل إليه مجانًا مرّات ومرّات».

- «يبدو أنّي أنا المغفّل الذي دفع الفواتير من طفولته».

- «ماذا تقصد؟..

- «حكاية طويلة.. تعود إلى الكأس المهشّمة التي سعيت إلى لملمتها فما استطعت..

- «إذن نتركها لزيارتي المقبلة؟ قد أعود في شهر نوفمبر لأدرّس في جامعة سوسة. أتعدني بسهرة مطوّلة؟».

- «طبعًا.. طبعًا.. إذا وجدتني حيًّا..

- «لا تقل هذا أيّها المتشائم. أنت في مفترق طرق وسيدلّك العقل الخالص الذي حدثتني عنه على أقوم المسالك».

- «قد يكون ملّ وقوفي بين الفينة والأخرى في مفترقات الطّرق».

- «على كلّ حال، أسافر بعد ساعات ولم أجمع بعد أغراضي. أنا فخور بك.. وبانكساراتك أيضًا».

كانا يتّجهان نحو باب الدار وبغتة سأل صلاح الدين الطلياني مبتسما:

- « ألا تريد أن تقضّي أيّاما معنا في سويسرا؟ «أنجيليكا» دائما تسأل عنك.. وتتذكّر ما بينكما.. لم تتزوّج إلى الآن مذ اغتيل زوجها».

وعد بالتفكير في الأمر وإن استبعده مبدئيّا فاحتضنه صلاح الدين قدّام الباب وكرّر له:

- «أنا فخور بأخي الأصغر الذي مازال طفلاً يحبّ الحياة».

وعلى عتبة الدار قال له مازحًا:

- «هل تأكّدت من انتصار الرّأسماليّة ومن الهزيمة النّكراء لاشتراكيّة الفقر والبؤس أيّها الحالم المخدوع؟».

ضحك عبد النّاصر لأوّل مرّة منذ وفاة الحاج محمود وأغلق الباب. تمتم في سرّه:

- «أنا أيضا فخور بك. لولاك لما كنتُ».

6

لم يكن عبد النّاصر يبالغ كثيرًا حين ربط وجوده بوجود أخيه. لقد كان عبد النّاصر مختلفًا في شكله عن بقيّة إخوته فهو أجملهم جميعًا منذ الصّغر حتى أنّ النّساء المقرّبات جدّا من الحاجّة زينب يسألنها:

- «من أين أتيت به؟».

كانت تداري ارتباكها بإجابة مازحة:

- « المصْمَصة الأخيرة قبل غلق المصنع».

وأحيانًا تلحّ إحدى البليدات في السّؤال بطريقة غير مباشرة تفسد بها المزحة: ولكنّك أنجبت يسر بعد عبد النّاصر». فتردّ عليها زينب بكلام يجمع بين الهزل والصّرامة التي تغلق بها الموضوع:

- «أتحدّث عن الذّكور أمّا الإناث فحتى القطط قادرة على إنجابهنّ».

ولكن النّساء ذهبن مذهبًا آخر أكثر معقوليّة مؤكّدات أنّ زينب توحّمت على إحدى الشّخصيات في قناة «الراي أونو» الإيطاليّة (قناة التلفزة الوحيدة التي كانت تصل البلاد بالإفرنج آنذاك) قد يكون أحد مذيعيها أو ممثّلا في أحد الشرطة التي بثّتها. فالحاج محمود من الأوائل الذين أدخلوا جهاز تلفاز إلى البيت في تلك السّنوات الأولى. غير أنّ بعض النّسوة الماكرات يصلحن هذا الخطأ الشّنيع لأنّه لا تطابق بين الوحم المفترض لزينب وتاريخ ميلاد عبد النّاصر سنة 1960 فقد كان الرّاديو وقتئذ هو أداة التّسلية والتّثقيف الشّعبي الوحيدة.

وتتدارك صاحبات المذهب الأوّل في تفسير ملامح عبد النّاصر الإيطاليّة بأنّ الحاج محمود، الموظّف الكبير بوزارة الماليّة وابن العائلة ذات الأصول التّركيّة، كان من الرّجال المتفتّحين الذين يخالطون الفرنسيّين واليهود والإيطاليّين والمالطيّين الميسورين ومن القلائل الذين تراهم دائمًا يحملون صحيفة بالفرنسيّة وهم عائدون من الشّغل في منتصف النّهار، ومن القلائل الذين كانوا يصطحبون زوجاتهم إلى السّينما، فلعلّ زينب توحّمت على أحد هؤلاء الفرنجة الذين التقتهم مع زوجها. وكانت زينب تكتفي عند إثارة مثل هذه الأحاديث بشيء من الانزعاج بالقول «ممكن...» و«ربّما...» و«يحتمل...» تقدّم أجوبة ملتبسة مرجعةً الأمر في نهاية المطاف إلى المشيئة الرّبّانيّة.

7

لا أعرف متى بدأ الجميع في العائلة الموسّعة وفي الحيّ ينادون عبد الناصر بالطّلياني. غير أنّ نسبته إلى برّ الطليان قويت وترسّخت على مرّ الأيّام وازدادت وضوحًا وتبلورا. وهذا أوّل اختلاف ميّز عبد النّاصر

داخل العائلة ولفت إليه الانتباه بحيث أصبح محطّ الأنظار منذ صغره.

وللطّفل في عائلاتنا مكانة ملتبسة لا تخلو من مفارقة. فهو من ناحية مهْملٌ عادة متروكٌ لحاله لا أحد من الكبار يبحث عنه إذا انزوى أو خرج للّعب مع أطفال الحيّ أو صعد إلى سطح البيت أو دخل إلى إحدى الغرف يفتّش في أغراض أخيه أو أخته أو أمّه وأبيه، وهو من ناحية ثانية محلّ عناية الجميع إذا أرادوا ملاعبة الصّبيان أو إذا أراد أحد إخوته الذين بلغوا سنّ المراهقة إثبات شخصيّته فيضربه معتقدًا أنّه يؤدّبه أو في أحسن الأحوال ينتصب له مربّيا يقرّعه إذا أخطأ أو يصيح في وجهه أو يعامله معاملة الخدم: «هات كأسًا من الماء»، «اِجلب لي حذائي من الغرفة الأخرى»، «بسرعة أحضر خبزتَيْن من الخبّاز».

ومن أطرف ما رواه عبد الناصر في هذا الصّدد أنه عندما كانت العائلة تستعدّ، ذات صائفة، للاصطياف في «حمّام الأنف» وجدت زينب البيت خاليًا من الأبناء والخدم ولم يتبقَّ فيه إلّا هو وهي وأبوه الذي دخل غرفة نومه ليخلد إلى قيلولته المعتادة. كانوا ينتظرون، في ما يتذكّر، سيّارة لتحملهم مع بعض الأدباش الأخرى إلى الضاحية الجنوبيّة. طلبت منه أمّه أن يذهب إلى بيت جدّته حيث تقطن خالته المطلّقة، وكانت هي أيضًا ذات جمال شبيه بجمال الإيطاليّات لم يفارقها البتّة حتى في شيخوختها. كان البيت على مسافة ربع ساعة. قالت زينب لابنها:

-«قل لخالتك أعطني قليلاً من السّواك واحتفظي بمن جاءك».

هرع طفل العاشرة تقريبًا لينفّذ تعليمات الأمّ. كان يجري لأنّه يريد أن يعود بسرعة حتى يذهب الجميع إلى دار «حمّام الأنف» بسرعةٍ أيضًا. وجد خالتَه متحلّقة مع جمعٍ من جاراتها في وسط الدّار يتحدّثن. أعاد على مسمعها الجملة كتلميذٍ نجيب حفظ درسَه عن ظهرِ قلب. لم يفهم حينها لِمَ انفجرت النّسوة ضحكًا. ظلّ متعجّبًا يجيل النّظر فيهن جميعًا.

أخذته خالته في أحضانها وظلّت تقبّله وتحادثه وتمسّح على شعره وتطيل الحديث إليه وتلاطفه. كان يحاول الإفلات منها ليأخذ السّواك ويعود بسرعة إلى أمّه فأطلقت سراحه قائلة:

-«قلْ لأمِّكَ، إذا وجدت السّواك حارًّا فلا تنسي في المرّة القادمة نصيبي منه».

لم تعطه خالته شيئا ولم يفهم من كلامهما شيئًا عَدَا ضحكات النّسوة التي كانت تشيّعه وهو يتّجه جريًا إلى السّقيفة ليغادر الدّارَ. عاد جريًا وظلّ يطرق الباب لدقائق حتى خَالَ أنّ أمَّهُ وأباه قد غادرَا إلى المصيف وتركاه.

فهم بعد مدّة طويلة حين استعاد، وهو كبير، هذه الحادثة ما وقع. ولكنّني سمعتها منه وهو يرويها لزينة طليقته حين ذكرت أمامه كرهها للسواك الحار.

8

ظلّ الطلياني الطّفل يرى في كلّ التّفاصيل التي تتعلّق بأخيه الأكبر أسرارًا يرغب في هتكها. كانت غرفته هي الغرفة الوحيدة التي تُغلق بالمفتاح ولا أحد يعرف ما فيها عَدَا الخادمة وأمّه التي تقتحم غرفة بكرها دون استئذان. كان الوحيد الذي يستطيع أن يدعوَ أصدقائه إلى البيت فيلتقون صيفًا أو شتاءً متى شاء في فضائه الخاصّ بالطّابق العلوي. وكان الوحيد الذي سمح له الأب بالسّفر قبل سنة الباكالوريا إلى فرنسا في العطلة الصّيفيّة.

والحقّ أنّ صلاح الدّين كان متفوّقًا في دراسته متأدّبًا، قليل الاختلاط بأترابه، حتّى أنّه قلّما يلعب الكرة مع أبناء الحيّ. لا يدخن ولا يثير مشاكل في البيت. يبدو هادئًا لا تُسمع منه إلّا كلمة نعم إذا أمرته أمّه أو خاطبه أبوه. ولد مثاليّ يحسد الأقرباءُ والجيرانُ العائلةَ عليه.

ورجّح عبد النّاصر حين بدأ يدرك الدّنيا وما فيها أنّه رُبِّيَ ليكون، في آن، أخًا أكبر يحترمه كلّ من في البيت وصورة مصغرة من الأب. وهو يعتقد جازما أنّ ذلك كان بتدبير من أمّه زينب، الفاتقة النّاطقة في البيت. وكان سي محمود يسايرها في ذلك إذ يتعمّد ترك مسافة بينه وبين الجميع ولا يتخاطب معهم إلّا عبر الأمّ مستثنيا عبد الناصر من هذه الوساطة.

لم يكن الأب فظًّا غليظًا ولم يره يومًا يهين أمّه أو يضربها على غرار ما كان يحصل في عائلات أخرى. ولكن الجميع في البيت يعرف أنّه منظّم كإيقاع عقارب السّاعة. ففي منتصف النّهار وعشرين دقيقة يدخل البيت فيجد طاولة الطّعام جاهزة. يتغدّى بمفرده وترافقه زينب لتقدّم له نشرة مفصّلة عن أحداث الصّباح. ثمّ يذهب إلى غرفته ليأخذ نصيبا من الراحة. وحينها على الجميع أن يلتزم الصمت. يصبح الكلام همسًا. تتوقّف الحركة تمامًا أو تصبح بطيئة عند الضرورة القصوى. والويل، كلّ الويل، لمن يزعج راحة الملك. ولا تعود الحياة إلى طبيعتها إلّا في حوالى السّاعة الواحدة والنّصف في فصل الشتاء. أمّا في الصّيف فيعدّلُ التّوقيتُ الصّيفيُّ الحياةَ في البيت على إيقاع قيلولة الملك التي تمتدّ في العادة إلى حدود الرّابعة والنّصف.

9

عندما سافر صلاح الدّين سنة 1966 إلى فرنسا، وهو في الثامنة عشرة من العمر، ليواصل دراسته كان عبد النّاصر في السادسة من العمر: صبيّ لا أحد يراقبه، لا يتذكّرونه إلّا قليلا ليقضي لهم شأنًا من شؤونهم الصّغيرة حين يغيب «بوك علي». و«بوك علي» هذا شخصيّة غامضة. كان يقطن في إحدى الغرف الصّغيرة وهو مكلّف بخدمة العائلة: يرافق عبد الناصر في طريق المدرسة عند الذهاب والعودة منذ أن بلغ السادسة. وعلاوة على

هذه المهمّة كان «بوك عليّ» يشتري من السّوق ما تحتاجه سيّدة البيت وما تطلبه العائلة. كان يأكل وحده في غرفته. لم يره اجتمع، ولو مرّة واحدة، مع بقيّة أفراد العائلة. كان دائم التردّد على المقهى بعد فراغه من شؤون البيت.

لا تُعرف عنه أخبار كثيرة، خصوصًا أنّه عاد إلى قريته حين كان عبد النّاصر في السّنة الرّابعة من التّعليم الابتدائي. عرف ذلك لأنّه تعلّم حينها، وهو في حوالي العاشرة من العمر، أن يذهب إلى مدرسته ويعود منها وحده أو مع أحد أبناء الحيّ.

ولكنّ المعلومات الشحيحة التي عنده حين رتّبها في ذهنه، وهو كبير، جعلته يخمّن أنّه من النّازحين الذين جاؤوا من إحدى قرى السّاحل لاستقبال الزّعيم بورقيبة يوم غرّة جوان 1955 في ميناء حلق الوادي عائدا من منفاه. والأرجح أنّه من الفلّاحين الفقراء الذين كان الدّستوريّون الميسورون يحشدونهم لملء الاجتماعات بالحضور، وربّما للحماية أو للتّصفيق وللقيام بالمهامّ الصّغيرة التي يحتاج إليها الحزب.

وقدّر عبد النّاصر، نظرًا إلى شحّ المعلومات والفكرة التي بناها عن حياة «بوك علي»، أنّه بقي في العاصمة كالمتشرّد ولم يكن أمثاله يطمعون من الحياة في أكثر ممّا يسدّ الرّمق ويضمن السيجارة والقهوة مقابل إسداء الخدمات التي يستنكف منها الأسياد الميسورون ومن هم دونهم بدرجة. لم يعرف، بل لم يسأل، كيف جاء «بوك علي» إلى بيتهم ولا من أين أتى. فلم يسمع أنّ له عائلة إلّا حين رآه يومًا يحمل حقيبة صغيرة، قيل له إنّه سيعود إلى «بلاده» ومن يومها انقطعت أخباره كلّيًّا. ولا شكّ أنّه الآن في عداد الأموات. فقد كان آنذاك أكبر من الحاج محمود، قريبًا من شيخوخة بادية عليه من مشيته.

كان «بوك علي» في خيال العائلة شخصًا يُضرب به المثل. فحين

يذهب الطلياني لينام دون أن يغسل رجليه أو يتكاسل عن غسل يديه بعد الطّعام أو يعود إلى البيت متّسخ الثّياب أو حين تحكّ له أخته جويدة جسمه في الحمّام وتجد ركبتيه متّسختين من أثر لعب الكجّة كثيرا ما كانت تردّد على مسامعه: «ما أكثر وسخك كأنّك بوك علي».

وكان يحلو له، وهو في الجامعة، أن يُكنّيَ من يراه من الطّلبة على حظٍّ وافر من القذارة بـــ« بوك علي». ولا أحد من رفاقه وأصدقائه فهم ما يقصد. فهم لا يعرفون قصّة المثل. ورغم ذلك تأثّر بها بعض رفاقه المقرَّبين فحملوها على وجوهٍ شتَّى بعضها مدحٌ وبعضها ذمٌّ.

ومن أغرب هذه التأويلات الباعثة على سوء التفاهم أنّ عبد النّاصر كان واقفا في اجتماع عام بكلّية الحقوق يستمع إلى خطبة إحدى المناضلات الخطيبات المصقعات، وما أقلّهن في تلك الفترة على الأقلّ!، في الجامعة. كانت تثير حماسة الطلبة ويرونها جميلة في سروالها «الدجينز» وصِدارِها الصّوفي المفلفل أو قميصها المتقادم، دون مكياج أو حتى كحل أو أحمر شفاه خفيف. لاحظ وهي في قميصها ذي الكمّ القصير أنّ على مرفقيْها اسودادًا بيّنًا وأنّ سروالها يحمل بقع زيت. فوشوش في أذن صديقه المناضل القاعدي المخلص للماركسيّة ابن التّاجر القادم من الآفاق:

- «تمتّع ببوك عليّ يخطب من أجل تحرير فلسطين والوحدة من المحيط إلى الخليج».

بعد الزوال، وهما عائدان من الاجتماع على متن الحافلة المخصّصة للطّلبة (« السبيسيال» كما يسمّونها) علّق الماركسي العربي هامسًا، من باب الحيطة من البوليس السّياسي كأنّه يتحدّث عن موعد بداية الثّورة ضدّ نظام بورقيبة:

- « خطاب الرّفيقة بوك علي كان رَوْعة. أليس كذلك؟».

- «عمّن تتحدّث؟».

- «عن الرّفيقة التي قلت لي إنّ اسمها الحركي بوك علي..

التفت ركّاب الحافلة كلّهم إليهما عندما فرقعت قهقهات عبد الناصر وهو يمسك ببطنه، يتلوّى، ويكاد يسقط أرضًا. حنق عليه الصّديقُ وهمّ بضربه متعجّبًا من ضحكه غير المبرّر. ولمّا أنهى عبد الناصر ضحكه الهستيري لم يستطع أن يفسّر له شيئًا وإنّما حاول إفهامه أنّه ليس هو المقصود بذلك إذ لم يتلفّظ بما يستدعي الضحك وإنّما تذكّر نكتة رواها له على سبيل الاستدراك. لم يبتسم الماركسيّ العربيّ وإنّما علّق ببلادة المناضلين الصّادقين وهو ينظر إليه مشمئزًّا:

-«هذه النّكت البذيئة لا تليق بالمناضلين.. إنّها أخلاق البرجوازيّة الصّغيرة المتعفّنة».

10

عندما سافر صلاح الدّين ظلّت غرفته مغلقة. ولكنّ أمّه تمكّن «يامينة» (واسمها الحقيقيّ «غزالة») الخادمة من المفتاح أحيانًا لتهوئة الغرفة ونفض الغبار لتظلّ دائمًا نظيفة مرتّبة. فربّما عاد صلاح الدّين دون سابق إعلام ولا يجوز أن يجد غرفته في حالة غير لائقة بأحد الرّجال المهمّين في تونس كلّها، بما أنّ الدّولة، وما أدراك ما الدولة، أرسلته إلى فرنسا، وما أدراك ما فرنسا. ومهما يكن من أمر فصلاح الدّين أهمّ شخص في العائلة ويعلم الجميع أنّ محلّه في قلب زينب قبل زوجها محمود وإن لم يجرؤ أحد على التصريح بذلك.

تفطّن عبد النّاصر، خلال إحدى حملات تفتيشه التي كانت تعنّ له دون سابق إنذار، إلى وجود المفتاح في إناء رجّح أنّه مجعول لوضع الحلوى أو السكّر. كان إناء من البلّور الموشّى بالفضّة ضمن مجموعة

من الكؤوس الموحّدة الزينة، الكبيرة مخصّصة للشاي الأخضر والأصغر مخصّصة للشّاي الأحمر وتعرف بالكؤوس الطرابلسيّة. كان هذا الإناء وتلك الكؤوس مرصوفة بعناية وذوق في طبق فضّيٍّ. ومن حسن حظّه أنّه نظر إلى الطّبق وإلّا ما كان ليجد المفتاح أبدًا. فهو ينزع إلى البحث في الدّواخل، في الأدراج، تحت الحشايا والزّوايا الخفيّة ولم يكن يتصوّر أنّ مفتاحًا بمثل تلك القيمة سيترك مبذولاً، تقريبًا، للجميع في طبق كؤوس الشّاي التي لم يرها تُستَعْمل أبدًا. ولكنّه اعتبر ذلك مظهرًا من مظاهر ذكاء الأمّ في إخفاء ما تريد إخفاءه. فهي خبيرة في علم التّورية والتّغطية. لقد وضعت المفتاح أسفل الإناء لا تراه العين من خلال الزّجاج الذي يعلوه.

بهدوء تامّ، دسّ المفتاح في جيبه وخطّط لغزو «قلعة صلاح الدّين» أثناء القيلولة حين يكون الجميع نائمًا أو صامتًا خوفًا من إزعاج «سي محمود». أمّا هو فكانت أمّه تنعته بـ«شيطان القيلولة». لا ينام ولا يحبّ من يجبره على النّوم في تلك السّاعات. إنّها ساعات يختلي فيها بنفسه ويفعل ما يريد دون رقيب.

بيد أنّ خيبته كانت كبيرة. فلم يكن في القعلة أسرار عدا ما يراه حين يدخل إليها بصفة عاديّة. فتح الدّولاب ونظر في كلّ الأماكن التي يمكن أن تُخفى فيها الأشياء: تحت السّرير، وراء الخزانةِ، فوقها، في الحقيبة، في المحفظة، في أدراج المكتب... لا شيء فيه طعم المفاجأة.

لا شيء يستحقّ الذّكر. كتبٌ أغلبها بالفرنسيّة كان عبد النّاصر يتهجّى عناوينها دون أن يفهم منها شيئًا، أوراقٌ كثيرة وصورٌ وكليشهات مصفرّةٌ شفّافة وجّهها إلى شبّاك «البرمقلي» الذي تتسرّب منه أشعّة الشمس يتطلّع إلى ما فيها فلا يتبيّن إلّا وجوها غامضة. عرف، بعد لأي، بعض أبناء الحيّ وخمّن أنّ البعض الآخر هم زملاء دراسة.

أكثر ما في وثائق صلاح الدّين ركام من الأوراق المكتوبة بالفرنسيّة

بخطّه الجميل «النّظيف» الذي يشبه خطّ أبيه. كراريس قديمة بأغلفة مهترئة من مخلّفات سنوات الدّراسة، مجموعة من شهادات الاستحسان والتقدير مرصّفة بعناية في ملفّ أصفر صقيل، مجموعة من المجلاّت وملفّات فيها قصاصات من الصّحف وصور لاعبي كرة القدم لفريق صلاح الدّين المفضل: النّادي الإفريقي.

لِمَ يغلقون الغرفة إذن؟ ربّما السّبب الوحيد الذي يمكن أن يفسّر هذه الهالة التي تحيط بالقلعة هو مجموعة إسطوانات الموسيقى ذات الحجميْن الصّغير والكبير وآلة قراءة هذه «الصّحون»،كما تحبّ العائلة أن تسمّيها، وضعت بمهابة وفخامة لا تخطئهما العين على طاولة متوسّطة الحجم في ركن من أركان الغرفة قريب من شبّاك «البرمقلي» بجوار كرسي هزّاز.

ورغم هذه الخيبة، خيبة العثور على سرّ مهمّ افترضه عبد النّاصر، فقد صمّم الصّبيّ آنذاك على أن يكون له عالمه الخاصّ وأشياؤه الصّغيرة التي لا يطّلع عليها أحدٌ، ربّما أدرك أنّ الأسرار التي تشدّ النّاسَ إلى المرء لا تكتسب قيمتها من ذاتها، مثل التّفاهات التي في غرفة أخيه، بل تكتسبها من إخفائها عن أعين الفضوليّين أمثاله.

فهم لاحقًا، حين كبر واختلط بأنداده في المعهد والجامعة، أنّ «غزوة القلعة» فتحت له طريق الفن والموسيقى. فقد كان يعرف من أنماط الموسيقى ما لا يعرفه الآخرون بعد أن استمع إلى تلك التّسجيلات في غرفة أخيه إثر اتّفاق تاريخيّ وقّعه مع الآمرة النّاهية في البيت، أمّه زينب. صارت، بطلب منه بعد أن كبر قليلاً، تمكّنه من المفتاح لساعة أو ساعتيْن حتى يستمع إلى الموسيقى ويستمتع بها. لم يحبَّ كلّ ما في تلك الإسطوانات ولكنّه كان يجبر نفسه على أن يسمعها جالسًا على الكرسيّ الهزّاز، فأيّة متعة يشعر بها في تلك الجلسة! حين يكون متلبّسًا شخصيّة

أخيه المسافر، حالمًا بأن يكون مثله. وكم أحبّ خلال جلسات الإصغاء إلى الموسيقى والتّماثل مع الغائب المسافر موسيقى الجاز أكثر من غيرها من أنواع الموسيقى.

وحين بلغ عبد النّاصر الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره، وبعد أن تأكّد الجميع أنّ صلاح الدّين لن يعود إلى غرفته، سلّمت له مفاتيح القلعة ليصبح سيّدها عن جدارة. فقد لاحظت لها صاحبة الحمّام، قبل ذلك بسنة تقريبا، أنّ الصّبيّ أصبح يتطلّع إلى المستحمّات ويسترق النظر والسمع إليهن في لهوهنّ وعبثهنّ، ولم يعد من الممكن قبوله مع الأمّ وبناتها الأربع عشية يوم الجمعة، الموعد الأسبوعي لطهارتهنّ الكبرى.

كان عبد النّاصر ما يزال طفلاً في عيون أمّه وإخوته ولكنّه كان شابّا يتّقد شهوةً، في عيون الأخريات. ثمّ إنّه غدا فتنة للنّساء والفتيات بسبب ملاحة وجهه وقسماته وابتسامته المرسومة على شفتيه وعينيه الأخّاذتين ونظرته الساحرة وهيبته التي تسمّيها النسوة في حيّنا «ريشة». كان القرار حاسما «لا سبيل لترك الدّيك سارحًا بين الدّجاج».

11

قرّرت زينب أن يستقلّ الفتى في غرفة أخيه في الطّابق العلوي لتبقى الدّجاجات الأربع في الغرفتيْن الأخرييْن في الطّابق السّفليّ. يومها شعر عبد النّاصر بشيء من الاستقلال عن العائلة. قَبِلَ الوضع الجديد الذي كان يتمنّاه في سرّه بكثير من النّخوة والنّشوة إذ عليه أن يصنع أسراره بنفسه. أصبح يرفض أن تلمسه إحدى أخواته أو أن تدخل عليه غرفته دون طرق الباب أو أن ترتّب فراشه أو أن تنظّف الأرضيّة وتزيل الغبار. وحدها يامينة التي يتعمّد أن يناديها دون بقية أفراد العائلة «غزالة» تفعل ذلك بحضوره وحين يطلبها قبل أن تتكفّل بهذه المسائل الخاصة بالغرفة،

في فترة من حياته، للّا جنينة. أمّا الحمّام فقد تغيّر موعده منذ سنة أو سنتيْن ليصبح يوم الأحد من كل أسبوع رفقة سي محمود.

أصبحت الأمّ، وهي الوحيدة التي تقتحم الغرفة اقتحامًا فلا تعترف بأسرار ولا تطرق بابًا، تصرخ في وجهه باستمرار «ما هذه الفوضى! أيّة حالة مُكرِبة!» أو «اِجمع ملابسك، كيف تتركها على أرضيّة الغرفة؟» أو «حديثي لا فائدة منه لقد أصبحت خليفة بوك علي«أو» ما هذا؟ وسادة فحّام أم وسادة ولد سي محمود؟» أو «ياربّي، متى يصبح هذا الخنزير بشرًا مثل بقيّة الخلق» أو «ياحسرة، غرفة صلاح الدّين أصبحت قنّ دجاج»... وغير هذا كثير من التّعليقات التي تتفنّن زينب في استنباطها وتدعو سي محمود إلى تقريعه.

بيد أنّ الولد لم يعد يقبل الإهانة. فبقدر ما كان متأدّبًا أمام كبار الحيّ والعائلة فإنّه لا يسكت عن تحقير أمّه له. وهو أوّل شخص في البيت تجرّأ عليها وأطاح بسلطتها المطلقة. كان يردّ على كلامها بحدّة تناسب عنفها: «غرفتي وأنا حرٌّ فيها» أو «أحبّ الأوساخ. اُتركوني وشأني وإلّا غادرت البيت دون رجعة».

فهمت الأمّ، بحدسها وتجربتها، أنّها أمام صبيٍّ من طينة مختلفة. قاومت في البداية حفاظًا على سلطتها المهدّدة، ثمّ غيّرت خطّتها، بعد ملاسنات عديدة. صارت تتجنّب مواجهته وتحرّض سي محمود عليه. انصاع لها، على مضض، متصنّعًا تقريع عبد النّاصر. ولكن ما خفيَ عن الأمّ أنّ الأب قد اتّفق سرًّا مع ابنه على أن يقبل منه التّقريع وغليظ التّوبيخ وأن يكتفيَ أمام الأمّ الحديديّة بتقديم فروض الطّاعة للأب. كان ذلك في أحد مواعيدهما الأسبوعيّة إلى الحمّام. ولم يفهم عبد النّاصر إلى الآن لِمَ فعل الأب ذلك. فقد اعتبره في البداية تواطؤًا بين رجليْن يقوم على توازن دقيق بين دور الأب ودور الصّديق.

استمرّ الأمر على تلك الحال سنوات عديدة. فسّر عبد الناصر ذلك بثقافة أبيه التي تميل إلى الأخذ بالنّمط الغربي في التّربية. ثمّ رأى أنّ السّبب الحقيقي هو أنّ سي محمود لم يكن يرى في سلوك ابنه ما يشينه رغم حرصه على نظافته ونظامه ورغم إفراط الأب في التّأنّق والحفاظ على الصّورة الإيجابيّة لموظّف كبير في الدّولة وسليل عائلة تركيّة. ولكنّه ظلّ إلى الآن يعتبر موقفه ملتبسًا يجمع، على الأرجح، بين الشّماتة بهذه الأمّ التي تحشر أنفها في كلّ شيء وتريد أن يكون الجميع، بما في ذلك سي محمود، طوع إشارتها وبين تجنّب أوجاع الرّأس كجلّ الرّجال المتبرّمين من هذه التّفاهات. لذلك اعتقد عبد الناصر أنّ هذا التفاهم جنب سي محمود الدخول في صراع مع الابن الوحيد الذي بقيَ في البيت ويحتاج إلى أن يصنع شخصيّته. وقد سمع أكثر من مرّة الأمّ تلوم الأب، بحدّة أحيانًا:

- «ستضيّع ابنك إذا لم تقف له وتواجهه بشِدّة..

وكان يجيبها بلطف في هدوء:

- «مازال صغيرًا يا زينب، القوّة لا تنفع لا بدّ من النّصح والتوجيه الرفيق فالمولى يقول في كتابه العزيز...

كان يذكر آية أو مثلاً أو بيتَ شعرٍ أو كلاما بمعناه لا بلفظه ولا صلة لما يقول بموضوع المحادثة أو التّربية في الغالب. فتسكت مغلوبةً على أمرها أمام حجّة دامغة قاطعة.

فهمت الأمّ بعد مناورات ومعاودات أنّها لن تستطيع السّيطرة على الوضع لا بتهجّماتها المباشرة ولا من خلال مخالب الأب، قطّ الدّار الكبير. وكانت آخر محاولاتها اعتماد قاعدة معروفة لدى النّسوة مفادها «إيّاك أعني واسمعي يا جارة». ولكن اللّعبة فشلت وتهافتت القاعدة بسبب قلّة الفرص التي يتيحها عبد النّاصر للاجتماع بأفراد العائلة،

بعضهم أو كلّهم. فقد أعلن استقلاله على مراحل إلى أن قطع تقريبًا كلّ الصّلات بهم بما في ذلك الذّهاب يوم الأحد إلى الحمّام مع الأب. وحين تشرع الأمّ في ممارسة هوايتها في التّوبيخ أو النّصح أو التّقريع غير المباشر ينتصب الطلياني واقفًا ويضع يديه في جيبي سرواله مدندنا بأغنية فرنسيّة أو لحن أو يأخذ في التّصفير ويغادر البيت أو يصعد إلى غرفته أو ينادي أخته يسر لتقضي له شأنًا من شؤونه.

كبر الولد النّزق، وفهمت الأمّ أنّ المواصلة على هذا الدّرب ستفقدها هيبتها في مملكتها. ويبدو أنّها قرّرت التّخلّي عن إمارة صغيرة أعلنت استقلالها. كانت تقول لبناتها وللعائلة المقرّبة: «لم يعد يعنيني أمر ولد الحرام». كنَّ يستغربنَ موقف المرأة القويّة ولا يجبنها إلّا بالدعاء «ربّي يهدي» أو «مازال صغيرا» أو «هكذا هم أولاد هذه الأيّام» أو «تربية الذّكور دائمًا صعبة».. غير أنّ تسلسل الحديث واضح ضمن خطاطة معروفة تنتهي بالاستشهاد بابن الحلال الولد الصالح صلاح الدّين النّظيف المهذّب الذي شرّف العائلة بنبوغه وها هو يعدّ الدّكتوراه ولا عجب أن يكون وزيرًا من وزراء بورقيبة.

ولا تتوتّر الأوضاع وتنكسر مراحل الخطاطة إلّا إذا كانت الخالة آسية حاضرة فتردّ عليها بغضب وحزم:

- «ولد الحرام؟! كيف تتحدّثين عن عبد النّاصر بهذه الطّريقة؟ دعيه يكبر بعيدًا عن صلفك وعنجهيّتك. أفيقي يا بنت الحلال ولا تكرّري مثل هذه البذاءات... والله والله لن أضع رجلي هنا أبدًا لو أعدت مثل هذا الكلام الفاسد عن عبد النّاصر».

ولمّا تنهض الخالة من جلستها لتسوّيَ «السّفساري» وتهمّ بمغادرة البيت تفزع زينب لتثنيها عن عزمها وقد أصبحت في موقع ضعف تسعى إلى إخفائه بلهجتها الحازمة وهي تخاطب أختها:

-«اِجلسي، كفاك غباء، كلمة وتقال.. إنّه يعز عليّ. فهل حرقك عليه الحليب؟ أعرف أنكِ تفضلينه على صلاح الدّين اِبقي... وانزعي السّفساري.. أجننت؟ عندي أشياء أريد أن أحدّثك عنها وأخرى أريد أن أستشيرك بشأنها..

سمع عبد النّاصر ذلك، مرّة، دون أن تتفطّن أيّ منهما إلى وجوده في غرفته. وقد كانتا متحلّقتين وسط الدّار ذات عشيّة من عشايا الصّيف مع جمع من الجارات. وسمع أيضًا النّكت الخضراء التي كانت ترويها آسية وبعض النّسوة الحاضرات. كان يضحك خصوصا من نكات آسية، خالته التي يميل إليها ميلاً غير طبيعي. فكم تمنى لو كانت آسية أمّه!

12

لم تكن الخالة آسية الوحيدة التي تدافع عن الطفل النزق. فقد صارت الجارة جنينة زوجة الإمام علّالة واحدة من بنات الدار. كان ذلك بعد يوم مشهود توّج الخصومات اليوميّة بين جنينة وزوجها. كادت، يومها، تقتل علّالة الدرويش فتدخّلت زينب محرّضة الحاج محمود لدرء الفضيحة. كانت صفقة، ولا شكّ، عقدها الحاجّ مع علّالة ودبّرتها الأمّ. لم يكن الطلياني يعرف تفاصيلها ولكنّه رأى نتائجها: للّا جنينة في دار سي محمود وعلّالة في دار المرحوم الحاج الشّاذلي. ساد الهدوء الزّقاق والدّاريْن.

كان الطلياني أكبر مستفيد من هذه الصّفقة. فقد تخلّص من غلظة أخته جويدة بما أنّ جنينة هي التي أصبحت تعتني به حتى في اغتساله وتدلّله وتشبعه قبلات حارّة وتضعه بين يديها وفي حجرها وتلاعبه.

وكانت للّا جنينة تغطّي على شقاوة الفتى وتتواطأ معه في مغامراته لسرقة الشّوكولاطة أو «الشّاميّة» أو غيرها من الحلويّات التي لا تعطيه

منها الحاجّة زينب إلّا بمقدار بتعلّة أنّها تفسد صحّته. وإذا تفطّنت إحدى أخواته أو أمّه لبعض مكائده ومخالفاته لقوانين الدّار الصّارمة التجأ إلى حاميته وراعيته الجديدة جنينة لتدافع عنه وتنجده.

يذكر عبد النّاصر أنّ تلك السّنوات كانت أحلى سنوات عمره. فلمّا كثرت انتقادات أمّه وأخته الكبرى والخادمة لإهماله وكثرة الأوساخ في غرفته أصبحت للّا جنينة هي الوحيدة التي يحقّ لها دخول تلك الغرفة.

في تلك الأيّام بدأ يعرف الرّوائح التي حدّثني عنها يوم وفاة الحاج محمود، وعرف بالخصوص رائحة جنينة باعتبارها خلاصة روح الأرواح. بدأ كلّ شيء بطريقة طبيعيّة دون أن يشعر بتغيير ما. كان ذلك كتسرّب قطرات ماء في شقوق السّقف فتتّسع بقعة من آثارها وتظلّ تكبر وتكبر إلى أن ينزل مدرارًا.

أسرّ لي عبد النّاصر أنّها كانت تجلس قربه تتأمّله وهو يراجع دروسه أو يعدّ فرضًا من فروضه المنزليّة. تنظر إليه بعينين ساهمتين أحيانا، حالمتين أحيانا أخرى. تبتسم له. تشرد ثمّ تعود لتتأمّله. لم يفهم عبد النّاصر، وقتها، لِمَ كانت تفعل ذلك ولكنّه كان يحبّ منها ما تفعل. وأحيانًا تدعوه إلى أن يلعبا لعبة الطّبيب والمريض. يتبادلان الأدوار. يصطنعان آلات الطّبيب ممّا يتوفر في البيت: ملعقة القهوة للتّثبّت من احمرار اللّوزتين، ملعقة الطّعام لجسّ النبض في اليد، حبل صغير بسدّادتين من الفلّين ومسمارين يشدّهما إلى طرف الحبل حتى تكون السّمّاعة جاهزة للاستعمال.

شيئًا فشيئًا أصبحت للّا جنينة تزيد من احتضانه وتُسرف في تقبيله، وهو ابن الرابعة أو الخامسة عشرة من العمر، في البداية كانت تقبّله،كعادتها منذ صغره، من خدّيْه ورقبته. لكن شفتاها وهي تقبّله صارتا كتلتين من لهب تلسعانه لسعًا لذيذًا. ثم ما عادت تكتفي بالتّقبيل البارد بل تمتصّ رقبته برقّة أحيانًا وبعنف أحيانًا أخرى، عنفٍ محبّبٍ لديه. وبين

حين وآخر راحت تمر بشفتيها أو بلسانها على شفتيه ووقد أعجبه ذلك وأثار فيه مشاعر لم يسبق له أن عرفها فكان يتلمّض بقايا رضابها. بادر مرّة بتقبيلها على شفتيها مستخدماً لسانه فقبلت منه ذلك راضية مرضية.

اكتشف أنّ لعبة الطبيب والمريض صارت أكثر جدّيّة من ذي قبل. صار الطبيب يَكشف صدر للّا جنينة ويتلمّس التفاحتين ويجوس في اللّحم البض. يقلبها فوق السرير ليستمع إلى دقّات قلبها متأمّلاً الظهر المرمريّ. كان حين يمرّر يديه على المرمر أو يضغط على التفّاح تسري في جسمها قشعريرة فيحسّ بحرارة وتوتّر في جسمه. كان وجهه يحمرّ خجلا في البداية ثمّ زالت الحمرة بمرور الأيّام وتكرار اللّعبة.

ذهبت للّا جنينة في طبّها أشواطا أخرى وجاست مناطق لم تخطر له على بال.

لاحظ عبد النّاصر أنّ ما بين فخذيه أصبح يتمدّد وينتفخ. كان يداريه عن عيني جنينة التي سرعان ما تفطّنت إلى ما كان يخفي. استغلّت فرصة اللّعب مرّة وقالت له إنّ مرضه هذه المرّة في «بْنيّته» كما اعتادت على أن تكنّي آلته. كادت تلتهم شفتيه التهامًا. مرّغت صدرها الممتلئ في جسده المتّقد شهوة، غرست رأسه بين النّهدين. لم تترك موضعا في جسد الصبيّ لم تمرّر عليه لسانها. كان ينظر إليها وقد أخذته رعدة، شعر بارتعاشة ورغبة في التّبوّل. أراد إيقاف كلّ شيء. ولكنّ الأمر كان قد قضي. قرّبت وجهها من وجهه مبتسمة ابتسامة تجمع المكر إلى الغنج.

شعر باسترخاء ولم تفارقه الرّعشة. ضمّته إليها تعانقه بقوّة. نظر إليها فرأى دمعات تنزل من عينيها المحمرّتين. سألها ما بها. تردّدت في الإجابة ثمّ سكتت.

ومن يومها بدأ الطلياني يتعلّم على يديْ للّا جنينة ألوانا من فنون الجسد مختلفة. كانت معلّمة ماهرة لم تخف عليه أيّ شيء ولم تبخل

عليه. أحسّ أحيانًا بالتّخمة فقد كانت جنينة نهمة شرهة خصوصًا إذا أخطأت في اسمه ودعته باسم صلاح (تقصد صلاح الدّين). لم يكن يغضب حين تغلط ذلك الغلط وتخلط بين الاسمين. فهو يحبّ أخاه صلاح الدّين ويراه في كلّ زاوية من الغرفة.

وقد تفطّن بعد مدّة أنّ للّا جنينة، حتّى بعد أن عادت إلى بيتها، ورثة أخرى تركها له صلاح الدّين كما ترك الإسطوانات وآلة الاستماع وبعض الكتب والمجلّات والكراريس وذاك الكرسي الهزّاز... والغرفة في الطّابق العلويّ.

13

أصبحت لعبد الناصر مملكته الخاصّة معلنا من خلالها استقلاله عن نساء البيت الشرسات عدا الصغرى يسر أحبّهنّ إلى قلبه.

في تلك الغرفة المستقلّة بدأت علاقتي بالطلياني تتوطّد. فنحن من حيّ واحد تجمعنا الألعاب في الحيّ والمدرسة ويربطنا، بوثاق صداقة خالصة، تبادل الأسرار واستكشاف الحياة. وأعترف أنّني كنت أترك لعبد الناصر المبادرة في كلّ شيء لطبع فيّ ميّال إلى الملاحظة والصمت والمشاركة في المحادثات بمقدار. وما أزال إلى الآن «سلبيّا» و«امتثاليّا» كما كان يقول عني عبد الناصر دائما. لم يكن ذلك يزعجني منه. فحتّى قبل أن ألتحق بقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة 9 أفريل بتونس العاصمة، إثر حصولي على شهادة الباكالوريا، كنت أنظر إلى الحياة بشيء من الفلسفة كما يقال، راضيا بما يتوفّر لي لا أتبرّم البتّة من وضعي ولا يثيرني جديدٌ مغرٍ. هكذا خلقت وعلى هذا سرت حياتي كلّها.

ولست أنسى فضل عبد الناصر عليّ. فقد جعلني حافظ أسراره. كان يحدّثني عن كلّ شيء تقريبا، يبثّ إليّ هواجسه ويشركني في مناوراته

وألاعيبه ويُعلمني بمخطّطاته، وما أكثرها!. والمرجّح عندي، حين أتذكّر أحداثا كثيرة، أنّه وجدني عجينة طيّعة بين يديه فنمّى من خلالي موهبته الفطريّة في قيادة الناس.

خطر له، ونحن تلاميذ، أن ينشئ في غرفته ناديا للفن والمطالعة. فقد كان الصيف، بنهاراته الطويلة، ثقيلا على النفس. كنّا نشارك أبناء الحيّ كرة القدم ولم يعد لعب الكجّة أو الخذروف يليق بنا وقد أصبحنا من روّاد المعاهد الثانويّة.

يبدأ الحفل في الصباح بحصّة إنصات إلى الموسيقى. يضع كلّ يوم إسطوانة من الإسطوانات التي تركها صلاح الدين في الغرفة. ثمّ صرنا نضع أشرطة سجّلت عليها أغاني فيروز والشيخ إمام وليو فيري وجان فيرا وجاك برال وغيرهم في آلة التسجيل التي كنت أجلبها من بيتنا خفية.

كنّا أربعة أنفار نستمتع، أوّل الأمر بقراءة الشعر باللّغتين العربيّة والفرنسيّة بأداء تمثيليّ. ويختار كلّ واحد منّا مقاطع من رواية أعجبته نتناقش في شأنها. ولكنّ التحوّل الأوّل الكبير في نادي الفنّ والمطالعة بدار الحاج محمود حدث يوم أحضر لنا عبد الناصر، في الصائفة الموالية، رواية بعنوان «الأمّ» لكاتب روسيّ لم نسمع باسمه في مقرّراتنا المدرسيّة.

اقترح علينا الطلياني، يوما، أن نصبح فلاسفة! فتحوّل نادي الفن والمطالعة إلى حلقة الفلاسفة المبتدئين. كنا نقرأ جماعيّا ويوميّا طيلة تلك الصائفة كتابا ضخما، أو كنا نراه ضخما، لجورج بوليتزر. وكان علينا أن نلخص في كرّاس أهمّ ما فيه بعد أن أصبحنا نجلس من عبد الناصر مجلس التلاميذ. لقد كان أدقّنا فهما وأكثرنا حماسا.

لم أكن أجادله وإن كان الكثير ممّا سمعته لا يروق لي ولا يجد في قلبي وعقلي مكانا. كنت أشعر أحيانا بأنّ هذه الفلسفة تخيفني. وحمدت اللّه أنّ العودة المدرسيّة كانت على الأبواب وستغلق مدرسة عبد الناصر

الحرّة للفلسفة أبوابها رغم تواعدنا على مواصلة الدراسة مساء السبت من كلّ أسبوع أثناء السنة الدراسيّة.

وقد أسرّ لي الطلياني، بعد زمن، أنّه كان يتزوّد بالكتب التي بدت لنا، أوّل الأمر، غريبة من أستاذ في معهدنا يدرّس الفرنسيّة. فقد انتبه إلى ما يتمتّع به عبد الناصر من اتقاد ذهن ونزوع إلى التمرّد واستعداد للمعرفة فعمل على تشجيعه خارج الدرس وظلّ يمدّه بتلك الكتب الغريبة. وما أخفاه عبد الناصر علينا أنّ الأستاذ فتحي. ك كان يجمع بدوره، خلال السنة الدراسيّة، بعض التلاميذ في بيته القريب من حيّنا، حيّ باب الجديد، ومنهم عبد الناصر ليتحدّثوا في الثقافة والأدب والسياسة. وقد علمت أنّ أستاذنا فتحي سُجن، بعد أحداث 26 جانفي 1978، في ما كان يسمّى بقضيّة جريدة الشعب السرّيّة الناطقة باسم الاتّحاد العام التونسي للشغل في السرّيّة. ولم يعد من الصعب أن أستنتج أنّه هو الذي ضمّ عبد الناصر إلى التنظيم السرّيّ.

عدنا إلى الدراسة وتفرّق الفلاسفة بعد أن انشغل عنّا الطلياني بصداقات جديدة. لكنّنا ظللنا نلتقي في المعهد أو في الطريق إليه إلى أن اختار كلّ واحد منّا سبيله بعد نيل شهادة الباكالوريا.

اخترت الفلسفة بتأثير منه أساسا ولكنّه راوغني واختار الحقوق. كان يريد أن يصبح محاميا رغم إلحاح صلاح الدين عليه بأن يختار إدارة الأعمال أو التجارة ورغم رغبة أبيه في أن يدرس الطبّ بعد أن اطّلع على كشف أعداده وتبيّن أنّ درجاته المتميّزة تسمح له بأن يلتحق بأيّ قسم شاء في الجامعات التونسيّة. لكنّ الطلياني كالنهر الجاري يحفر مجراه بمائه المتدفّق الهادر لا يوقفه شيء.

المنعَرَج

1

جمع عبد الناصر، إثر لقائه بالرفيق الأستاذ المحامي، قلب التّنظيم للتّباحث في المسألة. كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة مساء، الموعد المحدّد للاجتماع في شقّة نجم الدّين بحيّ «الزّهروني» الشعبيّ. كلّهم يعرفون ما ينبغي اتّخاذه من احتياطات أمنيّة فالحذر واجب خصوصًا أنّ الملاحقات الأمنيّة كانت على أشُدِّها.

كانوا أربعة من الموثوق بهم. وخامسهم عبد النّاصر. قدّم لهم عرضًا عن المسألة وعمّا دار بينه وبين زينة من جهة وبين الرّفيق منظّر الحركة من جهةٍ أخرى. ساد الوجوم في البداية. بدا الجميع يفكّر في الأمر، يقلّبه على وجوهه.

تكلّم نبيل فاعتبر أنّ زينة ليست عدوًّا وما يطلبه الرفيق المحامي بمثابة الهجوم على ذبابة بدبّابة. وحذّر يوسف من الوقوع في وحل الفوضويّة المقيتة. ولمّا تكلّم جعفر بسخريته المعهودة طلب التحاق الجميع، أسوة بالرّفيق الأكبر المحامي الجهبذ، بجنوب لبنان للتدرّب على تصفية زينة.

الوحيد الذي لم يتكلّم، وكان بطبعه قليل الكلام، هو الرّفيق رضا. سأله عبد النّاصر عن موقفه فأجاب:

– «أنتم رفاقي وأحبابي. تجمعنا مبادئ مشتركة شربنا الماء وأكلنا الخبز معًا. أرجو منكم إعفائي من الحديث في المسألة».

بعد إلحاح وتردّدٍ، ذكر رضا لهم أنّه يعرف زينة منذ أيّام الدّراسة الثّانويّة بحكم الجوار بين قريتيْهِمَا والدّراسة بالمعهد نفسه. كان يخشى، حسب ادّعائه، أن يكون تقييمه ذاتيًّا. قفز جعفر ووجّه سبّابته نحوه قائلاً وهو يضحك:

- «أُقْسِمُ لكم بالرّفيق ستالين أنّ هذا الفتى يعشق زينة مذ كان تلميذًا».

ضحكوا فاحمرّ وجهُ رضا الذي لم يجد ما يردّ به. فقال العبارةَ الشّهيرةَ عندهم:

- «اِنضبطْ يا رفيق».

فهم عبد النّاصر أنّ كلام جعفر قد أحرج رضا. فوجّه كلامَه إليه قائلاً:

- «إنّها مجرّد مزحة. لا يقصد جعفر أيّ شيء».

أراد أن يعود إلى الموضوع بطريقةٍ أخرى:

- «لم أكن أعرف أنك تعرف زينة. إذن أنرْنا بما تعرف عنها».

2

كانت زينة، في جميع التّحرّكات التّلمذيّة في المعهد الصّغير وفي المبيت، رأسَ الحربة. تخطب في التلاميذ فتسحرهم وتبيّن لهم ما ينبغي فعله ومتى يبدأ التّحرّك ومتى يجب إيقافه. طُرِدَتْ من المعهد على خلفيّة بعض نشاطاتها في مطلع الثمانينات للمطالبة بنقابة لأبناء المعاهد ولكنّ نجابتها وحبّ الأساتذة جميعًا لها وتميّزها عن بقيّة التّلاميذ كان دائمًا ينقذها من الطّرد. كانت معروفة كذلك بمشاكستها وعدم سكوتها عن الحقّ وحمايتها للتّلاميذ الجدد في المبيت.

ومن مآثر نضالاتها أنّها تجرّأت على القيّم العام الذي كان يغازل الفتيات الرّيفيّات الجديدات ويسعى إلى الإيقاع بهن مستغلاّ رغبتهنّ في

الزّواج من أيّ كان خصوصًا إذا كان ذا وظيفة مثل القيّم العام. وهو رجلٌ شاذٌّ يعتقد أنّ الفتيات في المبيت جَوَارٍ له. اتّصلت بنقابة الأساتذة ونبّهتهم واتّصلت بالمدير الذي كذبها وهدّدها بمجلس التّأديب وطردها نهائيًّا إذا عادت إلى تقوّلاتها وافتراءاتها. تركت المسألة عالقة لفترة. لاحظتْ أنّ نقابة الأساتذة لم تحرّك ساكنًا. اتّصلت بأستاذ التّاريخ والجغرافيا وهو من النّقابيّين النّزهاء وكان يمدّها ببعض الكتب التي تلتهمها التهامًا والمجلّات التي تطالعها في قاعة الطّعام بالمعهد وفي قاعة المراجعة رغم منع المجلّات فيها. ولكنّها تدّعي دائمًا للقيّمين أنّ أستاذ التّاريخ كلّفها بملف وهو مَنْ مدّها بالمجلّة فلا يجدون إلّا الصّمت مخرجًا لهم من ورطة خرق التّنظيم الدّاخلي للمعهد.

دعاها القيّم العام يومًا إلى مكتبه. فقد بلغه أنّ التّلاميذ في قاعة الطّعام رفضوا الأكل وطفِقوا يضربون الملاعق والشّوكات بعضها ببعض ويحدثون بقرقعتها على الأطباق ضجيجًا مصمًّا. كانوا يعبّرون عن احتجاجهم على رداءة الطّعام وتسرّب الحشرات إليه وسوء نوعية الخبز واستعمال بقايا الطعام في إعداد «طاجين» لا طعم ولا نكهة له. اتّهم المراقبون والقيّمون زينة، كالعادة، بالوقوف وراء هذه التحرّكات.

سألها لِمَ فعلتِ هذا؟ فتبرّأت من ذلك وكذبت عليه بأنّها كانت جائعة وأكلت دون بقيّة التّلاميذ. أخرجت له لسانها ليرى بقايا الطّعام في فمها. قرّب رأسه ليتأكّد من صدق ما تقوله. ويبدو حسب رواية زينة أنّه ارتبك وأخذته رعشة فنهض من كرسيّه وراء مكتبه واتّجه نحوها ليضع يديه الاثنتين، وهو واقف وراءها، على صدرها. انتصبت واقفةً بقامتها الممشوقة. صفعته على خدّه ثمّ طفقت تصرخ وتتّهمه بالتّحرّش بها وهي في حالة هستيريّة. لدى سماع الصّراخ دخل أستاذ التّاريخ والجغرافيا والتحق به بعض القيّمين الحاضرين لأنّ الوقت كان وقت راحة بين الحصص الصّباحيّة وحصص بعد الزّوال.

كان الأستاذ يهدّئ من روع تلميذته والقيّمون ينظرون مندهشين ولكنّهم متأكّدون من صحّة ما كانت تقوله زينة. أمّا هو فظلّ مطأطئ الرأس، خائر القوى، لا يعرف كيف يداري الفضيحة. عرف أنّه وقع في الشَّرَكِ ولا منقذ له. وكان ذلك آخر عهد التّلاميذ به. من يومها، أصبحتْ بطولة زينة في المعهد مضرب الأمثال ومصدر روايات متنوّعة بعضها يضيف إلى البعض الآخر تفاصيل وتدقيقات.

صار المدير والقيمون، بعد هذه الحادثة، يغضون الطّرف عمّا تفعل ولا يجرؤون حتى على توبيخها. كانت تجاهر بالتّدخين ولا تدخل، على غرار بقيّة التلاميذ المدخّنين فتيانا وفتيات، إلى المراحيض في أوقات الاستراحة لتعمّر رأسها. كانت تقف في ركنٍ من أركان السّاحة صحبة أصدقاء لها من الأولاد والبنات يضحكون ويتحادثون وهي وسطهم تمسك بسيجارتها كأنّها أستاذة.

ثم صارت تغادر المبيت دون رخصة من الإدارة أو من الوليّ متى شاءت وتعود إليه في أيّ ساعة تريد. قال لها المدير يومًا:

- «لسنا فندقًا هنا عليك بالالتزام بالنّظام الدّاخلي وإلّا أطردناك».

أجابته بهدوء وسرعة كمن يطلق نيرانا كثيفة من رشّاش في لغة نقابيّة أذهلته:

«حين تصلحون النّوافذ المكسّرة التي تدخل إلينا منها الرّياح والأمطار، وحين تنظّفون المراحيض وتقضون على الرّوائح الكريهة التي تنتشر في الممرّات والأدراج وقاعات النّوم، وحين تعتنون بصحّة التّلاميذ ولا تكتفون بحبّة «أسبيرين» من ذاك الجحر الذي تسمّونه مصحّة، وحين تحسّنون الأكلة وتقضون على الحشرات فيها.. يومها تصبحون فندقًا مريحًا لا يهرب منه التّلاميذ».

- «أنتِ وقحة. سأطردك من المبيت والمعهد».

ردّت زينة على تهديده بتهديد أقوى:

- «إذن ستنتقم للقيّم العامّ الذي لا أعرف أين ذهب؟ أنت «إخوانجي» أعرف ذلك، تكره المرأة وتعادي سياسة الدّولة».

فهم أنّ التّهم الخطيرة التي وجّهتها إليه قد تحرمه من وظيفة المدير وتعيده في أحسن الأحوال إلى المحفظة وقاعات الدّرس التي هجرها منذ سنوات. ابتلع السّكّين بالدّماء التي تتقاطر منها. استدعى أباها إلى مكتبه.

كان الأب فلّاحًا يعمل في بعض المواسم، ويقضي بقية وقته في دكّان القرية يتسلّى بلعب الورق وشرب الشّاي. والوليّ الحقيقيّ هو أمّها التي تشتغل خادمة في بيوت أحد كبار الفلّاحين من السّادسة صباحًا إلى أن يخيّم الظّلام. أجاب الأبُ المديرَ بأنّ زينةَ ابنته وله كامل الصّلاحيات والتّفويضات لضربها وقتلها إن شاء. أفهمه أنّه لا يتحكّم فيها فهي ابنة بورقيبة الذي جعل النساء مستقويات على الرّجال والآباء والإخوة. فكيف سيكلّم ابنة متعلّمةً متفوّقةً في دراستها وهو لا يعرف، كتابة اسمه على الجرّة؟ اعترف له أنّه نفض يديه منها ولم تعد تكلّمه منذ سنوات. لا تعتبره أبًا لها. أقسمت أمام العائلة أنّ الأمّ أكثر رجولة منه. كانت تنعته بالحقير السّكّير المتخلّف. ولولا بقيّة حياء لطردته هي من البيت.

فهم السيّد المدير أنّ زينة لا رادع لها وأنّه قد يفقد هيبته وسلطته لو دخل معها في صراع. استعمل ثقافته الحزبيّة الدّستوريّة لاحتوائها. فقد جرّب ذلك في الشّعبة التي يترأسها فصحّت.

دعاها إلى مكتبه. لم يحدّثها عن أبيها. بدت له، لأوّل مرّة، واثقة من نفسها، ذات شخصيّة قويّة، صريحة، تحسن المناورة. حدّثها حديث النّدّ للنّدّ. اعترف لها أنّه لن يمسّها بسوء لأنّها أفضل تلميذة في المعهد من حيث النّتائج ويعوّل عليها في أن تكون الأولى لا في المعهد فحسب بل

في امتحان مناظرة الباكالوريا آداب في البلاد كلّها وهي قادرة على ذلك. لمّح إلى أنّها ستكون حرّة تفعل ما تريد خلال ما تبقّى من السّنة الدّراسيّة، وهي تلميذة في السّنة السّادسة وخلال سنة الباكالوريا، لكنّه طلب منها بعض الانضباط واحترام قوانين المعهد حتى لا تتفشّى الفوضى لدى التّلاميذ الذين لا يملكون وعيها ولا جدّيتها في الدّراسة. فهم مشاريع منحرفين لا تلاميذ يطالبون مثلها بحقوقهم. عقد معها صفقةً مزدوحة: تتحصّل على حرّيتها مقابل غض الإدارة الطّرف عن تصرّفاتها ثمّ تساعد، بجدّيتها ونجابتها، زملاءها من التّلاميذ على إعداد مناظرة الباكالوريا كما ينبغي ليكون معهدهم أنموذجًا للعمل والكدّ والنّجاح.

3

كان رضا يتحدّث عن زينة بإعجابٍ بادٍ نقله إلى سامعيه من الرّفاق. ولمّا أنْهى حديثه عاد جعفر السّاخر معلّقًا:

– «أقسم مرّة أخرى بالرفيق ستالين أنني لو كنت مكان رضا لَجَثَوْتُ راكعًا أمام زينة أخطب ودّها».

ضحك الجميع بمن فيهم رضا. زال كابوس بداية اللّقاء بادر جعفر مرّة أخرى بالحديث مستخلصًا أنّ زينة، رغم الإزعاج الذي تسبّبه لهم مع القواعد الطّلّابيّة بنقدها لتنظيرات الحركة، مناضلةٌ ثوريّة يختلفون معها ولكنّها ليست عدوّة وطلبوا من عبد النّاصر إبلاغ الأستاذ الرّفيق بقرارهم. فكانت إجابته على طلبهم محيّرة:

– «أصارحكم بأنّني أتيت وفي ذهني شيء أهمّ من هذا. نقطع الصّلة تمامًا بالأستاذ. أراه مريضا نفسيّا ويعتبرنا بيادق عنده. وأنا لست مستعدًّا لأن أكون عبدًا لأيٍّ كان».

كانت السّاعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً. وعلى الجميع النّهوض

باكرًا لتعليق نصّ في كلّية الحقوق وآخر في كلّية الآداب منوبة حول مهامّ المرحلة والعمل على إنجاز المؤتمر 18 الاستثنائيّ للاتّحاد العامّ لطلبة تونس بعد انقلاب طلبة الحزب الحاكم على شرعيّة صندوق المؤتمر منذ بداية السبعينات. نام الجميع في شقّة نجم الدّين ورضا إلّا عبد النّاصر الذي قرّر العودة إلى بيته في ضاحية باردو.

4

تعرّف الطلياني على زينة س. في سنواته الأخيرة بالجامعة. تزوّجها في ظروف خاصّة جدّا ليتطلّقا بعد سنتين تقريبا. كانت زينة منعرجا حاسما في حياته من نواح كثيرة. فلولاها، مثلا، لواصل رسوبه المتعمّد حتّى يشارك في المؤتمر 18 الاستثنائي للاتحاد العام لطلبة تونس في ماي 1988.

تنحدر زينة، واسمها الحقيقيّ « أنروز»، من إحدى القرى البربريّة بالشّمال الغربي. ولم يكن يعرف اسمها الأمازيغي إلّا الأصفياء الخلّص مثلي أنا وعبد الناصر. فقد فرض بورقيبة على البربر أن يسجّلوا أبناءهم في البلديّات بأسماء عربيّة فظلّت الأسماء البربريّة حبيسة التداول في البيوت داخل العائلة، يتربّى الأبناء على إخفائها تجنّبا لأيّ مشكلة تجعلهم يشعرون بالتميز أو الإقصاء أو تعرّضهم إلى المساءلة والعقاب.

كانت « أنروز» ممشوقة القوام كالرّمح. وجه قمحيّ وضاح، شعر قصيرٌ سبْطٌ أملسُ بتسريحة مميّزة لا هي متأنّقة من أثر الحلّاقات ولا هي مهملة كجلّ المناضلات (عرف عبد النّاصر بعد ذلك أنّها تجمعه إلى الوراء حين يطول وتقطعه وحدها بالمقصّ فتكون له تلك الهيئة المميّزة). لم تكن تستعمل المساحيق إلّا نادرا. تلبس «الدجينز» دائمًا وحذاء رياضيًّا كالمستعدّة أبدًا للتّسلّق أو الجرْي. ولكن ما يشدّ إليها

الأنظار إنّما هو عيناها الخضراوان خضرة أخّاذة غامقة يزيدها جحوظ لطيف في محجريها بروزًا وإشعاعًا. وكلّما حاول المرء أن يتأمّل تيْنك العينين والتّركيز عليهما وجد فيهما غموضًا غريبًا ولاحظ تلوّنات الاخضرار بحسب صفاء الطّقس أو تكدّره وانتشار أشعّة الشّمس أو احتجابها وبحسب الأماكن المغلقة أو المفتوحة.

كانت بعينيها تينك، تجعل مخاطبها أو النّاظر إليها حتى عن بعد، وهي تخطب في الساحة الكبرى لكلّيّة 9 أفريل أو على حجرة سقراط بكلّيّة الحقوق، مأخوذا بسحرها الغامض. لقد كانت جمالا باذخا يريد نفي وجوده بتقشّفها في إبدائه. ويقسم جلّ الخبيرين بالنساء من أصدقائنا أنّها لو لبست لباسًا عاديًا لا يُظْهر من مفاتن المرأة إلّا القليل المألوف ولو استعملت مكياجًا خفيفًا أوّليًّا وسرّحت شعرها عند حلّاقة عادية، أيْ لو اعتنت بإبراز الحدّ الأدنى من أنوثتها، لقلبت الدنيا رأسًا على عقب. وربّما بسبب من ذلك، حسدا أو اشتهاء أو تشفيا من هذا الجمال الذي يعسر الوصول إليه، لم يتوانَ خصوم طلبة اليسار من الإسلاميّين وغير الإسلاميّين عن تكنيتها بِـ«عاهرة الثّورة البروليتاريّة» أو «بقرة القيادة الثّوريّة».

وما كانوا يجرؤون، بطبيعة الحال، على ذكر ذلك أمام أصدقائها. ولكنّ عبد النّاصر عرف بطريقته الخاصّة أنّ من استنبط هذه الكنية طالب بعثي ينتمي إلى «الطّليعة العربيّة» يكتب الشّعر ويقرؤه في الأمسيات الثقافيّة والحفلات الموسيقيّة التي تنتظم في رحاب الجامعات. وقد واجهه عبد النّاصر يومًا، معتمدًا على ثقة بينه وبين مختلف الأطراف السّياسيّة الأخرى جعلتهم يحترمونه لثقافته ولقدرته على التّفاوض والنّقاش في كنف الاحترام، فأنكر الطّالب البعثي في البداية ثمّ أسرّ له أنّ الأمر كان على سبيل الصّدفة لمّا سمع بعض رفاقه يتحدّثون عن علاقات

زينة الجنسيّة مع طلبة آخرين من القياديّين. وأسرّ له أيضًا بأنّه كان وراء ألقابٍ أخرى شائعة في الجامعة تأتي هكذا عفوَ الخاطر في سياق حديث أو مزاح ولم يكن القصد منها الإساءة بل هو طبع الشّاعر الذي يغلبه والذّنب، حسبه، ذنب من يشيع مثل هذه الكنى والألقاب.

ذكر له أنّه كان وراء تسمية قيادي إسلامي بـ «القادر بالله ترافولتا» جامعًا بين انتمائه الإسلامي وحديثه عن الثّورة الَإسلاميّة، وبين مظهره الخارجي الذي يشبه، في الواقع، الفنان الراقص جون ترافولتا. ولكنّه استعمل هذا الاسم لحبّ الفتيات للنّجوم وقد كنّ في الجامعة يتحدّثن عن أنّ جمالَ هذا الطالب لا يناسب صورة الإسلاميّين المتجهّمين العبوسين. فلم يكن قصده أيضًا الإساءة. وحدّثه عن ألقابٍ أخرى لرفاقه في «الطّليعة العربيّة» يحبّهم ويشاطرهم أفكارَهم. ذكر له «بغل الوحدة العربيّة» وهو مناضل لا يعرف فكر البعث جيّدًا ولكنّه متحمّس بطريقة غبيّة و«خنزير المتوسّط» لكثرة وصفه للحكّام بالخنازير.

حاول عبد النّاصر أن يفهم الشّاعر البعثيّ أنّ الأمر مختلف مع زينة. نبّهه إلى أنّ المرأةَ في مجتمعاتنا العربيّة تهاجم في الجانب الأخلاقيّ السّلوكي حين تقف في الفضاء العام ومنه السّاحة الطّلّابية لإضعاف موقعها فيه وإثنائها عن المشاركة النّضاليّة أو التّعبير عن آرائها النّدّ للنّدّ مع الرّجال. حدّثه عن ضرورة وحدة النّضال بين الرّجال والنّساء ودعم كفاح المرأة ومساواتها مع الرّجل.

انتهى النّقاش في مشرب كلّية الحقوق على اتّفاق تامّ ظاهريًّا، لكن ذلك لم يمنع أن تتلقّف الألسن ألقَابًا أخرى لطلبة وطالبات مسيّسين ونقابيّين. فحمل عبد النّاصر ذلك على أنّه خطّة من هؤلاء الذين لا يؤمنون بالعمل النّقابي الطّالبي لتشويه المناضلين ولكنّه اعتبر المسيرة مستمرّة لإنجاز المؤتمر 18 الاستثنائيّ وضرورة النّضال ضدّ الظّلاميّين

الذين يزحفون على المجالس العلميّة ويفتكّون أهمّ المعاقل التاريخيّة لليسار الطّلابي أي الكلّيات الكبرى خصوصًا منذ مارس 1986 بعد عقد ما سمّاه الإسلاميّون «مؤتمر الحسم» وتأسيس الاتّحاد العام التّونسي للطّلبة باعتباره ذراعا طلّابيّة للاتّجاه الإسلامي.

5

لم يكن عبد النّاصر يهتمّ بزينة. س في تلك الفترة. كانت تعجبه بعض تحليلاتها رغم اختلافه عنها. لم يتحدّث معها. لم يسْعَ إلى ربط صلة بها ولو كانت نضاليّة. فقد كان يفصل بين حياته النّضاليّة في الجامعة وحياته الشّخصيّة الحميمة خارجها.

لقد قرّر ذلك بوضوح وصرامة منذ سنة 1980 بعيْد دخوله إلى الجامعة وخصوصا بعد قبوله، إثر مفاوضات مع قيادة التّنظيم، ألّا يغادر الكلّيّة لحاجة الرفاق والحركة إليه كي يعزز الهياكل النّقابيّة المؤقّتة في ذلك الظّرف السّياسي الصّعب.

كان، بحكم سنّه وأقدميّته في كلّيّة الحقوق، يرى الطّلبة يفدون ويرحلون إمّا مطرودين أو متخرّجين. وكان، بحكم موقعه القيادي في الهياكل النّقابيّة المؤقّتة، معروفًا لدى الجميع في كلّيّته ولدى بقيّة الرّفاق والتيّارات السّياسيّة في الكلّيات الأخرى النّاشطة. كان عليه أن يحافظ على صورة المناضل الصّلب المبدئي في التّنظيم عند عمليّة الاستقطاب في المبيتات والأحياء الجامعيّة وفي المعاهد والكلّيّات إثراء للتّنظيم وتدعيمًا لموقعه في السّاحة الطّلّابيّة. فلئن كان الإسلاميّون يجدون الطلبة جاهزين تقريبًا إذ يكفي أن يجتمعوا للصّلاة جماعة حتى يعرفوا أنصارهم فيستقطبونهم بمجرّد اجتماعات عادية أو مساعدات ماليّة فإنّ على اليسار أن يبذل جهودًا مضاعفة أكبر بكثير من الإسلاميّين لتكوين الأنصار سياسيّا وتثقيفهم إيديولوجيّا.

ولم تكن القلّة التي تأتي إلى الجامعة ممّا كان اليسار يسمّيه «الجامعات الصيفيّة» بكافية لمواجهة القمع والمطاردة وتعبئة الطلبة في النّضال السّياسي والنّقابي. فالجامعات الصّيفيّة في الجهات تعوّل على النّاجحين الجدد في الباكالوريا وعلى معرفة الأشخاص في العائلة أو الحيّ، وكثيرًا ما كانت تخيف الطّلبة الجدد لطابعها السّرّي ولحدّة مفردات الخطاب لدى هؤلاء التّلاميذ الفرحين بنجاحهم، المقبلين على حياة جامعيّة جديدة هي عندهم فرصة للحاق بالمصعد الاجتماعيّ.

كان عبد النّاصر بفصاحته وثقافته المتينة وطريقته الحماسيّة في المناقشة وقدرته على الاستماع والمحاورة والجدل ووضوح رؤيته السّياسيّة من أكثر طلبة اليسار مهارة في استقطاب العناصر الجديدة والأنصار.

وكثيرا ما كان يحدّث رفاقه عن نظريّة القلب والدّوائر. وهو يقصد أنّ الطّليعة القياديّة الصّلبة بمثابة القلب الذي يضخّ الدماء في النضال الطّلّابيّ.

وأمّا الدّوائر فهي حلقات تلتف حول قلب الحركة الطّلّابيّة. نجد في الأولى المناضلين المخلصين للاتّجاه السّياسي. ويحتلّ الدّائرة الثّانية الأنصار من ذوي الإمكانات البدنيّة الممتازة والشّجاعة والجرأة والإقدام. فهم «ذراع الحركة المفتول» يحمون المعلّقات الحائطيّة ممّن قد يعنّ لهم تمزيقها، ويكوّنون حواجز بشريّة أمام مداخل المدرّجات وقاعات الدّرس حين تقرّر القيادة إضرابًا من الإضرابات مثلا.

وتضمّ الدّائرة الثّالثة، حسب نظريّة عبد النّاصر، من كان يسمّيهم المتربّصين، وهم مجموعة واسعة من الرّفاق الجدد يوضعون تحت التدريب. وتقتصر الدّائرة الرّابعة على الطّلبة الذين يُكْتَفَى بتكوينهم غير السّري في مجال العمل النّقابي الطّلّابي: تشرح لهم مبادئ الحركة

الطّلّابيّة ويروى على أسماعهم تاريخ الاتّحاد العام لطلبة تونس والنّقلة النّوعيّة بعد مؤتمر قربة وحركة فيفري 1972 المجيدة وما ترتّب عنها بالخصوص من قطيعة سياسيّة وتنظيميّة مع النظام الكمبرادوري العميل ودور الحركة الطلّابيّة في التّغيير الثّوري.

وتتواصل الدّوائر والحلقات حول قلب الحركة الطّلّابيّة النّابض لتبلغ الأنصار الذين يدعّمون التيّار دون الالتزام معه دائمًا، فالمتعاطفين الذين يدعمون عن بعد وأكثر دعمهم من باب الصّداقات إلى أن تبلغ جماهير الحركة الطّلّابيّة التي من المفروض أنّ التّنظيم يمثّل طموحاتها ويقودها ويطوّر وعيها في الآن نفسه.

6

لم تكن زينة تنتمي إلى التيّار السياسيّ النقابيّ الذي يتزعّمه عبد النّاصر في كلّيّة الحقوق. بل لم تكن من طلبة الحقوق أصلا. تأتي إليها من كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة 9 أفريل حيث تدرس الفلسفة. ويا لها من خطيبة مصقعة مقنعة ذات صوت قويٍّ يبلغ الأسماع دون صراخ ولكنّها تبدو دائمة التشنّج مثل جميع الخطباء. وجلّ خطاباتها نقد حادّ عنيف لما تسمّيه «الوعي الطّلّابي البائس»، و«الحركات الفاشيّة ذات المشروع الدّيني الاستبداديّ»، و«اليسار بمركزيّته المفرطة وابتعاده عن عفويّة الحركة»، و«التشرذم السرطاني لليسار البيروقراطيّ». وكانت ترفض الاحتراف الحزبي السّياسي (وتعتبر عبد النّاصر من هذا الصّنف!).

كانت زينة تعارض الهياكل النّقابيّة المؤقّتة وتراها قد صادرت الحركة الطّلّابيّة ووجّهتها وجهةً حزبيّةً أوصلتها إلى طريق مسدودٍ. وكم سخرت من الحديث عن القطيعة السّياسيّة والتّنظيميّة التي يدّعيها اليسار والحال أنّ العمل النّقابي في جوهرِه عملٌ إصلاحيٌّ يتطلّب الحوار

مع السّلطة. فالحركة الطّلّابيّة، عندها، ليست طليعة الحركة الثّوريّة بل هي المكوّن الهشّ منها. ولم يجد الطلبة اليساريّون بدّا من حشرها في التيّار الإصلاحيّ قبل أن يبدؤوا رحلة مضنية للبحث لها عن صفة تطابق تفكيرها الغريب المتقلّب.

ولكن أكثر ما شدّ انتباه عبد النّاصر إلى خُطب زينة هو إلحاحُها على دور المثقّفين في تحليل الواقع. فهي تتّهم اليسار بغياب العمق الفكري والاكتفاء بقوالب جاهزة حول نمط الإنتاج في المجتمع والتّناقض الرّئيسي والتّناقضات الثّانويّة والتّعويل على تحليلات لينين وماوتسي تونغ حول الواقعيْن الرّوسي والصّيني وإسقاطها على الواقع التّونسي. وتردّ ذلك إلى الجهل بالماركسيّة باعتبارها أداة للتّحليل الاجتماعيّ المادّيّ التّاريخيّ، وإلى الجهل الفظيع بالتّطويرات الفلسفيّة للماركسيّة. كانت تصف اليسار بالجاهل وبالكلب الأعمى الذي يجسّ في مزابل اللّينينيّة والستالينيّة العفنة (تفطّن عبد الناصر بعد مدّة أنّها كانت تستلهم استعارة استعملها لينين في نقد كاوتسكي).

سمع منها عبد النّاصر في حلقات النّقاش لأوّل مرّة بأسماء ومواقف لم يسمع عنها من قبل. كانت تمجّد كاوتسكي والحال أنّ جميع كتابات لينين تسبّه. تتحدّث حديث العارف عن روزا لوكسمبورغ وبانكوك وكارل كورش وجماعة فرنكفورت. ذكرت أسماء كوسترياديس وإدغار موران. قالت كلامًا مختلفًا عمّا قرأه وسمعه في شأن ألتوسير وغرامشي. استشهدت بالمجالسيّين وافتخرت بالتونسيّ العفيف الأخضر صاحب أروع ترجمة للبيان الشيوعي إلى العربيّة. وكم كانت تحبّ التذكير ببعض التحاليل الطريفة والعبارات البليغة الثوريّة من كتاب التونسي الآخر مصطفى الخيّاطي عن «البؤس في الوسط الطالبيّ». خليط عجيب من أسماء لم تكن تعني لعبد النّاصر شيئًا في أغلبها. لقد بلبلت أفكاره

وجعلته يشعر أنّه لا يعرف شيئًا رغم أنّه مرجع لدى رفاقه في كلّ ما هو نظريّ.

من أين طلعت هذه المجنونة؟ ففي ما تقول معرفة واضحة ونقد جلّه حقيقيّ يشعر به ولا يعرف كيف يصوغه ولا يجرؤ على أن يقوله. لكن لا بدّ من الرّدّ عليها لأنّها تهدّد بأن ينفض عن تيّاره السّياسي الأنصارُ والمتعاطفون. ألم تكفه ضربات الإسلاميّين المتتابعة وافتكاكهم لمقاعد في انتخابات المجالس العلميّة، حتى تنزل عليه هذه اليساريّة التي لم يستطع تصنيفَها إلّا على نحوٍ يبدو أنّه مجانب للصواب.

استقرّ رأي الأغلبيّة على اعتبارها تروتسكيّة، فكانت تسخر منهم مجيبةً على «التّهمة»:

- «واصِلُوا التّخمين. لقد أخطأتم».

ولكن جميع الرّفاق ومن مختلف تيّارت اليسار، مصرّون على أنّها تروتسكيّة وأحيانا مجالسيّة لأنّهم لم يجدوا، أو قُلْ لا يعرفون لها موضعًا آخر في خارطة الأفكار والاتّجاهات. وكانت تقول لهم قولا لا يزيدهم إلّا حيرة:

- «تروتسكي هو الوجه الآخر الذي انهزم من عُمْلة البلشفيّة الفاسدة. أمّا الوجه المنتصر فهو ستالين».

فيضيع النّقاش في التّنديد بوصف البلاشفة بالبائسين وهم صنّاع أعظم ثورة في التّاريخ ثمّ الاحتجاج على اعتبار تروتسكي وستالين من الطّراز نفسه. فتزيد في غيضهم وتذكي غضبهم بقولها:

- «ستالين هو هتلر الاتّحاد السّوفياتي».

فيعلو الصّراخ ويهمّ أحد أفراد الدائرة الثانية الّذي يحبّ الرّفيق ستالين أكثر من أبيه بضربها. فتمعن في السخرية:

- «طيّب. ليس هتلر. الجورجيّ صاحب الشنب هو خميني الاتّحاد السّوفياتي. كلّهم فاشيون بألوان محلّيّة».

يكثر اللّغط والهياط والمياط فتتركهم زينة لتنزوي مع بعض أصدقائها. تشعل سيجارة. تترشّف قهوتها داخل مشرب الكلّية أو خارجه بحسب حالة الطّقس.

ولكن ما يشفع لدى الرّفاق هذه التّجاوزات والمواقف المعادية والتّقوّلات على رموز الماركسيّة اللّينينيّة هو أنّها طالبة فلسفة يجوز منها ما لا يجوز من غيرها. وهي إلى ذلك مناضلة صلبة تجدها في الصّفوف الأولى في أوقات الشّدّة والمواجهات ضدّ الأمن عند المظاهرات أو عند اقتحام الأمن للكلّية. هذه سيرتها في 9 أفريل وفي كلّ مكان تزوره وبالتّحديد كلّية الحقوق.

ومن ميزاتها أنّها من القلائل القادرين على تبكيت طلبة الاتّجاه الإسلامي ومناقشتهم في ميدانهم المحبّذ أي مسائل الهويّة الإسلاميّة. فهي ملمّة إلماما حسنا بالتّاريخ الإسلامي وعلم الكلام وتاريخ الأديان وثقافة بلاد الرّافديْن، وبالفكر الفلسفي الإيرانيّ الذي نما في الحوزات العلميّة ليجدّد الفكر الإسلامي بعيدًا عن نظريّة ولاية الفقيه. كانت تقول لهم:

- «تتحدّثون عن هويّة ميّتة لا تعرفونها».

- «فكركم خلطة ساذجة من إسلام الإخوان والوهّابيّة وتأثيرات شيعيّة لا تميّزون فيها بين البعرة والدّرّة. اِذهبوا واقرؤوا يا جهلة».

- «لا تُصْنَعُ الثّوراتُ بأفكارٍ متكلّسةٍ إلّا لتنتج دكتاتوريّة تافهة».

«أنتم تقدّسون الأفكار المحنّطة، تقدّسون أفكار مُدرِّس تربية إسلاميّة محدود الذّكاء، أو معلّم من أرياف مصر، ولا تقدّسون الخالق. أنتم أبناء الجهل المغلَّف بالبحث عن أصل كاذب لم يوجد أبدًا».

كان ذلك يستدعي شماتة اليساريّين في طلبة الاتّجاه الإسلامي فتحظى عندهم بالتّقدير وتنهال عليها التّهاني بعد نهاية حلقة النّقاش فتردّ عليهم:

- «لستم مختلفين عنهم كثيرًا. فلكلّ جهله المقدّس وأصوله الكاذبة».

فيرتدّون منكسرين.

وكان نقاشها ضدّ اليساريّين يريح الطّلبة الإسلاميّين الذين يحضرون أحيانًا حلقات النّقاش ليتابعوا دون أن يتدخّلوا.

7

بلغت أصداء هذه المناوشات الفكريّة أسماع أحد قادة التّيّار السّياسي الذي ينتمي إليه عبد النّاصر. كان محاميًا بارعًا قد تخرّج منذ حواليْ عشر سنوات. عرف السّجون والنّفي لفترة. وعُرِفَ بوقوفه إلى جانب النّقابيّين في المحاكمات التي عقبت أحداث الخبز في جانفي 1984.

لم تغيّر وضعيّتُه الاجتماعيّة الجديدة من أفكاره فقد كان منظّرًا بارعًا يقف وراء أفكار عديدة وتحليلات شتّى تستلهمها الحركة الطّلّابيّة إلى اليوم. شُعْلةٌ من الذّكاء. نجح في مناظرات عديدة بالخارجيّة والوزارة الأولى والقضاء لكن مشكلة البطاقة عدد 3 التي تشهد بنقاء سجلّه من السوابق العدليّة وملفّه الأمني الأسود في وزارة الدّاخليّة جعلاه لا يحصل على الوظيفة في الدولة فيُقصى على الرغم من ترتيبه الأوّل على قائمة الناجحين، بل حُرم من جواز السّفر رغم تدخّل عمادة المحامين والرّابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان. كان «الفيتو» ضدّه صارمًا لا رجعة فيه.

دعا الرفيق المحامي عبدَ النّاصر إلى مكتبه وطلب منه العمل على أن تتوقّف زينة الفيلسوفة عن فلسفتها لما قد يكون لها من أثر في تثبيط

عزيمة الطّلبة. تكفّل عبد النّاصر بالأمر وعمل على الالتقاء بالفيلسوفة. فضّل ألّا يكونَ اللّقاء في الجامعة. طلب منّي أن أرتّب له موعدا معها. التقينا في المدينة العتيقة، في مقهى قريب من المكتبة الوطنيّة ومن جامع الزّيتونة المعمور. لم يكن بإمكاني أن أرفض طلبه فهو صديق العمر ولم يكن بإمكانها أن ترفض لي طلبا فأنا زميلها الذي تربطها به علاقة مودّة وتقدير وتعاون منذ أن دخلنا قسم الفلسفة وساعدتها كلّما احتاجت إلى مساعدة في المدينة التي تسمّيها أخطبوطا غير رحيم. فأنا ابن العاصمة وأقدم منها في الكلّيّة بحكم رسوبي المتكرّر.

حدّثها عبد الناصر عن إعجابه بثقافتها الواسعة وتواضع كثيرًا ليخبرها أنّه تعلّم منها الكثير ودفعته إلى البحث عن كُتُبِ بعضٍ من كانت تذكرهم في حلقات النّقاش وبقيتْ أسماؤهم في ذاكرته. ردّت المجاملة بالمثل معبّرةً عن احترامها له لأنّه يحسن الإصغاءَ والمحاورة وأنّه رغم اختلافهما مناقشٌ كُفْءٌ يقدّر الآخرين ولا يمسّ عند النّقاش شَخْصَهم بل يتناول أفكارَهم. وختمتْ مجاملتها قائلةً:

- «صِدْقًا، لم أفهمْ إلى الآن صِلَتَكَ بالتّيّار، قياديّ فيه ومتكلّمٌ باسمِه ولكنّ فكرَكَ أرحب».

تأكّد، مرّة أخرى، أنّ هذه الفيلسوفة خطيرة فقد وضعت الإصبع على تناقضه الرّئيسي. لم يشأْ أن يبوح لها بشيء. فمُهمَّتُهُ واضحةٌ مضبوطةٌ.

حاول أن يفسّرَ لها أنّ المسألة لا تقوم بالضّرورة على التّطابق التّامّ بين الانتماء السّياسي والخصوصيّات الفكريّة لكلّ فردٍ. والتّنظيم عنده جهاز للتّفكير الجماعي يقبل في الأصل التّنوّع والاختلاف. أراد أن يضرب على الوتر الحسّاس الذي كان يقدّر أنّه يؤثّر فيها، فذَكَّرَها بأنّ الفردَ هو مجمل العلاقات الاجتماعيّة، كما يقول ماركس.

وافقتْه في جانبٍ من تحليله ثمّ شرعت تجادله. طلب منها، بكلّ

لطفٍ، أن يكون الحديث في الاختلافات الفكريّة والفلسفيّة في جلسةٍ أخرى. أفهمها أنّه طلب اللّقاء لأمرٍ آخر عاجلٍ. قبلتْ عن مضضٍ بعد أن دعّمتُ أنا رأي عبد النّاصر.

كان واضحًا في طلبه. بدأ به ثمّ أخذ يفسّره. طلب منها أن تترك نقد الماركسيّة اللّينينيّة على نحو علني حتى لا تؤثّر الخلافات بين أطراف اليسار في صراعهم ضدّ الإسلاميّين. كانت حركات عبد النّاصر لا تخلو من انفعال حتى أنّه دفع بحركة لا إراديّة بيده كأس الشّاي الأخضر أمامه فبقّع «دجينز» زينة.

وهنا وصل إلى بيت القصيد. قال لها بنغمة حازمة ولكنّها لا تخلو من شكوى ممزوجة باتّهامٍ:

- «حين تنتقدين اليسار بهذه الحدّة فإن كلامك يصبّ في مصلحة الأعداء شئت أم أبيتِ وبصرف النّظر عن نواياك أو منطلقاتك».

- «أنا حرّة في نقد اليسار واليمين».

- «لا خلاف حول حرّيتكِ، لا أجادلك في هذا. أنا فقط أنبّهك إلى أنّ نقاشك النّظري لا تبعات فعليّة له إلّا الإضرار بعملنا الميداني».

- «لا أقصد ذلك، ولست منتمية إلى أيِّ تيّار».

- «بالضّبط هنا الإشكال. ليست مسألة مقاصد. لا أطلب منك الانتماء أو مناصرة اتّجاهنا. أنت تتمتّعين بقدرات على الجدال وبثقافة واسعة نحتاج إليها في التّنظير، ولكنّها عقيمة سياسيًّا».

- «المثقّف عندي من ينقد دون حسابات. ينقد كلّ شيء. يطلق النّار على كلّ ما يتحرّك.. يطرح الأزمة بالسّؤال والاستفهام. يخلخل السّائد..

- «جيّد. لا أطلب منكِ أن تصبحي سياسيّة أو أن تتخَلَّيْ عن دوركِ

الثّقافي. بالعربي الفصيح أطلب منكِ أن تختاري منبرًا آخر للجدال والسجال غير الاجتماعات العامّة وحلقات النّقاش».

- «إذنْ أنتَ تصادر حقّي في التّعبير شأنكَ شأن نظام بورقيبة».

بدأ عبد النّاصر يشعر أنّ النّقاشَ وصل إلى طريقٍ مسدودة. حاول التخلّص من انفعاله. تعمّد الابتسام، أراد إنهاء النّقاش قائلاً:

- «أنا قدّمتُ لكِ طلبي وأسبابه. وأنت حرّة في ما تفعلين. كلٌّ واحد يتحمّل مسؤوليّته».

همّ بالخروج. فأجْلستُه ماسكًا إيّاه من يدِهِ. عاود الجلوسَ أخذًا بخاطري. لم يلتفت إلى زينة. ظلّ صامتًا. فأخذت في ثرثرةٍ أملأ بها الصّمت المتوتّر الذي خيّم. كانت زينه تدخن بعد أن عدّلت جلستها واضعةً ساقا على ساق. أدارت الكرسي قليلاً بحيث يخرج عبد النّاصر من مجال نظرها.

لم يكن عبد النّاصر يسمع ما أقوله. كان، ولا شكّ، يفكّر في هذه الفيلسوفة العنيدة وفي كيفيّة التّصرّف معها. تصوّرتُ أنّه قد أحبّ منها عنادها ومواقفها المتحرّرة ولكنّه كان يرى أنّها بالفعل تتصرّف دون النّظر في العواقب.

وكانت زينة تفكّر في ما طلَبَ منها. لا ريب أنّها تفهّمت الطلب ولكنّها داخليًّا شعرت بفرحٍ غامر لأنّ مواقفها ونقاشاتها قد جعلت الفصيل السياسي المسيطر في كلّية الحقوق يخشى تأثيرها في الطّلبة.

أعلمتني إثر اللّقاء أنّها فكّرت في أن تستجيب لطلب هذا المناضل الوسيم أخْذًا بخاطره لا انصياعًا لتعليمات التّنظيم ولكنّها قدّرت أنّ ذلك سيَفْهَمه الأغبياء على أنّهم قوّة ضاربةٌ تخشاها. اعتبرت نفسها كالبروليتاريا ليس لها ما تخسره بينما هم الخاسرون. ضحكت من التّشبيه الذي عنّ لها.

قرّرتْ أن تصمت كيْ لا تضعف أمام الفتى ذي الملامح الإيطاليّة وأمام تيّاره السّياسيّ الوقح المتبجّح. تمنّت لو لم يكن في التّنظيم أو لو أمكن لها أن تفصح له عن موقفها الشّخصيّ. نبّهتني إلى أنّ صديق طفولتي لا يستعمل ضمير المتكلّم ولكنّها كانت متأكّدة من أنّ له ذاتًا ثريّةً ودواخل جيّاشة. كانت متأكّدة من أنّه مختلف عن البروليتاريا الثّوريّة الرّثّة كما كانت تسمّي المناضلين. اعتبرته أرستقراطيًّا ذا ذوقٍ رفيع، شبّهته ببرجوازي أنيق حتى في ملابسه المتقشّفة.

حلّلتْ بسرعة شخصيّة عبد الناصر انطلاقًا من مظهره: بورجوازيّ صغير له جميع المؤهّلات ليصبح بورجوازيًّا ويختار أن ينحطّ ليخالط البروليتاريا الرّثّة وأبناء الفلّاحين «جذوع البطاطا» على حدّ وصف ماركس لهم.

والمرجّح عندي أنّ زينة كانت تنظر إلى الطلياني بعينٍ كبيرة. انجذبتْ إليه قبل أن أرتّب اللّقاء في المقهى. ولكن هيئتها التي اختارتها جعلتها تشبه الرّجال لباسًا وشعرًا وعزوفًا عن المساحيق والزّينة، زد على ذلك نطقها الرّيفي للقاف الذي ورثته من قريتها، جعلها تستبعد أن يلتفت إليها هذا الفتى الوسيم. كانت ترى نفسَها في منزلة دونه. فلْتبُزَّه على الأقلّ فكريًّا، لتدخل الفوضى على أفكاره وانضباطه التّنظيمي. لن تتراجع عن فضح أكاذيب اليسار الجامد المتحجّر الستاليني، رغم تقديرها للطلياني. هكذا قرّرت.

غادر عبد النّاصر المقهى وكان آخر ما قاله لزينة وهو يصافحها:

– «اختلافنا لا يفسد للودّ قضيّة».

ردّت المجاملة بأحسن منها:

– «جوهريًّا لسنا مختلفيْن. أعرف أنك توافقني ولكنّك لا تقدر على أن تفعل مثلي».

رمقها ولم يردّ. فهم أنّها لم تتخلّص بعد من الرّغبة في المجادلة.

انصرف وهو يفكّر في هذه الفيلسوفة. نسيَ المهمّة التي طلب لأجلها اللّقاء وسرح خياله يستعيد ملامحها. اكتشف أنّ ابتسامتها حلوة وأنّ شفتيْها مكتنزتيْن عكس ما يظهران من بعيد. لاحظ أنّ صدرها فاخر في القميص ذي الرّقبة ورأى رقّة أصابعها الطّويلة وصفاء بشرتها. امرأة طبيعيّة دون تصنّع لكنّها تغمرك بأنوثة فيّاضة وهي تتحدّث وتحرّك يديها وسبّابة يدها اليسرى يمنةً ويسرةً.

قدّر عبد النّاصر أنّ هذا الإخفاء المتعمّد لهذه الأنوثة الفيّاضة ليس عاديًّا ولا يمكن تفسيره بنزعتها الفكريّة أو اختياراتها الفلسفيّة. لا بدّ أنّ وراء ذلك سرًّا. زاد يقين الطلياني حين تذكّر عنادها ونزعتها إلى الجدال ودكّ السّائد.

8

جالت في ذهنه هذه الخواطر وهو يترجّل نحو شارع «باب بنات» قاصدًا مكتب الرفيق المحامي لإحاطته علمًا بمجريات المهمّة التي كلّفه بها.

في قاعة الانتظار بعد أن أعلم مساعدة المحامي بوصوله رأى شخصيْن معروفيْن كانا سجينيْن سياسيّيْن سابقيْن يخرجان من المكتب. استقبله في عجلة من أمره. أعاد عليه بإيجاز شديد ما دار بينه وبين زينة من نقاش وأكّد له إصرارها على ما تعتبره من باب حرّيتها الفكريّة ودورها كمثقّفة غير ملتزمة حزبيًّا. وقف المحامي يلبس سترته دون أن ينظر إليه وقال:

- «عليكم أن تتصرّفوا بما تقتضيه المرحلة».

- «جئت أستشيرك. كيف نتصرّف؟».

- «لا بدّ من تحييدها.. من عزلها.. من تصفيتها».

فاجأ قوله عبد النّاصر فردّ عليه مستغربًا:

- «ماذا؟».

- «ما قلته لك. كلّ من يقف حجرَ عثرة في وجه حركة الجماهير ينبغي تصفيته. ألم تقرأْ أدبيّات العنف الثّوري؟ أتعتقد أنّه مجرّد كلام؟».

- «كيف نصفيها؟ أنغتالها؟».

- «أنا أحلّل الوضع وأعطي التّعليمات. تفاصيل التّنفيذ يحدّدها الرّفاق».

- «سيرفضون. هذه عمليّة قتل وليس عنفًا ثوريًّا».

جلس المحامي على الكرسي المقابل يبتسم ابتسامة تنضح احتقارًا. أخذ يتأمّله ويخترقه بنظرات مسمومة يكتم بها غضبه. كانت أسنانه تصطكّ وهو يخرج الكلمات من شفتيْه موقّعة عنيفة حادّة هادئة في ظاهرها. قال له:

- «عندما كنتَ في حضنِ أمِّكَ كنتُ أقاوم الصّهاينة في جنوب لبنان. لست بورجوازيًّا صغيرًا مثلك يخاف العنف. العمل الثّوري لا يحتمل التّردّد وإلّا أَكَلَنَا العدوُّ. عليك أن تتغدّى به قبل أن يجعلك سحورًا له. لماذا أنت خائف؟ إن كنت خائفًا فمكانك خارج التّنظيم. أُخرجْ واتركْ مكانك للثّوريّين الحقيقيّين. هذه العاهرة ينبغي أن تُزَاحَ وإنْ لم تكن قادرًا على ذلك سأتصرّف».

انتصب واقفًا. أخذ محفظته واتّجه نحو باب المكتب. لم يعلّق بكلمة. سار أمامَه. ولمّا صافحه في الشّارع قدّام العمارة قال له:

- «أنتظر خبرًا سارًّا خلال أسبوع على أقصى تقدير».

لم يجبه عبد الناصر وانصرف. يومها دعا رفاقه من قيادة الحركة في الجامعة إلى اجتماع عاجل.

9

بعد أسبوعيْن تقريبًا من الاجتماع في شقّة نجم الدّين وانفصال المجموعة عن الرفيق المحامي، ظهر فصيل جديد بكلّية الحقوق أغلبه من عناصر الدّائرة الثّالثة. لاحظ الجميع أنّ جلّ الوجوه تنتمي إلى أحد أرياف القيروان التي ينحدر منها الأستاذ الرّفيق المحامي. استفاق الطلبة على معلّقات ممضاة باسم التّيّار نفسه الذي ينتمي إليه عبد النّاصر مع إضافة عبارة «الرّاديكالي» مشفوعة بـ «في كلّية الحقوق».

أراد جمع من أبناء التّيّار من المنتمين إلى الدّائرة الثّانية التّدخّل بعضلاتهم لتمزيق المعلّقات وتأديب هؤلاء المنشقّين وطردهم من الكلّية «شرّ طردة» كما قال جعفر الذي بادر بالاتّصال بالجماعة. حضر عبد النّاصر يومها متأخّرًا. كان الطّلبة الرّاديكاليون، وهم لا يتجاوزون العشرة أنفار، واقفين لحماية المعلّقات متحفزين للرّدّ على أيّ طارئ. اقترب الطّلبة المسيّسون يقرؤون المعلّقة وما فيها ويحاولون تحديد خصائص هذا الاتّجاه الجديد. وكان بينهم عبد النّاصر الذي قرأ بتمعّن مصحوبًا في الميمنة والميسرة بأربعة رفاق وخلفه ستّة تحسّبًا لما قد يصدر عن طلبة التّيّار الجديد. أعاد القراءة، ثمّ قدّم استنتاجاته لجمع من القياديّين وللرّفاق الذين كانوا يحمونه. اعتبر أنّ الأسلوب هو أسلوب الأستاذ المحامي ورأى أنّ المحتوى يتطابق تمامًا مع أطروحات التّيّار إلّا في نقطة واحدة هي الإلحاح على تطهير الحركة الطّلّابيّة من الانتهازيّين والمندسّين وكلّ من يعرقل المدّ الثّوري من المتردّدين من أبناء البورجوازيّة الصّغيرة و«الثّقفوت» (وهي سبّة لتحقير المناضلين ذوي المنزع الفكري النّظري).

طلب عبد النّاصر من رفاقه عدم التّدخّل وترك المعلّقات على حالها

مع مراقبة الوضع والتّثبّت من العناصر المتعاطفة مع هذا التّيّار الجديد أو القريبة منه. دعا مجموعة من طلبة التّيار المنتمين بدورهم إلى الدّائرة الثّالثة إلى أن يفتحوا حلقة نقاش في منتصف النّهار لتبيّن توجّهات هذا التّيّار. وكلّف رفاقًا آخرين بالاستعداد للتّدخّل إذا تطوّرت الأمور.

اكتشف عبد النّاصر أنّ جماعة الأستاذ غير قادرة على تحليل أطروحات التّيّار ولا الإقناع بها وفضحوا أنفسهم بتكرار اسم المحامي الأستاذ الصّحبي االقروي، نسبة إلى مدينة القيروان، باعتباره منظِّرًا جهبذًا لهم.

وإن هي إلّا ساعة من الزّمن حتى دخل الكلّيّة الرفيق الأستاذ محاطًا بحارسيْن شخصّييْن من الرّفاق. التفت الجميع نحوه حين سمعوا بحضوره. تقدّم نحو حجرة سقراط فعَلاَ صراخ أنصاره وهو يتطاوس:

- «الصّحبي.. الصّحبي والشّعب كلّه قروي».

تجمّع الطلبة من باب الفضول. ركض عبد النّاصر ورفاقه في اتّجاه حجرة سقراط. كبرت الدّائرة وأصوات الأنفار العشرة أو أكثر بقليل تكرّر الشّعار المرفوع. أوقف الأستاذ الصّحبي الشّعارات بحركة من يديه لأنصاره. سمع الطّلبة صوتًا من بعيد يقول:

- «يا رفيق أنِي قابسي مانيش قروي».

تبعته أصوات أخرى كأنّها مرتّبة عمدًا «نا جندوبي»، «نا قصريني»، «نا كافي»، «نا باجي»، «نا بوزيدي»، «نا جربي»، «آني ساحلي»...

تتابعت الأصـوات والصّرخات وعمّ ضحك هستيري المكان. كان الأستاذ، في ذاك الخضمّ، يحاول أن يبدأ ويستأنف البدايات: «يا جماهيرنا الطّلّابيّة المناضلة...» «يا أبناء قلعة الصّمود هذه...»، «يا رفاق

الدّرْب...   ولكن دون فائدة. كان من المستحيل عليه أن يبدأ فالجميع تقريبًا يكاد يسقط أرضًا من الضّحك.

دام الأمر حواليْ ربع ساعة مسترسلة. فنزل الأستاذ القيرواني من فوق حجرة سقراط، موضع الخطباء بكلّيّة الحقوق. اتّجه نحو باب الكلّية ليغادرها عندها ارتفعت الحناجر بالشّعارات:

- «خبز، حرّية، كرامة وطنيّة»، «حركتنا مستمرّة والقروي على برّة»، «لا دستوري لا فاشستي، لا قروي لا انتهازي».

تبع حواليْ مائة طالب الأستاذ إلى باب الكلّية وبدأ بعضهم برمي الحجارة فأوقفهم عبد النّاصر وطلب منهم العودة إلى السّاحة. كان ذلك أوّل يوم يظهر فيه التّيّار الجديد ولم يعاود الظّهور إلّا بعد مدّة. غير أنّ عبد النّاصر طلب من جميع الرّفاق ألّا يستهينوا بجماعة المحامي لما يعرف عنه من خبرة تنظيميّة ومكر ودهاء سياسيّيْن. وحذرهم من أن يعتبروا أنفسهم قد انتصروا.

ولئن كان عبد النّاصر بحكم خبرته قد حذر ونبّه فإنّ ما زاده يقينًا في صحّة موقفه ما بلّغه إيّاه رفيق جديد يدرس بالسّنة الأولى. هو من ريف القيروان أيضًا ويقطن نفس المبيت الجامعي مع ابن عمّ للمحامي. حاول ابن العمّ هذا أن يستقطبه بتنظيم لقاءات في غرفته مع بعض أبناء الجهة لشرح توجّهات التّيّار. وقد ركّز على أنّ من أهداف التّيّار القضاء على الانتهازيّين وبالخصوص عبد النّاصر الذي يتّهمه الأستاذ بالانقلاب على مبادئ التّيّار. وأكبر عيوبه أنّه «بلديّ» من العاصمة بورجوازي صغير حقير مستعدّ للتّحالف مع الشّيطان بما في ذلك الدّساترة والخوانجيّة للحفاظ على زعامته.

أمّا الشّخص الثّاني المطلوب تصفيته فهو زينة طالبة الفلسفة التي

لا تتورّع في حلقات النّقاش والاجتماعات العامّة عن التّحالف مع الإخوانجيّة بالتّهجّم على الرّفيق يوسف ستالين وسبّ القائد الفذّ ماوتسي تونغ وتحقير رمز الثّورة الألبانيّة الرّفيق أنور خوجة. والأنكى أنّ العقل الثّوري الجبّار فلاديمير إليتش أوليانوف (لينين) لم ينجُ من تهجّمها البذيء. إنّ هذه البورجوازيّة تدمّر رموز الثّورة وتخدم أعداءها وهي، ولا شكّ، عميلة لأمن الدولة مندسّة تخدم أجندات مشبوهة. كلّ شيء واضح بيّن: لا بدّ لنا من التّصرّف اليوم حالاً الآن.. هنا.. حتى لا يتفشّى وباء الانتهازيّة والاندساس في قلب الحركة الطّلّابيّة المناضلة.

ترجّى الرّفيقُ الجديدُ عبدَ النّاصر ألّا يُشيع اسمه بين الرّفاق خوفًا على نفسه من أبناء جهته ومن المحامي. كان لا يريد أن يخون اليد التي امتدّت إليه، يقصد يد عبد النّاصر. فهو لا ينسى تدخّله في بداية السّنة الجامعيّة ليجد له غرفةً في مبيت الطلبة بباب الخضراء وتمكينه، قبل ذلك، من حلّ مشكلة السّكن بإيوائه في بيت يقطنه رفاق قدامى في الكلّيّة.

10

سارع عبد النّاصر إلى طلب لقاء ثان مع زينة. جاءني إلى كلّيّة 9 أفريل. كانت زينة متغيّبة عن الحصّة الصباحيّة. حدّدتُ له موعدًا معها في مكتبة شارل ديغول قرب شارع باريس وسط العاصمة في السّادسة والنّصف بعد الزّوال. كانت قد حدّثتني عن الذهاب إلى المكتبة في ذلك التوقيت وطلبت مني مرافقتها كالعادة. لم يكن بمقدوري الذهاب بسبب موعد سابق مع طبيب الأسنان. هناك سيعرض شريط وثائقي عن فكر عالم الاجتماع الفرنسيّ بيار بورديو وآثاره مشفوعٌ بنقاش حول وظيفة دور علم الاجتماع في الحراك الاجتماعيّ.

شاهد عبد النّاصر الشّريط وحضر جزءًا من النّقاش وكان يستعجل

زينة في الذّهاب إلى مكان يتحدّثان فيه على راحتهما. أصرّت على البقاء للمشاركة في النّقاش. تدخّلت برشاقة لتطرح ما تعتبره غموضًا ولُبْسًا يحفّان بمفاهيم عديدة لبيار بورديو تجعلها أقرب إلى الإنشاء البلاغيّ منها إلى المصطلح العلمي المخصِب. ذكرت مصطلحيْ «الهابيتوس» و»رأس المال الرّمزي» أنموذجيْن على الضّبابيّة المفهوميّة. دخلت في جدالٍ مع بعض المدافعين عن بورديو بحماس فيّاض.

كان عبد النّاصر يستمع إلى زينة وحديثها عن بورديو الذي لا يعرفه ولم يقرأ له ومجادلتها للباحثين في علم الاجتماع بانبهارٍ شديد. انبهر بالخصوص بلغتها الفرنسيّة الصّافية كأنّها قادمة للتّوّ من الحيّ اللّاتينيّ. يكفي أن تلبس مثل نساء باريس لينخدع بها كلّ من يراها فيظنّها باحثة فرنسيّة أو أمريكيّة أو ألمانيّة لا طالبة فلسفة جاءت من ريف ناء من أرياف تونس. كان يعرف قدرتها على الجدال وثقافتها ولكنّها كانت في تلك المكتبة شخصًا آخر قويّ الحجّة فصيحًا بارعًا. استحال الإعجاب بزينة انبهارا.

كانت السّاعة تشير إلى حواليْ الثّامنة. كان الطلياني متردّدا بين الإصغاء إلى هذا العفريت الفكريّ المنفلت من عقاله وبين تحذيرها من الخطر الذي يتهدّدها. ولكنّ انتهاء النّقاش حول بورديو حسم تردّده. نَزَلاَ الأدراجَ معًا. كثر حولها المناقشون من التّونسيّين والأجانب. همست في أذن الطلياني:

- «اقترب مني لا تتركني».

فاجأته حين تأبّطتْ ذراعَه اليمنى. أدخل يديه في جيبي سروال «الدّجينز». رمقها وكانت تواصل النّقاش مع شخص فرنسيٍّ متقدّم في السنّ عبّر لها عن إعجابه بآرائها وحاجته إلى أن تمكّنه من فرصةٍ أخرى للّقاء معه حتى يتحادثا بعمقٍ أكبر عن بورديو وآثاره. عرف من خلال

الحديث الذي دار بينهما أنّه باحث في علم الاجتماع يعدّ بحثا عن «تعامل الدّولة الوطنيّة في الفضاء المغاربي مع النّخبة الدّينيّة بعيد الاستقلال». جاء إلى تونس ليقيم مدّة سنة بصفته باحثًا في «معهد البحوث المغاربيّة المعاصرة». ردّت عليه زينة:

- «ما دمت في المعهد فسأزورك مع صديقي».

حيّاه الباحث الفرنسيّ برأسه، فردّ عليه عبد النّاصر التّحيّة ثمّ انصرفا. في الشّارع، قالت له وهي ما تزال ممسكة بذراعه:

- «أشتهي سيجارة وقهوة، لِنبحثْ عن مقهى».

ترجّلاَ في شارع باريس متّجهيْن إلى الشّارع الرّئيسي. عنّ له أن يجعل القهوة عشاء والسّيجارة الواحدة سجائر فقد أرسل له صلاح الدّين يومها بعض الأموال دون أن يطلبها منه. كأنّه حزر أنّه سيلتقي زينة. سألها إن كانت جائعة، واقترح عليها الذهاب إلى مطعم. نظرت إليه مبتسمة وقالت مازحة:

- «أتريد احتوائي في تيّاركم السّياسي أيّها الرّفيق القائد!».

- «من يقدر على احتواء زينة؟ أنت تحتوين كلّيّات برمّتها بفصاحتك وثقافتك و...».

ثم صمت. كانت تنتظر الكلمة الاخيرة ولكنّه لم يتكلّم. فقالت:

- «وماذا..؟».

- «وجمالكِ البربريّ».

- «أَغَزَلٌ هذا من الرّفيق القائد؟».

نظر إليها الطلياني. تأمّلَ عينيْها الخضراويْن. رأى بريق غنج لم ينتظره وسيماء فرح أكّدا له أنّها، رغم مظهرها، يغرّها الثناء مثل جميع الغواني. لو كان في الكلّية لَمَا تجرّأ على أن يقولَ لها ما قال:

- «كنت أصفكِ فقط.. ولو أردت الغزل لقلت شيئًا آخر».

- «هيا، ماذا عندك؟».

- «أجيبيني قبل ذلك. أنذهب إلى المطعم. ألا يوجد إشكال في المبيت؟».

ضحكت زينة بمكرٍ وعلّقت متسائلةً بتخابثٍ:

- «ألا يوجد في بيتك فراش للضّيوف؟».

- «البيت كلّه للأميرة البربريّة، ولو كان لي فراش واحد لتركته لكِ!».

غمزته وهي تقول:

- «الجنرال يبقى في فراشه والجنديّة زينة، رقم 7777، تسهر على راحته».

ضَحِكَا ضحكا صادقا. دخلاَ من شارع الحبيب بورقيبة بعد «مكتبة الكتاب» إلى نهج مرسيليا. بَحَثَا عن مكان في المطعم الصغير. وجدا لحسن حظِّهما طاولةً في ركنٍ يتهيّأ الجالسون عليها للمغادرة وَهُمْ يدفعون الحساب.

طَلَبَا سمكًا. وعندما سألها ماذا تريد أن تشرب ردّت على الفور: نبيذ أحمر. ذكّرها بأنّهما طلبَا سمكًا. أجابته بأنّها لا تنتشي إلّا بالنّبيذ الأحمر أو «الدجين تونيك» ولا تهتمّ كثيرًا بقواعد الفرنسيّين الأغبياء في الرّبط بين السّمك والنبيذ الأبيض واللّحم والنّبيذ الأحمر أو الوردي. بدأ هو بالجعة ثمّ واصل معها ما تشرب. وسألها:

- «لماذا تأبّطْتِ ذراعي منذ قليل في المكتبة؟».

- «ليذهبَ في وهمهم أنني لست وحيدة وأنّكَ صديقي أو صاحبي. فالرّجال كالذّباب يحطّون على أوّل امرأة يروْنها. لا تغرّنّكَ كثرةَ الحضور فجلّهم يأتي للتّظاهر بالثّقافة والعلم وقصدهم الظفر بفريسةٍ».

- «أَلِهذا الحدِّ؟».

- « أُقسِمُ أنّ الأغلبيّة السّاحقة من الحاضرين لم يقرأوا حرفا لبورديو. وغدًا لو الْتَأَمَ اجتماعٌ عامٌّ أو نظّمت حلقة نقاش لسمعت اسم بورديو مائة مرّة».

- « هذا صحيح.. لاحظت ذلك لدى عدد من الرّفاق».

- «تأكّد أنّه منتشر لدى المثقّفين وأساتذتنا في الجامعة».

- «من أين أتتك هذه الثّقافة، زينة؟».

- «ماذا تنتظر من فتاة لم تغادر قطّ قريتها؟ لا تعرف إلّا المعهد الثّانوي كأقصى نقطة وصلت إليها؟».

- «لكن لا تزعمي أنّ جميع أترابك مثلك؟».

- «كنتُ مغرمة بالتقاط أيّ ورقة مكتوبة. أقرأ حتى ورق الجرائد الذي يلف فيه العطّار المشتريات. كنت أقرأ كتبي الدّراسيّة جميعًا ما إن نحصل عليها من شعبة القرية أو العمدة كمساعدة للعائلات المعوزة. أقرأها وأعيد قراءتها. حتى من دون مراعاة لسير البرنامج الدراسي. أسأل التلاميذ الأكبر مني عن الكلمات الصّعبة وأحفظها وأطلب منهم كتبهم. أستعيرها وأقرؤها أيضًا. كنت محظوظة فلمّا اكتشفتْ فيَّ أمّي هذه الرّغبة أصبحت تأتي إليّ كلّ يومٍ بصحيفتيْن من بيت مشغّلها. ثمّ اكتشفتْ في دهليز البيت مجموعة من الكتب والمجلّات الضّخمة بالفرنسيّة. كانت متروكة، تقادمت من أثر الرّطوبة وتراكم الأغبرة عليها حتى أصبحت بعض أوراقها متلاصقة لا تنفصل إلّا بصعوبة وأحيانًا تتمزّق. هذه الكتب تركها المعمّر «روبير» وأبناؤه الذين كانوا يقطنون البيت الذي تشتغل فيه أمّي. تجلب لي الكتابَ خفيةً. ألتهمه بأسرع ما يكون تشوّقًا منّي للكتاب الموالي. لم أكن أفهم كلّ شيء ولكنّني كنت أسجّل الكلمات الصّعبة في أوراق أدسّها في محفظة قديمة متروكة في زاوية الغرفة».

كانت أكثر الكتب روايات وأشعارا ومسرحيات وبعض المؤلَّفات المعروفةِ لديدرو والماركيز دي ساد وستاندال وبلزاك وغيرهم كثير من أدباء فرنسا. وجدت روايات لدوستويفسكي ومسرحيات لتشيخوف وشكسبير. اعتبرت أنّ أحلى جريمة تسبّب فيها المعمّر روبير دون أن يعلم هي كتب فلسفيّة لمارلو بونتي وسارتر وروسو وغيرهم. كانت، حسب قولها، تلتهم الأدب بسرعةٍ وتتطلّب منها الكتب الأخرى وقتًا أطول خصوصًا بعد أن تعلّمتْ أن تحتفظ في كرّاسات صغيرة بفقرات تنقلها منها. وجدت نفسها فيلسوفةً رغم أنفِها وهي في مرحلة التّعليم الثّانوي.

تفطّن إليها المعلّمون ثمّ الأساتذة من خلال النّصوص التي تكتبها. في البداية، حين بدأ أثر مطالعاتها يظهر على كتاباتها المدرسيّة، اتّهمها أحد المعلّمين بالغشّ وطلب منها بحضور مدير المدرسة أن تعترف بالحقيقة بعد أن أهانها أمام زملائها. كانت خجولة، نحيفة، فقيرة الحال، رثّة الهندام. وقفت أمام المدير والمعلّم ولم تعرف كيف تبرّئ ساحتها. أجلسها المدير على كرسي وهي ترتعد خوفًا والدّموع تنهمر من عينيْها مدرارًا. طلب منها أن تقرأ الإنشاء الذي كتبته. كانت تقرأه بسلاسة أدهشته. طلب منها أن تفسّر له بعض الكلمات الصعبة التي استعملتها في تحريرها. التفت مبتسمًا إلى المعلّم:

- «أرأيت؟».

ظنّتْ أنّهما يخطّطان لطردها أو ضربها. انهارت تبكي بكاءً مرًّا. أخذها المدير من يدها وربّت على كتفيها. فتح درج مكتبه أعطاها قَلَمًا فاخرًا وقطعةَ حلوى. لم تُصَدّقْ. أكّد لها أنّه جادٌّ. نظرت إلى معلّمها وجدته يبتسم لها. ضمّها وقبّلها على خدّها. لاحظت أنّ عينيه اغروْرقتا بالدّموع.

قدّم لها ورقةً بيضاءَ فوق مكتب المدير. طلب منها أن تكتب له نصًّا

بالفرنسيّة وآخر بالعربيّة تشكره فيهما على القلم الذي أهداه لها وتصفه له. سوّدت الورقة، وجها وقفا، في وقت وجيز. طلبَا منها أن تقرأ عليهما ما خطّت يدها. لم ترَ المدير ومعلّمها فرحيْن مثلما رأتهما يومها. جمع المدير المعلّمين كلّهم والتّلاميذ جميعًا ليقدّم لهم نابغة المدرسة التي شرح الله صدرها وأقسم لهم أنّه سيكون لها شأن عظيم. أصبحت زينة حديث القرية كلّها وكادت تقضي على مورد رزق الكاتب العمومي في حانوت الحاج عمّار.

توقّفت زينة عن الحديث. تأمّلت عبد النّاصر الذي كان يعبّر بانتباهه ونظراته عن اندهاشه وانبهاره بما ترويه له. قالت:

– «أتعرف لأوّل مرّة أتحدّث عن هذه الذّكريات. ماذا وضعت لي في الخمرة حتى أفتح لك خزانة ذكرياتي؟».

– «أنا أصغي إليك.. هل لديك أنت تفسير؟».

– «ربّما لأنّك تعجبني.. شخصيّتك.. وسامتك.. أتعرف أنني شعرت وأنا أتأبّط ذراعَك بأنّني امرأة في حمايتك؟».

– «أغزَلُ امرأة برجل هذا؟».

– «صدّقني.. الآن تفطّنت إلى ذلك».

ضحك ثم قال:

– «إذن لتكن صراحةٌ بصراحة وسرٌّ بسرّ. لقد أعجبني ما بادرت به حين أمسكت بذراعي. لقد أحسست بشيء غريب منعش لا أستطيع تحديده أو وصفه».

صَمَتَا برهة من الزّمن. كانا يأكلان وكلّ يفكّر، ربّما، في كلام الآخر. قطعت زينة الصّمت:

– «أتعرف أنا الآن سعيدة، سعيدة، أحسّ أنّني ربحت صديقًا».

قال عبد النّاصر مستنكرا بمكر:

- «مجرّد إحساس بإمكان أن تكوني قد ربحت مجرّد صديق!!!».

- «لا تلمني على حذري. أنا متأكّدة أنّك مختلف ولكنّ الأيّام علّمتني الحذر من الاندفاع في الفرح ومن الحماسة المفرطة. أنا صارمة مع نفسي ومع غيري.. ومع من أحبّ وأحترم بالخصوص».

شردت لحظات تفكّر ثمّ استأنفت:

- «أعتذر عن عنادي في اللّقاء السّابق. ربّما كنت قاسية في ردودي عليك فسّر لي صديقُنا ذلك، ولم أجد الفرصة لأعتذر لك».

- «أنا أيضًا أعتذر لك. ربّما فاجأتك بطلبي. ولكن كما قلت لك، كنت مدفوعًا بالتزامي ولم يكن موقفًا شخصيًّا».

- «لا يهمّ. أعد الرّفيق القائد المعظّم، بعد هذا العشاء الذي اشتراني به، ألّا أنقد تيّاركم السّياسي».

اكتفى عبد النّاصر بالابتسام. ثمّ قال بصوتٍ خفيض بعد أن قرّب رأسه إلى منتصف الطّاولة:

«طلبت لقاءكِ اليوم لأمرٍ مهمٍّ. لا أريد أن أزعجك ولا أن أخيفك...

ثم صمت. اتّخذت زينة هيئة جادّة. قطّبت جبينها بعض التّقطيب واقتربت منه لتُصغيَ بانتباه. روى لها كلّ شيء عن المحامي وعلاقته به وبالتّنظيم والتّيّار، وأقسم لها أنّه كان سيحميها ويحميها رفاقُه لو كانت في كلّية الحقوق ولكنّ بعدَها عنه في كلّية 9 أفريل يحيّره. فسّر لها أنّ كليهما مستهدف وأنّ أولئك الأوباش الجهلة تحرّكهم الجهويّات والعشائريّة لا القيم والمبادئ. إنّهم قطّاع طرق لا يتورّعون عن شيء، خطيرون وإن كانوا يدعون إلى الشّفقة.

سألته بهدوءٍ عن الأخطار الممكنة. أجابها أنّها تتراوح بين مجرّد التّأديب بالضّرب المبرّح الذي يخلّف كدمات وخدوشًا وجراحًا وبين استعمال آلة حادّة لطعنها أو ضربها في موضع حسّاسٍ. أكّد لها أنّها مجرّد سيناريوهات ممكنة بناءً على ما يعرفه عن واقعة كلّيّة الآداب بمنّوبة يوم 30 مارس من سنة 1982 وقد كان الأستاذ المحامي من المخطّطين لها. لكنّه أكّد من ناحية أخرى أنّه ينبغي الحذر والاحتياط حتى تمرّ سنتها الأخيرة بالجامعة دون أيّ حادث. ذكّرها بأنّه لم يتبقَّ من السّنة الجامعيّة إلّا أشهر أربعة ينبغي فيها اتّخاذ أقصى درجات الحيطة.

سألته عمّا يجب عليها أن تفعله. كانت لهجتها ساخرة تداري بها بعض الخوف الذي انتابها. فقال:

– «الأمر بسيط. تجنبي الظّهور في السّاحة فقد يستغلّون الفرصة. اعتمدي في تنقّلاتك على صديقين أو أكثر من أصدقائك لحمايتك. حاذري بالالتفات دائمًا لتعرفي من وراءك. لا تنغمسي في الحديث والنّقاش فالخطر المحدق. تجنّبي الحافلات الملأى أكثر ممّا يجب واختاري فيها مكانًا قرب أصدقاء لك... هذه عمومًا بعضُ الاحتياطات».

– «معناها.. أضع نفسي في قبّة من بلّور..

– «هي مجرّد احتياطات، يا زينة. الأيّام تمرّ بسرعة. كثير من الحيطة خيرٌ من مصيبة ممكنة. أنتِ لا تعرفين هؤلاء..

– «وأنت؟ لقد أخفتني ولا أخفيك أنّني... أخاف عليك أيضًا فأنت مهدّد مثلي».

– «أنا أفعل ما نصحتك به. الفرق أنني لا أستطيع ترك السّاحة ولكنّني مطمئنّ فَلِي عددٌ من الرّفاق مكلّفون بالانتباه إلى أيّ تحرّك مشبوه داخل الكلّية وخارجها».

بدأ النّادل يجمع الصّحون الفارغة ويسأل إن كان الزّبائن يريدون

إضافة شيء فالمطعم يستعدّ للغلق. دفع الطلياني الحساب. شكرته زينة على دعوته وبالخصوص على خوفه عليها ونصائحه. وعدته بالعمل على التّطبيق الحرفي لتوصياته.

11

كانت الطّريق خالية تقريبا. طوت سيّارة الأجرة الطرّيق طيًّا إلى باردو حيث بيت عبد النّاصر الذي يقطنه مع رفيق له. كانت بعض الحواجز الأمنيّة منتصبة في حدود حديقة «الباساج» وحيّ باب سويقة قبل النّفق وفي منطقة باب سعدون. لم يوقف سيّارة الأجرة أيّ حاجز. فجلّ سوّاق التّاكسي، خصوصًا في اللّيل، ممّن يثق فيهم الأمن. كانت تحرّكات الإسلاميّين تقضّ مضجع السّلطات الأمنيّة. ولكنّ رائحة الخمر تقوم في تلك الظروف دليلاً أوّليًّا على براءة الرّاكب!.

كانت زينة في الكرسي الخلفي للسّيّارة وعبد النّاصر بجانب السّائق. أخبار منتصف اللّيل تتحدّث عن محاولات للتّظاهر وتوتّرات واجهتها قوّات الأمن بالحزم المطلوب حماية لأمن المواطنين ومواجهة العصابات المجرمة. علّق سائق التّاكسي:

- «الله يلطف بنا وببلادنا».

أجابه عبد النّاصر مستنجدًا بالسجلّ اللّغوي نفسه:

- «آمين».

لم يطلب عبد النّاصر من السّائق أن يدخل إلى نهج البرتقال. أطال الطّريق نحو البيت. أوقف التّاكسي قبالة «مقهى الحاج». واصل سيره مع زينة مترجّليْن. كان عبد النّاصر يلتفت ويتثبّت كلّما مرًّا من نهج فرعي أو زقاق. كان الشّارع خالِيًا. أدار المفتاحَ ودخلاَ. قال لزينة:

- «تفضّلي، البيت ليس من مقامك».

ضحكت وردّت عليه:

- «صحيح ما أبعده عن قصرنا في القرية! كيف تدخلني إلى هذا الكوخ أيّها الرّفيق القائد!».

خرج رفيقُه من حجرته. قدّمه لزينة. رحّب بها ثمّ عاد إلى حيث كان. أدخل عبد النّاصر زينةَ إلى غرفته. وجدتها، على غير المتوقّع من غرف الطلبة، مرتَّبة نظيفة مليئة بالكتب والمجلّات. أخرج لها من الخزانة ملابس رجاليّة للنّوم وضعها على السّرير. قدّم لها خُفَّيْنِ. كانت تتطلّع إلى عناوين الكتب حين دعاها ليُرِيَها الحمّام والمطبخ حيث الثّلّاجة. أخذ من الخزانة غطاءً من الصّوفِ ومنَ الفراشِ وِسادةً. اتّجه بهما إلى قاعة الجلوس. خرجت زينة في الأثناء من الحمّام. وجدت الفراش جاهزًا شكرته بعد أن قال لها:

- «الأميرة البربريّة يمكنها أن تنام نوم الملكات الآن!».

- «تصبح على خير أيّها القائد المُفَدَّى».

- «أحلام لذيذة».

كانت أحلام زينة، ليلتَها، لذيذةً حقًّا. فقد اكتشفت شخصًا لطيفًا راقيًا. فكّرت فيه مستعيدةً ملامحه وبعض حديثه قبل أن تنام.

سرح خيالُه في هذه المرأة الاستثنائيّة التي تنام في فراشه.

قالت لنفسها: «أوّل رجل أدخل بيته دون أن يتحرّك الحيوان الذي في داخله. كنت أودّ أن أقبّله على الأقلّ».

وقال لنفسه: «أوّل امرأة تدخل بيتي ولا أفكّر في أن أنام معها رغم شوقي. لو بادرتْ أو لمـــّحتْ لاكتفيتُ منها بقبلة حارّة تستحقّها».

هذا ما تصارحَا به بعد أيّام، وبعد تلك الحادثة التي وقّعَا خلالها بالدّم.. والقبلات ميثَاقًا غيّر حياتهما.

رواق الوجع والألم

1

كان الاحتقان قد بلغ أشــدّه. حالة من الفوضى عمّت الجامعة. ظهر مشروع وزير التعليم العالي ابن ضياء الذي كان يعني بالنّسبة إلى الطّلبة تخلّي الدّولة عن تمويل الجامعة في إطار سياسة التّعديل الهيكلي المفروضة من البنك العالمي وصندوق النّقد الدّولي. أصبح المجال خصبًا ليبرهن الماركسيّون اللّينينيّون على تبعيّة النّظام للدّوائر الماليّة العالميّة وتوجّهه اللّاوطني واللّاشعبي والعودة القويّة للّيبيراليّة الاقتصاديّة المتوحّشة كما كان يحلو لعبد النّاصر أن يعبّر في الاجتماعات العامّة. قامت الوزارة بتفعيل قانون 1973 الذي يمنع الاجتماعات غير المُرخص لها وأضافت إلى ذلك عقوبات جديدة.

صعّد طلبة الاتّجاه الإسلامي صدامهم مع النّظام. أصبحت الجامعة محاصرة بقوّات الأمن: اعتقالات وتجنيد ومصادمات ومحاصرة لبعض الأحياء الجامعيّة.

كان اليسار، حسب تحليل عبد النّاصر، في مهبّ صراع خانق: النّظام أمامه والإسلاميّون وراءه. لم يعد لطلبة اليسار مِن سَنَدٍ غير التّعويل على قواهم الذّاتيّة. فحتى الاتّحاد العام التّونسي للشّغل كان مستهدَفًا، وحتى أمينه العام عاشور سليل حزب الدّستور أصبح مُسْتهْدَفًا. ولكنّ عبد

النّاصر كان، بحماسته وخَطَابَتِهِ البارعة، يصوّر، في الاجتماعات العامّة، الأمر على أنّ البلادَ تعيش حالة مخاض ثوري وأنّ النّظام، كزعيمه، في خريفهما وستأتي أمطار الدّم لِتُطهِّرَ البلاد من الجراثيم التي عشّشت فيها. سيقوّض العمّال المفَقَّرُون والفلّاحون المعدمون دولة العمالة ونظام الكمبرادور والإقطاع، ليقيموا دكتاتوريّة البروليتاريا. ها قد حان دور الحركة الطّلّابيّة وطلائعها الثّوريّة في الارتقاء بالوعي المطلبيّ والاحتجاج العفويّ إلى مصاف الوعي السّياسي التّاريخيّ بمهام الطّبقة العاملة وحليفتها طبقة الفلّاحين.

صادف أن كان عبد النّاصر وزينة في المركّب الجامعي بمنوبة في ذاك اليوم من أيّام شهر أفريل. ذهب للتّنسيق مع رفاقٍ له تحضيرا لتحرّكٍ يُبرمجه التّيّار في مختلف الكلّيّات قبل الدّخول في مرحلة الاستعداد للامتحانات. كان تحَرُّكا للتّصعيد ضدّ سياسة القمع التي يمارسها النّظام في الجامعة وخارجَها وهو أيضًا تحرُّكٌ لإثباتِ الوجود خصوصًا أنّ الصّراعَ بين الإسلاميّين والسّلطة قد حرَفَ مسار الحركة الطّلّابيّة وجعل الذّراعَ الطّلّابيّة للاتّجاه الإسلامي أداةً لِمُناوشةِ النّظام ودفعِهِ إلى التّنازل لهم. كان عبد النّاصر يعلم بتحرُّكات القيادة النّقابيّة لاتّحاد الإسلاميّين ولقاءاتهم بعددٍ من رموز النّظام بحثًا عن الشّرعيّة والاعتراف القانوني بهم. فَهِمَ أنّها فرصتهم، كما قدّروا، فانتشروا على أوسع نطاقٍ وافتكّوا جلّ المقاعد في أجزاء جامعيّة عديدة ولهم دعمٌ لوجستي كبير. لكنّ اليسار منقسمٌ إلى تيّاراتٍ متصارعةٍ. لا مناص من التّحرّك.

أمّا زينة، فلم يتبقَّ لها إلّا شهران على أقصى تقدير حتى تغادر الجامعة. ستكون كالعادة على رأس قائمة النّاجحين. كان حلمها أن تصبحَ أستاذة جامعيّة في الفلسفة، وفي الفلسفة السّياسيّة تحديدًا. كانت تقرأ حنّا أرندت بشغفٍ وتعتبر أنّ دخول العرب والمسلمين إلى ملكوت

الحرّية يبدأ من تفكيك العلاقات القائمة على فكرة الرّاعي والرّعيّة وكشف الأساس الأبويّ لمفهوم الحكم. ذهبت إلى كلّيّة الآداب بمنّوبة لأنّ الأستاذَ الذي اختارته للإشراف عليها في إعداد شهادة الكفاءة في البحث، بعد الحصول على الأستاذيّة كما هو منتظر، كان يدرّس يومها هناك.

اِلْتَقَيَا صدفةً في الحافلة رقم 4. فَرِحَا بالصّدفة السّعيدة. كان مصحوبا بأربعةٍ من رفاقه سرعان ما فهموا من طريقة التّحيّة أنّ بين زعيمِهم وبين هذه المشاكِسةِ المطلوب رأسها من الأستاذ المحامي أكثر من مجرّد معرفة. وهذا ما فهمته أيضًا زميلة لزينة كانت تتحادث معها. لم تكنْ الحافلةُ مكتظّة، على غيرِ العادة، ولكنّهما لم يتفطّنَا إلى نظرات مَن كان معهما وابتساماتهم كأنّهم يشاهدون شريطًا من بطولة نادية لطفي وعبد الحليم حافظ. كان عبد النّاصر وزينة منهمكين في أحاديثٍ لا صلة لها بالغرام والهيام وإن لم تخفَ لهفةَ العاشقين على النّاظر إليهما وهو يقول: «كأنّهما خُلِقَا ليكونَ معًا».

حين دخلاَ كلّية الآداب كانتِ الأجواءُ مكهربة.. خُطَباءُ من الإسلاميّين يتداولون على الكلام. عددٌ كبيرٌ من الطّلبة الغرباء عن الكلّية، مثلهما، حاضرون حضورًا لافِتًا. مَرَّا من الزِّحامِ بصعوبةٍ في اتّجاه المشرَبِ. فضل رفيق عبد النّاصر، وهو من طلبة كلّيّة منوّبة، أن يمرّا من وراء المكتبة وبناية قسم الفرنسيّة ليدخلاَ ساحة المشرب من خلف.

لازم الرّفيقُ عبدَ النّاصر زينةَ وطلب من الرّفيق أن يُعْلِمَ الرّفاقَ بأنّه في الكلّية وسيحضر الاجتماعَ معهم، في إحدى قاعات التدريس، حواليْ السّاعة الواحدة بعد الزّوال كما هو مُتَّفَقٌ عليه من قبل.

2

في المشرب كانَا يسمعان التّكبيرات والأهازيج من حينٍ لآخر. عَرَفَا أنّ بعضَ الدّروس تعطّلتْ بسبب الإضراب. فقد نظّم طلبة الاتّجاه الإسلامي الاجتماع العام دون التزام بقانون 73 ودون ترخيص من العميد. وهو ما يفسّر وجود عددٍ من الطّلبة الخُطَباء مُلَثَّمين.

حدّثته عن بحثها، وعن الأستاذ المشرف الذي ستلتقيه. وعن أنّها لا تريد إضاعةَ الوقتِ. ستسجّل الموضوعَ في شهر سبتمبر وستعمل علي إنهاء بحثها في صيف السنة الموالي خصوصًا أنّها ستدرّس لأوّلِ مرّةٍ ولا تعرف أين ستُعَيَّنُ فليس لها «أكتاف» تعتمد عليها حتى تكونَ قريبةً من الكلّية والعاصمة حيث توجد الكتب والمكتبات. صوّرت وجمعت أكبرَ عددٍ ممكنٍ من المراجع وقرأتْ جميعَ كتابات حنّا أرندت لأنّها تريد لبحثها أن يكون جدِّيًا مُوَثَّقًا أحسنَ توثيق.

قالت له إنّها تخطّط لدخول الجامعة بعد سنتيْن فقط من تخرّجها. سنةٌ لإعدادِ البحثِ الذي يفتح لها باب التّسجيلِ في المرحلة الثّالثة وسنةٌ لإعداد مناظرة التّبريز بالتّوازي مع التّسجيل في الدّروس التّمهيديّة لشهادة التعمّق في البحث. اطّلعت على مواضيع السّنوات السّابقة وقرأت المقرّرات فوجدتها في المتناول. عليها فقط أن تركِّزَ على تحسين لغتها الألمانيّة تحريرًا ونطقًا. أعدّت برنامجًا يقوم على الاستماع إلى إذاعة ألمانيّة أمكن لها أن تحصل على موجاتها في الرّاديو وستعمل على أن تعيد قراءة عددٍ من الكتب الفلسفيّة التي قرأتها مُتَرْجَمةً ولكنّها تحصّلت عليها في نسختها الألمانيّة. فالمسألة عندها مسألة وقت. سنةٌ ونصف كافية بالنّسبة إليها لتحقّق أهدافَها.

كانت تتحدّث بشغفٍ عن آمالها وطموحاتها وعبد النّاصر يصغي إليها باهتمامٍ شديدٍ. فإذا بِجَلَبَةٍ وصراخٍ وتكبيراتٍ ووقع أرجل طلبة

يركضون. تطلّعا إلى خارج مبنى المشرب من الشّبّاك البلّوريّ، حُشودٌ من الطّلبة يتدافعون في اتّجاه باب المبيت الجامعي، خلف المشرب. كان الباب صغيرًا والزّحامُ شديدًا. رَأَيَا بعض الطّلبة يقفزون فوق السّورِ، وآخرون، منْهُمُ المُلَثَّمُ ومنهم السّافر، يجمعون الحجارةَ وينقلونها في اتّجاهِ السّاحةِ.

كانتْ زينةُ متوتّرةً وكان عبد النّاصر هادئًا أو يتصنع الهدوء. عمّت الفوضى في المشرب، تَدَافَعَ الطّلبةُ للخروج إلّا عبد النّاصر. أمسك زينةَ من يدِها. انزَوَيَا في الرّكنِ الأيسر من المشرب. وضعها وراءه وفتح يديه يرسم بهما في الرّكن مثلّثًا. وضعت زينة يديها على كتفيْه. التصقتْ محتمية به من خطر محدق. أحسّ بصدرها النّاهد في ظهره. دفنت رأسها بين كتفيه. شعرتْ بخوفٍ شديدٍ ممزوجٍ بسعادةٍ غامرةٍ «لحظة انتشاء يجتمع فيها تاناتوس وإيروس» على ما قالت له بعد أن انتهى كلّ شيء. أمسكتْ بحزامه وذراعيْه بقوةٍ بعد أن أسلمت خدَّها الأيمن إلى ظهره في هيئة النّائمة، واقفةً، على وسادةٍ. لم تعدْ تسمع شيئًا. خرجت من ضجيج المشرب والسّاحة لترحل في مروج القمح الأصفر الذّهبي التي تزيّنها هنا وهناك حمرة شقائق النّعمان أو»البوقرعون» كما يسمّى في قريتها. رأتْ، لحظتها، ما ملأت به الأيّام، لسنواتٍ طِوالٍ، عينيها فألِفَتْه. لكنّها رأتْ ذلك بعيونٍ أخرى وهي تعدو في تلك الحقول مع عبد النّاصر. يعدوان تحت سماء زرقاء صافية الزرقة.. تنيرها شمس مشرقة باهرة.. وحين يتعبان يفترشان الأرض ويختفيان بين سنابل القمح، يذوبان في قبلات محمومة وأحلام لا تنتهي.

أعاد دخولُ أعوان الأمن وصراخُهم وهراواتُهم زينة إلى الساحة. كان الألم الذي تسبّبه الهراوات المنهالة على رجليها وكتفها حادّا. وجدت نفسها ملقاةً أرضًا فوقها عبد النّاصر يغطّيها بجسمه ليمنع عنها ضربات

رجال فرقة النظام العام المسمّاة بالفرنسيّة اختصارا «البوب». كلّ الضّربات، تقريبا، كانت على ظهره ورجليْه ومؤخرته. وضع يديه على رأسه منبطحًا فوقها. غطّى رأسَها برأسه وهو يصرخ ويسبّ ويلعن. رأت قطرات من الدم. عادت معه واعيةً إلى حلمه. أخذت تقبّله من الرقبة، وضعت يديها على رأسه وجذبته إليها. لم يفهم في البداية ثمّ غرقَا في قبلة عميقة أنستهما الأوجاعَ والآلامَ التي سبّبها الضّرب بالهراوات. سمعت البذاءات تنثال من أفواه عونيْن أو ثلاثة تنعتها بالعهر وتهدّدها بالاغتصاب والقتل. اكتشفَا أنّهما كانا قريبين من مقرّ مكتب العميد في الجادة الواسعة المفضية إلى باب الخروج. سمعَا رجلا يصرخ طالبًا وقْفَ العنفِ وخروج رجال الأمن وترك الطّالب والطّالبة يذهبان في سبيل حالهما. عرفا من تنبيه أحد الموظّفين أو العملة لرجال الأمن أنّه السيّد العميد. سمعا، وهما منبطحان على الأرض في وضع عاشقيْن، صوتًا أجشّ يأمر بتركهما ومواصلة السّير لتنظيف دواخل الكلّية. توقّف الضّرب. فتحَا عيونهما. على اليمين السّيد العميد وجمع من الأشخاص نساء ورجالا، إداريّين أو أساتذة. وعلى اليسار مجموعة من أعوان الأمن يلبسون الخوذات وهم يتقدّمون، بهراواتهم ودروعهم، حاملين قاذفات القنابل المسيلة للدموع، متحفّزين باتّجاه المشرب. حين رفع عبد النّاصر رأسه قليلاً، رأى أمامهما ضابطا على كتفيه نجوم وشعار الجمهوريّة، أفطحَ، بدينا، مقرونَ الحاجبين يشير بيده إلى أعوان الأمن ليتقدّموا.

نظر عبد النّاصر إلى زينة. ابتسمت له. مرّرت يدها على خدّه تمسح بأصابعها الطويلة الرقيقة الدّم النّازف. ابتسم لها وهمّ بتقبيلها. جاء عونان دون خوذتين ولا عصي. أمسكَا بذراع عبد النّاصر. أنهضاه. أمسك الثّاني بزينة. سمعَ الضّابط يأمر بوضعهما في الشّاحنة. ترجّلاَ متثاقليْن. كان عبد النّاصر يتمايل جرّاء الآلام التي سبّبها الضّرب بالهراوات.

في الشّاحنة، وجدا عددًا من الطّلبة محشورين داخلها. دفعهما العونان بسيل من السّباب والشّتم والإهانات («يا ميبون»، «يا قحبة»، «يا كبّول»، «يا طحّان»، «يا بنت الفاجرة»، «يا فاسدة»..). كانت زينة الفتاة الوحيدة في الشّاحنة. التصقت بعبد النّاصر. تفحّصت جرحه. وجدته جرحًا خفيفًا في الرّأس. نظّفته بالكوفيّة الفلسطينيّة التي كان يلفّ بها رقبته. ظلّت تمسّد مواضع الألم رغم ضيق المكان في الشّاحنة. فَهِمَا أنّ أغلب الموجودين في الشّاحنة من الإسلاميّين وقليل منهم طلبة عاديّون. لم يلاحظ وجود رفاق من كلّية منوبة ممّن يعرفهم.

همست زينة في أذن عبد النّاصر:

- «لو وضعونا في السّجن معًا سأنهي كتابة بحثي في شهر وأقضي بقيّة المدّة أتأمّلك وأغرقك في القبل».

ابتسم وردّ عليها:

- «فقط!».

- «ألم يقل في الحديث اِجعلوا القبلة رسولاً بينكم».

ضحك عبد النّاصر وهو يقاوم ألمًا حادًّا عاوده في جنبيه وظهره.

3

في مركز الأمن بـ«القرجاني» توقّفت الشّاحنة. بدأت موجة جديدة من السّباب والإهانات والضّرب على الأقفية والرّكل على الأرجل والمؤخرات.

نزلت زينة، الطّالبة الوحيدة في الشّاحنة، قبل عبد الناصر. تبعها حرصا على حمايتها من الأعوان الواقفين في شكل حزام لمنع هروب أيّ معتَقَل. ما إن رفع أحد الأعوان رجله لضرب زينة حتى اعترضه عبد النّاصر بساقه اليمنى ليمنع وصول الرّكلة إلى زينة. هاج الأعوان.

هجم عليه عونان بعد أن أغلقَا باب الشّاحنة الخلفي. أشبعاه ضربًا. لم يسكت عبد النّاصر ردّ الصّاع صاعيْن بذاءات وسبًّا وبُصَاقًا واضعًا يديه على رأسه لتجنب ضربة على الرّأس قد تكون قاتلة. لم يكن الأعوان في مركز القرجاني يحملون عِصِي أو هراوات. أغلبهم بأزياء مدنيّة. أخذوه إلى غرفة فيها طاولة كبيرة بجانبها طاولة أخرى صغيرة مخصّصة لعون الرّقن فوقها آلة رقن متقادمة تحدث تكتكةً وصريرا مزعجين بمجرّد النقر على لوحة الحروف. أجلسوه على كرسيٍّ. وقف على يمينه ويساره عونان بزيٍّ مدنيٍّ يحلو لهما أحيانًا أن يصفعاه أو يشتماه. كانا يتناوبان على إهانته وسبّ أمّه وتحقير أبيه وعدِّه من الشّواذّ جنسيًّا. كان عبد النّاصر رغم تقييد يديه إلى الخلف وربطهما بظهر الكرسيّ يسبّ بدوره ويصرخ وينعت الأعوان بالجبناء والكلاب والقردة. لم يدم هذا أكثر من بضعة دقائق. دخل عون حسن الهيئة، كهلٌ قدّر عبد النّاصر أنّ عمره بين الخامسة والثّلاثين والأربعين. طلب منهم التّوقّف عن الضّرب والسّبّ. انتزعوا الرّباط من يديه. أمرهم بأخذه إلى مكتبه. قدّم إليه سيجارةً وهو يسأله:

- «أصبحْتَ إخوانجيًّا أمْ سَاقَكَ القَدَرُ إلى منوبة؟».

أجابه بلسانِ الواثِقِ المحتجِّ على تهمةٍ:

- «أصحابُ المبادِئِ لا يغيّرون مبادئَهم».

اِبتسم العَوْنُ. باغته وهو يتشاغل بالبحث عن ورقة مهمّة على مكتبه:

- «تقصد أولاد سي محمود لا تتغيّر أصولهم..

اندهش عبد النّاصر وهو يرى العون يرمقه من أعلى الورقة التي بين يديه. ذكر له أنّهما من الحيّ نفسه، وأنّه غادر الحيّ منذ سنوات. أبقاه في مكتبه إكرامًا لانتمائهما إلى الحيّ نفسه ولأنّه يعرف أنّ وصولَه إلى مركز القرجاني كان من باب الخطإ. سأله عمّا كان يفعل في منوبة وهو من قادة

ثوريي الحقوق. أخبره بصراحة بعد أن اطمأنّ إليه بعض الاطمئنان. طلب منه عبد النّاصر الإفراج عن زينة لأنّها كانت تنتظر أستاذها المشرف. تبيّن له أنّه يعرف زينة. س أيضًا ونعتها «بالتروتسكيّة» التي تنتمي إلى كلّية 9 أفريل. أفهمه أنّه سيُفرج عنها آليًّا لأنّ مهمّتهم اليوم تقتصر على إيقاف أكبر عدد من طلبة الاتّجاه الإسلامي الذين يعيثون في الجامعة فسادًا ويعملون على الإطاحة بالدّولة.

قدّم له مجموعة من الصّحف ليتسلّى في انتظار إنهاء الإجراءات وقال:

- «ستوصلك سيّارة من سيّاراتنا إلى باردو حين تحين الفرصة، أمّا إذا كنت ستذهب إلى بيتكم في الحيّ فسأتركك تترجّل».

تأكّد عبد النّاصر من أنّهم يعرفون عنه كلّ شيء، وأن هذا العوْنَ مسؤولٌ في البوليس السّياسي. غادر المكتبَ. أغلقه بالمفتاح. راح عبد الناصر يتصفّح الجرائدَ بسرعة. لم يكن فيها شيء يُقْرَأُ كالعادة عَدَا استقبالات المجاهد الأكبر ونشاطات وزرائه وصفحة الوفيات. وجد ملفًّا في صحيفة «لابراس» عن سياسة التّعديل الهيكليّ. كانت تفاهات، حسب عبد النّاصر، تدافع عن الاستعمار الجديد وهيمنة رأس المال المالي على البلاد. في صحيفة «الصّباح» في الصّفحة الثّالثة مقالات من قيادي إسلامي في الحركة الطّلّابيّة مجنونٌ بالزّعامة تتحدّث عن ضرورة إضفاء الشّرعيّة على اتّحاد الإخوانجيّة وأخرى تصوّر الوضع في الجامعة من وجهة نظر الإسلاميّين. كان ذلك، بالنّسبة إلى عبد النّاصر، صورةً من تواطؤ حكومة مزالي مع الاتّجاه الإسلامي وتحالفها القديم لضرب اليسار وإفراغ الجامعة من كلّ نَفَسٍ نضاليٍّ. حوارٌ مع قياديّ إسلامي يستجدي فيه اعتراف السّلطة بالاتّحاد الإخوانجي الذي يشقّ وحدة الحركة الطّلّابيّة ويقفز على المطلب التّاريخي للحركة منذ فيفري

72 لإنجاز المؤتمر 18 وتكريس القطيعة السّياسيّة والتّنظيميّة مع نظامِ العَمَالةِ.

مرّ على تلك الصحف في بضعةِ دقائق. ثم راح يتأمّل المكتبَ ويتطلّع إلى الأوراقِ عليه. التفتَ إلى النّافذتيْن المُطِلَّتيْن على الباحة الكبرى. كان المكتبُ في الطّابق العلويّ من البناية. نظر من النّافذتيْن رأى أعدادًا أخرى من الطّلبة في شاحنتيْن جديدتيْن. نَظَرَ إلى البابِ. اتّجه نحوه. تأكّد أنّه مغلقٌ بقفليْن غلقاً محكما أحدهما يتوسّط البابَ والآخرَ في أعلاه. حَمَلَهُ الفُضولُ إلى تقليبِ الأوراقِ على المكتبِ بحَذَر وبحيث لا يظهر عليها أيُّ أثَرٍ بتغيير موضعها. كانت برقيّات تفتيشٍ ومحاضرَ مرقونة على ورقٍ رهيف جدًّا، قصاصات من جرائد، خطايا بسبب حرق أضواء المرور... ما لفتَ انتباهَه هو أنّ المكتبَ مُنَظَّمٌ مُرَتَّبٌ حَسَنُ التّرتيبِ.

وفكّر عبد الناصر أنها فرصة ربّما لمعرفة كيف يفكّر رجال البوليس. الصمت الذي يحيط بالمكتب شجّعه على فتح أدراج المكتب. كانت ثلاثة. الأعلى مغلق بالمفتاح. والآخران بلا قفل. في الدّرجيْن الأوسط والأسفل ملفّات من الورق المقوّى زرقاء وصفراء. بعضها كتب عليه بالأحرف التّاجيّة بالفرنسيّة، وبأقلام لبديّة، الحرفان الأوّلان للاتّجاه الإسلامي. كان ملفًّا كثير الأوراق يكاد يحتلّ الدّرج الثّاني كلّه لولا وجود ملف صغير تحته. تردّد عبد النّاصر في التّعرّف على مدلوله أهو يعني «اليسار التروتسكيّ» أم «أقصى اليسار». فتحه بسرعة فتأكّد من خلال ورقة عليها اسم أحد الطّلبة المجالسيين من أصدقاء زينة أنّه يقصد المعنى الثّاني.

كان عبد النّاصر يسرع في تقليب الملفّات مخافة عودة مفاجئة لصاحب المكتب. وكانت المفاجأة عندما وجد ملفًّا متوسّطًا للتّيّار السّياسي الذي ينتمي إليه ويقوده في كلّية الحقوق. بيد أنّ المفاجأة الحقيقيّة كانت حين

وجد ورقة مرقونة كتب عليها في الأعلى وبدون ترويسة تدلّ على وزارة الدّاخليّة أو مصلحة من مصالحها عبارة «إفادة». كان محتواها واضحًا لعبد النّاصر إذ جاء فيها:

(ظهر في كلّية الحقوق تيّار سياسيّ جديد يسمّى بِـ»... « ويقف وراءه المحامي ص/ ق،

وهو حسب المعلومات التي قدّمها لنا المحامي المذكور موجّه ضدّ المدعوّ ع/ع الذي

استولى على التّيّار الأصلي في الحقوق وفي الأجزاء الجامعيّة الأخرى. أفدناكم بما عندنا

ولكم سديد النّظر.

الإمضاء. ن. ن).

ذهل عبد النّاصر وإن كان قد رأى محتوى «الإفـادة» عاديًّا. فقط تساءل عن علاقة المحامي بصاحب الإفادة. فهو إمّا متواطئ مع البوليس السّياسي وإمّا أنّ صاحب الإفادة بوليس سياسي مندسّ في التّيّار وتفرّعاته المختلفة. وضع الورقة في ملابسه الداخليّة.

أسرع في تصفّح بقيّة مكوّنات الملفّ. وجد تقارير عن حلقات النّقاش والاجتماعات العامّة وتحرّكات التّيّار وأنصاره. كانت جميع الأسماء مكتوبةً بالأحرف الأولى مصنفة حسب الأجزاء الجامعيّة. تعرّف على أغلبها. سمع وقع خطى قريبة قبل أن يدخل المفتاحَ في أحد القفلين. وكان عبد الناصر قد سارع بإرجاع الملفّ إلى الدّرج.

وقف الضابط أمام الباب وطلب من عبد النّاصر أن يغادر المكتب. تقدّم إليه وهو يهمّ بالخروج وسأله:

– «أريد التّحادث معك في أمر يهمّك. هل تزورني هنا أم نلتقي في مكانٍ آخر؟».

- «طريقانا مختلفان.. ما الذي يمكن أن يجمع شرطيًّا يخدم حزب الدستور بمناضل نقابيّ وسياسيّ؟».

- «دعك من هذه الخزعبلات.. أنا أدافع عن الدّولة.. مشكلتك مع حزب الدّستور لا معنا».

- «أنتم أداته للحكم وقمع الجماهير..

- «ظننتك أنضج ممّا تقول، التّقارير عندي إذن كاذبة؟».

صمت عبد النّاصر. فأردف العون مهدّدًا:

- «أفضّل أن تختار المكان والتّوقيت حتى لا أضطرّ إلى جلبك بالقوّة».

- «أفضّل جلبي بالقوّة..

- «فهمت.. تخشى على صورة المناضل.. اتّفقنا.. ولكن لا تقاوم حين يأتي إليك الأعوان بالزيّ المدنيّ..

سأل عن زينة قبل أن يغادر. أعلمه أنّهم أطلقوا سراحها على الفور، منذ ساعتيْن تقريبًا. ذكّره بأنّ عرضَ سيّارة الأمن التي ستوصله إلى باردو مازال قائمًا إن شاء. رفض. سلّمه ورقة صغيرة عليها رقم هاتفه للاتّصال به عند الحاجة. تردّد في أخذها ثمّ دسّها في جيب السّروال.

4

بدأت الظّلمة تخيّم على المدينة، فالسّاعة اقتربت من السّابعة. تنشّق الهواء النّديّ. شهيق عميق فزفير قويّ كأنّه يبحث عن الأوكسيجين ليتخلّص من الألم والتوتّر، أو يجدّد خلاياه العصبيّة. شعر بدوار خفيف تبعته نشوة أنسَتْهُ الأوجاع التي سبّبها الضّرب. تحسّس موضع الإصابة في رأسه. كان الدّم قد تجمّد. اتّجه نحو صيدليّة قريبة لتطهير الجرح.

تساءل عن المكان الذي قد يجد فيه زينة. ليس من الشّهامة ألّا يسأل عنها. لكن كيف يجدها وقد تخاصمت مع شريكتيْها في المسكن وذهبت منذ أسبوع لتقطن عند أقرباء لها بمنطقة «الجبل الأحمر».

عرف من الانتشار الأمني وكثرة الحواجز أنّ الوضع متوتّر وملاحقة الإسلاميّين متواصلة. لقد قتلوا منذ يوم أو يوميْن طالبًا إسلاميًّا أثناء مطاردة في أحد الأحياء المحيطة بمدينة باردو. علم بذلك صباح اليوم لدى سؤاله عن دواعي تحرّكات الإسلاميّين. ولا يدري إن كانوا قد نظّموا تحرّكات أخرى في كلّيّات غير كلّية الآداب بمنوبة.

تساءل، وهو متّكئٌ على سريره في غرفته بعد أن وضع مقطوعةً لـ «جورج زمفير» بآلة نفخٍ، ما الّذي دعا سي عثمان، ضابط الأمن ابن حيّهم، إلى طلب الالتقاء به. «هل كان يقف وراء إطلاقِ سراحِه في المرّات السّابقة وتجنيبه زيارة أقبية وزارة الدّاخليّة رغم القبض عليه أكثر من مرّة؟». استبعد الأمرَ لأنّه كان يتظاهر فقط ولم تبدر منه ممارسات عنيفة ضدّ رجال الأمن كالرّميِ بالحجارة أو استعمال المولوتوف. فأقصى ما يمكن أن يتّهم به هو الانتماء إلى تنظيم غير مرخّص له يهدف إلى تغيير النّظام أو شيء من هذا القبيل. ولكنّ الجميع يعلم أن التّنظيم المفترض لا يعدو أن يكون مجموعةً من الطّلبة الذين يمارسون العمل السّياسي في الجامعة يوزّعون البيانات ويعلّقون على الحائط أفكارَهم، ومن الغباء محاكمتهم لهذه الأسباب. أمّا الهياكل النّقابيّة الموقّتة فقد أصبحت كالهرّ يحكي صولة الأسد. هي أشبه بالمحتضر، تشقّها تناقضات لا يتصوّرها المرءُ والجميع يعرف ذلك حقّ المعرفة. لقد شاخت مثلما شاخ بورقيبة. ولكن لا أحد يريد أن يعترفَ.

5

كم مرّة فكّر عبد النّاصر في إجراء إمتحان الشّهادة الاختياريّة الأخيرة التي تبقّت له حتى ينال الأستاذيّة في الحقوق. كم مرّة فكّر في أن يقطع صلته بالهياكل النّقابيّة الموقّتة وأن يعود على الأقلّ مناضلاً قاعديًّا من الدّائرة الثّانية أو الثّالثة. بيد أنّه كلّما فكّر في ذلك وجد أنّ ما سيفعله، لو فعله، معناه انهيار كلّية الحقوق تمامًا وسقوط هذا المعقل اليساريّ بين أيدي الإسلاميّين. لم يكن يرى أحدًا من رفاقه، عَدَا جعفر أو نجم الدّين، يمكن أن يعوّضه. غير أنّ جعفر تنتابه أحيانًا، لِطبْعٍ فيه، هستيريا السّخرية من كلّ شيء فيصبح قليل الانضباط أمّا نجم الدّين فهو مُتصلِّبٌ أكثر من اللّازم، سريع الحسم، لا يرعوي إذا ما عنّ له أن يستبدل الأيدي باللّسان. إنّهما محلّ ثقة ويمتلكان ثقافةً سياسيّةً ونظريّة مقبولة ومعرفة محترمة بأدبيّات التيّار لكنّهما لا يصلحان للقيادة. وفي الآن نفسه كان عبد النّاصر يتساءل إلى متى سيؤجّل نجاحه؟ ما الّذي جناه من قيادة التّيّار؟ لقد دخل عددٌ من رفاقه الذين سبقوه، أو بدؤوا تجربتهم السّياسيّة معه، معترك الحياة. جلّهم في المحاماة في مرحلة التمرين أو استوفوا فترة التمرين وبعضهم في وزارة المالية أو الوزارة الأولى أو نجحوا في مناظرات وزارة الخارجيّة أوالمدرسة القوميّة للإدارة. نسي الرفاق القدامى التّنظيم والتّيّار وأصبحوا متعاطفين من بعيد، يتفاخرون في مقامات النّضال بتاريخهم المجيد (وإن كان أحيانًا تاريخ جبن وتخلٍّ عن المسؤوليّة) ويبحثون فعليًّا عن حياة هادئة، زوجة وسيّارة وبيت لمن وجد إلى ذلك سبيلاً. يلتقونه أحيانًا فيسألون من باب رفع اللّوم عن أحوال الجامعة والوضع مع سيطرة الإسلاميّين عدديّا وينصحون بالصّمود ضدّ المدّ الفاشستي مستعيدين مخزونهم البائد من لغة الجامعة كأنّهم يطمئنونه، أو يطمئنون أنفسهم، على أنّهم مازالوا مناضلين وإن غيّروا مواقعهم. وأنّ

التّيّار في القلب ومصلحة الثّورة تقتضي انتشار الثوريّين في المواقع كلّها.

الوحيد الذي كان صريحًا مع عبد النّاصر هو صديقنا الطّاهر. ش الذي دخل المدرسة القوميّة للإدارة. كان طالبًا متميّزًا اختار منذ البداية أن يكون مجرّد متعاطف مع التّيّار. تحصّل معنا على الباكالوريا من المعهد الصّادقي بتقدير «قريب من الحسن». شجّع عبد الناصر على دخول كلّية الحقوق. كان أخوه محامياً معروفا. ترافقَا طيلة سنتيْن. كانا يجلسان في المقعد نفسه. لم يكن عبد النّاصر يحبّ الدّراسة. يأتي إلى المعهد بكرّاسٍ فقط يضعه في جريدة ويتأبّطه وقلّما يأخذ تقييدات. كان يحبّ الكتب والمطالعة: يطالع الرّوايات والأشعار وكتب الفلسفة والتّاريخ. يقول للطّاهر دائمًا عن الأساتذة، إلّا ما ندر منهم، «هؤلاء الحمقى لم يطالعوا ربع ما طالعته. أَلَمْ تسمع التّفاهات التي يتلفّظون بها». لم يحبّ منهم إلّا أستاذ الفرنسيّة وأستاذ الفلسفة رغم أنّه يتكلّم عربيّة مكسّرة ولم يستسغ تعريب الفلسفة أبدًا لأنّه فرنكوفوني التّكوين ولا يلتزم بالأبواب المقرّرة في الكتاب المدرسيّ. يبدأ درسه دائمًا بحكايةٍ أو نادرةٍ سَمِعَهَا أو طالعها في إحدى الصحف. كان الدرس عنده لعبة فتمرّ الساعات دون شعور بالملل. يعتبر نفسه مديرا للنقاش الفلسفيّ العميق النّابع من الفلسفة العفويّة للتلاميذ. لذلك لا تجد عنده حتّى الكتاب المدرسيّ. يصل إلى حصّة الدرس دائما متأخرا. عيناه منتفختان محمرّتان من أثر السّهر والسّكر ولا شكّ. ولكنّ التلاميذ حين يغادرون الدرس يشعرون بأنّ شيئا ما تغيّر فيهم رغم أنّ أستاذهم لم يكن يملي عليهم حرفا واحدا. كان يختلق مواضيع المحاورة ويترك التلاميذ يتكلّمون، لكنّه كان بارعًا في استعادة كلام التّلاميذ مهما كانت بساطته، وأحيانًا تفاهته، ليعيد صياغته بطريقةٍ جديدة مدهشةٍ. ذلك كان محتوى الدرس. شعاره في التعليم، كما كان يردّد، « بضاعتكم ردّت إليكم».

قال له الطّاهر يومًا وقد التقاه في شارع بورقيبة صدفةً:

- «أكمل أستاذيّتك. كفاك نضالاً إلى متى ستظلّ تعيش عالةً على أخيك صلاح الدّين؟ ألا تعرف أنّ الجميع يفكّر في مصلحته؟ ألم تَرَ رفاقك ماذا أصبحوا؟ والذين معك أؤكّد لك أنّ نصفهم حمقى ونصفهم الآخر جواسيس مدسوسون يكتبون عنك التّقارير. لا ينقصك شيء. أنت ذكيٌّ ومثقّفٌ قادر على النّجاح في أيّ جامعة عالميّة وعلى التّألّق في الحياة المهنيّة... ستندم، يا عبدو، ستتذكّر كلامي».

لم يكن عبد النّاصر يدخل في جدل مع الطّاهر. فلولاه لما وصل إلى السّنة الأخيرة. كان لا يحضر الدّروس وقبل الامتحان يصوّر له الطّاهر جميع الكرّاسات والمحاضرات مرتّبة ويحتجزه في بيته طيلة الوقت اللازم ليعدّ معه الامتحان. كان الطّاهر منتظمًا في عمله يعمل بالحكمة القائلة التي يردّدها دائمًا «لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد». يتظاهر بأنّه لم يفهم درسًا أو حكما قضائيّا من الأحكام التي يحلّلونها في الدّروس التّطبيقيّة. فيوهم بأنّه يسأل عبد النّاصر عنه. وهو يفعل ذلك ليتأكّد فقط من أنّ صديقَه قد فهم المطلوب. ينجح عبد النّاصر دائما بتفوّق، وعادة ما يكون قبل الطّاهر في التّرتيب النّهائي، فيكون هو أوّل المهنّئين ويدعوه يومها، ويومها فقط، إلى أربع قوارير خضرٍ لا أكثر ولا أقلّ في حانة «الشيلينغ» أو «الرّوتوندة» أو «مقهى الزّنوج».

6

أعلمتُ زينة في الصّباح بأنّ عبد النّاصر يريد لقاءها في السّادسة بعد الزّوال. كان قد هتف لي في المساء ليعلمني بما وقع وليطلب مني تبليغ زينة رغبته في لقائها. ضرب لها موعدًا أمام قاعة سينما «أفريكا». عبّرت لي عن فرحها خصوصًا أنّها انتظرته قرب منطقة الأمن بـ «القرجاني» وظلّت

قلقة عليه. سألتني عنه بلهفةٍ لم أتوقّعها منها فعلّقتُ على ذلك قائلاً:

- «ماذا؟ وقعتِ في شراك الصّيّاد الماهر أيّتها الغزالة الشّرود».

ضحكت ضحكة أخفت بها ما بدا لي خفَرًا وحياءً لم أعتدهما منها. لم تجبني. فهمتُ وفرحتُ. بعد ساعة عادت إليّ لتحدّثني عنه حديث معجبة أو عاشقة تستزيد منّي الأخبار والتفاصيل، وعن إحساسها بالحماية والأمان معه رغم هراوات الأمن. أسرّت لي بأنّها عانقته وقبّلته أمام الأعوان وتحت ضرب الهراوات.

نهض عبد الناصر متكاسلاً. لم تنخفض حدّة الأوجاع كما كان يتصوّر رغم كمّادات الماء السّاخن والملح، وكمّادات الثّلج التي وضعها في اللّيل بمساعدة رفيقه في البيت. تناول حبّتيْ أسبيرين وقرّر أن يُهاتِفَ سي عثمان ليضبط معه موعدًا.

ذهب إلى الكلّية فاستقبله رفاقه استقبال الأبطال النّاجين من معركة. وجدهم قد علّقوا نصًّا يندّد بالقمع البوليسي واختطاف رفيقهم المناضل ويحمّلون دولة العمالة مسؤوليّة ما قد ينجرّ عن هذا الاختطاف. ودعوْا إلى تحرّكات مساندة تطالب بإطلاق سراحه دون شروط. لم تمضِ على تعليق النّصّ نصف ساعة حتى وصل عبد النّاصر إلى مشرب كلّية الحقوق. فانتزعوا المعلّقة واستبدلوها بالتّنديد الشّديد بما وقع، وبوعد بمواصلة النّضال إلى أن يسقط النّظام العميل، وعبّروا عن ترحيبهم بعودة الرّفيق المناضل إلى جماهير شعبه وطليعته الطّلّابيّة. نصّ حرّره على عجلٍ جعفر ونجم الدّين فوق طاولة من طاولات المشرب هكذا دون مسودّة ودون أخذ رأي عبد النّاصر. طلبوا منه أن يلقي كلمة في اجتماع عام منتصف النّهار للإعلام والنّظر في أشكال التّنديد بالممارسات القمعيّة.

اعتذر بسبب الآلام، لكنّه أمام إصرارهم على استغلال الفرصة لتعبئة

الجماهير الطّلّابيّة تكلّم لبضعة دقائق شاكرًا جمهور الطّلبة على التفافهم حول اتّحادهم العتيد وإحاطتهم بالمناضلين معتبرًا أنّه كان وما يزال وسيظلّ على أتمّ الاستعداد للتّضحية من أجل خلاص شعبه. وغادر الكلّية مسرعًا متعلّلاً بالأوجاع.

7

كانت السّاعة تشير إلى الواحدة والنّصف بعد الزّوال حين استقبله سي عثمان في مكتبه. أخذ عبد النّاصر احتياطاته عند الدّخول حتى لا يراه أحدٌ. كان يلتفت يمنةً ويسرةً وإلى الخلف. دلف إلى البناية مسرعًا.

أحضر له سي عثمان الذي كان يأكل «سندويتش»، قهوةً بعد أن سأله إن كان يريد أكلاً. بادره وهو يتكلّم وفمه مليء طعامًا:

- «خطابك اليوم في الكلّية معتدل.. ولكن لماذا لم تقل لهم إنّك عوملت بغير ما عومل به الآخرون؟».

- «لم يكن من حقّهم أصلاً أن يجلبوني إلى هنا».

- «مازلت تعاند.. طيّب. لِمَ لم تحدّثهم عن «الإفادة» التي سرقتها من الملفّ؟».

لم ينبسْ بكلمة. نظر إليه فقال له:

- «طبعًا كان الأجدر بك أن لا تلمس الملفّات..

استمرّ الصمت. ضحك سي عثمان ثمّ استأنف:

- «مشكلتكم أنكم تتوهّمون أنفسكم أذكى الخلق جميعًا. لا تعرفون الدّولة وتريدون الإطاحة بالنّظام. أنتم والإخوانجيّة مغرورون. شرط النّضال هو التّواضع والمثابرة في حين أنكم مغرورون».

- «هل طلبتَ مجيئي لتُلقِيَ عليّ درسًا في النّضال والوعظ والإرشاد؟».

«لو كلّمني غيرك هنا بما كلّمتني به لأريته الوعظ والإرشاد الحقيقيّيْن. ولكنّني مازلت أقدّر أننا أبناء حيٍّ واحدٍ».

- «لِمَ طلبت لقائي..؟».

- «لمصلحتك. أعرف أنك ابن عائلة، مخلص لمبادئك، ولكنّك تتحرّك ولا ترى الأخطارَ المحدّقة بك».

- «أيّة أخطارٍ عدا قمعكم؟».

- «دعك من المكابرة والمزايدة. لِمَ استعملت فراش غرفتك وقاعة الجلوس يوم أخذت زينة إلى بيتك؟».

- «ماذا؟ من أين لك هذا؟».

- «لا يهمّ أيّها المناضل الذّكيّ، المهم هل معلوماتي صحيحة؟».

- «تتجسّسون على حياتي الخاصّة.. غرستم وسائل التّجسّس في بيتي».

- «مرّة أخرى يخونك ذكاؤك.. وتندفع كثوْرٍ إسباني.. من أنت حتى نضع آلات ثمينة في بيتك؟ أتعتقد أنّك وزير أو رئيس؟ أتعتقد أنك تشكّل خطراً كبيراً؟ أم تظن أنّك شي غيفارا؟».

- «إذن كيف عرفتم؟».

ضحك الضابط ضحكة شيطانيّة مفعمة بروح الثقة والتكبّر. انهمك عبد النّاصر في التّفكير. يحاول أن يعرف من باع لسي عثمان هذه المعلومات. ذهب شكّه مباشرة إلى زينة. ظلّ بين الإنكار والتّأكيد. كيف تكون هي بثقافتها ووعيها السّياسي الحادّ ونقدها لكلّ شيء؟ كيف تكون مخبرة خسيسة دسّوها له؟ نعم. ليست منضبطة تنظيميًّا وسياسيًّا. لقد صدق الأستاذ المحامي. ولكن هذا لا يصدّق.. بيد أنّ كلّ شيء ممكن في دنيا السّياسة. هل كانت تؤدّي دورًا توهمه فيه بأنّها مثقّفة نقديّة؟ وماذا

عن قبلة الأمس وذاك الفيض من الرّقّة التي انبجست في قلب العنف المسلّط عليهما؟ لا يمكن أن تكون زينة. يكذب سي عثمان. عليه أن يفتّش البيت والغرفة ليجد وسائل التّجسّس. قطع سي عثمان هواجسه وتساؤلاته:

- «أردتُ أن أحذرك من الطّلبة الذين انشقّوا عنكم. إنّهم يريدون إيذاءك أنت وزينة. عصابة من الرّعاع يقودها الشّخص الذي سرقت إفادته من الملف. معلوماتنا أكيدة. إنّهم يحملون دائمًا أسلحة بيضاء. ها قد نبّهتك. فاعرف كيف تحذّر زينة. إنّها فتاة لا تستطيع مقاومتهم ولا نستطيع نحن حمايتكما».

- «شكرًا، أعرف هذه المعلومة.. ولكن من أين لك بمبيت زينة في غرفتي؟».

- «أوّلا أنا لم أقل أنّها نامت في غرفتك. ثانيا لم أطلب في معلوماتي مثل هذه التفاصيل الشخصيّة التي لا تهمّنا.. أصبحت أشكّ في ذكائك».

- «زينة، أخبرتكم..

- «كم أنت ذكيّ! فتاة وتخبر عن نفسها وحياتها الشّخصيّة!».

قفز إلى ذهنه اسم رئيف رفيقه في المسكن. كيف لم يفكّر فيه؟ ما هذه الثّقة العمياء؟

رئيف طالب في المعهد الأعلى لإدارة الأعمال ابن قرية قليبية. شابٌّ هادئٌ، عمول، نظيف، غير مسيّس ولكنّه لا يحبّ الإسلاميّين. له صديقة من مدينته تدرس الاختصاص نفسه في معهد عال بقرطاج. قدّمه له رفيق قديم تخرّج محاميًا وهو ابن عمّ له يبحث له عن سكن. طمأنه إلى أنّه لا يُخشى منه أيّ إزعاج. فهو قليل الكلام، ابن عائلة، أبوه صاحب قوارب صيد مستعدّ لأن يكتري له بيتًا وحده ولكنّه يفضل أن يقطن مع مَنْ يكبره سنًّا خصوصًا أنّه لم يغادر قليبية أبدًا.

قبل عبد النّاصر منذ سنتيْن تقريبا أن يشاركه البيت لمّا رآه وتحادث معه. فكّر أنّه يصلح للتّغطية على نشاطه السّياسي مع أنه لا يستعمل المنزل لمثل هذه النشاطات، فهو لا يُشكّ فيه أبداً. بدا رئيف مناسبًا جدًّا. ففي خلال يوميْن وقفت شاحنة أمام البيت. أدخل غرفة نوم جديدة مصنوعة بإتقان نجّاري قليبية وثلّاجة كبيرة مُلِئتْ سمكًا وغلالَ بحرٍ وفرنَ طبخٍ كهربائي وقاعة جلوس وزرابي وكلّ ما يلزم لمطبخ حقيقيّ بما في ذلكَ مواد التّنظيف. استأذن رئيف عبد النّاصر في إدخال ثلاث معينات منزليّة لتنظيف البيت بما في ذلك غرفته. حين عاد الطلياني وجد غرفته مرتّبة بطريقة لم يعهدها ذكّرته بما كانت تودّ أن تفعله أمّه زينب وأخته جويدة. تأكّد أنّه أَحْسَنَ الاختيار. رأى في سلوك رئيف معه مثالاً للجدّيّة والرّغبة في توفير ظروف سكن جيّدة. أصبح لهما في البيت تلفاز وآلة تسجيل كبيرة وفرن كهربائيّ في المطبخ. كانت المعينة المنزليّة التي يدفع رئيف أجرتها تأتي لتنظيف البيت ثلاث مرّات في الأسبوع الإثنين والخميس والسبت. تعدّ ما أمكن من طعامٍ تضعه في الثّلّاجة. وحتى عندما تتغيّب يقوم رئيف بالمهمّة.

كأنّ سي عثمان أدرك أنّ عبد النّاصر لم يجد من يتّهمه إلّا رئيف فقال له:

- «لا تظلم رئيف فلا دخل له في المسألة».

- « مَنْ إذن؟ أكاد أجنّ».

- «عليك فقط أن تعرف أننا أقوى ممّا تتصوّر لذلك لن تنتصروا..

وضحك ضحكة مجلجلة ثمّ أردف ساخرًا:

- «أليس الشّيطان ثالث اثنين.. ونحن نتعامل مع الشّياطين. دعك من هذا واحْتَطْ لنفسك ولحبيبتك الجديدة».

انتهت المقابلة، وعبد النّاصر سَاهِمٌ، يفكّر في مَنْ وَشَى به. صافح سي

عثمان منكسرًا. فمن يملك عنك معلومات تظنّها خاصّة جدًّا كمن عرّاك وجلس يهزأ من عورتك.

لمّا وصل إلى الباب وهمّ بالخروج سمع صوت سي عثمان يصله حازمًا آمرًا:

- «غيّر المعينة المنزليّة. لا تقل شيئًا لرئيف وزينة».

بنات الكلب! ندافع عنهن ويبعننا. وما الّذي يُرتجى من البروليتاريا الرّثّة؟ رغم ذلك شعر بسكينة داخليّة هدّأت العواصف التي اجتاحت نفسه. فلم تكن زينة بالنّسبة إليه مجرّد طالبة دخلت بيته ونامت في فراشه وغادرت كغيرها من الطّالبات اللّاتي زرنه. لقد تركت رائحتها الأخّاذة في الغطاء والمخدّة والمنامة التي ارتدتها ليلتها. أصبح طيفها يزوره كلّما أغمض عينيه ليشمّ تلك الرّائحة المنتشرة حتى في الكتب والأوراق والأقلام على الطّاولة الصّغيرة. الرّائحة نفسها التي ملأت خياشيمه وسكنته أمس وكانت أقوى من رائحة الغاز المسيل للدّموع الذي غمر أرجاء المشرب في الكلّية.

8

أمام سينما «أفريكا» كان الشّارع مكتظًّا بالنّاس. حضر قبل نصف ساعة. اشترى تذكرتيْن. كان واقفًا أمام قاعة السّينما ينظر في اتّجاه شارع الحبيب بورقيبة ينتظر انعطافتها فإذا بيديْن رقيقتين تجيئان من خلف، وأغمضتا عينيه. أدرك على الفور أنّها زينة.. كان متأكّدا من أنّها زينة. لقد اشتمّ رائحتها. وضعت يديها حول خصره والتصقت به ضاغطة بصدرها على ظهره. كان كلّما حاول الاستدارة استدارت معه.

عندما نزعت يديها وسلّمت عليه بقبلة خفيفة على شفتيه، لاحظ تغيّرًا ما في عيني زينة كانت قد وضعت كحلاً أسود زاد في لمعان خضرتهما. همس:

- «اشتقت لك..

- «كنت سأزورك في البيت لو لم تضرب لي موعدًا اليوم... لقد خفت عليك كثيرًا.. لم أنمْ..

تعانقا. سمعا رنين الجرس المؤذن ببداية الشّريط. أعلمته أنّه سبق لها أن شاهدت «أماديوس» ولكنّ مشاهدة المجنون موزار مع رجل بدأ يجنّنها يعطي للشّريط نكهةً أخرى. قالت له:

- «بالأمس كانت قبلتنا على وقع نباح الكلاب وعضاتها جنونًا مبدعًا ستسجّله الحركة الطّلّابيّة المناضلة في تاريخها!».

كانت القاعة مليئة بالمشاهدين. تشابكت أيديهما. وضعت رأسها على كتفه كعاشقة حقيقيّة.

نامت ليلتها بين أحضانه لينعم برائحتها التي أفعمت قلبه. ظلّ يتشمّمها. يدسّ رأسه في شعرها القصير وصدرها الباذخ.. مرّغ أنفه في جسدها كلّه. كانت مستسلمة له تمامًا لا تبدي حراكًا ولا تأوّهًا ولا أيّ وجه من وجوه التّفاعل. تفطّن إلى ذلك بعد أن أحسّ ببهجة عارمة تغمره فنظر إليها ليتثبّت من أثره في الجسد الغض الصّارم. بدت له، وهي مغمضة عينيها، كالهائمة في عالم آخر منفصل عن جسدها. توقّف ممرّرا يده على خدّيها. ظلّت مغمضة العينين. رأى دمعةً تنحدر من عينها اليسرى. انتفض. رفع جذعه عنها وطلب منها أن تفتح عينيها الحلوتيْن. كانتا مغرورقتيْن دمعًا. سألها ما بها. قالت له، وقد جذبت رأسه إلى صدرها ضاغطة عليه تمرّر يدها اليسرى على لحيته واليمنى على فروته:

- «لا شيء.. لاشيء.. دموع فرح.. مشاعر جيّاشة انتابتني».

صدّقها عبد النّاصر. التصق بها ووضع رأسَها على صدره. اشتهيَا سيجارةً. ذهبَا إلى قاعة الجلوس. كان ضوء غرفة رئيف مطفأ. فضّلا الجلوس على طاولة المطبخ. سألها إن كانت تريد أن تأكل شيئًا خصوصًا

أنّها لم تأكل عند العشاء إلّا القليل من سمكةً مشويّةً أعدّها رئيف. قدّم لها صحنًا من «المكرونة» بجراد البحر. قالت له ساخرةً:

«مناضل طبقي وزعيم طلّابي يأكل جراد البحر ويعيش عيشة البورجوازيّة!!».

- «صحيح، لكن هذا كلّه من خيرات ابن الثّريّ الذي يقطن معي. وأنا لا اعتراض لي على رفاهيّة العيش. أتعلمين أنّ لينين كان يحلم بمراحيض من الذّهب في مجتمع تزول فيه الطّبقات؟».

تقصد في جنّة الشّيوعيّة الموعودة».

- «أنا الآن منتش بجنّتك أنت.. ببذخ روحك وسحر عينيك ونعيم جسدك».

- «مناضل طبقي وشاعر رومنسي! أم م م م م... لذيذ».

جلست على ركبتيْه وأكملت طعامها. ثم استدارت بجسدها لتجلس على ركبتيه وجهاً لوجه. طوّقت بيديها رقبته. طفقت تتأمّله مبتسمة مجيلة نظرها في وجهه وهو متسمّر يركّز على عينيْها السّاحرتيْن. نَسِيَ بقايا الأوجاع في جسده. سألها إن كانت تعتبر ما يجري بينهما مغامرة إلى زوالٍ أم أنّ شيئًا آخر يحدث. علّل ذلك برغبته في الوضوح. أجابته ببيت نسبته إلى محمود درويش: «إنّ الوضوحَ جريمةٌ وغموض موتاكم هو الحقّ الحقيقة».

أفهمته أنّها لم تكن تؤمن بما يسمّيه النّاس الحبّ والغرام والعشق والهيام. شرحت له نظرتها إلى الحبّ باعتباره أفيون الحيوان النّائم في قلب الإنسان يقلّم مخالبه ويروّض غرائزه. فسّرت له أنّ كلّ شيء لا بدّ، عندها، أن يمرّ بمحك العقل وأنّها رأت كلّ الرّجال الذين سعوْا إليها منافقين ينظرون إلى وجهها وذهنهم يفكّر في طريقة الوصول إلى ما بين فخذيْها. صارحته بأنّها لم تكن تستثنيه، ولا تفكّر في استثنائه، وأنها

كانت ترى أنّ الفرقَ بينه وبينهم إنّما يتمثّل في انضباطه، باعتباره شخصيّة عموميّة في الفضاء الجامعي، تحتاط وتأخذ مسافة بإزاء الأشياء حتى لا تخرج ضعفها وجراحاتها ولا تجد نفسها في قبضة الأعداء أو من تتوهّم أنّهم أعداء.

استدركت بعد أن عبّت أنفاسًا من السّيجارة وأخرجتها على شكل دوائرَ في جوّ المطبخ. شرحت له أن إعجابها به كان فكريًّا رغم ما بينهما من اختلافاتٍ في الأفكارِ والآراء. لم تُخْفِ عنه أنّها وجدت شخصيّته قويّة مؤثّرة ساحرة وأنّ بلاغته عند الحديث تمكّنه من أن يُخرجَ أبسطَ الأفكارِ وعاديها مخرجًا رائقًا نافذًا إلى القلوب. بيد أنّ ما وقع بالأمس في كلّية الآداب بمنوبة كان فوق خيالها، فوق ما تتصوّر. صارحته بما حلمت به وهي متّكئة على ظهره في المشرب أقسمت له أنّ لذاذة القبلة تحت الهراوات ما تزال تسري إلى الآن في عروقها. وكشفت له أنّ اللّيلة التي قضتها في غرفته أبانت عن نبله وشهامته واحترامه للمرأة فعلاً لا قوْلاً وإن كانت اشتهت تقبيله لشكره على تلك السّهرة الرّائعة وقالت له:

- «لقد تأكّدت... شعرت معك أنني في حماية أسدٍ لا يريد بي سوءًا ولا ضررًا».

فاجأته وهي تؤكّد له أنّ ميزته عن غيره ممّن صادقتهم أو عرفتهم تكمن في كونه أرجعها إلى الحلم. لم تحلم منذ مدّة طويلة. منذ طفولتها. أعادها إلى الحقول قبل أن تفقدَ ذاكرة القمح وشقائق النّعمان. أحسّت معه، بأنّ ما يسمّى الحبّ في لغة النّاس كلمة لها مرجع وليست مجرّد أفيون لكنّها لا تستطيع أن تجزم بشيء. قالت له:

- «لا أعرف.. لست متأكّدة.. لا أريد أن أخدعك.. هل ما أشعر به نحوك هو انجذاب بسبب ما عشناه أمس أم هو الحبّ؟.. لست أدري. لا أعرف.. .

قال لها عبد النّاصر:

- «مهما يكن من أمرٍ أنا أشعر معك بحالة اكتمالٍ مّا.. لا أعرف له اسما.. ولكنّني لا أتردّد في أن أسمّيه الحبّ. ماذا تسمّين الشّوق إلى الآخر، الخوف عليه من أيّ مكروه، الاندفاع بعفويّة إلى حمايته، رائحته التي لا تفارق أنفك، البهجة التي يحملها طيفه، رنّات الصّوت التي تسمعها وهو غائبٌ... كلّ التّفاصيل... ماذا تريدينني أن أسمّيه؟ إعجاب؟ انجذاب؟... لن أخسر شيئًا ولا أريد أن أنكّدَ فرحتي بك.. أنت أفيون لذيذ يطلق الجواد المجنح داخلي.. فما العيب؟».

وقفت. دارت حول الطاولة. جلست على كرسيّ قبالته. أشعلت سيجارةً أخرى. تنهّدت. بَدَا وجهها صارمًا. زالت ابتسامتها وامتقع وجهها:

- «لستُ ضدّ الحيوان فينا، ولكنّني أخشاه. لقد آلمني ونقش في جسدي جرحًا غائرًا لن يزولَ..

وضعت يديها على الطّاولة وغرست بينهما رأسها. أخذت تنشج نشيجًا خفيفًا. نهض عبد النّاصر أخذ رأسها من بين يديها وراح يقبّلها ويمسح دموعها التي أسالت الكحل معها دون أن يفهم لِمَ دخلت في هذه الحالة الغريبة. سألها مرّات عن السبب فزاد بكاؤُها وقَوِيَ نشيجُها. أحكم إغلاقَ باب المطبخ. اقترب من الشّبّاك. فتحه على مصراعيْه. جرّها من يدها لتستنشقَ الهواء. ذهبت إلى الحمّام. سمع ماء الحنفيّة يسيل وهي تتمخّط. إن هي إلّا دقائق حتى خرجت زينة من الحمّام معتذرةً عمّا سبّبته له من إزعاجٍ. أجابها وهو يحتضنها ويدفعها إلى غرفةَ النّومِ:

- «عن أيّ إزعاج تتحدّثين؟! أنت أميرتي البربريّة التي أخذتني إلى براري العشق».

ابتسمت وهي تحرّك رأسها في شيء من الاستهزاء المشوب بالحسرة قائلةً:

- «أنت لا تعرف شيئًا.. عن أميرتك وما عانته من البرابرة».

- «لا يهمّني ما كان.. أنظُرُ إلى ما هو كائنٌ وما سيكون؟ خانوكِ؟ ضحكوا عليكِ؟ خدعوكِ وافتضّوا بكارتك..

- «ليتهم فعلوا ذلك!!».

قالتها وقد عاودها النّشيجُ. فكّت نفسها من حضنه. ابتعدت عنه. جلست متربّعةً في الرّكن المقابلِ من السّرير تحرّك رأسها وأحيانًا تحرّك جذعَها إلى الأمام ثمّ إلى الخلف كمن يزيل بتلك الحركاتِ تَوَتُّرَهُ. غيّرتْ جلستها جمعت ركبتيْها إلى صدرها ولفت عليهما ذراعيْها. وضعت رأسها على الرّكبتيْن. كانت تتحاشى نظرات عبد النّاصر. تسترق إليه النّظر بين الفينة والأخرى. كان يراقبها ملتزمًا بتعليماتها. ألقى بالمخدّة وراء ظهره. استند إلي ظهر السّرير ومدّ رجليْه الواحدة فوق الأخرى كالمتهيِّءِ لسماع ما سترويه له. كان يتصنّع الهدوء دون أن يعلّق بشيء.

9

وقع كلّ شيء في تلك الصّائفة. الجميع على علمٍ بزواج البنت البكر لسيدي خليفة. طبعًا سيدوم الحفل سبع ليالٍ ملاح كما يليق بحسناء مدلّلة تركت دراسة اللّغة الفرنسيّة بعد سنتيْن من ذهابها إلى الجامعة لتقترن بابن عمّها، شابٌّ وحيدُ والديْه سيرث النّصف الثّاني من أراضي القرية كلّها. كثرت فضائحه وزياراته خارج القرية. كان يغيّر سيّارته كما يغيّر خليلاته. إذا سكر استنفرت القرية كلّها فلا أحد بمقدوره أن يعرف نزواته. لا أحد يجرؤ على وضع حدٍّ لاستهتاره. يتصوّر أنّه ربّ الخورنق والسّدير يمتلك الأرض والعباد ويستبيح الحرمات إذا حكمت عليه الخمرة بذلك. لا يقف أمامه شيخ أو كهل أو شابّ مادام أعوان الحرس حلفَاءه الذين يشتريهم أبوه بالمال والخيرات التي يغدقها عليهم.

أخذ يومًا بندقيّة الصّيد، وذهب لصيد الخنازير في غابات عين دراهم، وزيّن له السّكر أن يصطاد الدّجاجات والكلاب والقطط والأبقار وكلّ ما يمكله الفقراء ومن هم أعلى منهم درجةً في سلّم الفقر. هاجت القرية وماجت. اجتمع الشيوخ ليطلبوا من الأب كفّ أذى ابنه الذي تجاوز كلّ حدٍّ. أرعب النّاسَ جميعًا ولم يعد من الممكن أن يقبل منه كلّ ذلك. ازدراهم الأب. رمى في وجوههم لفائف من الأوراق النّقديّة تعويضًا لخسائرهم. رفضوا المالَ وتركوه متحسّرين. بعد حواليْ شهر افتقد الأب ابنه. أرسل الفلّاحين للبحث عنه. تجاوز غيابه السّتّ والثّلاثين ساعة. وجدوه وسط الأحراش قرب الوادي مقيّدًا مغمًى عليه. آثارُ ضربٍ مبرّح بالسّوط والعصي والحجارة في كل مكان من جسده. كان وجهه مشوّهًا باللّكمات. لا تكاد عيناه تبينان من فرط الانتفاخ وازرقاق الوجنتيْن. من الواضح أنّ النّيّة لم تكن قتله بل تأديبه عساه يثوب إلى رشده الذي ذهب به مال أبيه. وجد الفلاحون أيضًا سيّارته الفاخرة مهشّمة البلّور كلّيًّا، مثقوبة العجلات، ملقاة في الوادي. لم يعرف أحدٌ من فعل ذلك.

جاء الحرس. استنطقوا شبّان القرية. عذبوهم عند الاستنطاق. لا أحدَ اعترف. تيقّنوا أنّهم بريئون. وسّعوا نطاق البحث ولا مِن مُتّهمٍ ثبتت عليه التّهمة. الافتراض الوحيد الذي بقي هو أن يكون الأمرُ انتقاما من أهالي قرية أخرى قد يكون اعتدى على شرف إحدى بناتها أو أن يكونَ الفاعلون، وعددهم حسب ما يذكر الشّابّ يناهز السّتّة أنفار ملثّمين، قد استأجرهم بعض من يريد تأديبه. لا يذكر الشّابّ ما وقع بالضّبط فقد كان عائدًا في سيّارته مخمورًا وتوقّف ليتبوّلَ في الطّبيعة. بدأ مهرجان اللّكمات والرّكل والضرب إلى أن فقد وعيَه. غطّسوا رأسه في ماء الوادي الآسن. كاد يختنق. استفاق قليلاً دون أن يقوى على الحركة. لم يتمكّن من التّعرّف على الفاعلين. سُجّلت القضيّة ضدّ مجهول. لم تنفع الأموال

التي دفعها الأب الثّريّ للجواسيس ورجال الحرس الوطنيّ وأبناء القرية في التّعرّف على الجناة. والحقّ أنّ الجميع، بما في ذلك أعوان الحرس، استراحوا من عربدة الابن ومشاكله. خلّف التّأديب لديه عرجًا خفيفًا واعوجاجًا في فكّه الأسفل مع سقوط بعض الأسنان التي عوّضها بعد مدّة.

قرّر أبوه تزويجه فغابت أمّ زينة في بيت العروس مدّة أيّام عشرة تقريبًا استعدادًا لليوم الموعود. أصبح البيت خاليًا طيلة اليوم تقريبًا إلّا في أوقات القيلولة وفي اللّيل. زينة هي الوحيدة التي تشرف على كلّ شيء في البيت. أصبحت الصبيّة لا تجد الوقت الكافي للكتب والمطالعة. أوصتها أمّها بأنْ تقوم مقامها وتعوّضها أحسن تعويض حتى إذا عاد أبوها وأخوها من الحقول وجدَا الطّعامَ جاهزًا.

10

كَانَ رجلا البيت ينهضان مع الفجر ويعودان حين يشتدّ الحرّ طلبا لبعض الرّاحة قبل الرّجوع إلى العمل. فموسم الحصاد في أوجه. لقد أنهك الوضعُ الجديد في البيت جسدَ الصّبيّة. والحديث عن البيت هو من باب المجاز. فراش بمثابة دكّة علوّها متر ونصف تقريبًا. في أسفلها حصر تتكدّس فوقها الملابس. يحتلّ الرّاديو أحد الأركان، وفي الركن المقابل حقيبة كبيرة متقادمة حشرت فيها لوازم مختلفة، وتتوسّط مائدة صغيرة للأكل ما تبقّى من الغرفة. لم تكن الغرفة كلّها تتجاوز المترين عرضًا والثّلاثة أمتار طولاً هي كلّ البيت. بجوار غرفة النّوم والأكل وقاعة الجلوس هذه مكان مغطّى دون باب يستعمل للطّبخ وتوضع فيه الأواني القليلة والموقد. وبقربه فرن من الطّين لإعداد الخبز. وأقرب منه موضع الخلاء.

في موسم الحصاد، تعمّ رائحةُ السّنابل والتّراب المتيبّس الغرفةَ. كانت هذه الرّائحة على عطونتها وقوّتها تثير زينة. تظلّ تستنشقها لسبب لا تعرفه. ولم تحبّ في حياتها إلّا هذا الرّائحة ورائحة زيت الزّيتون منذ كانت أمّها تدهن به جسدها وتكبّس به شعرها قائلةً لها:

- «إنّه يجعل بشرتكِ صافيةً، رطبة الملمسِ.. لقد وهبنا اللّه زيت الزّيتون ليغذِّيَ الجسمَ مأكولاً أو مشروبًا، وندهن به رؤوسنا وجلدتنا».

كانت لا تخجل من دهن قُبل زينة ودبرها بهذا المرهم الطّبيعي، قائلةً:

- «ستكبرين وتعرفين لِمَ أفعل لك هذا، وستترحّمين عليّ».

لم تكن زينة تعرف السّبب ولكنّها اعتادت أن تفعلَ ذلك بنفسها قبل أن تنام ولم تتخلَّ عن عادتها إلّا حين دخلت مبيت المعهد الثانويّ.

أخذ منها التّعب يومًا كلّ جهدها. فقد طبخت وغسلت الملابسَ ورتّبت البيت ورَحَتْ صاعا من القمح أعدّت بدقيقه الخبزَ وذهبت لمساعدة أمّها في بيت سيدي خليفة في المساء. غلبها النّومُ فاستسلمت له ولم تستيقظ إلّا قبيْل الفجر مذعورةً.

كان أبوها وأخوها ينامان على الدّكّة يتصاعد شخيرهما، من شدّة التّعب ومفعول السّجائر ولا شكّ. أمّا هي فتنام على الحصير في الأسفل وقد التفتت إلى حائط الدّكّة.

أحسّت ليلتها أو فجرها أو قُبَيْلَ الفجرِ، بسكّينٍ من لحمٍ يخترقها من الخلف متّجِهًا نحو الدّبر مرّةً والقبل مرّةً أخرى. كان السّكّين ينزلق بفعل الزّيت الذي دهنت به أو بفعل ماء آخر سال من السّكّين أو بفعل الدّم الذي نزف منها ووجدته على ملابسِها وفوق الحصير حين استفاقت. لم تصدّقْ. أرادت أن تلتفتَ، أن تصرخَ، أن تبتعد بجسمها ولكنّ السّكّينَ كان صلبًا قاطعًا يتحرّك داخلها كالمنشار. يدٌ على فمِها تكتم أنفاسَها تمنعها من الصّراخِ والأخرى تلصق رأسَها بالحائط حتى تشلّ حركتَها.

فهمت أن أمرًا معيبًا حَدَثَ. يالَلْفضيحةِ! هل تصرخ؟ ولكن مَنْ وراءها، مَنْ صاحبُ السِّكّين؟ أبوها؟ أخوهَا؟ شخصٌ آخر. لكنّ الرّائحةَ تعرفها، رائحة السّنابل والتّراب. مزّقها الألم. أصبحتْ كالبكماء أحسّتْ بدمعٍ حارٍّ يسيل على خدّيْها، غابتْ عن الوعيِ من شدّةِ الصّدمةِ. لَمْ تُصدِّقْ. أكابوس هو أم حلمُ يَقَظَةٍ؟ ولكنّ اليَدَ تضغطُ عليها بشدّةٍ. وهذا الدَمُ. هذا السّائل اللّزج الذي وجدته.

لَمْ تَرَ أحدًا في الغرفةِ. تطلّعتْ خِفْيَةً إلى الدّكّةِ كقطٍّ يتطلّع إلى فأر. لم يكنْ فوق الدّكّة أحدٌ. واربت الباب ثمّ وسّعته شيئًا فشيئًا. كان المكانُ هادئًا لا أَثَرَ فيه لأيّةِ حركةٍ عَدَا الكلب يحرّك ذيْلَه مستسلمًا لِنَسَائمِ الفجرِ.

أخرجت رأسَها من الباب كلصٍّ حَذِرٍ. التفتت في جميع الاتّجاهات. ذهبت إلى المطبخِ. أخذت سطل ماء حملته معها إلى المرحاض. شرعت تدلك نصفها الأسفل وهي لا تعرف أتبكي أم تعض شفتيْها حتّى لا يصدر عنها أيّ صوت. خرجت لملءِ السّطل ثانيةً. جرت لتأخذ إسفنجةَ الغسيلِ. عادت إلى المرحاض وأخذت تدلك قُبُلَها وفخذيْها ودُبُرَها بقوّةٍ كأنّها تريد أن تقشِّرَ جلدَها، أن تكشطه، أن تقتلعه. إحساسٌ بالقذارةِ والوسخِ جعلها تملأ السّطلَ مرّاتٍ كثيرةً. لم تكن رغوةُ الصّابون الأخضر الكثيفةَ كافيةً بالنّسبة إلى زينة لإزالة الأوساخ. احمرّ جلد جسمها الأبيض. كادت تخرّق قبلها وتفلق دبرها وهي تدخل الإسفنجة فيهما. كان ذلك يؤلمها ولكنّه لا يعادل الألمَ الذي أحسّت به حين اخترقها سكّين اللّحم.

تمنت أن تشعل الحطبَ في فرن الخبز وتجلسَ فوق فوهته عسى النّار تطهّرها وتزيل ما تشعر به من عفونة، عساها تحرق المادّة اللّزِجَةَ التي مازالت تشعر بها تتقاطر وتنزلق بين فخذيها، تذيب جلدَها ولا تترك إلّا اللّحم المشويّ. نارٌ داخلها، في أسفلها، تجعلها تحسّ بالاحتراق.

تقيّأَتْ مرّاتٍ، كانت بطنها خاوية. أخرجت من فيها مادّةً لزجَةً تشبه

ما سال بين فخذيْها وعلق بالزّغب على عانتها. كادت عيناها تنفطران، تخرجان من المحجريْن. انتفخت أوداجها كديكٍ روميٍّ من شدّةِ الإحساس بالاختناق وصعوبة إخراج ما في بطنها. سكبت سطلَ ماءٍ على رأسِها. أحسّتْ بقشعريرة في جسمها. ابتلّ فستانها ولكنّها أحسّت براحة كبيرة كأنّ الماءَ الباردَ أطفأ النّارَ التي سرتْ في جسمها.

كانت مذهولةً لا تدري ما تفعلُ. ذهبت إلى المطبخ. أخذت سكّينًا، السّكّين الكبيرة. وضعتْها على مِعْصمِها. فكّرتْ في أن تبقرَ بطنَها. لِمَ لا تغرسه في قبلها؟ وضعتها على رقبتها تذكّرتْ النّحْرَ من الوريد إلى الوريدِ.

ماذا لو كان كابوسا؟ ولكنّ الدّماءَ على فخذيْها وذاك السّائل المصفرّ. من قال إنّه أخوها؟ من قال هو أبوها؟ لا يمكن أن يفعلاَ ذلك. لعلّه غريب. مَنْ يكون؟ وتلك الرّائحةُ التي تعرفها جيّدًا. ليستْ دليلاً. فالغريبُ قد يكون كذلك فلّاحًا يحمل رائحةَ الحقولِ. لَمْ تَرَهُ.. لم تر أحدا. أُغْمِي عليها. ماذا ستقول لأمّها؟ مَنْ سيصدِّقها؟ لعلّها تعرّتْ وهي نائمةٌ؟ أهِي أوّلُ مَرّة تتعرّى فيها دون أن تشعُرَ؟ هل كان وجودُ أمّها يحميها؟ ولكن مِمَّنْ؟ مِنْ أبيها؟ مِنْ أخيها؟

لمْ تقطعْ هواجسَها إلّا خالتي حليمة التي أخذتْ كعادتها من بعيد تُنادي أهْلَ الدّارِ. قرفصتْ أمام باب الغرفة تُثَرثِرُ. تتحدّثُ عن الجديدِ في القريةِ، عن ابنها سالم في ليبيا الذي تريد أن تزوِّجَهُ زينة. ماذا تفعل بالدّراسةِ صَبيَّة أصبحت في الرّابعة عشرة؟ فالفتاة مصيرُها الزّواج. سيعود سالم قريبًا يطلب يدها رسميًا ليبني عليها ويدخل بها حين يكمل بناء البيت ويجمع بعض المال. أوصتْه أن يشرَعَ في انتقاء الذّهبِ المناسب لعروسه زينة، زينة القرية والبنات.

كانت مجبرةً على سماع الإسطوانة المشروخة. سمعتْ هذا الحديثِ

أكثرَ من مرّةٍ. أدخلتْ خالتي حليمة يدها في صدرها ومدّتْ إليها قطعةً من علك ليبيا، ألذّ علك في الدّنيا يطيّب الفم ويزيل الرّوائحَ الكريهةَ خصوصا في الصباح وبعد الأكل.

أصبحت زينة تكره نفسَها. رغم ذلك أعدّت الطّعامَ للأب والأخ. لم تستطع مواجهتهما. كانت تسترق إليهما النّظر، وبدوْا لها عاديّيْن. كأنّ شيئا لم يقع. لم تلحظْ عليهما أيّ ارتباكٍ. يحدّقان فيها كالعادة بوقاحة. يطلب منها الأب أن تحضر جرّة الماء بسرعة. ويسألها الأخ إن كانتْ قد قلت قرون فلفل مع الكسكسي غير الفلفل المطبوخ. لم يسألها أحدٌ منهما عن تعكّر مزاجها أو عن ذهولها أو شرودها. طلبَا منها الإسراع بالشّاي بعد أن تجشّآ كثوْريْن. كانت قد بالت في الكسكسي عند سقيه بالمرق، بصقت بكلّ ما أوتِيَتْ من جهدٍ في المرق. كان ذلك بداية انتقامها منهما. اشتمّت رائحة البول عندما تجشّآ.

أرادتْ أن تصرخَ في وجهيهما معبِّرةً عن كرهها لهما. فكّرت في أخذ السّكّين لطعنهما أو القضاء على أحدهما على الأقلّ. خطر لها أن تقطَعَ بسكّينِ الحديد الكبيرة سكّيني اللّحم المخفيّين في سروالهما. رأتْ الدّماءَ تقطر وسمعت صراخهما يعلو وهي تضحك.

يومها أحسّت زينة أنّها أصبحت شخصًا آخر. تخطر لها خواطر غريبة. شرعت في تدوينها في كرّاس. وجدت في الكرّاس ملاذًا ورفيقًا تخاطبه وتسفح فيه صمتَها وما يتلجلج في صدرها. كانت كلّ يوم تنتقم منهما، تقتلهما، في صفحة أو صفحتيْن. لم تكن تستطيع أن تقول نقمتها وتصف جرائمها إلّا بالفرنسيّة. لا أحد سيصل إلى ما تكتبه وإذا وصل لن يفهمه. تعلّمتْ التّوريّة والكناية. أصبحتْ تسمّى سكّين اللّحم فاتح المغالق وتطلق على القبل اسم موضع الأسرار وعلى الدّبر عبارة قفا الورقة. سمّت الحزن باللّوْح المحفوظ والموت بترياق الأسى وما إلى

ذلك. فحتى إذا قرأها من يتقن الفرنسيّة أو أصبحت أقوالها أفعالاً لنْ يفهم أحد عنها ما خطّطت له.

11

وضعتْ يَدَها على رجل الطلياني الممدودة على يسارها. ضغطت ضغطًا شديدًا على قصبة الرّجْل وصرخت في وجهه:

- «أتعرف ما معنى أن تخـرّقَ صبيّة؟ أتعرف كيف يعشّش فيك القهرُ وعليك أن تصمتَ خوْفًا أو خجلاً أو شعورًا بالخِزْيِ والعار؟».

- «نعم.. أعرف.. أقسم بشرفي أنني أعرف».

- «لا تعرف شيئًا من هذا أنتم حاملو تلك السّكاكين مِنْ لحم تشهرونها دائمًا لتذبحوا الأحلامَ وتقطعوا القلوبَ إرَبًا إرَبًا..

حاول الطلياني الاقتراب منها لاحتضانها. انكمشت وأعادت غرس رأسها بين ركبتيْها دون أن تبكيَ أو تنشج. كانت عيناها مسمَّرتيْن تحملقان في اللّحاف. لم يعرف ماذا يفعل. فضّل أن ينتظر ما تريد أن تفعلَ. ظلّ يراقبها والتّأثّر بادٍ على وجهه. اعتبر أنّ مرافقته لها ضروريّة. لن ينام إلّا إذا نامت. ظلّت على تلك الهيئة ساعةً أو بعض السّاعة والتفتتْ إليه بغتةً دون أن تنظرَ في وجهه. كان على يسارها بعد أن غيّرَ موضعه. كانت عصفورة تبحث عن دفء الجناحيْن. وضعتْ رأسَها على كتفه الأيمن موجِّهةً وجهها إلى البابِ. بقِيَتْ صامتةً إلى أن قالت في ما يشبه الهمس:

- «حين أحتضنك أشعر بطمأنينة غريبة. تصفو نفسي وأحسّ أنّ جسدي ينبض. أنسى وجعي الذي عشّش فيّ وفرّخ منذ ثماني سنوات».

- «لا بدّ من تجاوز ذلك.. لقد انتهى الكابوس..

- «ليس مجرّد إحساسٍ أو وهمٍ أو تخيُّلٍ.. إنّه وخْزٌ في موضع السّرّ،

ريشةٌ حادّةُ الذُّؤابة مزّقت قفا الورقة.. سرّي وورقتي مهتوكان.. شيءٌ بغيضٌ.. كريهٌ في اللّحم لا في الذّهن.

- «أَلَمْ تَسْعي إلى الحديث إلى طبيبٍ نفسيٍّ؟».

- «وجعي في الجسد ولكن لا دواء له.. خرقتُ الصّمتَ معكَ أنتَ.. أنتَ الوحيد الذي فتحتُ له أرشيفَ وجَعِي. لا شكّ أنّكَ تحتقرني..

- «لا تقولي هذا.. أنا معكِ، أنتِ ضحيّة ولستِ جلّادًا.. تعلّمتُ احتقار الجلّادين».

- «تقول هذا من باب الشّفقة... على البروليتاريا الجنسيّة».

- «من أين تأتين بهذه الأوهام. لا احتقار ولا شفقة. أنا أحبّكِ، والحبّ سخاء وعطاء.. علينا، أنتِ وأنا، أن نعيد كتابة تاريخ جسديْنا.. سنكتبه معًا بإرادتنا، بقوّتنا الروحيّة.. أنتِ قويّة يا زينة، صَمَدْتِ وأرى الأفق واسعًا ممتدًّا.. يدعونَا ويغرينا..

- «لا أعرف إن كنتُ قادرةً على السّير. أراوح مكاني منذ سنوات، أقاوم وجعي بالنّسيان والتّناسي والكتب والدراسة. لا أجرؤ حتى على تأمّل وجهي في المرآة.. أخجل من وجهي.. أمقُتُ جسدي..

أراد تغيير الموضوع ليخرجها من تداعيات الحكاية ويبرز لها تعلّقه بها. فقال لها إنّه علم أنّها تخاصمت مع الطّالبتيْن وذهبت لتقطن في بيتٍ قريبٍ لها. اقترح عليها أن تكملَ الشّهريْن إلى حين التّخرّج معه في بيته هذا. سيسهر على راحتها وسيوفر لها أحسن ظروف الاستعداد للامتحان.. سألها إن كانت ترى مانعًا في ذلك. عبّرت له عن رغبتها في عدم إزعاجه. أظهر بعض الغضب المشوب بلومٍ على كلامها. قائلاً:

- «كيف تقولين ذلك؟ أنا أحبّك. وبلغة المصلحة ستُدْخِلِين البهجةَ على هذا البيت الرتيب. ستكونين زهرة في هذه الحديقة».

ابتسمت:

- «زهرةٌ خسرتْ بعضَ بَتَلاَتِها ويَضُوعُ منها الوجعُ والقهرُ و...».

- «ما هذه السّوداويّة. لقدِ انتهى كلُّ شيءٍ. لا بدّ من الانطلاق من جديدٍ.. معي.. مَعًا.».

- «أنتَ لا تعرف وجهي الآخر حين أغرق في لَوْحي المحفوظ أطلب ترياق الأسى».

وقف متّخِذًا هيئةَ الخطيبِ:

- «لاَ حزْنَ بعد اليوم. ستقاوم حركةَ العشقِ المناضل التي نقودها ترياقَ الأسى حتى النّصر».

قال ذلك ورفع شارة النّصر. ابتسمتْ زينة. بَدَا عليها بعض الرّضا. كان صمتُها يدلّ على قبولٍ بالفكرةِ. رسمتْ على جبينِه قبلةً. وضعتْ رأسَه على صدْرِها وقالتْ:

- «سأطلب حلمَ اللّيلةِ.. وستكونُ حلمي المتجسِّد الذي ينام بجانبي».

منحدرات

1

مرّ صيف تلك السّنة متوتّرًا. حرارةٌ خانقةٌ كما لم تشهدها البلادُ منذ سنوات. مظاهراتٌ تكاد تكونُ يوميّة واعتقالات هنا وهناك. احتدّ الصّراعُ بين أجنحة القصرِ، قصر قرطاج. لا حديثَ إلّا عن خلافةِ الزّعيم المجاهد الأكبر الذي لم تتبقّ له إلّا هيبة شارف الأسود السّجينِ في قفصِهِ.

كانتْ زينة تُعِدُّ ملفّها الخاصّ للتّدريس في التّعليم الثّانويّ. لَمْ تذهبْ إلى قريتها. فضلتْ أن تبقى في العاصمة بين مكتبة شارل ديغول والمكتبة الوطنيّة والبيت. شرعت في تنظيم مطالعاتها لصياغة بحثها. كانت في سباق مع السّاعة لأنّها تعلم أنّ السّنة الأولى من التّدريس ستكون مضنية. عليها أن تتمَّ البرنامج الذي لم تطّلع عليه وأن تُعِدّ دروسَها وجذاذاتها بإتقانٍ وأنْ تشارك في اللّقاءات التكوينيّة والحلقات البيداغوجيّة وتحضر الدّروس الأنموذجيّة. قدّرت أنّها لن تجدَ الوقت الكافي لبحثها. وستعوّل على العطل المدرسيّة.

ظهرت المشكلةُ الأولى بعد أكثر من عشرين يومًا. لم تسلّم لها وزارة الدّاخليّة البطاقةَ عدد 3. علمت أنّ الطّلبة النّاشطين السّياسيّين والنّقابيّين والمشاركين في الاجتماعات العامّة وحلقات النّقاش يعانون من المشكلة نفسها. لا سبيل لتقديم الملفّ والدّخول إلى سلك التّدريس بدون هذه

البطاقة المشؤومة. لا أحد في مركز الأمن ولا في وزارة الدّاخليّة أنبأها بسبب رفض تسليمها بطاقتها.

بدأت محاولات عبد النّاصر لمساعدتها. كيف النّفاذ إلى المبنى الرماديّ المخيف، قلعة الأسرار الأمنيّة المنتصبة في شارع الحبيب بورقيبة؟ هو أيضًا لن يحصل على البطاقة لو طلبها. كان يتحدّث إلى زميلٍ من دار المعلّمين العليا تخرّج في تلك السّنة. تَفَاخَرَ أمام الحضور بأنّه حصل على البطاقة في يوميْن بفضل صهره. أعطاه رقم وصل الإيداع وتاريخه. طمأنه على قضاء الحاجة. فهو يعرف نقطة ضعف صهره: إنّها زوجته. اتّفَقَا على اللّقاء بعد ثلاثة أيّام. أعلمه بأنّه لم يستطع أن يحلّ الإشكال. بَدَا عليه بعض التّلعثم والتّردّد كأنّه يخفي شيئًا. ألحّ عليه عبد النّاصر لمصارحته إن كان في المسألة شيءٌ خَطِرٌ. تمنّع الزّميل ثمّ قال له:

– «بصراحة ملفّها مليء بالتّقارير. البطاقة عدد 2 التي تضمّ كلّ شاردة وواردة، سوداءُ ويصعب أن تحصل على البطاقة عدد 3، لا بدّ من تدخّل قويّ لشخصٍ له نفوذ.. أصبحوا يوقفون كلّ شيء لمجرّد الشّبهة».

كانت زينة قد اتّصلت بأستاذها المشرف. صارحها بأنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ورتّب لها موعدًا مع السّيد عميد كلّية 9 أفريل. وعدها العميد ببذل أقصى جهده خصوصًا أنّها طالبة متميّزة تشرّف الكلّية ولم يفهم إلى الآن لِمَ لَمْ تُسْنَدْ إليها جائزة رئيس الجمهوريّة في يوم العلم وقد كان معدّلها العام طيلة السّنوات الأربع يفوق الخمس عشرة من عشرين. وهو استثناء في قسم الفلسفة. كان العميد صريحًا. نزع نظّارته وقال بهدوء الحكماء:

– «أعرف أنّكِ ناشطة نقابيّة وخطيبة بارعة ولكن هذا شرف لكِ ولنا بما أننا نمثّل فضاء للتّفكير وتكوين الإطارات السّياسيّة إضافة إلى التّكوين العلميّ. لقد أصبحوا يخلطون بين كلّ شيء. لا تنزعجي يا بنيّتي سأكلّم الوزير».

لم ينفع الوزير في دولة البوليس المهدّدة بالتّكبيرات في المظاهرات اليوميّة: «اللّه أكبر عاصفة، للطاغوت ناسفة» و«الشعب مسلم ولن يستسلم» و«لا إله إلّا اللّه وبورقيبة عدوّ اللّه».

قالت زينة للطلياني وهما يتباحثان في الأمر، بعد أن فهمت أنّ المساعي السّابقة باءت بالفشل والمساعي الأخرى الممكنة لن تكون نتيجتها أفضل:

- «لا تهتمّ، سأنهي بحثي بسرعة وفي الأثناء سأكتب بعض المقالات في صحيفة فرنكوفونيّة أعرف المشرف على صفحاتها الثّقافيّة.. كان قد طلب منّي ذلك في لقاء بمكتبة شارل ديغول.. صحيحٌ أنّه كان، على ما أحسست، من الذين ينظرون إلى وجهي ويقصدون ما بين فخذيّ.. ولكن سأعرف كيف أواجه الوضع».

لم يعلّق الطلياني. بعد يوميْن أحضر لها البطاقة عدد 3 وحلّ الإشكال. سألتْه بإلحاحٍ عمّا فعل بعد أن فرحت بها فرحًا فهم منه أنّها خُلِقتْ فعلا لتدرّس وأنّها ستنجح في مهنتها مثلما تفوّقت في دراستها.

حدّثها عن سي عثمان ابن حيّه الذي يشتغل ضابط شرطة. كان صريحًا معها. أخفى عليها فقط ما دار بينهما في ذاك اليوم وكيف تركه في مكتبه عندما كان يحقّق مع الطّلبة يوم واقعة منّوبة. كان سي عثمان عندما طلب منه عبد النّاصر المساعدة في حلّ إشكال البطاقة عدد 3 في قمّة اللّطف. ولم يبرز الأمر على أنّه منّة أو فضل منه. لم يحدّثه عن البطاقة عدد 2 رغم أنّ عبد النّاصر فاتحه في الأمر. كان متحفّظًا وأفهمه أنّ للدّولة منطقًا وهي ليست مجبرة على توضيحه للنّاس. أكّد له أنّه ساعد زينة لأنّه يعرف نجابتها ونباهتها وتفوّقها ولا يمكن للأمن أن يقتل الأذكياء من أبناء الجامعة ومستقبل البلاد. وجد عبد النّاصر حديث سي عثمان مبالغًا فيه ولكن لم يناقشه فهو في موقع طالب الخدمة. قال له وهو يغادر المكتب:

- «قُلْ لزينة ألّا تخشى شيئًا. فما في ملفّها كلام فارغ».

ثمّ استأنف بلغة أبويّة أعجبت عبد النّاصر:

- «فكِّرْ في زينة فمثْلُهَا قليل».

2

ما إن تجاوز الطلياني وزينة محنة البطاقة عدد 3 حتى ظهرت محنة أكبر. نزل الخبر في بداية سبتمبر كالصّاعقة. عيّنت الوزارة زينة في معهد بولاية قبلّي. جن جنون الطلياني. ستبتعد عنه زينة ولن يراها إلّا في العطل المدرسيّة. وماذا ستفعل؟ هل ستهتمّ ببحثها أم ستطفئ جمرة شوقه إليها؟ ما الذي سيتبقّى من العطلة بعد يومين للقدوم إلى تونس ويومين للعودة إلى «قبلّي» بأقصى الجنوب وزيارة قصيرة لعائلتها في تلك القرية النّائية؟

أمّا زينة فكانت متردّدة بين الحصول على عملٍ يضمن لها راحة البال مادّيًا وبين البعد عن العاصمة والمكتبات. حسمت أمرها. ستبقى في تونس وتنفّذ ما اتّفقت عليه مع المشرف على الصّفحة الثّقافيّة بالجريدة. لن يتوقّف طموحها على التّدريس بالتّعليم الثّانويّ. إنّها تتطلّع إلى الكلّية. وحتى إذا قبلت التّعيين في قبلّي وناقشت بحث شهادة الكفاءة فإنّها لن تستطيع إعداد مناظرة التّبريز ولا حضور دروس شهادة التعمّق في البحث. ستنسى إلى الأبد السّلك الثّالث. سيأكلها التّعليم الثّانوي. لتعتبر نفسها قد رسبت.

من حسن الصّدف أنّ صلاح الدّين كان في تونس ضمن وفدٍ من الخبراء يعدّون تقريرًا حول ربط التّكوين المدرسي والجامعي بالتّشغيل وضرورة إدخال إصلاحات فرضها صندوق النّقد الدّولي على تمويل التّعليم في تونس. كانت اللّقاءات مكثّفة بين الوفد التّونسي والوفد الحكومي.

تدبّر أمرَه ليلتقيَ أخاه في النّزل الذي يقيم فيه. شرح له الوضعَ وطلب منه المساعدة. ترك أمرَ التّعيين وطفق يسأله عن زينة وعمّا إذا كانت مجرّد مغامرة أم مشروع ارتباط دائم؟ عرّج على وضعيته التي طالت في الجامعة. أفهمه أنّه سيظلّ يساعده ولكن عليه أن يضع بنفسه سياسة تعديل هيكلي لحياته إذا كان ينوي فعلاً الارتباطَ بزينة. بدأ يتخيّلها. رأى أنّها فيلسوفة مثله تتقن فنون الجدال والنّقاش تناسبه تمامًا وسترحل به إلى آفاق الفكر وسماوات المفاهيم والمجرّدات التي تستهويه على حدّ ما يعرفه عنه. نصحه، نصيحةَ الأخ الأكبر، أنّ أهمّ شيء هو الانسجام في الفراش ثمّ يأتي الانسجام في الأفكار. قدّم له درسًا في الزّواج وقيوده والأهواء وفلتاتها قال له جامعًا خلاصة تجربته في الحياة.. مع المرأة بالخصوص:

- «عِشْ تجربتَكَ إلى أقصاها ولكن لا يغب عن ذهنك أنّ الجنّة، جنّة الحبّ، كذبة تروق للمرء كثيرًا وتجعل الخيبة بعدها بمرارة الحنظل».

كان عبد النّاصر صريحًا يحاول أن يرجعه إلى الموضوع الأصلي، تعيين زينة في معهد بالعاصمة أو قريب منها على الأقلّ. لم يتبقَّ لصلاح الدّين في تونس إلّا يومان.

من الغد، التقاه وكان غاضبًا على البلاد والمسؤولين. حدّثه عن أنّ الوزير الجديد، طبيب الرّئيس، قام بنفسه بالتّعيينات وأنّ وزارة التّربية في حالة رعب وعطالة بسبب عنجهيّة الوزير دكتور الدّكتاتور. ذكر له أنّه أفسد علاقاته بجميع الإطارات السّامية بالتّعليم الثّانوي والتّعليم العالي، بالعمداء والمديرين، بالمتفقّدين. لا شيء يعجبه.

يوم سفره، كان معه في المطار ليودّعه. أعطاه بطاقة زيارة عليها اسم مدير عام بوزارة التّربية ورقم هاتفه. مكّنه من رسالة في ظرف مغلق موجّهة إليه وبطاقة زيارة عليها توقيع صلاح الدّين وبخطٍّ يده عبارة بالفرنسيّة ترجَمَتُهَا التّقريبيّة: «مع خالص الشّكر».

كانت الرّسالة المغلقة وبطاقة الزّيارة حبل نجاة زينة من بحر الرّمل ومشانق النخيل. ولكن بالمقابل كان عليهما أن يُوقِّعَا عقد قران!

أعاد المدير العام، وهو معروف بنفوذه الواسع وتدخّلاته لقضاء مثل هذه الشّؤون بمقابل، ما ذكره له صلاح الدّين عن الوزير الجديد ورعونته. سدّ الأبواب كلّها تقريبًا. كاد أن يحمل الغضبُ عبدَ النّاصر على سبّه وضربه إن لزم الأمر بما أنّه لا يقضي مثل هذه المصالح الصّغيرة إلّا برشاوى طائلة. لكنّه تيقّن من أنّ الرّجل كان صادقًا. فتح له منفذًا صغيرًا يمكن أن يقنع الوزير. وعده بأن يبذل قصارى جهده لتكون معه في تونس الكبرى. حدّثه عن تقريب الأزواج ومراعاة الحالات الإنسانيّة في مثل هذه التّعيينات. أكّد له أنّها مجرّد محاولة أخيرة إذا لم تنجح فلا أمل له إلّا عندما يأتي وزير آخر متفهّم. من هنا جاءت فكرة عقد القران.

3

تردّدت زينة كثيرًا. ليس الأمر بالهيّن ولا هو مجرّد ورقة توقّع عليها. فبينهما نبتة تحتاج إلى رعاية وسقي وتقليم وتشذيب. لم تر التّربة جاهزة. غضب عبد النّاصر من كلامها واعتبر أنّها تبالغ أو أنّها لا تريد أن تكون معه. قفز مباشرة إلى وضعيّته طالبًا مقارنة بوضعيّتها أستاذةً جديدةً. أقسمت أنّ هذا لم يخطر على بالها وأنّها ولدت فقيرة ودرست بفضل المساعدات من الشّعبة الدّستوريّة وإحسان أهل الخير وإحاطة مدرسة الجمهوريّة بضعاف الحال. ولا يمكنها أن تفكّر في المال أو التّفاوت الطّبقي. وإذا قبلت هذه اللّعبة القذرة فهي من فقراء الرّيف وفلّاحيه أمّا هو فابن عائلة تجري في عروقها الدّماء الأندلسيّة والتّركيّة، ابن مدينة. ذكّرته أنّها لن تنسى، أبدًا، احتضانه لها في الأشهر الأخيرة واقتسامه معها الحلو والمرّ، بل الحلو أكثر. لقد أحسّت فعلاً أنّها أميرة في قصر فارس

شهم سخيّ يضع اللّقمة في فمها قبل أن يضعها في فمه. اغتاظت كثيرًا وأجهشت بالبكاء.

كان ذلك أوّل خلاف بينهما عالجته بالبكاء وعالجه بالاعتذار عمّا قال وفسّره بذهابها بعيدًا في التّأويل. انتهت حرب المقاصد والنّوايا بسرعة خلّفت لها ألمًا داخليًّا لم تفصح عنه تمامًا. وتعبيرًا من زينة عن حسن النيّة، أو تكفيرًا عن إفراطها في التّأويل، أو تجنّبًا لوجع الرّأس قبلت عرضَ عبد النّاصر بعقد القران شريطة أن يبقى ذلك سرًّا بينهما إلى أن تتّضح معالم حياتهما فيسوّيَان الوضع. ألحّت، على شرط إكمال بحثها واجتياز مناظرة التّبريز كخطّين أحمرين وعليه أن يتحمّل معها المتاعب وكلّ ما يمكن أن يسبّبه له انشغالها بحلم حياتها في أن تصبح أستاذة بالجامعة من إزعاجٍ. قبل عبد النّاصر الشّرط عن حبٍّ. لم ينسَ ما قاله له سي عثمان وهو يغادر مكتبه ولم يتردّد في الإصغاء إلى نداء قلبه.

وأكبر ظنّي أنّ حديثها عن اغتصابها ممّا زاد في تعلّقه بها وأثار ما فيه من تعاطف مع الضّحايا في المجتمع والحياة. كان يعتبر نفسه نصير المظلومين والمقهورين فكيف لا يسهم في إخراج هذه الفتاة الاستثنائيّة من بئر الحزن العميقة ويبعث في قلبها وجسدها الحياة بعد أن توقّفت في لحظة الوجع الخالص تلك، لحظة السّكّين التي تخرّق اللّحم والرّوح؟

أصرّ الطلياني على أن تكون أخته الصّغرى يسر وقد بلغت العشرين، منذ شهرٍ تقريبًا، الشّاهد على الصداق والوحيدة التي سمعت بالأمر من بين أفراد العائلة. لَمْ يَنْسَ بطبيعة الحال أن يعلم الدّوائر الماليّة في سويسرا، كما كان يسمّي أخاه صلاح الدّين، لعلّه يتفهّم الوضع الجديد ويرفع قيمة القسط الشّهري من القرض الذي لا يعرف متى ينتهي ولا كيف سيرجعه.

كنت أنا شاهدَ زينة بطلبٍ منهما. فهما لا يثقان في أحدٍ ثمّ إنني صديق

طفولة للطلياني والمرافق الرّسميّ لزينة في الكلّية. ولا أخفي عليكم أنني وجدت في ما فعلاه شجاعة لا أقدر عليها. فأنا رغم دراستي للفلسفة وما تعتبره زينة ذكاء لديّ لم أستطع التّخلّص من تربية أبي المعلّم وإحاطة أمّي بي إحاطةً لا تخلو من إفراطٍ. فهما رغم أنف فرويد مقدّسان عندي. لا أذكر أنني فكّرت يومًا في قتل أبي لا رمزيًّا ولا واقعيًّا رغم شدّته أحيانًا ولا استبدّت بي الشّهوةُ حتّى أفكّر في أمّي رغم إغراقها في العناية بي وجمالها الذي لم أرثْ منه شيئًا. لا أخفي أنّني كنت أميل إلى زينة إلّا أنّ ما أعرفه عن والديّ من احتقار للرّيفيّين وتفاخر مبالغ فيه بعائلتَيْهِما الحضريّتَيْنِ، جعلاني لا أفكّر، حتى مجرّد تفكير في أن أرتبط بها. لقد تدبّرا الأمرَ ومن الواضح عندهما أنّه ينبغي لي أن أتزوّجَ «بَلْدِيّة» مثلي لا «قعرة» من وراء لوحات الاتجاهات، في مداخل المدن، اللّوحات التي تشير إلى الأرياف خارج العاصمة.

حضرْتُ وشهدتُ وهنّأتُ. واجبٌ أدّيْتُهُ نحو صديقيْن عزيزيْن وانتهى الموضوع كما لو أنني لم أرَ ولم أسمعْ. كنتُ في صميم فكري أرى أن في المسألة خلَلاً مّا. لم أَشَأْ أن أُتْعِبَ ذهني بالتّفكير في موضع الخلل خصوصًا أنني أستعدّ إلى الانتقال إلى إحدى قرى القيروان للتّدريس هناك. قبلتُ راضيًا. لم يناقشْ أحدٌ في البيت مسألة بقائي في تونس أو ذهابي إلى ريف القيروان. فقط كانت أمّي فرحة فخورة بابنها الأستاذ، أستاذ الفلسفة، وتوصيني بألّا أنسى التّوقّف في الطّريق لزيارة مقام أبي زَمْعَة البَلَوِي في الذّهاب والإياب وألّا أنسى ابتياع بعض مقروض القيروان.

وقَدِ التزمتُ بذلك مدّة السّنوات الثلاث التي قضيتها في الطّريق إلى مدينة الأغالبة بعد أن أقنعتُ نفسي بأنّ الفلسفة والتّفكير النّقدي لا يتناقضان مع إدخال البهجة على إنسانٍ يرى الخير في زيارة أولياء الله

الصّالحين والتّلذّذ بحلويّات تسهم في نشر داء السّكّري بالبلاد. كنتُ أحبُّ الأنتروبولوجيا وفلسفة الاختلاف فبدأت أطبّقهما مع أمّي.

نجحت خطّة الطلياني التي أوحى له بها المدير العام «بأعجوبة» على ما قال له. والأرجح أنّ الوزير كان في لحظة سعيدة أو لعلّه كان منهكًا بعد عمل يومٍ شاقٍّ طويل قضاه في تعيين الأساتذة والنّظر في النّقل والحالات الخاصّة. أقسم له المدير العام أنّه رفض ما يزيد عن تسعين بالمائة من المطالب المقدّمة ولم يقبل إلّا النَّزْر اليسير. وحين طلب «المبروك» فهِمَ عبد النّاصر المطلوب وتشاغل بالشّكر على المساعدة مذكِّرًا بأنّ أخاه صلاح الدّين يبلّغه بدوره تحيّاته من سويسرا واعِدًا بزيارته في أوّل فرصة.

المثير في الأمر أنّ هذا التّوقيع على الصداق فاجأ زينة من حيث لم تحتسِبْ. لكنّها غرقت في بحثها وانشغلت عن الطلياني ثمّ بدأت تعدّ الدّروس. تنهض باكرًا للذّهاب إلى ضاحية «المحمديّة» وتعود منهكة لتجدّد قواها حتى تَشْرعَ في إعداد البحث.

4

يومًا، عادت زينة إلى البيت حواليْ الرّابعة بعد الزّوال. ما إن فتحت الباب حتى وجدت على طاولة قاعة الجلوس قطعة مرطّبات ومشروبات غازيّة. نادت الطلياني فلم يجبها. وصلت إلى غرفة النّوم فخرج لها زوجها من المطبخ حاملاً كأسيْن. بَدَا غاضبًا. طلب منها أن تحضر إلى قاعة الجلوس. سألته عن أحواله وعمّا أغضبه. لم يجبها. طلب منها أن تجلس. جلست وهي محتارة. قال لها:

– «يؤسفني.. لا أدري.. أنا متأسّفٌ».

– «ماذا هناك؟ تكلَّمْ».

– «لا أعرف من أين أبدأ.. الأمرُ خطيرٌ.. الحركةُ والتّيّارُ مُهَدَّدان».

- «بِمَ؟ ما معنى مهدَّدان..؟».

- «مهدّدان بالانقراض بعد أن غادر الزّعيم الوطني..

- «أيُّ زعيمٍ؟ زعيمُ ماذا؟».

- «الزّعيم الرّفيق المناضل في الجامعة».

- «عَمَّ تتحدّث؟ أجبني.. ما الخطبُ؟».

انتصب الطلياني واقفًا ينظر إليها والشّررُ يتطاير من عينيْه:

- «اِجْتَزْتُ امتحانَ الشّهادة التّكميليّة.. وَنـ.. نَجَـ.. نَجَحْتُ».

قفزتْ من الأريكة كالملسوعة تلكمه وتركله وتدعو عليه:

- «أَدْخَلْتَ الجَزَعَ على قلبي..

ثمّ واصلتْ:

- «مبروك.. مبروك يا أستاذ.

اِحتضنَتْهُ مُقَبِّلَةً. أخذتْ ترقص رقصةً تُشْبِهُ الدَّبْكَةَ الشّامية. قالت له:

- «هل أعلَمْتَ عائلتَكَ؟».

- «أنتِ أوّلُ مَنْ سَمِعَ الخَبَرَ. سأخبرهم غدًا بالهاتف».

- «لاَ تذهب إليهم الآن وتُعْلِمهم.. ثمّ لا تنسَ أخاك صلاح الدّين ورئيف أيضًا».

تعجّبَ الطلياني مِن حِرْصِها هذا. رأى فيه امتثالاً للمواضعات الاجتماعيّة بَدَا له غريبًا عن شخصيّة زينة. اِتّفَقَا على أن يَسْهَرَا خارج البيت بعد عودته من بيت عائلته.

5

في المطعم تحدَّثَا عمّا ينوي الطلياني فعله. أجاب باقتضاب أنّه غيّر

رأيه. لا يحبّ المحاماة ولا القضاء. سينتظر المناظرات التي قد تُفْتَحُ في الخارجيّة مثلاً أو في أيٍّ وزارةٍ. أفاض في الحديث عن التيّار ومَنْ سيقوده في الجامعة. لقد سارع بإجراء الامتحان في دورة التدارك لشهر سبتمبر دون أن يُعْلِمَ أحدًا، حتى زينة لم يخبرها بذلك. أكّد لها أنّه كان متيقِّنًا من نجاحه ومشكلته أنّ السّنة الجامعيّة على الأبواب وستكون ساخنة ولن يستطيع أحدٌ من رفاقه لا جعفر ولا رضا ولا نجم الدّين ولا نبيل أن يقومَ بالمهمّة. حدّثها عنهم. انزلقتْ من لسانه كلمة «خيانة» وهو يصف ما فعله. حاولتْ زينة أن تُطَمْئِنَهُ، ذكّرتْه بأنّه في انتظار الإعلان عن المناظرات وإجرائها بمرحلتيْها الكتابيّة والشّفويّة والتّصريح بالنّتائج النّهائيّة والتّعيين، سيكون له مجالٌ لإعدادِ القياديّ البديلِ الذي سيحلّ مكانه. رأتْ أنّه يبالغ في التَّخَوُّفِ.

قالت له بعد أن حدّثته عن «ألان توران» ونقده للفهم الطّبقي للحركة الثّوريّة عندما حلّلَ ما وقع في ماي 1968:

- «لستَ خائنًا كما تَتصوّر إلّا إذا كنت تعتقد أنّك يسوع المخلّص».

ثم واصلت كلامها:

- «تتحدّث عن التّاريخ ولا تريد أن تستنير به. هل شارك الطّلبة في الثّورة الفرنسيّة؟ في الثّورة البلشفيّة؟ في الثّورة الصّينيّة؟ دَعْكَ من دورهم في الثّورة الإيرانيّة التي لا تعترف بها. لقد بَنَيْتُمْ وَهْمًا وسجنتم أنفسكم فيه. ستقوم الثّورة لأنّ المجتمع يتطلّبها وليس لأنّها نبتة نظريّة في الذّهن. أَلَمْ يعلّمك ماركس هذا الدّرسَ المادّي التّاريخي؟!».

طفقت تفسّر له أنّ الحركة الطلابية قوّة احتجاج ولكنّها لا يمكن أن تكون قوّة ثوريّة. اعتبرت أنّ الجامعة تتأثّر بما يدور حولها ولكنّها تؤثّر بإطاراتها وكفاءاتها تجدّد رأس المال البشري. استشهدت بتزامن

صعود الإسلاميّين وتحوّلهم إلى قوّة ضاربة في الجامعة وفي المجتمع. استخلصت أنّ الطّلبة تحدّد مواقعَهم انتماءاتُهم الطّبقيّة الأصليّة.

6

انتهت سكرة النّجاح وانقضت صحوة الضمير الثوريّ فزال الحرج من تهمة الخيانة. بدأت حياة الطلياني تتغيّر، حياة جديدة في القفص الذّهبي الذي اختاره دون تروية التّفكير في عواقبه واضطرّت إليه زينة بدفع من زوجها المتخرّج حديثًا.

وكان أوّل تغيير هو خروج العصفور رئيف من القفص. افتتحت السّنة الجامعيّة. لم يكن طلبة التّخرّج يعودون إلى مقاعد الدراسة في الأيّام الأولى. لكنّ رئيف عاد مبكّرًا إلى البيت، في اليوم الأوّل من العودة. تحدّث مع عبد النّاصر بحضور زينة. حمل معه هديّة بمناسبة النجاح. كانت هديّته رقيقة جدًّا. قارورة عطر رجالي باهظ الثّمن وساعة يدويّة فاخرة. وبالمناسبة جلب معه للعروس قلادة من الذّهب وساعة يدويّة مذهّبة من الصّنف الرّفيع. أعلمها أنّها هديّة من أمّه لها إكرامًا لعبد النّاصر الذي احتضن ابنها ثلاث سنوات وحبًّا فِي مَنْ أحبّها. استكثرت زينة الهديّة وكذلك استكثرها عبد النّاصر ولم يجدَا الكلمات المناسبة للشّكر والعرفان.

أحضر رئيف، كعادته السّمك وغلال البحر وأعدّ بنفسه الطّعام والمائدة. أحضر قارورتيْ ويسكي ودجين وكميّة من النّبيذ والجعة تكفي الضّيوف في عرس كامل. أدخل سائق الشاحنة السّمكَ وبقيّةَ الخيرات والمشروبات.

أثناء العشاء والسّهرة أكّد لهما رئيف أنّ حفل الطعام الذي أعدّه بيديه هو هديّته الخاصّة لهما وتعبير منه عن الاعتزاز بصداقتهما التي تمنّى أن

تدوم. استعرض مدحيّةً طويلة عريضة في عبد النّاصر وكاد يستحيل كلامه عن زينة غزلاً خالصًا لو لم ينبّهه عبد النّاصر مازحًا. أعلمهما، وهم على المائدة، بأنّه وجد بيتًا جديدًا قرب المعهد الأعلى لإدارة الأعمال: بيت صغير مستقلّ داخل فيلّا كبيرة يكفيه لقضاء سنة دراسيّة مريحة. وعدهما بالتّزاور لأنّه لا ينسى أفضال عبد النّاصر وشهامته ووقوفه إلى جانبه. ألحّ في الحديث على أنّ البيت صغير وغير مؤثّث. فهم عبد النّاصر الرّسالة. قال له:

- «غدًا سأكتري شاحنة صغيرة لحمل قاعة الجلوس والثّلّاجة وبقيّة الأثاث لبيتك الجديد».

قاطعته زينة مازحة:

- «لِمَ تكتري بيتًا؟ ستبقى معنا فأنت ابننا وسندلّلك!».

ضحك رئيف وبدا على عبد النّاصر بعض التّوتّر. التفتت زينة لتسأل، جادّة هذه المرّة، زوجها عن المانع في بقاء رئيف معهما خلال هذه السّنة فأجابها:

- «أنا لا أرى مانعًا ولكن يبدو أنّه لا يرى راحته هنا».

حاول رئيف أن يلطّف الأمر فقال مازحا:

- «أأبقى حاملاً الشّمعةَ لزوجيْن؟»

أخبرهما أنّ صديقته، بخجلها وتحفظها، هي التي ستنزعج. وعلى كلّ حال فإنّ هذا التّغيير في المكان لن يؤثّر في الودّ والمحبّة اللّذين يكنّهما لهما.

فهمت زينة كما فهم الطلياني أنّ القرار لا رجعة فيه. وإنْ لم تُقدّر زينة حجم الكارثة فإنّ عبد النّاصر رآها قادمة ولم يكن يستطيع لها ردًّا. كادت الدّار تصبح قاعًا صفصفا لولا الأثاث الذي يوجد في غرفة عبد النّاصر

ولولا بعض الكؤوس والفناجين والملاعق والمقلاة والطّنجرة الصّغيرة التي تركها رئيف. ترك رئيف البيت كامرأة جُرّدت من ثيابها بالقوّة على حين غرّة.

7

كانت هذه هي المحنة المادّية الأولى للزّوجيْن الشّابّيْن. بدا عبد النّاصر متضايقًا منزعجًا من الوضع الجديد. عملت زينة على طمأنته معتبرةً أنّهما عمليًّا مازالا طالبيْن في انتظار بضعة أشهر لتتحصّل على رواتبها مجتمعة وستسوّي الوضع كلّه. لم تدرك ما يجول بخاطر عبد النّاصر الذي لم يعد يستطيع، في انتظار القروض الجديدة من بنك صلاح الديّن بسويسرا، حتى التّكفّل بمصاريف زينة التي انقطعت منحتها الجامعيّة منذ أربعة أشهر. فكّر في مصارحتها ولكنّه تراجع بعد تردّدٍ. استيقظ فيه الرّجل العربيّ الذي يعتبر نفسه قوّاما على المرأة. ما حيّره هو أنّ زينة لم تبد أيّة ملاحظة في شأن المصاريف. عاد باللّوم على نفسه فقد عوّدها على ترك الأموال التي تصله عندها ويطلب منها مصروفه اليومي. لم يكن ذلك بطلب منها ولا برغبة واعية منه. فهذا ما كان يفعله أبوه مع أمّه في بداية كلّ شهر.

بدأت نوعيّة الطّعام تتدهور. أصبح مشقّة يوميّة لعبد النّاصر الذي تكفّل بإعداده تاركًا لزينة الوقت للعمل على بحثها. عرف عندها قيمة الثّلاجة في البيت. اكتشف أنّ فاتورة الكهرباء مرتفعة جدًّا بما أنّ الفرن الذي تركه رئيف في البيت يشتغل بالكهرباء. اكتشف ارتفاع الأسعار الذي كان يتحدّث عنه في الجامعة ولا يعرفه.

لم تكن زينة بأفضل حال منه. ارتفعت مصاريفها بسبب النّقل والأكل خارج البيت بين الحصّتيْن الصّباحيّة والمسائيّة أحيانًا، خصوصًا أيّام

الدروس التكوينيّة وبسبب الزّيادة الملحوظة في استهلاك السّجائر. فقد بلغ استهلاكها علبتيْ «كريستال» خفيف في اليوم.

طلب منها عبد النّاصر يومًا بعضَ الأموال الإضافيّة لأنّه سينتقل بسيارة أجرة إلى مكان لا تصل إليه الحافلة. قالت له وهما جالسان في المطبخ:

- «لم يتبقَّ لنا إلّا خمسة عشر دينارًا لإكمال الشّهر».

- «ماذا؟ نحن الآن في اليوم الثاني عشر! هل يكفي ذلك لمصاريف بقيّة الشّهر!».

صمتت زينة. أشعلت سيجارة. ظهرت عليها أمارات التّشنّج وهي تقضم أظافرها. هرعت إلى غرفة النّوم. جاءت بحقيبتها وفتحتها بعصبيّة. مدّت له أوراقًا ثلاثًا من فئة خمسة دنانير. قالت له:

- «تفضّلْ».

لم يمدّ يده إلى المال. نظر إليها نظرة تجمع بين الاستياء والتّعجّب. ردّ عليها:

- «ماذا تقصدين؟».

- «طلبْتَ مَالَكَ وها أنا أمدّه إليكَ».

- «لِمَ تتحدّثين عن مالي ومالك؟».

- «أنا ليس لي مال.. هو مالُكَ. ما الذي أغضبكَ؟ كنت أصف شيئًا واقعيًّا. أليس هو مالك؟».

- «توضيحٌ زائدٌ، لا فائدة منه..

- «إذن لِمَ تسألني عن كيفيّة إكمال الشّهر؟ أنت تتّهمني بالتّبذير إذن؟».

- «من قال هذا؟ أجننت؟».

- «نعم مجنونة، مكاني في مستشفى الرّازي».

- «اِهدئي.. لِمَ التّشنّج والتّصعيد.. ما دخل الرّازي والجنون..

- «سأتدبّر أمري إلى أن أقبض راتبي».

- «أنا مسؤول عنك!».

- «مسؤول عنّي!؟ قوّامٌ عليَّ! ههه.. لتعلم أنني حرّة ولا تعني لي تلك الورقة التي وقّعْتُ عليها شيئًا».

- «ماذا؟».

- «نعم أعني ما أقول. لا تتصوّرْ أيّها المناضل الماركسي اللّينينيّ أنك ستستعبدني بورقة الصّداق.. لك أن تنقعها في الماء ثمّ تشربه هنيئًا مريئًا».

- «نشربه معًا.. إن شئتِ!».

- «سأشربه راضية مرضيّة وبكلّ سرور. أنتَ مَنْ دفعني إلى التّوقيع على الصّداق».

طفق الطلياني ينظر إليها وهو يهدّئ نفسَه. أخذ علبة السّجائر والقدّاحة الموضوعتيْن فوق الطّاولة واتّجه صَوْبَ باب الدّار. وتناهى إلى مسامعها صوت غلق الباب بقوّة.

في الصّباحِ وجدت في حقيبتها، وهي تضع الكتابَ المدرسيّ والأقلامَ، لُفَافَةً من الأوراقِ النّقديّة. عَدَّتْهَا خمسة أوراق من فئة العشرة دنانير. تردّدتْ في تركها فوق الطّاولة. لكنّها ارتأتْ ألّا تصعّد الموقفَ أكثر من ذلك. فقد عاد عبد النّاصر بالأمس مع الفجر وكانت رائحة الخمر قد أزكمت أنفها.

بعد يوميْن من الصّمت الذي عمّ البيتَ دون أن يؤثّرَ في نظامه كثيرًا عَدَا أن عبد النّاصر أصبح يعود من مقهى الحاج متأخِّرًا (كما علمت بعد ذلك منه) يلقي تحيَّةَ المساء ويذهب إلى النّوم، وعند رجوعه حواليْ الحادية عشرة والنّصف ليلا قرّرتْ زينة إذابةَ الجليدِ. بدأ يغيّر ملابِسَه.

اقتحمت عليه غرفةَ النّومِ وهو في ملابسه الدّاخليّة. خاطبته:

- «إلى متى غضبُكَ منّي؟».

- «أتعاقبني بصمتك أمْ تنتقم مني؟ كنّا في حالة غضبٍ».

- «كلّ واحد منّا حرٌّ في ما يفعل».

- «أنت زوجي وتاجُ رأسي».

- «أجبرتكِ على وضع التّاج على رأسك ولكن من الواضح أنكِ غير راغبة فيه».

- «كفى عنادًا.. كلام غضبٍ تبني عليه موقفًا.. طيّب.. أعتذر لجمل المحامل الحقود..

- «جَمَلٌ حقودٌ أيضًا!».

- «ما هذه البلادة التي لم أعهدْها فيك؟ ألم تسمع بقول الشّاعر.. وأحبّها وتحبّني ويحبّ ناقتَها بعيري».

تقدّمتْ نحوه بدلال. عانقتْه. وضعتْ رأسَها على صدرِه هامسةً:

- «اشتاقت النّاقةُ إلى بعيرها!».

أشعلتِ النّارَ فذابَ الجليدُ. حدّثته عن صديق له يدرّس معها يبلّغه السّلامَ ويهنّئه بنجاحه. سمع بالنّجاح والزّواج من رفيقه نجم الدّين وهما من نفس القرية السّاحليّة. تذكّره. حدّد لها انتماءه السّياسي. أخبرته أنّه وعدها بالعمل مع النّقابيّين في المعهد على مساعدتها بجمع بعض الأموال لها، من الزّملاء الأساتذة، على سبيل السّلفة. فكل واحد يمرّ من هذه الطّريق في انتظار تسوية الوضع الماديّ. كان قد طلب منها ألّا تخبر عبد النّاصر لما يعرفه عنه من عزّة نفس وإباء، وألحّ أنّ يكون الأمرُ سرّا

بينهما سواء استعملت المال أمْ لم تستعمله. عبّرتْ له عن إعجابها بروح التّضامن الذي يميّز النّقابيّين وحسّهم الاجتماعي الرّفيع.

8

جاءها يومًا حاملاً بشرى، فأخوه صلاح الدّين يرغب في أن يهدِيَ إليهما تذكرتَيْ سفرٍ إلى سويسرا ليقضِيَا مع زوجته الإيطاليّة كارلا وعائلتها حفل عيد الميلاد. سيكون مسرورًا بحضور أخيه وزوجة أخيه وبوجود فردَيْن من عائلته مع عائلة كارلا طرحت زينة مشكلة بحثها ونيّتها الشّروع في التّحرير خلال عطلة الشّتاء معتبرةً أنّ أيّ تأخيرٍ في ذلك سيفسد البرمجة التي وضعتها لإتمام البحث في شهر ماي المقبل لتتفرّغ بعد ذلك لمراجعته وإصلاحه.

فسّر لها عبد النّاصر ألّا تناقض بين برنامجها والأخذ بخاطر أخيه الذي لا تخفى عليها أياديه البيضاء. ثمّ إنّ الهديّةَ، خصوصًا من صلاح الدّين رجل الاقتصاد الذي لا يحسب المال والخسارة مع أخيه الأصغر، لا يمكن أن تُرَدَّ. وافقت عن مَضَضٍ قائلةً:

- «سأسافر معكَ ولكنّ حدسي يقول لي لا تسافري».

- «ما هذا التّشاؤم الميتافيزيقي غير المبرّر.. سيتغيّر حدسك بعد العودة من السّفر».

لَمْ يُخطِئْ حَدَسُ زينة ولم يتغيَّرْ بعد عودتهما من سويسرا.

استقبلهما صلاح الدّين في مطار جنيف. أخذ يتأمّل زينة كَأَبٍ فرح بزوجة ابنِه. وضع في جيب عبد النّاصر أوراقًا نقديّةً في غفلة من زينة رغم الأموال الإضافيّة التي سبق له أن أرسلها إليهما وبلغتْ أَلْفَيْ دينار تونسي. حَمَلاَ معهما، بحرص من عبد النّاصر، عددا من الهدايا التي اشترياها من الصّناعات التّقليديّة بضاحية الدّندان. اختارتها زينة بعناية

وذوْق رفيعيْن. اشتريا كذلك صناديق صغيرة من دقلة النّور واستعملا جزءًا من العملة الصّعبة في المنطقة الحرّة بمطار تونس قرطاج لاقتناء تشكيلة من أَجْوَدِ الخمور التّونسيّة بيضاء وورديّة وحمراء. كانت الحاجّة زينب توصي الطلياني دائمًا بألّا يدخل بيتًا فارغ اليديْن. لم توصِهِ بالخمر ولكن حفل عيد الميلاد لا يكتمل إلّا بدم المسيح وإن تعدّدت ألوانه.

كان بيت صلاح الدّين في سويسرا قَصْرًا، بالمقاييس التّونسيّة، وإن كان في عمارة من عمارات حيٍّ راقٍ. لم تكن زوجته كارلا كما توهَّمَ طيلة سنوات إيطاليّة من إيطاليا بل كانت من المنطقة النّاطقة بالإيطاليّة في سويسرا. لم يتصوّرْ ذلك لجهله بتاريخ سويسرا الذي فسّرته له أنجيليكا أختها التي تشتغل مترجمة في إحدى المنظّمات الدوليّة غير الحكوميّة. شابّة في سنّ الطلياني تتّقِدُ حيويّةً، ولها حلاوة الإيطاليّين. تتكلّم الفرنسيّة بطلاقة وسلاسة على عكس زوجة صلاح الدّين. تتكلّم بحماسة وبتدفّق للكلمات مذهل. لها مَضْحَكٌ مميَّزٌ بأسنانها المرصّفة كحبّات عقد من اللّؤلؤ وشفتيْها المكتنزتين وفمها الواسع. إذا ضحكت كانت ضحكتها مجلجلة وإذا ابتسمت كانت ابتسامتها ساحرةً وإذا سكتَتْ بَدَا وجهُها منشرحًا.

تحدّث معها مُطَوَّلاً ما إن الْتَقَيَا. ساعدهما أبو كارلا وأنجيليكا، من حيث لا يشعر، بحديثه البطيء وصمته الذي يقطع الكلام وهو يروي لزينة معاناته أثناء الحرب العالميّة الثّانية وتاريخه العسكري. كان جنديًّا في جيش موسوليني دفعتْه إيطاليّته إلى ترك عائلته في سويسرا والالتحاق بجيش «الدوتشي». ذهب إلى ليبيا والحَبَشَة. كان شيخًا توقّف التّاريخ لديه عند هزيمة موسوليني وشَنْقِه. إنّها نهاية العظمة الإيطاليّة. حكايات كثيرةٌ ومغامرات مثيرة لم يتمكّن من سماعها لانجذابه إلى أنجيليكا التي استغلّتْ، بعد ثرثرة الشيخ المحارب، اعتناء كارلا وأمّها وأخيها باولو

بزينة يتلقّفونها واحدًا بعد الآخر ليتحدّثوا إليها. كان صلاح الدّين يتابع الوضع على أريكته ويوزّع الابتسامات على ضيوفه.

في الفراش قبل النّوم أبدى الطلياني لزينة تبرّمه من أخت كارلا التي لم تتركه يتمتّع بمعانقة أميرته البربريّة. عبّر لها عن انزعاجه من ثرثرتها وتفاهة أحاديثها. استبقها ليؤكّد أنّه كان ينظر إليها ويعاين تبرّمها هي أيضًا من أحاديث والد كارلا وتدافع الحاضرين، عَدَا صلاح الدّين، لتجاذب أطراف الحديث معها. قال لها:

- «لكِ الحقّ، إذا قضيْنا هذا الأسبوع على هذا النّمط يكون حدسك في محلِّهِ».

- «هذه اللّيلة كانت للأخذ بالخاطر ولكن من الغد سأفرض نسق عملي، من الصّباح إلى المساء».

ما لم تتفطّنْ إليه زينة هو أنّ صلاح الدّين، قبل أن يذهب كلّ واحد إلى غرفته، نادَى أخاه عبد النّاصر في قاعة الجلوس الفسيحة وهمس في أذنه:

- «أعرف أنك انجذبتَ إلى أنجيليكا ولكن كُنْ كَيِّسًا ولا تُثِرْ غيرةَ زينة».

- «لمْ أفعلْ شيئًا يثير غيرتها كنت أتحدّثُ معها، بل أستمع إليها».

- «لا وقت للنّقاش. كنتَ جذلاً وأنتَ تنصتُ إليها وكانت زينة ترمقكما بين الفينة والأخرى».

- «أوكي.. سأعالج الأمر.. تصبح على خير».

وما لم يعرفه الطلياني أنّ زينة قد أحسّت بشيء ما غريب في نظرات زوجها إلى أنجيليكا ولكنّها لم تلاحظْ عليه سلوكًا يدعو إلى الشّكّ بقدر ما اعتبرت حركات أنجيليكا، بين الفينة والأخرى، من باب التّفاعل عند الحديث إذ تضع يدها على ركبة الطلياني أو تلمس كتفه. وهذا لا

ينفي شعورها لأوّل مرّة في حياتها بالغيرة من امرأة، خصوصًا امرأة مثل أنجيليكا تفرغ المكان الذي توجد فيه من الأوكسيجين كلّه بسبب نشاطها إذ يملأ صوتُها فضاء القاعة الرّحبة. ما طمأنها حقًّا هو أنّها كانت تتحدّث بصوتٍ مرتفع في أمور عاديّة تافهة كما ذكر الطلياني.

9

رتّب صلاح الدّين كلّ شيء. قدّم على طاولة فطور الصّباح مقترَحًا لبرنامج الأسبوع. كان برنامجًا يتضمّن، إضافة إلى حفل عيد الميلاد في البيت وسهرة رأس السّنة في مطعم فاخر، زيارات لبعض المعالم والمسارح والمعارض والحفلات والمواقع المهمّة في جنيف وضواحيها ورحلة في النّاقلات المعلّقة، التلفريك.

اعتذرت زينة بأسلوب لا يخلو من بعض الحدّة على البرنامج. تفاجأ الجالسون على الطّاولة من كلامها. سارع الطلياني إلى إنقاذ الموقف شارحًا التزامات زينة وحرصها على أن تستغلّ جزءًا من عطلتها للاشتغال بأطروحتها. تفهّم الجميعُ موقفها وتمنّوْا لها التّوفيق. خيّرها صلاح الدّين بين أن تذهبَ إلى مكتبه في الجامعة أو أن تستعمل مكتبه في البيت. اقترح عليها مساعدتها في الحصول على ما تريده من الكتب التي قد تحتاج إليها.

لمْ يَتَبَقَّ في ذاكرة زينة بعد عودتها إلى تونس إلّا فرحها بالصّفحات التي كتبتها. فقد وجدت مكتب صلاح الدّين مكانًا مثاليًّا للعمل والتّفكير والتّحبير. تبقّى لها أيضًا إحساس بأنّ شيئًا ما تغيّر في عبد النّاصر ولم تستطع تحديده على وجه الدقّة.

أمّا الطلياني فقد عاد من سويسرا يحمل في جسده وشمًا رائعًا ورائحة مختلفة ظلّت تداعب خياشيمَه كلّما غرقت زينة في مستنقع حنّا أرندت.

10

كانت ليلةً تساقط فيها الثّلج بغزارةٍ وكان لا بدّ من تقوية نار المدفأة بإضافة أعواد حطب كثيرة.. أكثر من العادة. فبَرْدُ جنيف قاسٍ لا يرحم في اللّيل بالخصوص. عَجِبَ لكارلا وأخيها اكتفاؤهما بقميص نصف كمّ في ذاك البرد القاتل. طالت السّهرة قبل يوميْن من رأس السّنة الميلاديّة 1987. شرب الجميع على نخب أنجيليكا. فقد كان يوم عيد ميلادها السّابع والعشرين. لم يعلم بالأمر أحدٌ. مفاجأة أعدَّتْها كارلا وجعلت الحاضرين، عَدَا الأخ، يسهر ويشرب على نخب الفتاة دون أن يقدّمَ هديَّةً. من حسن الحظّ أنّ زينة اشترت مهراسًا تونسيًّا من الخشب، مُزَوَّقًا بديع التّزويق مزركشًا بألوانٍ مختلفةٍ قدّمته هديّة وهي تفسّر قيمتَه التّراثيّة ودوره في حياة النّاس في المدن والأرياف واستعمالاته المختلفة. وشرحت لها وظيفة يد المهراس ومهامّها المختلفة ثمّ لمّحت، على سبيل الفذلكة، إلى الاستعارة الجنسيّة المشتقّة من اليد والوعاء معًا وبعض الاستعمالات المجازيّة لعبارة المهراس في الدّارجة التّونسيّة. استدركت بالمهراس الموقف.

انقلبت الآية وأضحت زينة، بحسن تدبيرها، نجمةَ السّهرة. لم يقل ذلك أحدٌ ولكن نظرات الإعجاب التي غمرتها والقبلات الحارّة التي لا تليق بصقيع سويسرا وبرودة السّويسريّين من كارلا كانت شاهدة على ذلك. حاول عبد النّاصر الابتعاد عن المكان الذي تجلس فيه أنجيليكا عملاً بتوصيات أخيه. فله جولاتُ الصّباح وبعد الزّوال لتلتصق به أنجيليكا تفسّر له ما يرى وتروي بعض النّوادر والتواريخ المتّصِلة بهذا المعْلَمِ أو ذاك.

عرف، منذ اليوم الأوّل، أنّها تعيش مأساةً تحاول تجاوزها. فقد اخْتُطِفَ صاحبُها منذ ثمانية أشهرٍ. كانا يخطّطان للزّواج بعد معاشرة سنوات. صحفيّ شابٌّ اختار المغامرة وأراد التّخصّص في قضايا الشّرق

الأوسط وبالتّحديد لبنان التي لفتت انتباهه منذ حرب بيروت سنة 1982. ذهب في تحقيقٍ تلفزيٍّ إثر اختطاف أربعة صحفيّين ببيروت. ولكن ماذا تنتظر إذا وضعْت رأسك في فم التّمساح؟ هل مات؟ هل قتلوه؟ هل هو رهينة عندهم؟ ولكن لِمَ لَمْ يقدّموا شروطَهم للإفراج عنه؟

ظلّت أنجيليكا معلّقة تلوك مرارة الوفاء لصاحب قد يكون أعدم بلا سبب. قالت له:

- «تراني مبتهجة دائمًا.. لا يغرنّك.. تلك طريقتي في تجاوز وجعي... لست قدّيسة..

تعمّد الطلياني أن يغيّر الموضوع بسؤالها مرّة أخرى عن الموقع الأثريّ تحت كنيسة «القدّيس بيير» التي زاراها في الصباح. صار متأكّدًا أنّ أنجيليكا انجذبت إليه. يرى بوضوح أكبر أنّ حديثها عن جماله الإيطالي الذي يخلب الألباب وعن قربه من الرّجل الذي كانت ترسمه في خيالها وهي فتاة مراهقة تحاول أن تتغلّب على النّزعة المحافظة لدى أبيها العسكري الفاشي. حديثٌ غزلي ولا ريب وليس من باب الصّراحة وإزالة الحواجز كما توهّم في النّساء الغربيّات. كان يعتقد أنّها لو أرادت منه شيئًا لصارحته به. كنّ في ذهنه أجسادا حرّة في عقول متحرّرة.

بيد أنّ لغة الأجساد حين تُشرح والشّهوة حين تَكبر والرّقّة حين تَحُوم في الفضاء الذي يعبق بأنفاس رجلٍ وامرأة لا تحتاج التّرجمةُ فيها إلى قواميس مهما تباعدت اللّغتان.

غادرت زينة قاعة الجلوس تاركة السّهرة للسّاهرين عساها تصيب شيئًا من الرّاحة استعدادًا للتّحليق من الغد في مملكة المعرفة والفلسفة الخالصة. سبقها أبو كارلا كانت السّاعةُ قد تجاوزت منتصف اللّيل حين نهض الجميع إلى غرفهم، لتواصل أنجيليكا حديثًا بدأته مع عبد النّاصر.

بدت له بعد أن غادر الجميع القاعة على غير عادتها انشراحا وانطلاقا وحبورا. نطقها السّريع للكلام أصبح أبطأ. بدا له أنّ الشّحنة التي

تصدرها من حركات يديها والحيويّة التي تميّزها تضعفان من حين إلى آخر ليعوّضهما شرود لفترة قصيرة أو مسحة حزن تعلو وجهها. لم تكن أنجيليكا هي أنجيليكا. ولم يعد عبد النّاصر، منذ أن روت له مأساتها، عبد النّاصر.

والواقع أنّه وجد نفسه في بعض السّياقات يقارن بين زينة الغارقة في مكتب صلاح الدّين أو الجالسة في حفل العشاء أو المشعّة بابتسامتها وهي تتجاذب أطراف الحديث خلال السّهرة، وبين أنجيليكا التي أصبحت دليلته السّياحيّة ورفيقته التي تشبعه حَكَايَا ونقاشات. لم يكن ثمّة من مجال للمقارنة فلكلّ منهما سحرها وفتنتها بل إنّ زينة، حين يدفع بالمقارنة إلى أقصاها، أجمل وأحلى وأوسع نظرًا وثقافة.

11

غادر الجميع قاعة الجلوس إلّا أنجيليكا وعبد النّاصر. كانا على أريكتيْن متقابلتيْن. غيّرت مكانها. التحقت بالأريكة التي يجلس عليها. قرفصت واضعة ذقنها على رجليْها اللّذيْن ألصقتهما بصدرها. نظرت في عينيه وسألته إن كان يريد جعة أو كأس شمبانيا آخر أو نبيذًا. تردّد بعض التّردّد ثم استسلم. كانت لطيفة جدًّا معه، ألطف من العادة. أصبح صوتها وهي تنطق ببطء، بفعل السكر كما قدّر، ملوّنًا بألوان من الدّلال والغنج.

كانت جمرًا يلتهب، موقدًا بلا رماد يتّقد حطبه اتّقادًا وتنطلق شرارته في جميع خلايا الجسد المتجلّد منذ أيّام بكتب «حنّا أرندت» وبرد سويسرا القارس القاتل. انهمرت عليه سيول الجليد المذاب انهمارًا، غمرته بأنوثة مميّزة. شفتان تحدثان دغدغة في الجسم كريش نعام يمرّر في باطن الرّجل أو تحت الإبطيْن. لسان كقطنٍ ليّنٍ أحيانًا وكمنشارٍ جارح أحيانًا أخرى يذوب له الجسد متعةً أينما مرّ. مزيج من العنف الذي سبّبه

ولا شكّ امتناع لأشهر عن الاحتفاء بالجسد ومن الحنوّ الأصيل الذي تفيض به أنجيليكا في مثل تلك اللّحظات المجنونة.

كانت تؤدّي دورها بحماس وابتهاج ووجع ومتعة. كأنّها تقوم بواجب ترغب فيه ومجبرة عليه في آن واحدٍ. ترك لها القياد. ظلّ يتبعها في ما تريد فعله. فاليوم عيد ميلادها وهي مترجمة بارعة للأحاسيس ومفردات الجسد وتراكيب المتعة وبلاغة الشّهوة.

كان متنها غزير المعاني، كثيرة ظلال معانيها. لم يكن من اليسير عليه شرحه وتحشيته في ليلة واحدة مهما طالت خصوصًا أنّ كتاب حياته مغلق في الغرفة الأخرى وقد يطلّ عليهما في أيّ لحظةٍ.

لم يعرف كيف نام ليلتها بعد أن دلف إلى الفراش. كانت زينة نائمة كملاك. هكذا رآها ليلتها. لم يستطع أن ينظر إليها خشية أن تكون قد رأته أو خجلاً منها أو مجرّد غباء منه. أسرع بإطفاء الأباجورة التي بجانبه وأدخل رأسه تحت الغطاء. كان ما كان وإذا جدّ جديد فسيعلم به في الصّباح.

لم يظهر شيء. نهض باكرًا مع زينة التي أيقظها المنبّه. لم يتركها تغادر الفراش قبل أن يشبعها قبلاً وملاطفات ومسًّا في مواضع كان يعرف أنّها تثيرها. عاد إلى النّوم بعد أن تأكّد من أنّ شهوة الكتابة وحبّ الحكمة أقوى عندها من شهوة شرح المتون وتحشيتها. فالمهمّ أنّه أصبح على يقينٍ تامٍّ من أنّها لم تتفطّن إلى ما وقع بالأمس. كان ذلك كافيًا لينهض في العاشرة صباحًا فيجد أنجيليكا منشرحة كعروس تتّقد حيويّة لا حزن باديًا على وجهها ولا شرود. قبّلته تاركةً بعض الرّضاب على شفتيْه ثمّ همست له في أذنه:

- «كنتَ رائعًا. شكرا... شكرًا جزيلاً».

لم يعلّق بشيء وحافظ على هدوئه. اكتفى بغمزة لا تعلم تأويلها إلّا أنجيليكا.

لم يتمكّنَا خلال الأيّام الثّلاثة التي تبقَّتْ إلّا من بعض القبلات المحمومة في المقهى أو المتحف أو قاعة العرض أو المصعد. أصبح عبد النّاصر خائفًا بعد أن مرّت الأولى بسلام. وكانت أنجيليكا تعرف أنّها مغامرة تخوضها ميؤوس من تواصلها مادامت زينة معه. تصارحا في الأمر وهما جالسان في مقهى لم يمرّ على فتحه وقت طويل. مقهى «القطّ الأسود» (أحَبَّ هذا المقهى لأنّه ذكّره بخمّارة القط الأسود لنجيب محفوظ). كانت تعالج المسألة التي بينهما بعقلانيّة أذهلته. إمراة ذكيّة. شرحت له مشاعره المتضاربة. وفسّرت في الوقت نفسه أنّها انجذبت إليه ولكنّها وفيّة للغائب. أُسْدل الستار على حكاية الطلياني وأنجيليكا. لم يرها بعد ذلك إلى أن ذكّره بها صلاح الدين يوم جاء يعوده في البيت بعد وفاة الحاج محمود وحادثة المقبرة.

12

كانت الرّحلة السّويسريّة بدايةَ شرخٍ لم تفطن إليه زينة ولم يقدّر الطلياني عواقبه. فكّر يومًا في مصارحتها بالأمر بعد أن أحسّ بما يشبه الذّنب. كان يراها بعين الإعجاب رغم كلّ شيء، يراها متألّقة، ذكيّة. زادت حلاوةً في عينيْه بعد الصّداق الذي تصرّ هي على تسميته كذلك ويصرّ هو على اعتباره زواجًا ورابطًا أبديًّا بينهما. استغلّ حديثًا عامًّا عن العلاقات بين الأساتذة والأستاذات في المعهد. اتّسع ليشمل أحاديث من قريتها وعن سلوكات جنسيّة مع الحيوانات والسّحاق واللّواط والخيانات، حكايات غريبة سمعها لأوّل مرّة بدقّة رغم معرفته الضّبابيّة بأصداء منها. انتقل بهما الحديث إلى الدّوافع والأسباب والمسبّبات.

كان يهمّ بأنْ يحدّثها عن «للّا جنيْنة» والشّيخ علّالة الإمام ولكن خطر له خاطر غريب. سألها، على سبيل الافتراض، عن ردّ فعلها إذا خانها.

حدّثته ببرود عن نظريّتها في الرّجل الصّيّاد الذي يقتنص الفرص لينقضّ على الطّريدة. اعتبرت ذلك من باب طبع الرّجل الذي يحتكر المال والثّروة والجاه والمرأة والسّلطة. وسعت دائرة التّحليل لتتعمّق فكرة التّلازم الأصليّ الأصيل بين الملكيّة والسّلطة وأجساد النّساء. فاجأته بالقول إنّ تعدّد الزّوجات عندها أشدّ مناسبة للرّجل من المرأة الواحدة. حاولت أن تجرّد الأمر من خصوصيّته الثّقافيّة الإسلاميّة. أخذ يجادلها في أمر تعدّد الزّوجات ومواقف الإسلاميّين وضرب مكاسب المرأة. أجابته بأنّه لم يفهم قصدها فالمسألة عندها لا صلة لها بالدّين ولا بالدّعوات ضدّ المساواة بين النّساء والرّجال. وضحت، بحجج اعتبرتها أنتربولوجيّة، أنّ أشكال التّملّك ودوران رأس المال المادّي والجنسي والرّمزي متعدّدة. اعتبرت أنّه ينبغي تخليص الموضوع من المسبقات الأخلاقيّة وثنائيّة الحلال والحرام والمحمول التّاريخي الضّاغط على المواقف للنّظر في الزّواج بأربع نظرة أخرى. ذهبت أبعد من ذلك مؤكّدة له أنّ عقود الزّواج في كتب الفقه توضع في باب العقود الخاصّة بالبيع والشّراء. فالزّواج صفقة تجاريّة شأنها شأن ملك اليمين واقتناء الدّواب مع فوارق في خصائص البضاعة وتداخل التّجاريّ والبشريّ في تحديد قيمتها ووظائفها الاقتصاديّة. قالت له:

ـ «كيف لا ترى هذه الأشياء وأنت تنتصر لرأس المال (تقصد كتاب ماركس) والتّحليل المادّي التّاريخي؟».

سألها عبد النّاصر:

إذن تقبلين أن أتزوّجَ عليك بامرأةٍ أخرى؟».

ردّت عليه:

- «سؤالك عن الخيانة الزّوجيّة لا عن تعدّد الزّوجات؟».

- «أريد أن أعرف رأيك في المسألتيْن».

- «عندما نتزوّج أرفض أن تشاركني فيك امرأة أخرى».

- «الصداق لا يكفي؟».

- «أووه... عدنا إلى الموضوع المــُـلاكِ المــُـعاد. دعني أحدّثك عن الخيانة الزّوجيّة».

أطرق كاظمًا غيظَه. هدّأ أعصابه التي بدأت تتشنّج. ظلّ ينصت إليها وذهنه شارد يحوم حول الموقد في بيت صلاح الدّين.

بدأ حفل التفلسف. صفة الخيانة لا تنطبق إلّا على المرأة لأنّها صنو الوفاء أمّا الرّجل فهو بطبعه خائن خوّان. قلّبت الأمور على وجوهها. اعتبرت ما يُلاحظ عند النّساء من نزعة إلى البحث عن ملذّاتهن خارج أطر العلاقة المؤسّسيّة أو علاقة الحبّ مهما كانت صيغتها إنّما هي من باب تخلّق المرأة بأخلاق الرّجال الصّيّادين. استثنت الرّيفيّات في سلوكهن معتبرة أنّ المساواة الفعليّة كانت وما تزال موجودة في القرى رغم أنظمة الأخلاق والقيم السّائدة ورغم تاريخ مديد من التّدجين والإدماج في المنظومة السّائدة.

ندّدت زينة أثناء ذلك كلّه بالتّعامل الذي وصفته بِـ«الأخلاقوي» مع مثل هذه الظّواهر ونبّهت إلى أنّ المرأة مدانة في الأصل لأنّها تزعزع البنية الإيديولوجيّة المهيمنة باعتبارها خلاصة استيهامات جماعيّة صنعها الرّجال لحماية ملكيّتهم للمال والجسد والسّلطة.

نزل بها، عبد النّاصر بعد أن أصغى إليها، إلى أسفل سافلين:

- «إذا اصطدتُ امرأة كما تحبّين أن تقولي، ما هو ردّ فعلك؟».

لم تشأْ الإجابة. اعتبرت سؤاله في غير محلّه لأنّ الحديث حديث

موضوعي لا ذاتيّ، كما قالت! ألحّ في تخصيص العام والخروج من النّظريّات إلى الواقع ومن المفاهيم المجرّدة إلى المعيّن الملموس. تهرّبتْ. لم تجبه. كرّرت له:

- «بعد أن نتزوّجَ ستعرف موقفي عمليًّا».

ثارت ثائرة عبد النّاصر وانقلب الحديث خصامًا حول ما كانت تعيده مرارًا وتكرارًا. الصداق مسألة إجرائيّة لا تعني عندها الزّواج. أخذ يحاجّها حجاجًا قانونيًّا. سعت مرّات إلى نقل الحديث إلى مستوى فكريّ عام. عادت إلى حكاية تصوّراتها لعلاقات الحبّ والملكيّة والفرق بين الزّواج وصيغ الارتباط الحرّة. ركّزت على تشبّثها بالحرّية. وصلت إلى حدّ اعتباره معبّرا، من حيث يدري أو لا يدري، عن المواضعات البائسة والخطاطات الاجتماعيّة المستقرّة التي لا ترى منفذًا لعمق العلاقات بين الرّجل والمرأة إلّا من بوّابة الزّواج.

اندفع عبد النّاصر دفاعًا عن زواجهما فاتّهمها بالأنانيّة لعدم احترامها لمشاعره وحرصه على علاقتهما. سألها سؤالاً لم تعرف أهو حقيقيّ أم أنكاريّ:

- «هل لك شخص آخر في حياتك؟».

ضحكت استهزاء به. أعاد السّؤال مرّات. تأكّدت أنّه سؤال جادّ حقيقيّ. ردّت عليه بالإيجاب نكاية فيه. تركته وحده في المطبخ الذي أصبح قاعة جلوس بالنّسبة إليهما. أغلقت باب غرفة النّوم وراءها. وإنْ هي إلّا لحظات حتى سمعت صرفقة باب الدّار.

13

ما انفكّ الشّرخ يتّسع دون أن يفطن إلى ذلك. فهو مصرّ على علاقتهما وهي مصرّة على إتمام عملها. عاد ذات يوم إلى البيت كأنّه عصفور بلّله

القطر بسبب أمطار شهر فيفري الطّوفانيّة بعد سنوات من الانحباس في البلاد. غرقت باردو في أوحالها وفاضت مجاريها كالعادة وأخرجت بالوعاتها ما فيها. وصل بصعوبة إلى البيت. حين غادر البيت في منتصف النّهار لم تكن ثمّة أمارات على تغيّر الطّقس عَدَا بعض الانخفاض العاديّ في الحرارة.

سلّم دون حماسٍ على زينة وهي ناشرة أوراقها وكتبها على طاولة المطبخ. دخل الحمّام يبحث عن المنشفة الكبيرة. لم يجدها. دخل الغرفةَ. وجد أكوامًا من الأكياس على الفراش وعلى الأرض. تطلّع إلى ما فيها بعد أن رأى على الأكياس من الخارج بعض العلامات المسجّلة لملابس نسائيّة. رأى حذاءيْن نسائيّيْن وسُتْرَات من الصّوف وسراويل من قماش ومجموعتيْن من السّراويل والصّدريّات النّسائيّة وهندامًا نسائيًّا للسّهرات.

سألها في المطبخ بعد أن غيّر ملابسه وتخلّص من مياه الأمطار على جسده:

- «ماذا، أَعَثَرْتِ على كنز؟».

- «أخطأت الجواب. بقيت لك محاولتان!».

- «إذن الرّفيق النّقابيّ جمع لك أموالاً طائلة إضافيّة؟».

- «بقيت لك محاولة أخيرة».

- «هديّةٌ من زوجك الثّاني الذي تخونينني معه».

- «ههههه، مزاحٌ ثقيل لا يناسبك».

- «إذن ما الحكاية. أعترف باستسلامي!».

- « ببساطة تحصّلت على أجر خمسة أشهر دفعة واحدة.. أنا اليوم من أثرياء العرب».

تقدّم منها. قبّلها من رأسها قائلاً:

- «مبروك، أنت في حدّ ذاتك ثروة».

لَمْ يُثِرْهَا غزله ولم تتفاعل مع كلامه. انهمكت في عملها كأن لا شيء جديدًا وقع. أحضر كتابًا من الغرفة، رواية لفيليب روث بعنوان «حياتي وأنا رجل». لم يتقدّم في مطالعته بضعة صفحات حتّى داهمته زخّات من الخواطر التي شوّشت ذهنه وعطّلته عن تتبّع الرّواية الممتعة.

لم يعد غزله يثيرها رغم أنّه غير متصنع ولا يترك فرصةً تمرّ دون أن يعليَ من شأنها. واليوم ها هي ذهبت مع نجلاء أستاذة الرّياضة وصديقتها الجديدة التي تقطن في باردو، قريبًا من بيتهما، لتشتريَ ملابس لائقة بأستاذة فلسفة. لم تفكّر ولو في قميص أو سترة أو سروال أو حذاء تهديه إليه؟ ألا تعرف أنّه منذ مدّة لم يشْتَرِ شيئًا ولولا هدايا صلاح الدّين في رحلتهما السّويسريّة لَظَلَّ بتلك الملابس القديمة؟

لِمَ لم تقترح عليه الذّهاب إلى مطعم احتفالاً بوضعها الماليّ الجديد؟ ألا يمكن للعمل على مذكّرة البحث أن يتأجّل ساعاتٍ أو حتى يومًا بأكمله؟ كان يمكنها أن تشتري أكلاً جاهزًا فالمطلوب حركة، إشارة إلى أنّ لها شريكًا في البيت بالصداق أو الزّواج أو الصّداقة أو بأيّ رابط يحلو لها؟ ألا تعرف أنّه لم يضع قطرة نبيذ واحدة من حرّ ماله منذ أشهر؟ هي تعرف أنّه أصبح عاجزًا عن بعض الضّروريّات فما بالك بالكماليّات بل تعرف أنّه كان يعيش ملِكًا بفضل ما كان يرسله إليه صلاح من أموالٍ وبدأت أزمته حين أصبح يتقاسم معها كلّ ملّيم وحين أصبح يأخذ منها مصروفه ثقة منه فيها؟ ألم يكن بمقدورها أن تشتريَ قطعة مرطّبات مثلما فعل يوم نجاحه وتخرّجه؟

تذكّر حديث أمّه وأخته جويدة وحتى يسر عن «الأقعار»، من غير أهل المدن. كُنَّ يُحَذِّرْنَهُ منهن ومن بُعْدِهنّ عن الكياسة واللّطافة والآداب وعادات الحَضَر. كانت أمّه زينب تقول له دائمًا:

- «خذها من شبعان إذا جاع وردّها على جوعان إذا شبع».

عادت إليه أحاديث النّساء في بيتهم واحتقارهنّ لغير البلْدِيّات. كان يسخر منهن فكيف يعطيهن الحقّ اليوم؟ ثمّة خلل مًا.. خطأٌ مًا.. في موضعٍ ما من نفس زينة. بَدَا له أنّ الأمر لا يتعلّق بالانهماك في البحث ما دامت قد وجدت الوقت لاقتناء ملابس لها. ويبدو أنّ الأمر لا يتّصل بقلّة ذات اليد فقد أعلمتْه أنّها أرسلت أموالاً بحوّالة بريديّة إلى أمّها على سبيل إدخال البهجة على قلبها الطيّب وحتى تذوق نتاج شقاء السّنوات وكدّ أعوام من الإهانة والذّلّ والقهر. حدّثته عن ذلك وهو يطالع الرّواية عندما تذكّرت. عادت لتغرس رأسها في أوراقها وكتبها.

أدار المسألة في رأسه مرّات. بحث عن مكمن الدّاء. لم يجد إجابة شافية إلّا أنّها لا تبادله حبًّا بحبّ وسخاء بسخاء. استقرّ في ذهنه أنّها تعامله معاملة جار يساكنها البيت تستفيد من وجوده لحمايتها ومن جهده لتسدّ الرّمق حين تناديها شهوتها التي ما انفكّت تضعف وتخفت ومن أمواله القليلة للتّنقّل والتّدخين والمصروف اليومي ومن تفرّغه لها لمدّ يد المساعدة (ورِجْل المساعدة إن لزم الأمر!) كلّما احتاجت إلى إعادة كتابة فصل بخطّ عبد النّاصر الجميل الواضح الذي طالما دبّج به المعلّقات في الجامعة.

14

ثمّة شيء مًا. حاول أن يحدّده. خاف من تحديده على نحو جليٍّ دقيق. خاف من نفسه لا منها. تداخلت في ذهنه الأفكار المعقول منها والمرعب، أخذت تتداعى مترابطة وهو يوهم بالمطالعة. لم تشعر زينة بشيء. كلّما رفع رأسه وجدها غارقة في الأوراق تقرأ أو تحرّر أو تتأمّل. لمح علبة سجائر أجنبيّة فاخرة من صنف «لارك» على الطّاولة لم يتفطّن

إليها من قبل. ربّما كانت مغطّاة بأوراق أو بين كتب أو خلف القاموس أو في الحقيبة. «قفزة مهمّة عملاقة. من السجائر الوطنيّة «الكريستال» الخفيف إلى التبغ الأمريكيّ «لارك».. توضح كلّ شيء» قال لنفسه. لم يشأ التّعليق. لم يتكلّم إلّا حين سألته:

- «ألا يوجد ما يؤكل؟».

لم يستطع أن يواصل السّكوت عمّا فكرّ فيه. نظر إليها مبتسمًا بتخابث وأجاب:

- «كنت أعتقد أننا سنتعشّى خارج البيت».

- «ما المناسبة؟».

- «لم نتعشَّ من قبل، أنا وأنت، بمناسبة إلّا يوم حصولي على الأستاذيّة على ما أذكر. كنّا نفعل ذلك حبًّا وفرحًا بالحياة».

حرّكت رأسها موافقة ولم تعلّق بشيء. استأنف كلامه:

- «لكن اليوم سنحت الفرصة وكان يمكن أن نتعشّى معًا في مطعم».

- «ما هي؟».

- «اقتناؤُك لملابسَ جديدة».

- «أوّلاً هذا أمر عادي، ثانيًا ما سيُصْرَفُ على الأكل خارج البيت يمكن أن أشتريَ به شيئًا».

رآها وقعت في الاستفزاز وتحاول اصطناع الهدوء والتّعقّل بالإجابة الحرفيّة على تلميحاته فقال:

- «أقصد أدعوك أنا إلى العشاء وتحتفظين بمالك لاشتراء شيء مهمّ. أنا مبذر بطبعي وأنت حسنة التدبير يا زينة روحي».

- «من أين لك الأموال؟ لم يتبقَّ لك عندي إلّا ثلاثون دينارًا!».

سكت الطلياني فقد حقّق مبتغاه من النّبز والهمز واللّمز. أراد التّثبّت

من سلوك زينة مع المال. ابتسم لها وعاد إلى الرّواية موهمًا بمطالعتها. يبدو أنّ هذا الدّاء عندها دويّ كشفته الأيّام شيئًا فشيئًا ولا يستطيع أن يفرض نظامًا آخر ما لم يكن قائمًا على التّطوّع.

تركها أيّامًا ينتظر إن كانت ستساهم في تأثيث البيت بسدٍّ ولو قليل من النّقائص فيه. لم يحلم بقاعة جلوس بالتّقسيط ولا بثلّاجة أو آلة غسيل ملابس. كان يطمع في القليل الضّروريّ من مواعين للأكل مثلاً أو مناشف للاستحمام وما شابه هذه البسائط. ولكن لا حياة لمن تنادي.

15

في مقهى الحاج، حيث اعتاد أن يجلس ليطالع الجرائد بحثًا، بالخصوص، عن مناظرة قد تُفتح وتتبّعًا للأخبار تعرّف صدفةً على عمّ حسن. كانت صدفة سعيدة.

لاحظ الرجلُ تبرّمَه من حبر الصّحف يلتصق بالأيدي فيسوّدها. ابتدأه بالحديث كما يفعل النّاس عندنا دون سابق معرفة. كان يشرب قهوته ويدخن النّرجيلة. حدّثه عن تخلّف المطابع التّونسيّة. قارن ذلك بما شاهده في ألمانيا التي سافر إليها في دورة تدريبيّة. كانت الجريدة التي يشتغل فيها تستعدّ لاقتناء مطبعة جديدة. تخلّى يومها عبد النّاصر عن توجّسه خيفة من الأمن والبوليس السّرّي وأنبأه قلبُه أنّ الرّجل عادي طيّب. بادره بالحديث دون نوايًا مبيّتة. سأله عمّ حسن عن مهنته فأعلمه أنّه متخرّج حديثًا من كلّيّة الحقوق. سأله عن مدى إتقانه للفرنسيّة حين رأى أمامه رواية بتلك اللّغة وبعد أن رآه يعالج الكلمات المتقاطعة. أعلمه بأنّ الجريدة التي يشتغل في مطبعتها تبحث عن مصحّحين أكفاء يشتغلون حصّةً واحدة تبدأ من الرابعة بعد الزّوال إلى العاشرة وأحيانًا إلى منتصف اللّيل بحسب نسق الأحداث. أكّد له أنّ حظوظه كبيرة بما أنّ

عدد الذين يتقنون الفرنسيّة في تناقص سواء من المحرّرين والصّحافيّين أو المصحّحين. اتّفقَا على موعد لملاقاة سكرتير التّحرير. كان الاختبار جيّدَ النّتائج. قُدّم إليه نصّ مطوّل مليء بأخطاء فلم يترك واحدة تمرّ. من يومها بدأ عمله الجديد المؤقّت وربح ثمن اقتناء الصّحف بل أصبح يطّلع على إعلانات الوزارات ومختلف المناظرات قبل صدورها.

16

بسرعة كبيرة اشتهر عبد النّاصر في الصّحيفة بأنّه أكثر المصحّحين ثباتًا وإتقانا، غربال دقيق ينخّل الأخطاء تنخيلاً إضافة إلى إلمامه بصيغ أفعال اللّغة الفرنسيّة وأزمنتها ومشاكل المطابقة بينها. وجد، مرّة، في افتتاحيّة للرئيس المدير العام ورئيس التّحرير خطأيْن شنيعيْن في المطابقة يحرّفان المعنى الذي كان يتعلّق بمستقبل الحكم ورئيس الدّولة. ويعتبر هذا في عرف الصّحافة التّونسيّة سببًا كافيًا لعزل المدير العام حتى وإن لم يكن الخطأ مقصودًا.

عاين عبد النّاصر لأوّل مرّة في حياته كيف تكون الرّقابة خصوصًا أنّ الجريدة ملك للحكومة. ثمّة شخص يقرؤها من الغلاف إلى الغلاف. حتى صفحة أخبار كرة القدم وصفحة الوفيات لا تنجوان من نظره الثّاقب. فهو أعلم بمصلحة الدّولة وأكفأ مَنْ يحميها. وكم من مرّة حُذِفَت فقرة في آخر لحظة بعد جهد تضمينها وتصحيحها وتثبيتها في موضعها. لا يُدْعى الصّحفي للنّظر في ما كتب بل يتمّ الأمر بين السّيد الرّقيب والمشرف على الطّباعة. والحلّ دائمًا موجود عند «المسؤول عن تشخيص مصلحة النّظام البورقيبي العتيد» كما سمّاه عبد النّاصر: ضعْ شريطًا أسود يكتب داخله تحذير من الإفراط في السّرعة أو نصيحة للمترجّلين أو التنبيه إلى أخطار التدخين أو الدعوة إلى الاقتصاد في الطاقة.

تجرّأ عبد النّاصر يومًا على مقالٍ دبّجته الرّيشة الذّهبيّة في الإعلام المكتوب بالفرنسيّة في تونس، السّيد الرّئيس المدير العام للشّركة كلّها ورئيس التّحرير الجهبذ. لم تكن مقالاته تصحّح مباشرة بل تقترح عليه التصحيحات وهو مَنْ يقرّر. كان يبقى إلى ساعة متأخّرة ليُمْلِيَ الافتتاحيّة وينتظر تصحيحها وقراءتها قراءةً أخيرةً ثمّ يغادر مقرّ الجريدة.

يومها وصلت الافتتاحيّة بعد أن جُهّزت الجريدة كلّها. يبدو أنّ قريحته لم تكن صافية. صحّح عبد النّاصر النّصّ، فهو المختصّ الأوّل في تصحيح الافتتاحيّة بعد ما اختاره عمّ حسن باتفاق مع سكرتير التحرير لهذه المهمّة. كان يهمّ بالخروج فسمع صوت سكرتير التّحرير يناديه غاضبًا:

- «ماذا فعلت؟ أَبَلَغَ بك الادّعاء أن تتجرّأ على أجمل قلم في تونس؟».

- «ماذا هناك؟».

- «السّيد الرّئيس المدير العام يطلبك، ليلتك مشؤومة، لا تناقشه فمزاجه قد تعكّر بعد أن قرأ تصحيحك للافتتاحيّة».

- «لا يهمّني، الأخطاء هي الأخطاء».

- «لنصعد إلى الطّابق الثّاني، نَادِ عمّ حسن، أبو السعود. ح والمدير ينتظرانا».

لم يرتبك عبد النّاصر، قال في نفسه «ليس للبروليتاريا ما تخسر، ليذهبوا جميعا إلى الجحيم». دخل ثلاثتهم المكتب يتقدّمهم سكريتير التّحرير. حالة من الوجوم في المكتب. الرّقيب أبو السعود والرّئيس المدير العام يتحدّثان بصوتٍ مرتفع. سمع المدير يقول «الفرخ يزقّق الديك». أعجبته العبارة. كان متأكّدًا من نفسه لأنّه تعلّم ألّا يصحّح شيئًا يشك فيه من الافتتاحيّة قبل أن يفتح المعاجم. ما إن رآه الرّقيب حتى قال له:

- «هاهو صاحب الفعلة الشّنيعة».

اقترب الرّئيس المدير العام من عبد النّاصر شاهرًا سبّابته في وجهه، مشيرا إلى النّصّ أمامه:

- «أنت تصحّح لي مطابقة الأزمنة في هذه الجملة؟».

هدّأ عبد النّاصر من روعه. كان يودّ أن يلكمه أو يكسر سبّابته أو يضربه في ذاك الموضع. لم يفعل واختار لكمةً من نوعٍ آخر:

- «الخطأ هو الخطأ اِسألْ من تريد ممّن يتقن الفرنسيّة؟».

ثارت ثائرة الرّئيس المدير العام:

- «معنى كلامك أنّ أبو السعود وسكرتير التّحرير وأنا لا نعرف الفرنسيّة وقد أجمعنا على صحّة ما أثبتّه في النّصّ قبل أن تُحَرِّفَه أنت؟».

- «إذا اتّفقتم فالنّصّ نصّك.. أنا أدّيْتُ واجبي ولك سديد النّظر ولا أحد منّا موليار».

- «تسخر مني أيضًا؟.».

قاطعه:

- «لا أبدًا، إمّا أن تترك النّصّ كما هو وإمّا أن نتحدّث بهدوء ودون تحقير..

تأمّله متسائلاً من أيِّ رهطٍ هذا الذي يجرؤ على أن يحدّثه بتلك الطّريقة. فهم عبد النّاصر ما يجول في خاطره. فقال على سبيل المزاح:

- «إذا كنت مخطئًا منحتك مقابل شهريْ عملٍ وإذا تبيّن العكس منحني رقيبك وسكرتير التّحرير أجريْهما.. اتّفقنا».

انشرحت أسارير وجه المدير وقال له:

- «أنت ذكيّ.. لِمَ أخرجتني أنا».

- «لأنّني لا أدري ما سأفعل بأموالك الكثيرة، لا أستطيع أن أضعها في جيبي..».

ضحك الرّئيس المدير العام واكتفى الحاضرون بابتسامات كانوا يخفونها متصنّعين الجدّ، متعجّبين من الوقاحة التي يرونها تسير على رِجْليْن.

نَاقَشَا الجملة المعنيّة طيلة ربع ساعة. عادَا إلى المقاصد والسّياق والتّأويلات الممكنة. أحضر عبد النّاصر كتاب «غريفيس» الموثوق بمعلوماته. كان المدير يتحدّث بهدوء على عكس صراخه عند دخول عبد النّاصر إلى المكتب. استفرغ المصحّح الشّاب حججه. قائلاً:

- «هذا ما بدا لي، والرّأي رأيك».

وضع المدير الذي كان جالسًا على المكتب رأسه بين يديه. وفجأةً التفت مشيرًا بيده إلى الرّقيب وسكرتير التّحرير:

- «يمكنكما الحصول على سُلْفة للشّهر المقبل، هذا الفتى على حقّ».

17

من يومها أصبح عبد النّاصر يصعد كلّ مساء حواليْ الثّامنة ليُملي عليه الرّئيس المدير العام الافتتاحيّة. وشيئًا فشيئًا أصبح يقترح الموضوع ويطلب منه هو أن يكتب بلغة خشبيّة تليق بأسلوب رئيس التحرير الرّائق افتتاحيّة يوم الغد التي تصدر بتوقيع عرفه. كان تمرينًا سهلاً بالنّسبة إلى عبد النّاصر وخدمة كبيرة يقدّمها إلى الرّئيس المدير العام.

بعد أيّام طلب منه أن يكتب في الشّأن الوطني ويمضي باسمه فاعتذر بلطف. سأله إن كان يريد أن يصبح صحفيًّا فامتنع. أراد الرّئيس المدير العام أن يساعده بما يرفّع من أجره، فمقابل تصحيح المقالات ضعيف ولا يمكنه أن يمتّعه بساعات إضافيّة إلّا في حدود معقولة وإنْ كان متأكّدا

من كفاءته ومن قدرته على الكتابة أفضل من جميع الصّحافيّين في الجريدة.

وَجَدَا الحلَّ في أن يكتب عبد النّاصر في الصفحات الرياضيّة ويعيد صياغة «التلكسات» الهامّة التي ترد من وكالة تونس إفريقيا للأنباء. ظلّ بضعة أشهر يفعل ذلك مما رفع من مدخوله الشهريّ. ولكن سرعان ما وقعت مشكلة بعد نشر عبد الناصر لخبر خطير عن لاعب يعرفه جيّدا من أبناء حيّة اسمه «باغندا» يلعب في ناد كبير عريق. عرف سي عبد الحميد كيف يُخرج عبد الناصر من الورطة. لم يعد له مكان في صفحات الرياضة فطلب منه أن يكتب في الاجتماعيّات باسم مستعار ويكون أجره بحسب المقال. حذف الرّقيب له يومًا مقالاً حول مسالك توزيع الخضر والغلال ودورها في رفع الأسعار. استشاط غيظًا وطلب من الرّئيس المدير العام، وهو يكتب له الافتتاحيّة، أن ينتقل إلى الصّفحات الثّقافيّة. فَهِمَ من المدير أنّ للرّقيب اليد الطولى وأنّه لا يريد أن يعاكسه في قراراته الاعتباطيّة لأنّه مسنود من أحد أجنحة القصر.

18

طال انتظار المناظرات التي لم تُفْتَحْ. فالبلاد في أزمة اقتصاديّة حادّة، كانت على حافّة الإفلاس والصّراع على أشدّه بين الأجنحة في قصر الزّعيم الذي لا يستفيق إلّا ساعة أو ساعتيْن في اليوم. حسب عبد النّاصر الأمور جيّدا. اعتبر أنّ عصفورًا في اليد أفضل من ألف عصفور في السّماء. وعلى كلّ حالٍ فإنّ الطّيورَ في سماء تونس المغيّمة وسُحُبها المتلبّدة وزوابعها المنتظرة يعسر عليها أن تحلّق. لا طيور ولا مناظرات فليغتنمْ عرض الرّئيس المدير العام وليصبحْ صحفيًّا في جريدة حكوميّة.

بسرعة مذهلة رتّب له المدير كلّ شيء. كان شخصًا مثقّفًا دستوريًّا

بأَخَرَة. أسرّ له في ما بعد أنّه يحبّ اليساريّين الأذكياء ويكره بالفطرة الإسلاميّين الذين يهدّدون الإرث الحداثي للبلاد. ذكر له أنّه كان من المؤتمرين في مؤتمر قربة 1971، وأنّه كان من الدّستوريّين الذين عارضوا الانقلاب على الجناح اليساريّ في الاتّحاد العام لطلبة تونس وهو يحنّ فعلاً إلى تلك المرحلة ويَأْسَفُ لِمَا وقع. ويستشهد بالوقت الذي أضاعته الدّولة والجامعة والبلاد أمام أزمة سهلة الحلّ.

توطّدت صلته بالمدير بعد أن اعترف له بذكائه ونباهته وقدراته التّحريريّة وأسلوبه المتميّز. أصبح يستلطفه لصراحته ووضوح مواقفه. يدعوه أحيانًا إلى مكتبه ليتباحث معه في ما يجري في البلاد ويستمع إلى تحليلاته وآرائه. اكتشف فيه إلمامًا واسعًا بدقائق الأمور وحسًّا سياسيًّا مرهفًا. أعجبه من عبد النّاصر أنّه لم يخف عنه ميوله اليساريّة. ربّما جمعتهما مناهضة الإسلاميّين. أعجب عبد النّاصر من جهته بالمدير لأنّه لم يكن دستوريًّا مخلصًا بل هو شخص، كما اعترف له ذات مكاشفة، كان قريبًا من الدّيمقراطيّين داخل حزب الدّستور. ولكنّ البلاد ضيّقة والدّيمقراطيّة المزعومة غير نزيهة. اعترف له أيضًا، في لحظة صراحة نادرة، أنّه لم يختر حزب الدّستور بل فرِضَ عليه وإلّا ترك المكان والمكانة لِمَنْ هم دونه كفاءةً. هو من جيل يعتبر نفسه بورقيبيًّا ولكنّه يرى أنّ البورقيبيّة تنقصها الدّيمقراطيّة. وكان يرى نفسه من النّخبة المتميّزة التي أسّست مجلّة «ديالوغ» الناطقة بالفرنسيّة وأرادت الارتقاء بالصّحافة إلى درجة عالية من الحرفيّة والحرّيّة في التّعبير. غير أنّ سياق البلاد أجهض التّجربة.

استحال الاستلطاف والتقدير والاحترام بينهما إلى محبّة لم تزدها المصادقة والمعاشرة إلّا قوّة. لم يتخيّل عبد النّاصر أن يجد كلّ هذا العمق الإنساني في أحد رجالات النّظام المخلصين عمليًّا بقطع النّظر عمّا في صدره. لو عرفه قبل سنة لاعتبره من كلاب الحراسة ومزيّفي الوعي العام

والمنافحين عن نظام فاسد آيل إلى زوال. بيد أنّه، في جلساتهما الخاصّة بعد أن أصبح يأخذه معه إلى مطعم فاخر بضاحية قمّرت، كان يحدّثه عن الرّوايات التي يدمن على مطالعتها. حدّثه عن الرّوائيّين الرّوس الكبار وعن أدباء أمريكا اللّاتينيّة ونبّهه إلى روايات الأمريكان. كان يقول له حين يتحدّث عنهم:

- «دعك من التّرّهات. الرّواية الحقيقيّة هي الرّواية الرّوسيّة».

أو يقول:

- «الرّواية اليوم أمريكيّة بلا منازع. الرّواية الوحيدة التي تقول حقيقة الإنسان الحديث».

كان يتحدّث عن الرّواية العالميّة حديث العارف القارئ النّهم. فإذا أعجبته رواية طالعها أهداها إلى عبد النّاصر. كان يسأله إن كان قرأ للكاتب الفلاني من أدباء أوروبّا واليابان. فإذا أجابه بالنّفي، وغالبًا ما تكون إجابته بالنّفي، أحضر رواية أو مسرحيّة أو مجموعة شعريّة للكاتب الذي ذكره بعد يوم أو يومين.

ما لم يفهمه عبد النّاصر هو كره سي عبد الحميد للشّعر رغم معرفته الجيّدة به ومتابعته له. سأله عن ذلك مرّة فأجابه:

- «الشّعر تمرين بلاغيّ بينما الرّواية هي أمّ الحقيقة الإنسانيّة العميقة».

ناقشه عبد لنّاصر كثيرًا ولكنّه أصرّ على موقفه. وممّا استغربه منه كرهه الشّديد لسينما المؤلّف وحبّه للأفلام الكبيرة الضّخمة أو الأفلام التّجاريّة الناجحة. لم يفهم ذلك منه فقال له مرّة:

- «سينما المؤلّف كعاشق ينام في فراش حبيبته وهي غائبة ويتخيّلها معه. أمّا السّينما الحقيقيّة فتصنع الحلم.. تحكي لك حكاية أين منها بلادة غودار وأمثاله».

19

كان سي عبد الحميد يمدّ عبد الناصر في جلساتهما بأسرار القصر وآخر الصّراعات الدّائرة فيه، ومواقف مختلف الأحزاب وفضائحهم وصفقاتهم وخطاباتهم المزدوجة. حدّثه حديث دقيقا مفصّلا عن الحزب ودواليبه وعن أسرار كلّ شخص من الوزراء والمسؤولين ومن يقف وراءهم ويسندهم والخلافات بينهم ومَنْ يخرج مع زوجة مَنْ؟ ومَنْ يبيع أسرارَ مَنْ؟

عالم متعفن مليء بالخيانات والبذاءات والأطماع والحقارات والسّفالات. لم يعترف له بنصيبه من هذا كلّه ولكنّه لمّح إلى أنّ مَنْ في موقعه ومنصبه لا يمكن أن ينجوَ من هذه المنظومة فمَنْ لا يغرق فيها يصله بعض رذاذها المنتشر يمينًا ويسارًا.

قال له إنّ مَنْ يتحرّك اليوم في أيّ موقع من مواقع الدّولة كَمَنْ يسير على حبلٍ رقيقٍ. قد يسقط بمجرّد رفّة فراشة ليجد تحته التّماسيح فاغرة أفواهها تنتظر أن تُطْبِقَ عليه بفكّيْها. بدا منشرحا حين حدّثه أوّل مرّة عن رأيه في الصحفي الشابّ عبد الناصر:

- «أنا على ثقة من أنك ستصبح صحفيًّا كبيرًا. لم تدرس في معهد الصّحافة ولستَ بحاجة إلى ذلك. كبار الصّحافيّين في العالم لم يدخلوا تلك المؤسّسات البائسة. الصحافة قلمٌ سيّال رائق وذكاء وفطنة وثقافة سابقة وردّ فعل سريع. أمّا قواعد الكتابة الصحفيّة فتكتسب بمطالعة ما يكتبه الكبارُ وبالدُّرْبَةِ والنباهة. وأنت منذ خربشاتك الأولى اكتشفت أنك «مْعلّم».

قرّب رأسه من الطلياني هامسًا:

- «لكنّ الصّحفيّ الحقيقيّ هو الذي له صلات بالدّاخليّة.. بالكبار فيها. يتزوّد بالمعلومات ليعرف اتّجاهات الرّيح. لا بدّ له من علاقات مع دوائر القرار شريطة ألّا يصبح واشيا قوّادًا نَمَّامًا رخيصًا فتغلق دونه حنفيّة الأسرار ولحّاسًا مُتَزَلِّفًا حقيرًا فيُرْكَل ويرمى به خارج الدّائرة».

طلّاع الثنايا

1

تغيّرت حياة عبد النّاصر في إيقاعها ومساراتها ومسرّاتها.

صار ينهض متأخّرًا وتكون زينة قد غادرت البيت لتذهب إلى التّدريس. حتى يوم السّبت، وهو يوم راحة لمدرّسي الفلسفة، تخصّصه للذّهاب إلى المكتبة الوطنيّة ومكتبة الكلّية أو للقاء أستاذها المشرف أو أحيانا لعقد اجتماعات مع المرشد البيداغوجيّ في الفلسفة. فلا يراها إلّا بعد الزّوال عند عودتها.

لا يلتقيان فعلاً إلّا صباح الأحد. فهي تحبّ أن تتكاسل في الآحاد. تنتقي فطورَ صباحٍ حقيقيًّا: زيت الزّيتون البكر وجبن «القرويار» وشرائح صلامي مدخّن وبيض مسلوق. تقلي طماطم وفلفلا وبصلاً. لا تحبّ الحليب فتشتري علبة عصير. سنّت هذه العادة مُذْ أصبحت تتقاضى راتبها كبقيّة الأساتذة. كان ذلك هو اليوم الوحيد الذي تعدّ فيه فطورها بنفسها. تجلس قبالة عبد الناصر وتلخّص نشاطها الأسبوعي وما وقع فيه: زيارات المرشد البيداغوجي، الوضع في المعهد، الحكايات التي سمعتها، أصداء الأحداث التي تجري في البلاد... وإذا وصلت إلى الحديث عن مدى تقدّمها في مذكّرة البحث أبدت كعادتها تبرُّمًا من ضيق الوقت وخشيتها من ضياع السّنة من دون أن تتمّ عملها وتناقشه. خوفٌ

استبدّ بها منذ الصّيف المنصرم مباشرة بعد التّخرّج. وكان عبد النّاصر يرفع من معنويّاتها ويحثّها على العمل ويعمل على أن يوفر لها أسباب الرّاحة. لكنّ الإسطوانة المشروخة أضحت مملّة فلم يعد يعلّق بشيء. يظلّ محايدًا يصغي إليها فقط.

لم يعد يغازلها في مثل تلك الجلسات الخاصّة الأسبوعيّة. فقد اعتنت بمذكّرتها ولم تعد تذكره رغم أنّه يعود متأخّرًا وقلّما يجدها مستيقظة. يكون في العادة قد عبّ ما أمكن له أن يعبّه مع سي عبد الحميد أو بعض الصّحفيّين في الحانات القريبة من مقرّ الجريدة أو في بيت صديق من أصدقائه الجدد. لم يعد يسأل عن تغذيتها. فهم من بقايا أوراق اللّف أو بعض فضلات الطّعام أنّها اعتادت على الأكلات السريعة من الحوانيت الكثيرة المنتصبة في شارع بورقيبة بباردو وبعض الأنهج الفرعيّة. يجد بقايا بيتزا برائحة الطّماطم الحامضة أو بقايا سندويتش بالتنّ أو شرائح الدّيك الرّومي أو الصّلامي وأحيانًا يجد قشرة جبن أحمر أو جبن قرويار وخبز. لم تكن تجمع تلك البقايا بل تتركها على دكّة المطبخ كصبيّة لم تحسن أمُّها تربيتَها. يجمعها عبد النّاصر في الصّباح، وهو يعدّ قهوته استعدادًا للسّيجارة وزيارة المرحاض الذي يقضي فيه وقتًا طويلاً يطالع كتابًا أو مجلّة أو صحيفة، لاعنًا الكسل ومذكّرة البحث وقلّة التّربية.

أصبح الزّواج مجرّد مساكنة بين صحفي يخطو خطواته الأولى في دنيا صاحبة الجلالة وما فيها من حقارة (خطوات أولى كانت والحقّ يقال عملاقة) وبين صاحبة الحكمة التي مازالت أستاذة تعليم ثانوي في مرحلة التدريب وطالبة تعدّ مذكّرة بحث تفتح أمامها إمبراطوريّة التعليم الجامعي (طالبة من طراز رفيع نادر كأنّها آلة للقراءة والفهم والتّحرير مبرمجة لأنْ تصبح دكتورة ممتازة).

ولولا بعض المغازلات والملاطفات في الفراش قبل النّوم حين يعود

عبد النّاصر على غير عادته الجديدة مبكّرًا نسبيًّا لكانت المساكنة فعلاً بين غريبيْن لا تمييز فيها بين ذكر وأنثى. ولولا ما كانا يلحظانه من شوق والتهاب أحاسيس ومشاعر وانفجار ملذّات ومتع في المرّات القليلة التي تجمع بينهما على وجه الصّدفة كما تجمع الحبيبة بحبيبها المسافر، لَسَارَ كلٌّ في طريقه.

ثمّة رغم كلّ شيء أمْرٌ ما يربطهما أكثر من الصداق الذي ساقته الظّروف والصّدفة. حينها لا يدري عبد النّاصر لِمَ تَتغَيَّرُ نظرته إلى زينة. كان يراها عقلاً خالصًا لا يحسن إلّا اللّعب بالمفاهيم والتّحليق في المجرّدات وتفكيك المصطلحات ومكافحة الآراء وغرس الشّك في الثّوابت وزحزحة الإشكالات. بيد أنّ هذا العقل الخالص، حين تشرع شفتا الطلياني تمتصّان رضاب تلك القصبة المفكّرة وتجوس يداه في ملمسها اللّيّن وتضاريسها وثقوبها، يستحيل مادّة هلاميّة يشكّلها هو حسب أهوائه واستيهاماته وما يعنّ له من هيئات ذُكر بعضها في «الكاماسترا» ولم يذكر الكثير منها. تصبح القصبة غصنًا أخضر غضًّا يتلوّى كلّما مسّتْه ريحُ الرّغبةِ. هذه النّبتة الشّيطانيّة مذهلةٌ قُلَّبٌ لا تستقرّ على هيئة واحدة. يراها غصنًا جافًّا ويجدها جذعًا يابسًا في جلّ الأحيان وأحيانًا قصبة كقصبة النّاي تتصاعد منها الأفكار متدافعة مدوّخة. وتكون أحيانًا أخرى عُودًا غضًّا منوّرًا طيّبَ الرّيح يجدّد الحواسّ التي تبلّدت بفضل الألفة والعادة.

ربّما كان ذلك بعض ما جعل طريقيهما يفترقان في أكثر الأيّام ولكنّهما يلتقيان في لحظة ما لا يعرفان سرّها.

والحقّ أنّ زينة كذلك كانت تشعر بالأحاسيس نفسها على ما صارحتني به في إحدى اللّقاءات بها بعد طلاقها. كانت تراه رجلاً منظّمًا عقلانيًّا واضحًا يسيطر على كلّ شيء بما في ذلك مشاعره ونبضات جسده. كان في عينيْها رجلاً صارمًا يرسم كلّ شيء ويخطّط لكلّ شيء.

استراتيجي بارع وواضع خطط تكتيكيّة لا تترك لمن معه إمكانيّة الهروب منها. كان ذلك يزعجها كثيرًا ولكنّه، وهنا المفارقة التي نبّهتها إليها فاعترفت بها، يبعث فيها الشّعور بالطّمأنينة والحماية بما أنّها تعيش في كنف رجل مسؤول يحترمها ولا يقف حجر عثرة في طريقها بل يتكفّل بإبعاد الأحجار، مهما كبرت، من أمامها لتواصل سبيلها.

اعترفت زينة بأنّ هذا «الأورغانون الجديد» (كما سمّت عبد النّاصر) يمكن أن تراه في لحظات غضبه كجحيم «دانتي» أو سقوط «أورفيوس» ولكنّها تراه في لحظات شهوته عاشقًا هنديًّا مستعدًّا للموت عشقًا، أو قصّة مشوّقة من الشّعر الإباحي العربي أو من «الرَّوْض العاطر» بين يديْ مراهق يستكشف الجنس. لقد كان شهوة موقوتة لا تعرف متى تنفجر ولا تترك في الجسد مكانًا لا تصله الحروق اللّذيذة أو الشّظايا القاتلة.. التي تقتل متعةً.

لم تصارح زينة عبد النّاصر برأيها هذا فيه. وهو كذلك لم يفعل. بيد أنّ في المسألة شيئًا دقيقًا عميقًا لم تتمكّن من فهمه. فقد كانت تأخذها في البداية سكرة ممزوجة برعدة كأنّها في حالة شطح للذّوبان في جسد عبد النّاصر والانصهار الكلّي فيه. جسده حقل مغناطيس بهيّ ينوّم الحواس ويستنفرها في الآن نفسه. يذهب بالعقل فعلاً فتتخدّر الأعضاء كلّها. يجعلها تشعر في آن واحد بألم لا يُطاق ولذّة لا تُحتمل. فتستسلم وترضخ للسّهام المتعاقبة إيلامًا وإلذاذًا، إيجاعا وإمتاعًا. بيد أنّها حالَمَا تثوب إلى رشدها لا يبقى إلّا أَلَمٌ حادٌّ مروّع في أحشائها أسفل البطن في مستوى العانة، كأنّ إبرًا غليظةً تنخرها من الدّاخل وتحرّكها يد خفيّة تظلّ تحفر وتحفر ولا تتوقّف. لم تفهم زينة ذلك في البداية وطيلة زواجها من عبد النّاصر. لم تكن راغبة عنه وعن روعته وجلال المتعة التي يمنحها إيّاها. كانت تقتصر على الحدّ الأدنى من ذلك كلّه لأنّها كانت تستحضر،

قبل أن تجد نفسها في حضنه، تلك الأوجاع القاتلة التي تتبقّى بعد أن ينفصل الجسدان. تُغْريها أحيانًا رائحته، رائحة المطر حين يبلّله أو العرق المتلبّد في إبطيْه وحتى رائحة رجليْه في الحذاء الرّياضي أو «البرودكان»، ولكنّها تمسك نفسها عند لمسه أو التّحادث معه حتى لا تنجذب إلى حقل المغناطيس. كانت تقاوم ذلك ولم يكن يدري.

وقد فسّرت لي زينة، بعد أن تردّدت في فرنسا على طبيب نفساني، بأنّ الأمر كما قال لها الطّبيب المحلّل، يحمل ذكرى بعيدة من يوم سكّين اللّحم الذي خرقها. واعترفت أنّها استراحت بعد ذلك بمدّة قصيرة فالوجع كان في النّفس لا في الجسد بأعراضه البادية.

وعَدَا لحظات اللّقاء غير المبرمجة، فإنّ المتساكنيْن بنهج البرتقال بباردو يسير كلّ واحد منهما في طريقه.

2

عمّ حسن نصح عبد النّاصر بأنْ يصاحب حمّادي مصمّم الجريدة حين رغب في أن يعرف الجانب الأهمّ في صناعة الصّحف. كان يعرف أنّ الصحافة لا تقتصر على تحرير المقالات. فالمراحل التي تأتي بعد التّحرير هامّة وخطيرة. أراد أن يتعلّم تصميم الصّحف وإخراجها. كان حمّادي فنّانًا، سِكّيرًا، يعيش وحيدا بعد أن هربت منه زوجته لسبب يزعم أنّه لا يعرفه. رفض تطليقها. نُسجت حول حياته حكايات كثيرة سمعها من الصّحفيّين والتّقنيّين في المطبعة. كان الجميع يردّد أنّه الوحيد القادر على جعل الجريدة تصدر بحلّة قشيبة، إذا شاء، أو تخرج على غير صورة غير لائقة. كان، كما قال له عمّ حسن، مزاجيًّا لا يحبّ كثرة الكلام. يحمل معه دائمًا، في جيب سترته القذرة، قارورة مشروب روحيّ من صنف «البوخا» يمزّ منها مزّات وهو يشتغل. الجميع يهابه والجميع يحبّه إشفاقًا أو اعترافًا ببراعته وحِرَفيّته وروحه الفنّيّة العالية.

عَرَف الطلياني في ما بعد أنّه خرّيج مدرسة الفنون الجميلة، أو بالأحرى درس سنتيْن في المعهد وغادره لخلافٍ مع أحد الرّسّامين الدّكاترة. اشتهر ببراعته وموهبته النادرة. كان يتمثّل الوجه أو الوقفة والوضع بسرعة ويصبّها على ورق التّصوير مرّة واحدة فتخرج مطابقة للأصل. ينظر نظرة واحدة إلى الوجه ثمّ يغمض عينيه قليلاً ويأخذ قلم الرّصاص أو أيّ شيء يصلح لرسم الخطوط والدوائر، وإن كان قطعة فحم، فيفرغ ما تمثّله على الورقة.

كان الأستاذ الرّسّام يغار منه ويسعى دائمًا إلى الحطّ من أعماله. يعرف الطّلبة ذلك. أسند إلى أحد رسومه التّخطيطيّة التي أنجزها في خمس دقائق، والحال أنّ الحصّة تدوم أربع ساعات، علامة إقصائية في الامتحان، في السّنة الثّالثة. لم ينفعل. تحدّث إليه بهدوء طالبًا شرحًا للأسباب. قال له:

- «لستُ مجبرًا على تبرير العلامة التي أسندها».

ذهب إلى المدير فساند الأستاذَ باسم الحرّية الأكاديميّة وسلطة الأستاذ وأنّ الحاكم الوحيد والرّقيب الوحيد على الأساتذة هو ضمائرهم. طلب أن يرى الرّسم ويقيّمه هو بما أنّه أستاذ بالمعهد قبل أن يكون مديرًا. رُفض الاقتراح. طلب تدخّل رئيس القسم لإبداء رأيه. رفض المديرُ أيضا. طلب لجنةً من أساتذة آخرين يختارهم المدير فرفض. اقتحم قاعة الاختبار على الأستاذ الذي كان منحنياً على طالبة من الخلف بحجّة أنّه يصلح لها رسمها، وهي طالبة معروفة بنجاحها ولو رسمت لوحة في الهواء أو استعملت أحمر شفاهها. جذبه من كتفه، أسمعه ما قاله مالك في الخمر وزيادةً. بصق في وجهه. لَكَمَهُ لكمةً كادت تذهب بعينه اليمنى. خرج بكلّ هدوء يمشي مزهوّا زهو المنتقم غير مبالٍ.

استلطف حمّادي، على غير عادته، عبدَ النّاصر منذ اللّقاء الأوّل. بعد

أسبوع تقريبًا من الجلوس معه، والاطّلاع على ما يفعله بالمقالات قبل تخطيط وضعها على ورقة كبيرة في حجم الجريدة، شرع في تعليمه سرّ المهنة. بدأ معه خطوة خطوة. نبّهه إلى أن يتّبع المراحل دون أن يسعى إلى حرقها. عليه ألّا يقلّده فلكلٍّ شخصيّته. التّصميم، كما قال حمّادي، ذوق وإحساس وفن وليس قواعد صارمة. ذكر له أنّه سيعلّمه قواعد تصميم هذه الجريدة التّعيسة، ولكنّه سيعلّمه أيضًا إمكانات بصريّة لا تستعمل في صحفنا التّونسيّة. حدّثه عن جريدة «ليبيراسيون» و«لوموند» و«لوفيغارو» قال له:

- «لكلّ جريدة شخصيتها في الخطوط والألوان والتّلاعب بالبياض وتوزيع الأبواب والمقالات والأعمدة.. كلّهم يتحدّثون عن «ليبيراسيون» لكنّهم لم يكتشفوا جماليّة الصّحيفتيْن الأخرييْن».

بدأ بكيفيّة حساب المقالات وحجمها. قواعد بسيطة يمكن استعمالها حتى قبل رقن المقال. قال له:

_ « معدّل الكلمات في السّطر الواحد مضروب في عدد الأسطر تقريبيًّا حينها تعرف الحجم. سترى أنّ الفروقَ تتّصل بحجم الخطّ وكيفيّة قطع أعمدة المقال المكتوب على عمود عادي أو عموديْن أو أكثر. هكذا يكون احتساب الفراغات بين الأعمدة وهوامش الصّفحة في أعلاها وأسفلها وكيفيّة إعداد الورقات قبل الشّروع في أيّ تصوّر للمحتوى البصري لهذه الصّفحة أو تلك. بالتّجربة ستعرف الزوايا الثابتة والصّفحات التي لا تتغيّر، الصّفحات التي يتبدّل محتواها دون شكلها إلّا في ما ندر. ما نقوم به أشبه بوضع سكّة الحديد وعلى المصمّم وضع القطارات وتنظيم أوقات خروجها ودخولها».

في مدّة وجيزة أصبح عبد النّاصر يتقن أسرار صفحات الجريدة والعناوين والزوايا والتّوزيع العام واللّعب بمتغيّرات كثيرة في خفّة

وحَـذَق. انبهر حمّادي بنباهته وسرعة تعلّمه. أصبح يتقاسم معه الصّفحات. بدأ بصفحة الخدمات والوفيات ثمّ بصفحات الإعلانات ثمّ صفحات الرّياضة فالثّقافة. حين تأكّد من إتقانه مكّنه من الصّفحتيْن الأولى والأخيرة. حتى لم يميّز أحد بين تصميم عبد النّاصر وتصميم حمّادي.

توطّدت العلاقة بينهما في حدود شهر تقريبًا. كان عبد النّاصر يجلس من حمّادي مجلس المتعلّم النابه. قرّر حمّادي أن يعلّم عبد النّاصر أشياء أخرى لا تستعملها جرائدنا التّافهة، كما كان يصفها. وصل بهما التّواطؤ إلى أن يقوم حمّادي بإعداد التّصميم العادي للجريدة بسرعته المذهلة ويقوم عبد النّاصر، مستعيدا المادّة نفسها، بتصميم المحتوى نفسه في صيغة جريدة «لوفيغارو» يومًا و«لوموند» يومًا آخر و«ليبيراسيون» يومًا ثالثًا.

فاجأ عبد النّاصر صديقه الجديد وأستاذه المبدع حمّادي بإخراج جديدٍ لم يخطر له على بالٍ. تركه منزوِيًا في ركنٍ يشتغل، وحين أتَمَّ عمله أراه ما فعل. التمعت عينا حمّادي وقال له:

- «أتقليد هذا أمْ من ابتكارك؟».

- «اتّبعت تصميم صحيفة ألمانيّة».

- «ممتاز».

ربّت على كتفه مبتسمًا له ابتسامة معلّم يرى تلميذه ينبغ في دراسته. وقال:

-»آمل أن تكون يوماً قادراً على إصدار صحيفة حتى لا يموت الفنُّ والحذق في هذه البلاد، رغم التّافهين».

عمّ حسن الذي كان قد عبّر له حمّادي عن إعجابه بعبد القادر تكفّل

بإطلاعه على بقيّة مراحل الطّباعة. لقد كان موضع احترام من جميع العمّال. يعتبرونه أباهم الحامي والمدافعَ عنهم أمام تكبّر الصّحفيّين وتعسّف الإدارة، والمــُطالِبَ دائمًا بساعاتهم الإضافيّة ومِنَحِهِمْ. لم يكونوا يحتاجون إلى نقابة. كان عمّ حسن، في الآن نفسه، النّقابةَ والشّعبةَ الدستوريّة ورئيسَ العمل في القسم التقنيّ. خلطةٌ عجيبةٌ وتوزيعٌ طبْقَ المهامّ المختلفة في تناغم لا نشاز فيه. قال يومًا لعبد النّاصر:

- «سمعت أنك لا تحبّ الحزب. أنا أيضًا لا أحبّه ولكنّني لن أترك الشّعبة الدستوريّة للّحّاسين والقوّادة والوشاة. ترأّستها لأدافع عن أبنائي العمّال وأنا أعرف أنّني لن أصل أبدًا إلى شيء. هؤلاء السّياسيّون يريدون الرّكوب على ظهورنا لاعتلاء المناصب ونحن ماذا سنربح منهم؟ لا أذهب إلى اجتماعاتهم وحتى الانخراطات تدفعها الإدارة.. هههه. نربح الحماية ولا نخسر مليّمًا أحمر. أغبياء».

3

كان الرّئيسُ المدير العام يحلم بإعداد ملحق ثقافيّ أدبيّ أسبوعيّ ولم يجد له الشخص الكفء. وجد في عبد الناصر ضالّته. سوّق له الأمر على أنّ الصّراع مع الظّلاميّين ليس أمنيّا فحسب بل هو صراع التّنوير والانفتاح على الفكر والأدب العالميّيْن. سأله عبد النّاصر إن كان الحزب أو القصر قد طلب منه ذلك. ضحك سي عبد الحميد مستهزئًا. نبّهه إلى أنّ القصر والحاشية والحزب لا يهتمّون إلّا بالصّفحة الأولى وأنشطة الوزراء ويطالعون أحيانًا، إن وجدوا الوقت، ما في الشّأن الاجتماعيّ أو يتصفّحون خبرا قد يزعجهم في الصفحات الأخرى مثل الخبر المشؤوم عن باغندا في الصفحة الرياضيّة. ذكّره بأنّ في الجريدة صفحتيْن فقط تهمّان المسؤولين مع التّركيز على أعلى الصّفحة الأولى المخصّصة

لنشاط المجاهد الأكبر والافتتاحيّة المعبّرة عن الموقف الرّسمي. ما عَدَا ذلك حشوٌ بالنّسبة إليهم. فسّر له أنّ هذا الملحق مبادرة منه حبًّا في الأدب واستغلالا لقدرات عبد النّاصر وإيمانًا بأنّ مثقّفينا وجامعيّينا جديرون بصفحات تخرجهم من سَأَمِ اللّغة المكرورة. طلب منه أن يكون الملحق ثريًّا جادًّا لا يتوجّه إلى العوامّ.

شعر عبد النّاصر بجسامة المسؤوليّة. من أنّى له الوقت الكافي لإعداد التصوّر والشروع في جمع المادّة اللّازمة. كان حديثهما قد جرى حواليْ أواخر ماي من سنة 1987 والملحق سيصدر قُبَيْل العودة الجامعيّة والأدبيّة بقليل. اتّفَقَا على بداية سبتمبر.

اشترى عبد النّاصر صحفًا كثيرةً أجنبيّةً. كلّ الصّحف التي تصل إلى تونس تقريبًا. اقتنى المجلّات الأدبيّة الفرنسيّة المتوفرة في السّوق. اختار الأسود والأزرق لونيْن قارّيْن في الملحق خصوصًا الأزرق الذي يميّز اسم الملحق «كرّاسات أدبيّة» وانتقى «اللّوغو» الذي صنعه له حمّادي بلمسة سحريّة. حدّد مختلف أصناف العناوين والاقتباسات التي توضع بين ظفريْن كبيريْن لتهوئة النّصّ في غياب الصّور بالخصوص ولشدّ انتباه القارئ إلى الأساسيّ في المقالات. استشار عمّ حسن حول الخطوط المتوفّرة للعناوين الرئيسيّة والعناوين الفرعيّة وما وتحتها وما بين الفقرات. اختار خطًّا مختلفًا. أراد أن يجعل منها جريدة داخل الجريدة. اشتغل بجدٍّ طيلة شهر.

كان يعتني بالشّخصيّة الفنّيّة لملحقه ويعوّل في الآن نفسه على معارفه من الصّحفيّين والأدباء الفرنكوفونيّين والجامعيّين الذين كتب عن منشوراتهم لينتقيَ المقالات الجيّدة. اتّفق مع سي عبد الحميد على أن تكون الكتابة في الملحق بمقابل وأن تعتبر بالنّسبة إلى صحفيّي الدّار أعمالاً إضافيّة تسعّر بطريقة مختلفة يتفاوض فيها مباشرة مع الرّئيس

المدير العام. ولعبد النّاصر منحة خاصّة بمائتيْ دينار مقابل كلّ عدد يصدره.

كان العرض مجزيًا بالنّسبة إليه ولم يتبقَّ له إلّا الإنجاز. قدّم في أواسط جويلية العدد الصّفر في نسخة تجريبيّة للرّئيس المدير العام. ذهل سي عبد الحميد من رفعة الذّوق وجمال التّصميم وجودة المحتوى. وعرف أنّ عبد النّاصر قام بنفسه، كما هو منتظر، بوضع الخطّ التّحريري للملحق وبوضع التّصميم الفني له وإنجازه بالكامل. أخذ يتأمّل الملحق. يقلّب صفحاته الأربع كالمستزيد ولا مزيد. مرّة يبعد الورقة المضاعفة كبيرة الحجم عن وجهه، ومرّة يفتح الصّفحتيْن الوُسْطَيَيْن على المكتب ينظر إليهما، ثم يعود إلى الصّفحتيْن الأولى والأخيرة مَعًا. لاحظ التّناسق والتّوازي والحركيّة التي أدخلها عبد النّاصر على التّصميم. وفجأة صرخ في وجه عبد النّاصر:

- «لن يصدر هذا العدد..

صمت برهةً كانت دهرًا بالنّسبة إلى عبد النّاصر قبل أن يستأنف ضاحكاً:

- «أريد عمودًا قارًّا كاملاً بمقدار ربع صفحة على يمين الصّفحة الأخيرة وعنوانه «مرايَا الحبر»، عنوان أستعيره من كتاب أعجبني كثيرا».

- «لك أيضًا الافتتاحيّة التي تتناول قضيّة أدبيّة راهنة في بلادنا أو في الخارج.. سأقترحها عليك وتكون باسمك».

- «لا. أنا مستقبلي ورائي. هذا مشروعك أنت. فكرتي أنا ولكن يجب أن يبرز عملك، توقيعك في الافتتاحيّة أهمّ من توقيعي».

- «هذا كرمٌ منكَ».

- «لا كرم ولا هم يحزنون. لا أريد السّطو على مجهودك الرّائع، تُوقِّعُ

افتتاحيّة الملحق باسمك وتَضَعُ في أسفل الصّفحة الأخيرة: ملحق من إعداد عبد النّاصر.ع».

- «لكن هذا سيثير حفيظة سكرتير التّحرير والزّملاء.. وربّما يتسبّب بمشاكل نحن في غنى عنها».

- «ليذهبوا إلى الجحيم، ليشربوا ماء البحر. يتعلّلون بالرّقابة والرّقيب أبو السعود وهم لا يعرفون أنّ المنافذ كثيرة والشّقوق في البناية واسعة».

4

كانت زينة في تلك الفترة قد أتمّت تحرير مذكّرة بحثها. قرأها أستاذها المشرف وانبهر. لم تتبقَّ لها إلّا المقدّمة والخاتمة. أتمّتْ مذكّرتَها وأتمّ هو ملحقه ولم يتبقَّ لهما إلّا الطّبع.

كانت ابنة خالة نجلاء تعمل كاتبة لدى محامية. شابّة طيّعة عمول سريعة في الرّقن. كان المكتب لا يفتح بعد الزوال حسب التوقيت الصيفي لكنّ السكرتيرة الشابّة تعود بعد الزّوال إلى مكتب الأستاذة المحامية لترقن، بإذن منها، المخطوطَ على الآلة الرّاقنة الممتازة من نوع إي. بي. آم الحديثة. اتّفقتْ معها على رقن الصّفحة الواحدة بخمسمائة ملّيم. كان مبلغًا زهيدًا مقارنةً بإتقانها الرّقن وقلّة الأخطاء التي ترتكبها. فعلت ذلك إكرامًا لنجلاء ابنة خالتها ومن باب توفير بعض الأموال الإضافيّة. لم ترقن من قبل لغير الأستاذة المحامية فلعلّها تكون فاتحةً لأعمالٍ أخرى. كانت ترقن ما بين ثمانية صفحات واثنتيْ عشرة صفحة في اليوم. لم ينقض شهر جويلية حتى أنهتْ مهمّتها. كان عبد النّاصر قد اقترح عليها تكليف أحد الرّاقنين في الجريدة ولكنّها فضلت ابنة خالة نجلاء. لم يناقشها كثيرًا رغم أنّه يكفي أن يجمع خمسة راقنين بتوصية من عمّ حسن حتى يُتِمُّوا العمل في بضعة أيّامٍ. والحقّ أنّه، بينه وبين نفسه،

أحبّ تعويل زينة على نفسها. فكلّ خطإٍ قد يُرتكب ستُحمّله وزرَه بسبب ما كانت تمرّ به من توتّر.

وبسبب هذا التّوتّر والحرص المفرط على الإتقان والتّنقيح والمراجعة والإضافة والتّدقيق والتّحقيق، تخاصمت الفيلسوفة مع ابنة خالة نجلاء. كانت تطلب منها إعادة صفحاتٍ برمّتها بسبب فقرة تريد إضافتها أو حذفها أو إعادة كتابتها وهي تراجع العمل. فطلبتْ الكاتبة منها أن تحدّد التّغييرات جميعًا وتكتبها على الأوراق بلونٍ مختلفٍ لتقوم بإصلاحها مرّةً واحدة وأخيرة. جن جنون زينة وعاملتها معاملة السيّد للعبد كأنّها متفرّغة لهذا البحث العظيم الذي سيغيّر تاريخ الفلسفة. تركها عبد النّاصر تتخبّط ما دامت لم تطلب منه المساعدة. في النّصف الثّاني من شهر أوت بعد أن أصبح البيت كتلة من الأعصاب المنفلتة أخذ منها المخطوط الذي أصلحته ووعدها بأن يحضره إليها جاهزًا بعد ثلاثة أيّام.

وأوفى نصيرُ زينة بوعده.لم يزُل توتّرها. جاءت مرحلة استخراج نسخ كافية من البحث. طلبوا منها خمس نسخ فأرادت عشرا. طرحت مشكلة الغلاف. تدبّر الأمرَ وأعدّ لها غلافًا من الورق المقوّى لم تكن تحلم به. صمّمه بنفسه ووقف على عمليّة التّسفير والتّغليف.لم يهنأْ لها بالٌ إلّا حين أودعت المذكّرة في موفى شهر أوت. بدأت تتقلّب منتظرة المناقشة كامرأة وضعت ثمّ أحسّت بفراغٍ في بطنها، تتحسّسه وتشعر بالانتفاخ فتنزعج من الخواء.

5

يوم الخميس الثّالث من سبتمبر سنة 1987 صدرت الجريدة وداخلها ملحق «كرّاسات أدبيّة» الذي كرّس الشّابّ ذا الملامح الإيطاليّة صحُفيًّا قادرًا على أن يشرف على ملحق بعد أن كان مجرّد مصحّح في الجريدة

وصحفيّا بالمقال. بدأت الألْسُنُ الخبيثة تنهش لحمه: «صديق الرّئيس المدير العام»، «تبيّن أنّه قريب فلان الوزير وأوصى عليه وزير الإعلام»، «أخيرًا صحف الدّولة أصبحت تمنح الامتيازات للمتطرّفين اليساريّين.. دنيا والله دنيا»، «كلام فارغ، أدب ورواية.. هذا ما ينقص صحافتنا.. خسارة الميّت والكفن معًا»، «هذا الملحق يصلح للفّ الخضروات والأسماك، بهرج والمحتوى فارغ».

وصل الكلام كلّه إلى سي عبد الحميد فضحك كثيرًا أمام عبد الناصر في دعوة عشاء جمعته مع سكرتير التّحرير وبعض الذين شاركوا في العدد الأوّل. كان حفلَ عشاء أراد به تكريم عبد النّاصر وكلّ من كتب في الملحق. أعاد، تلميحا في الغالب وتصريحا أحيانا، ما بلغه من كلامٍ مستخلصًا:

- «هذا كلّه يعني نجاح الملحق، ونجاحك شخصيًّا، فنحن بارعون في تحطيم الأشياء الجميلة وتبخيس جهد الآخرين خصوصًا إذا كان نجاحهم باهرا.. أليس كذلك سي لطفي؟».

كان قد وجّه كلامَه إلى الجميع وخصّ به في الأخير لطفي. س سكرتير التّحرير فردّ عليه بحركة بالرّأس بالإيجاب طبعًا.

حين جمعه لقاءٌ آخر مع عبد النّاصر ذكر له أنّه تعمّد توجيه الكلام إلى لطفي لأنّه نعته بالمتطرّف اليساريّ. وهو سيقوم بإبلاغه إلى الذين اختصاصهم تقديم آيات الولاء ونقل كلّ ما يقال. طمأنه إلى أنّهم جبناء وعليه ألّا يتأثّر بكلامهم. فسّر له أنّهم منزعجون لا بسبب نجاحه فحسب بل لأنّهم عاجزون عن فعل ما فعله هو في فترة محدودة. قال له:

- «أنتظرُ كلّ شيء منهم، ولكنّني أعرف أنك ذكيّ، ستتفشل مكائدهم ودسائسهم».

بعد أسابيع قليلة من انطلاق الملحق وصله من أعضاء مجلس الإدارة

شكر خاصّ بلّغه إيّاه الرّئيس المدير العام رسميًّا. عُرض التّقرير المالي للأشهر الثّلاثة الأخيرة فتبيّن ارتفاعٌ في مبيعات الجريدة يوم الخميس بالتحديد. فسّر الحاضرون ذلك بالمنتوج الجديد للجريدة. طالب أعضاء مجلس الإدارة بإحداث ملاحق جديدة، ملحق كلّ يوم عسى ذلك يطوّر المبيعات ويزيد في إشعاع الدّار.

سارع سي عبد الحميد باجتماع حضره سكرتير التّحرير ورؤساء التّحرير المساعدون من مختلف الأقسام وعبد النّاصر. افتتح الاجتماع بعرض مقترح مجلس الإدارة وأشاد بما يقوم به عبد النّاصر وبرّر حضوره الاجتماع بالإفادة من خبرته في ملحق «كرّاسات أدبيّة». طلب من الحاضرين عرض مقترحاتهم وإمكانيّة تنفيذها.

راح الحضور ينظرون إلى بعضهم البعض متردّدين. لاحظ سي عبد الحميد ذلك عليهم فطلب منهم أخذ الكلمة واحدًا واحدًا. كان لطفي على يمينه فبدا متحمّسًا للمشروع مستعدًّا للتّنفيذ والمتابعة. رجل مطيع لو طُلب منه إصدار صحيفة يوميّة بألف صفحة لفعل، مختصّ في مجاراة الجميع أكانوا على حقّ أم على باطل. تكلّم رؤساء الأقسام فعبّروا عن استعدادهم ولكنّهم تعلّلوا بنقص في عدد الصّحافيّين، وضرورة أن يكون المحتوى راقيًا، وتذرّعوا بالحاجة إلى ثلاثة أو أربعة صحفيّين في كلّ ملحق لمساعدة المشرف. كانوا يضعون شروطًا تعجيزيّة كما لو أنّه طلب منهم تحرير مقالات لصحيفة «لوموند» في نصف ساعة.

كان سي عبد الحميد يبتسم ويعبّر عن موافقته ممّا شجّع الحاضرين على أن يتمادوْا في تبريراتهم. وكان عبد النّاصر بحكم جلوسه على يسار الرّئيس المدير العام آخر المتكلّمين. تعمّد ألّا يردّ على المتدخّلين قبله، فهذه ليست مهمّته. اقترح أن يكون يوما الأحد والإثنين للملحق الرّياضي، اعتبر أنّه موجود بالقوّة ينبغي فقط إبرازه وإعطاؤه شخصية

فنّيّة مستقلّة. ويوم الثّلاثاء يخصّص للاقتصاد، ويكون الأربعاء لشواغل الجهات. أمّا الجمعة فقد رأى عبد النّاصر أن يخصّص للشّباب ومشاكله في حين ينبغي تصوّر ملحق متنوّع فني وثقافي ليوم السّبت. وهكذا يكتمل الأسبوع بما أنّ الخميس للأدب. أضاف اقتراحًا آخر وهو جريدة شهريّة تجمع مختارات ممّا ينشر في اليوميّة وملاحقها من مقالات معمّقة وريبورتاجات وحوارات.

كانوا ينظرون إليه كما لو أنّه قادم من كوكب آخر. فقد تجاهل ما تحدّثوا عنه من صعوبات وعوائق وطفق يطحن ويعجن ويخبز.

أنهى سي عبد الحميد الاجتماع فجأة مجدّدا التّرحيب بالجميع معتبرًا أنّ اللّقاء تمهيدي، وعلى المشرفين على الأقسام التباحث مع الصّحفيّين وتقديم اقتراحاتهم مكتوبة حتى موعد الاجتماع القادم. خرجوا وهم ينظرون شزرًا إلى عبد النّاصر.

بعد أيّام كان سي عبد الحميد منشرحًا بالنتيجة التي وصل اليها الاجتماع. قال له:

- «الآن لن يتكلّم أحدٌ. فقد منحتهم فرصة للعمل والتّطوير وأعرف أنّهم أعجز من أن يغتنموها».

- «إذن سيسقط المشروع في الماء؟».

- «ومن قال إنّه يوجد مشروع أصلاً؟ أتظنّ مجلس الإدارة يهتمّ بالملاحق؟ لقد كنت أضحك في داخلي وأنت تتحدّث عن ملحق للشّباب. هل شبابنا له شواغل؟ أبدًا يا سي عبد النّاصر تتحدّث عن الإعلام الجهويّ؟ مالها جهاتنا؟ التّنمية فيها جيّدة وقد أدخلناهم إلى تونس الحديثة رغم العشائريّة والقبليّة! ماذا نفعل بالفن والثّقافة؟ نحن أهل جدّ وكدّ وعمل لم يبق إلّا أن تطلب ملحقًا سياسيًّا.. .

- «كدت أفعل».

- «لو فعلت لبرهنت على أنك لم تفهم شيئا. فماذا يفعل حزبنا العتيد؟ إنّه السّاهر على سياسة البلاد بتوجيه من المجاهد الأكبر. وسياسة الدّولة نوضحها في الافتتاحيّات. ألا يكفيك هذا؟» ثم أضاف: «في كل حال لن يقدّم أيّ منهم التصوّ الذي طلبته».

6

كان يتحدّث بسخرية مُرّة تنضح من كلامه. يسبّ ويلعن اليوم الذي اختار فيه الصّحافة واليوم الذي عيّن فيه رئيسًا مديرًا عامًّا. ذكر له أنّه وصلته عروض من وكالة أنباء فرنسيّة ليساعد في الإشراف على مكتبها في تونس ولكنّ أيّ حركة تصدر منه اليوم ستسجّل على أنّها خيانة وطنيّة وتخلّ عن شرف قلّده إيّاه الزّعيم وارتماء في أحضان الأجنبيّ. فكّر مرارًا في تعمّد خطإ يتخلّص به من قيوده ولكنّه شعر أنّه أجبن من أن يفعل ذلك، خصوصًا أنّ الظّرف السّياسي العام وتنامي عنف الإسلاميّين لا يسمحان بأيّ حماقة. قال له:

- «لو قضيتَ فترة أطول في الصّحيفة لاقترحت اسمك عليهم».

- «من عليهم؟».

- «على وكالة الأنباء! ماذا تظنّ يضعون يساريًّا متطرّفًا على رأس صحيفة حكوميّة؟ أَجُننتَ؟».

حدّثه، حديث الصّديق الذي يُسِرُّ إلى صديقه، عن الصّعوبات التي وجدها في انتدابه بالجريدة رسميًّا. فملفّه أسود في الدّاخليّة وسمعته كالقطران. ولولا صديق له في الأمن السّياسي يعرفه جيّدًا، لَمَا أمكن إقناع الدّوائر العليا بتعيينه في الجريدة. وعده بأن يدعوه يومًا إلى العشاء شريطة ألّا يبوح أمامه بهذا السّرّ. قال له:

- «أعرف أنّه قد دافع عنك أكثر ممّا تدافع أنت عن نفسك.. لم أفهم

سرّ تحمّسه لك منذ سمع اسمك ولكنّك مدين له في الواقع..

- «أنا مدين لثقتك فيّ..

- «دعك من ثقتي، لقد فرضتها عليّ منذ أن تناقشنا في ذاك الخطإ اللّغوي.. أمّا صديقي رجل الأمن فتقاريره كانت حاسمة.. أفهمت؟».

لم يكن رجل البوليس السّياسي هذا إلّا سي عثمان. وحدها الصّدفة جمعتهما، بعد أيّام، وهما خارجان من المطعم وسي عثمان يستعدّ للدخول إليه رفقة رجليْن بكسوتيْن وربطتيْ عنق، علِمَ في ما بعد أنّهما أيضًا من معارف سي عبد الحميد الذين يشتغلون في الأمن. بادره سي عثمان بقوله:

- «أهلا بابن الحيّ..!».

فاجأه. سلّم على سي عبد الحميد بالقبلات وفهم عبد الناصر، من طريقة التّحيّة، أنّه يعرف العونيْن الآخريْن. لاحظوا أربعتهم ارتباكه. فقال له سي عثمان مازحًا:

- «كيف حال الاستاذة؟».

- «بخير..

- «ما دمت مع الأستاذة في البيت، ومع الأستاذ في الجريدة فأنا مطمئنّ عليك تمامًا. أليس كذلك سي عبد الحميد؟».

شرع سي عبد الحميد في طرادة مطوّلة مدح بها عبد الناصر. جدّد شكره لسي عثمان على مساعدته (وكان يقصد تسهيل دخول الطلياني إلى الجريدة بتقريره الأمني).

مال سي عثمان على عبد الناصر وهمس في أذنه:

- «فعلت ما أملاه عليّ واجبي وضميري، لا تهتمّ لما يقول سي عبد الحميد. أنا بمثابة صلاح الدّين. لا تتحرّج في طلب ما تريد.. ودون مقابل، أعرف أنك لست رخيصًا.. ولن تكون».

لم يتكلّم. كان يبتسم له. تذكّر أفضاله عليه، كلّية منوبة.. القرجاني.. خطر تصفيته هو وزينة.. بطاقة زينة عدد 3.. جواز السّفر لرحلة سويسرا وها هو يكتشف دوره في الحصول على عمل.

7

قبل يومين من صدور الملحق وصلت رسالة بالبريد المضمون إلى صندوق بريد زينة بمكتب «باب منارة» تعلمها فيها إدارة الكلّيّة بأنّها ستناقش بحثها يوم الأربعاء 16 سبتمبر بقاعة صالح القرمادي. كادت تطير فرحًا. ولكن سرعان ما غرقت في توتّرها المعهود. أصبح تحرير صفحتيْن أو ثلاث لتقديم بحثها أمام اللّجنة، كما أوصاها أستاذها المشرف، مصيبة تتطلّب من عبد النّاصر أعصابًا من حديد. كلّ يوم تقدّم له مقترحًا جديدًا وعليه أن يقول رأيه فيه. أوّل الأمر، كان يجد ما تقوله جيّدًا، ثمّ بإلحاح منها على نقد ما تكتبه أصبح ينقد كلّ ما تكتبه. جاراها في ما ترغب في سماعه. زاد توتّرها. أصبحت كلّ جلسة استماع إلى الصيغة الأخيرة من عرضها الشّفوي تنتهي بخصومه. طلب منها أن تُسمِع غيره ما ستقول. غضبت. قالت إنّه لم يساعدها أبدًا. ذكّرها بما فعل لها. نبّهها إلى توتّرها المفرط. أخيرًا استقرّ رأيها على أن تقف في قاعة الجلوس أمام نجلاء التي دعتها بالمناسبة عشيّة الإثنين قبل يومين من موعد المناقشة وطلبت من عبد النّاصر الحضور باكرًا في ذلك اليوم المصيريّ!

كانت قاعة الجلوس جديدة اشتراها عبد النّاصر الذي صار يُحضر، كلّ شهر، شيئًا جديدًا إلى البيت حتى جعله كبقيّة بيوت الخلق مقبولاً، ثمّ حسنًا مريحًا. تعمّد ألّا يشتريَ مكتبًا فظلّت زينة تشتغل كالعادة على طاولة المطبخ. والأرجح أنّها لن تشتري مكتبًا بما أنّها كانت تقول في لحظة مكاشفة، تكشف عن عقلها الآخر غير الصّارم:

- «هذه الطّاولة طالع خير لن أتخلّى عنها أبدًا».

فيجيبها عبد النّاصر متعمّدًا إغاظتها:

- «إلّا إذا طلبها رئيف فهي من حرّ مال أبيه!».

- «أبدًا! أعطيه ثمنها مضاعفًا ويتركها لي، إنّها طاولتي».

يومها، يومها تحديدًا، رأى نجلاء كما لم يرها من قبل. تثبت من حاجبيها المهلّلين، شدّه إليها طول شعر الهدبيْن واسترخاؤهما. حاجبان وأهدابٌ من سواد مبهج على عينيْن عسليّتيْن برّاقتيْن. جبين واضح وخدّ أسيل. قامة ممتدّة وقوام نحتته رياضة كرة الطّائرة التي مارستها في نادي الزّيتونة الرّياضيّة وواصلت هوايتها بعد دخول المعهد العالي للرياضة والتّربية البدنيّة لتصبح أستاذة رياضة. كانت أكبر من زينة بستّ أو سبع سنوات. لكنّها، على العكس منها تنتقي ملابسها الرّياضيّة من أجود الماركات العالميّة. شعرها طويل مسترسل يلمع من أثر الزّيوت طيّبة الرّائحة على ما قدّر الطلياني. لها رائحة عطر مميّزة تملأ المكان الذي تحلّ فيه. وجهها منمّص بعناية عليه أَلَقُ مراهمَ ودهونٍ لا يشكّ النّاظر لحظة في أثرها على نضارة تلك الألماسة المنحوتة وبريقها. رأى الطلياني في نجلاء حبّ الحياة والعفويّة يسيران على رجليْن.

رآها من قبل على عجلٍ لكنّ زينة مكّنته يومها من أن يتأمّل ويدقّق.

كانت زينة تقرأ وتعيد مرتبكة كتلميذة لا تريد أن تخطئ في عرض محفوظها. قرأت من الورقة في المرّة الأولى دون أن ترفع رأسها ثمّ قرأت كأنّها مذيعة في نشرة أخبار. ثمّ أعلمت جمهورها المتكوّن من زوجها وزميلتها التي أصبحت صديقتها الوحيدة أنّها ستحفظ نصّها بعد أن استقام. ولكنّ المثير في حفل القراءة غير الممتع هذا، أنّ عيون نجلاء والطلياني قد التقت أكثر من مرّة. لاحظ أنّها تنظر إليه نظرة إعجاب تعبّر عنها ابتسامتها التي سرعان ما تخفيها لترمق زينة المنهمكة في ورقتها

متثبّتة إن كانت تراها وهي تنظر إليه. أمّا الطلياني، بحكم خبرته ومعرفته بزينة وبخالها حين تقوم بدور الفيلسوفة التي ستنقذ الفلسفة في تونس من الموت الزّؤام، فلم يرفع بصره عن نجلاء، بل كان يمرّر لسانه على شفتيه فيزيد نجلاء حيرةً، ويعضّ بالثنايا العليا على شفته السّفلى فيقلب حيرتها ارتباكًا. كان من الواضح أنّه كان جادًّا في العمل على الإيقاع بها. تصنّعت الجدّ في البداية ولم تعد تنظر إلى الطلياني الجالس قبالتها. لم يحفل بما فعلته. ظلّ يرمقها وهي تبتعد بعينيها النّجلاويْن عنه ما استطاعت.

حين أنهت زينة البروفة الأولى، صفّق عبد النّاصر نفاقًا. فهو لم يسمع شيئًا تقريبًا ممّا قالت. وحتّى يتمكّن من فهم محتوى عرضها الشّفويّ، طلب منها أن تعيد قراءته بهدوء وتؤدة مدّعِيًا أنّه يريد التأكّد من الوقت الذي يستغرقه العرض.

التفت إلى نجلاء. اقترب منها. أمسك بيدها ليرى السّاعة على معصمها بحجّة مطابقة التّوقيت مع ساعته. وبطريقة حاذقة جمعت إلى الشّدّة من خلال الضّغط على يدها والرّقّة عند رفع يده عنها قال لها كلّ ما يريد قوله. لم تحرّك ساكنًا كما لو أنّها لم تفهم شيئًا.

8

لمّا أنهت زينة مهمّتها، وتدخّل عبد النّاصر طالبًا منها تغيير بعض الجمل الطّويلة لتكون أوضح في الأسماع والأذهان حانت، وقتها، ساعةُ عودة نجلاء إلى بيتها. كانت تقطن في جهة قريبة، في إحدى الأنهج الفرعيّة من شارع 20 مارس بباردو. كانت السّاعة حوالي السّابعة والنّصف مساء. أقسم عبد النّاصر ألّا تعود وحدها في مثل تلك السّاعة. فالوضع غير مستقرّ. اقترح على زينة، وكان يعرف أنّها لن تقبل، أن يتمشّيَا معًا لمرافقة نجلاء. الغريب أنّ زينة وافقت على مقترح الطلياني لكنّها ما

إن وصلت إلى باب الدّار حتى تذكّرت أنّ عليها إعداد درسٍ جديد ليوم الغد.

رأى أسارير نجلاء قد انفرجت. فعرف أنّها فهمت ما وراء اقتراحه. سألها من البداية عن المكان الذي يقع فيه بيتها، بيت أبيها الذي عادت إليه مطلّقة. كانت تتّجه نحو نهج يوصل إلى البيت من أقصر الطّرق. طلب منها الطلياني أن يسلكا طريقًا أخرى. لم تمانع. أراد أن يزيد نواياه توضيحًا:

إلّا إذا كنت تريدين التّخلّص مني بأسرع ما يكون؟».

نظرت إليه نظرة غنج. دخلت صلب الموضوع مباشرة:

- «رجائي ألّا تتخلّص مني أنت بسرعة خوفًا من زوجتك!».

- «هذه إهانة، أقبلها منك بكلّ سرور».

كانت يداه في جيبي سترته. أبعد مرفقه قليلاً حتى تمسكه منه. فهمت قصده. التصقت به. قال لها:

- «تقابلنا منذ أشهر، فَلِمَ أضعنا كلّ هذا الوقت؟».

- «المبادرة تأتي منك، أنا رغبت في.. في صداقتك منذ أوّل مرّة رأيتك فيها. لكنّك لم تبد شيئًا. كنت زوجًا مخلصًا».

قالتها وهي تضحك. طلبت منه أن يسرعا قليلاً حتى لا يثيرَا شكوك زينة. قالت له بجرأة لم يكن ينتظرها:

- «نحن نلعب بالنّار. لا أريد منك، إذا اخترت أن تسيري معي، التوقّفَ في منتصف الطّريق».

حاول الطلياني أن يتفلسف. حدّثها عن أن الأمور لا تناقض فيها. فلكلّ زهرة حظّها ونصيبها. وهو لا يخلط بين ألوان الزّهور ويعطي لكلّ منها ما يستحقّ. أجابته بواقعيّة:

- «فكّر كما تشاء لا أريد مشاكل لي ولك. كن حذرًا وسأكون أكثر منك حذرًا».

لم يتبقَّ إلّا قطع الطّريق الذي تعبره سيارات وحافلات مجنونة. طلبت منه أن يتركها هناك. اقتربت منه ورسمت على وجنته بشفتين مرتعشتين قبلة. أغمض عينيه يتصنّع التخدّر. قال لها وهو يردّ لها القبلة على خدّيها بأحسن منها:

- «ما أطيب رائحتك... وما أرقّ قبلتك».

- «كفى..

قرصت يده وأسرعت تقطع الطّريق.

9

لا أخفي عليكم أنني لاحظت ولكنّني كذبت، هذا الاستلطاف بين الطلياني ونجلاء يوم مناقشة مذكّرة الكفاءة في البحث. لاحظت ذلك لأنّ نجلاء، والحقّ يقال، جذّابة يكفي أن تلحظ قوامها حتّى لا تعرف كيف تنزع عينيك عنها. أمّا الطلياني فقد حافظ على لياقته رغم السّجائر والكحول والسهر. لم يؤثّر ذلك في حسنه وتوهّجه. شخصيّتان هاربتان من ملصق إعلانيّ تضعهما الصّدفة أمامك فلا يسعك إلّا أن تنبهر وتترك لحسّك الجمالي أن يسرح في مرآهما. غير أنّ ما بينهما من انجذاب يفوق مجرّد الاستلطاف. هكذا بدا لي ولكنّني لعنت الشّيطان وإن كنت أعرف نزق الطلياني. ولم أكن أحكم على المسألة من النّاحية الأخلاقيّة، رغم نزعتي الأخلاقيّة المتأصّلة التي لم يعدّل منها النّقدُ الفلسفي وما يدعو إليه من نسبيّة. اكتشفت، بعد أن فكّرت في ما رأيت، أنّني كنتُ بين ناريْن: نار صديقتي الفيلسوفة اللّامعة التي كانت ستكون من نصيبي لولا جبني في مواجهة عائلتي. فهي عندي ليست أيّة امرأة ككلّ النساء. أغار عليها.

أخشى عليها من جنون الطلياني. فقد وقر في ذهني أنّها تبدو قويّة ولكنّها هشّة هشاشة لا تصدّق، تداري بالقوّة الظّاهرة ضعفًا متأصّلاً. وأمّا النار الموقدة الأخرى فهي صديقي الذي عبّر بالتّمرّد والانشقاق الجذريّين عن نزعته إلى الحرّية في حياته الشّخصيّة وفي نظرته إلى المجتمع ومواضعاته وفي اختياراته السّياسيّة. وقد خِلتُ أنّ زواجَه من زينة سيجعله يتمّ ثورته على أكمل وجه بأن ينتقل من سماء الأفكار والمثل ويخرج من وحل السّياسة في الجامعة ليجد خلاصة الفرديّ مع امرأة استثنائيّة توجّه في جدولها سيولَ ثورتِه الجارفة.

كان النّقاش يومها على درجة رفيعة. فقد أثنى أعضاء اللّجنة على الموضوع وجدّة زاوية النّظر ودقّة الإلمام بكتابات «حنّا أرندت» وصرامة المنهج المتّبع والتّمكّن من المفاهيم وتذليل صعوباتها والسّيطرة عليها.

ومن أقوى اللّحظات المؤثّرة في المناقشة ما بدأت به رئيسة لجنة كلمتها. وهي أستاذة كان طلبتها يسمّونها «تاتشر الفيلسوفة»، ويكنّونها المرأة الحديديّة. كانت تكتفي بتدريس طلبة المرحلة الثّالثة في التّبريز وشهادة التّعمّق في البحث إضافة إلى مهامّ أكاديميّة إداريّة. لا أحد بمقدوره أن يناقشها، فالجميع منبهر بعلمها الغزير ويكره صرامتها التي تقضي على كلّ بعد إنسانيّ في العلاقة بين الطّلبة والأساتذة. حين أخذت «تاتشر الفلسفة» الكلمة قالت بفرنسيّتها الدّقيقة الشّيّقة وبصوتها المبحوح الأجشّ:

- «أريد أن أعبّر بدءًا عن أسفي... أسفي العميق.. فأنا اليوم حزينة».

توقّفت عن الكلام. بدا عليها بعض التّأثّر. خال الحضور في قاعة المرحوم صالح القرمادي بكليّة 9 أفريل أنّها ستدمّر بحث زينة تدميرًا مادامت قد بدأت الكلام بهذه الجملة. أطبق الصّمت على القاعة وانشدّ الحاضرون إليها ينتظرون ما ستقول:

- «أسفي لأنّني لم أساهم في تكوينك، آنستي، فأنت ممّن يفتخر بهم أساتذتهم، وحزني لأنّنا لا نجد طلبة ممتازين مثلك إلّا كلّ خمس أو عشر سنوات. أريد أن أهنّئك على عملك راجية لك المواصلة على هذا الدّرب. فسيكون لك في دنيا الفلسفة ببلادنا، وفي العالم.. نعم في العالم، شأنٌ شريطة ألّا تتكاسلي..

صفّق الحضور لهذه الكلمات المؤثّرة. رأيت عيني زينة مغرورقتيْن دمعًا. لكن تصفيق من في القاعة أثار غضب تاتشر الفلسفة. أخذت تصرخ في المصدح المنتصب أمامها طالبةً من الحضور الصّمت واحترام هيبة لجنة المناقشة. ذكّرت بأنّ الجامعة ليست مسرحًا ولا ملعب كرة قدم. هدّدت بإخراج الجمهور. توتّرت الأجواء لكن الجميع عرف من أيّ طينة عجنت هذه المخلوقة.

دامت المناقشة حوالي ساعتين وتحصّلت زينة، بعد أن اختلت اللّجنة للمداولة، على ملاحظة حسن جدًّا.

كان عبد النّاصر يسرع. عرض عليّ وعلى زينة ونجلاء أن نلتقي في مطعم «قرطاج» للاحتفال بنجاح حرمه المصون الباهر. كلّفني بمرافقتهما وهرع لإلقاء نظرة أخيرة على الملحق الذي سيصدر غدًا الخميس. كان موعدنا في الثّامنة والنّصف.

10

في المطعم تأكّدت ممّا بين الطلياني ونجلاء. جلستُ على يمينه وقبالته زينة التي كانت على يساري. هكذا كانت الجلسة على نحو تكون فيه نجلاء أمام عيني مباشرة. احتكر عبد النّاصر الكلمة تقريبًا. تحدّث عن الملحق وعن الوضع السّياسي سأل عن ظروف عملي، أشبعنا نكتًا تتراوح بين السّياسة والجنس. كان يشرب كإسفنجة. بدت زينة منهكة.لم

أشعر أنّها تمتّعت بنجاحها. فمداخلاتها القصيرة في المطعم دارت حول هواجسها بعد البحث الذي ناقشته يومها. ومواعيد التّسجيل في التّبريز وعدم تعليق البرنامج الجديد وتهيّبها من التّرجمة من الألمانيّة ودروس المنطق الرّياضي وفلسفة اللّغة. أوقف عبد النّاصر ذلك بحديث صارم:

«كفى زينة. أنت دائمًا مشغولة بالدّراسة. اليوم عطلة. لنفرح بنجاحك. اليوم خمر وغدًا فلسفة».

سكتت مضطرّة. يبدو أنّ الكأسيْن الأوّلين قد أثّرَا فيها فكادت تنام. كنت مركّزًا مع عبد النّاصر. أكتفي باستراق نظرات إلى نجلاء التي التفتت إلى نجم السّهرة، صديقي الطّلياني، وهو يتكلّم. كانت تنظر إليه بعين الإعجاب، منشدّة إلى كلامه وحركاته. لا تدخن ولا تشرب. حاول عبد النّاصر أن يغريها بكأس لكنّها رفضت. طلب لها، بعد إلحاح، كأس «باستيس». قال لها طعمه لذيذ.. طعم البسباس، مستساغ ولا يُذهب العقل. يبدو أنّها وجدته كذلك حتّى أنّها طلبت كأسا ثانية. خاطبها عبد الناصر:

- «الأولى أتحمّل أنا مسؤوليّتها، أمّا الثّانية فعليكِ. أحذرك رغم أنني أحبّ أن أراك سكرانة..

ردّت عليه بدلالٍ:

- «المهمّ أن أعود إلى البيت.. معك».

وكما لو أنّها تفطّنت إلى حضور زينة واحتمال أن تحمل جملتها على معاني شتّى، أضافت موجّهة الكلام إلى زينة:

- «أتقبلينني ضيفة هذه اللّيلة؟».

ردّت عليها زينة بعد أن كانت شاردة، عليها أثر الإرهاق:

- «طبعًا.. طبعًا.. .

علّق عبد النّاصر بلهجة مزاح أنّ عليها أن تستعدّ لكلّ طارئ. فلا تلومه إذا قال لها كلامًا قد لا يعجبها في اللّيل أو فعل لها ما لا ترضاه فهو مُرَوْبَص يسير ويتكلّم في النّوم دون أن يشعر. أجابته نجلاء:

– «لا تتعب نفسك نومي ثقيل.. ثقيل جدًّا. لو أحضرت جوقة الباي لما نهضت قبل أن أنال قسطي من النّوم».

ردّ بين الجدّ والهزل:

ـ « جوقتي مختلفة.. ترفعك إلى السماء السابعة وتحرمكِ النوم..

ساد الطاولة صمت. يبدو أنّ الجميع كان يبحث عن تأويل لكلام عبد الناصر. علّقت زينة:

– «ما أبلدك يا عبدو».

شاركتُ في التّعليق بقول وجّهته إلى نجلاء:

ـ «صديقي خطير، مُرَوْبَص من طراز خاصّ».

اكتفت نجلاء بالابتسامات.

11

لاشكّ في أنّ زينة نامت، ليلتها، هانئة. فقد اطمأنّت بعد أن أقسم عبد النّاصر بأن ينام هو في قاعة الجلوس تاركًا مكانه في الفراش لنجلاء التي تحرّجت كثيرا.

نهض باكرا. اشترى لهما فطور الصّباح: فطائر ساخنة و»يوغرت» وعصير. أخرج من الثّلاّجة الحليب والغلال وسلق أربع بيضات. وأعدّ إبريقًا من القهوة السّوداء.

كانت نجلاء تستعدّ للخروج حين همس لها عبد النّاصر في غفلة من زينة التي ذهبت لإحضار حقيبتها ومحفظتها:

– «سأعود إلى النّوم.. لأستنشق رائحتك التي تَرَكْتِها في الفراش».

قرص شفتها السّفلى بسبّابة يده اليمنى والإبهام ثمّ غمزها.

ظلّت زينة مدّة أسبوعيْن تقريبًا لا تفعل شيئا غير التدريس والنّوم كأنّها تستعيد السّاعات الطّوال من السّهر والتّعب والتّفكير المضني. فدروس التّبريز تبدأ في منتصف أكتوبر. بيد أنّها شرعت تجمع المصادر والمراجع وتستنسخ ما لا يتوفر منها في السّوق.

قرّرت أن تذهب يوم الجمعة لزيارة عائلتها، بل أمّها تحديدًا. اشترت أغراضًا كثيرة بمثابة هدايًا للعائلة. نهاية أسبوع طويلة. ثلاثة أيّام بأكملها وثلاث ليالٍ كان من المنتظر أن يقضيها وحده. أوصلها إلى محطّة النّقل الجماعي بباب سعدون يوم الخميس بعد الزّوال. أوصى سائق سيّارة النقل الجماعيّ بأن يوصلها إلى بيتها مقدّمًا له عشرين دينارًا حتى تتجنّب زينة النّقل الرّيفيّ. كانت مثقلة بالأدباش. لكن عبد النّاصر عاش نهاية الأسبوع المطوّلة عريسًا من جديد. اكترى سيّارة وحجز غرفة بنزل في مدينة الحمّامات.

12

كانت نجلاء تكبر عبد الناصر بسنة أو سنتين. عرف من أحاديثها معه طيلة يومين، مساء الجمعة ويوم السّبت وصباح الأحد، أنّها مطلّقة. تزوّجت قريبًا لها من عائلة ثريّة. ألحّت أمّها على الزّواج منه خصوصًا وقد كثر الخطّاب. ظلّت نجلاء تتمنع. إنّها البنت الكبرى لوالديْن لم ينجبَا إلّا الإناث. خمس حسان تخشى أمّهنّ، كما كانت تقول، أن يبقين علّة في القلب. كانت تقول أيضًا:

– «أفضل البنت متوسّطة الجمال لأنّ الغادة الحسناء يخشاها الرّجال بقدر ما يرغبون فيها. لعبة عندهم سرعان ما يتركونها».

لم تفهم عنها نجلاء ذلك أبدًا. فتجربتها المريرة لم تدم إلّا ثلاثة أشهر تقريبًا قبل أن تصبح في عرف القانون ناشزًا بفرارها إلى بيت أبيها.

كان وسيمًا، ذا حظّ وافر من حسن الخلق والتّهذيب والكياسة. له عيْبان كبيران أحدهما ظاهر والآخر خفيّ لم تتحدّث عنه إلّا إلى أمّها وإلى القاضي. أمّا عيبه الظّاهر فطاعته لأمّه إلى حدّ التّقديس. كان لا يدخل خيطًا في سمّ إبرة إلّا بعد استشارتها. تحضر إلى البيت في أيّ وقت فتبدأ في النّقد والتّجريح: «لمَ تركتِ المواعين على الدّكّة بعد العشاء؟»، «الأرضيّة هنا ليست نظيفة. انتبهي إلى المعينة المنزليّة. اِفتحي عينيك»، «غيّري مكان هذه التّحفة فوجودها في المكتبة أفضل»، «لماذا أنت دائمًا بملابس رياضيّة أو شبه عارية. أنت زوجة رجل محترم»، «لا يناسب الأزرق جفنيك»، «أحمر الشّفاه هذا لا يليق بفمك الواسع الكبير. يجعلك كعاهرة »، «ابني قد نحُل، لا يتغذّى جيّدًا. زوجك هو رأس مالك»... وما إلى هذا من التّفاهات. والأغرب أنّه كان ينظر إلى أمّه مبتهجًا فإذا خاصمته نجلاء قال لها:

- «ماذا تريدينني أن أفعل؟ هي أمّي فاعتبريها أمّك أيضًا».

مرّ شهر العسل مُرّا. بعد حولي شهرين، كانا نائميْن في صباح صيف جميل من أصياف تونس. سمعًا دقّات متتابعة على النّاقوس. ظنّاها المعينة المنزليّة. ذكرّته بأنّه يوم أحد. خرج مسرعًا لفتح الباب فسمعت صوت حماتها تستنكر النّوم إلى الضّحى. قرّرت أن تواصل تكاسلها ونومها كما لو أنّها لم تسمع بمجيئها. ناداها زوجها فلم تجبه. وإن هي إلّا لحظات حتى دخلت عليها الحماة وكانت شبه عارية. تغطّت باللّحاف صارخةً:

- «ماذا تفعلين؟ أليس للغرفة حرمة؟».

صرخت فيها:

- «انهضي انتهى شهر العسل. سنذهب جميعًا إلى قرية رفراف.. إلى بيت أختي».

- «لا أريد الذّهاب. أحبّ أن أنام».

- «ماذا؟ تنامين! نحن عائلة تحبّ لمّ الشّمل».

- «اعتبريني من خارج العائلة».

- «ماذا؟ من أمسك بالإصبع أمسك باليد كلّها. هيّا انهضي واستعدّي».

تدخّل ابن أمّه ليعيد بلهجة الواثق الأمرَ الذي أصدرته أمّه. نظرت إليه باستهزاء قائلة:

- «يمكنك أن تذهب وتأخذ أمّك معك. أنا ذاهبة إلى بيت أبي. اشتقت إليه وإلى إخوتي».

قال لها:

- «ستندمين».

لم تعلّق بشيء. أمسكت باللّحاف وغطّت رأسها ووضعت فوقه المخدّة. فهما أنّها لن تذهب معهما. سمعته يهدّئ من روع أمّه. غيّر ملابسه. طربق الباب وغادرَا.

روت ذلك لأمّها فتعاطفت معها ولكنّها طلبت منها بعض الحكمة والكثير من الصّبر. فالعائلة فاضلة وبعض الأمّهات هكذا. حذرتها من التّفكير في الطّلاق وقدّمت لها توصيات ثمينة لمواجهة مثل تلك المواقف ولكن توصياتها ذهبت سدًى. فالرّجل ابن أمّه فعلاً.

كان لقاء نجلاء مع أمّها مناسبة لتروي لها السّرّ الذي اكتشفته خلال شهر العسل وعانت منه طيلة الشهرين الماضيين. فقد وجدت زوجها بطيء الإراقة بل في أغلب الأحيان لا يريق إلّا بعد جهد متواصل تصل فيه إلى مبتغاها وتبلغ الذّروة وتنتظر ماءه فلا يجيء في الأغلب الأعمّ. لم يزعجها ذلك أوّل الأمر ولكنّه أصبح يسبّب لها إحساسًا دائمًا بالتّهرئة والاحتراق. كان شعورًا فظيعًا أثناء الجماع وبعده ثمّ أصبح ألَمًا وأوجاعًا

لا تنتهي. ولولا مراهم وصفها لها الطّبيب الإسبانيّ في أحد النّزل بمايوركا خلال شهر العسل، لانتحرت أو لقتلته.

لمّا بادرت بمفاتحته في المسألة. ضحك. قال لها إنّ هذه ميزة لديه أعجبت النّساء قبلها، فكيف تشتكي منها وتراها عيبًا؟ تلطّفت في الحديث معه لإقناعه بالبحث عن حلّ لدى طبيب مختصّ بعد عودتهما إلى تونس. امتنع. أصبح الموضوع محلّ خلاف بينهما. بدت له تتمنّع وتمتنع عن القيام بواجباتها الزّوجيّة. حاولت إفهامه بجميع الوسائل. ما انفكّت شقّة الخلاف تتّسع. وصل بها الغضب مرّة إلى أن قالت له:

- «لست ممثّلة في شريط إباحيّ. إنّك تؤلمني. أتفهم؟».

- «غيرك تتمني رجلاً مثلي».

- «إذن تزوّج غيري.. أرِح نفسك وأرِحْني».

- «إذن تريدين الطّلاق».

- «نعم، ما دمت لا تريد الطّبيب».

مرّ من شهر العسل أسبوعان. بدأت تكتشف طبعه وتنفر منه بسبب أمّه وبطء إراقته. غضّت الطّرف عن علاقاته الجانبيّة. قالت لها أمّها يومًا قبل أن تعرف حقيقة الحكاية:

- «يدور.. ويدور ولا يبيت إلّا في فراشك».

وأضافت:

- «أبوك كان مثله ولكنّه هاهو الآن حاجّ يعود باكرًا قبل بناته أحيانًا».

13

سألها الطلياني لِمَ لم تتزوّج ثانية. حدّثته طويلاً عن موقفها من الزّواج حتى قبل أن تعيش تجربتها المرّة مع ممثّل الأشرطة الإباحيّة. فسّرت

له أنّ الزّواج للمرأة حدث محرّر من المجتمع وقيوده الصّارمة. كانت تعرف ذلك. ولهذا فإنّ طلاقها بيّن لها أنّ السبيل إلى حرّيتها الحقيقيّة لا يمكن أن يمرّ عبر رجل يستعبدها. قالت إنّ حرّية المرأة في تونس اقتصرت على حرّية اختيار السّيّد الذي يتحكّم في أنفاسك ولا تمكّنك من اختيار إحساسك بالحياة.

وجدها الطلياني تبالغ حين قارنت نفسها بأمّها التي اعتبرتها قد وجدت، مع نساء جيلها، حرّيتها داخل القيود الاجتماعيّة رغم هيمنة الرّجال الظّاهريّة. أمّا هي، وبنات جيلها، فضحيّة لمجتمع لا يرحم. يطلب منها أن تكون في الفضاء العامّ وفي الفضاء الخاصّ دون توزيع حقيقيّ جديد للأدوار. قالت:

_ «لقد أعطانا بورقيبة قيدًا جديدًا ظننّاه انعتاقًا فتورّطنا. لم يعد بإمكاننا أن نعود إلى الوراء. وإذا أردنا أن نتقدّم تعذّر علينا ذلك. أمّا البيت فسجن صغير وأمّا الشّارع فسجن كبير. أحدهما يعمّره سجّان بليد لا تنتهي طلباته. طفل صغير دلّلته أمّه ولم يستطع في الغالب الفطام منها، والآخر يعمّره السّفلة بتحرّشهم بالنّساء وعنف لغتهم الجنسيّة النّاضحة كبتًا ونظراتهم التي تعرّي المرأة تعرية».

قالت له مضيفة:

_ «أنت لا تشعر بالعنف القبيح بواسطة العين واللّسان، عنف مدمّر لنا نحن النّساء».

داوى الطلياني دمار نجلاء وتداوى بها من إهمال زينة له. اكتشف أنّها حيِيَّة بل خجولة تحمل من إرث الحشمة قدرًا كبيرًا على عكس ما بدَا له من هيئتها ولباسها وعنايتها بمظهرها وحديثها الأوّل معه. كانت تسارع إلى تغطية جسدها حالَمَا يفرغان. تغمض عينيها دائمًا كأنّها لا تريد أن ترى شيئًا. لم يكن في سلوكها عند النزال مسكة من جنون أو

خروج عن العاديّ المألوف. تمارس الحبّ كمن يقوم بواجب بيولوجي. لا صوت. لا كلمة. لا حركة مفاجئة. أتعبته في لقائهما الأوّل إذ بدا كما لو أنّها لا تتفاعل معه. ولولا انتصاب حلمتيْها وأنين أصدرته ملتذّة لشكّ في برودتها.

لكنْ بعد أن تحدّث معها في الموضوع وصارحها بالأمر، وكم كان فصيحًا بليغًا في ذلك، بدا له أداؤها صبيحة الأحد قبل العودة إلى تونس قد تحسّن كثيرا. انطلق لسانها نسبيًّا، أصبحت تراوح بين إغماض العينين وفتحهما، وسمحت له بأن يجوس بيديه ولسانه مواضع خفيّة تتطلّب جهدًا للجوس فيها. قال لها:

- «أنت كتاب لا يقرأ إلّا على امتداد أشهر طويلة».

أجابته:

- «وهل تريد الفراغ منه بسرعة؟ أتنتظرك كتب أخرى؟»".

- «اعتدت على قراءة أكثر من كتاب في فترة واحدة..

14

عادت زينة مهمومة. فقد تركت أمّها مريضة. كبر أبوها وأصبح لا يفارق الحانوت. يلعب الورق ويتحدّث مع الفلّاحين ويقضي يومه كدابّة هرمة تنتظر موتها. أخوها عاطل عن العمل ولولا بعض مدّخراته من موسم الحصاد لمات جوعًا مع زوجته وأبنائه الأربعة. رأت لأوّل مرّة القرية بعيون جديدة، رؤيتها أصبحت مطابقة أكثر للواقع. كانت منذهلة: كيف أمكنها أن تعيش معهم وأن تكبر وتصبح أستاذة في تلك الظّروف التي لا يتوفّر فيها الحدّ الأدنى من ضرورات الحياة؟

عادت محمّلة بمشاهد أدمت قلبها وحكايات كادت تجننها. قالت له إنّ أهل المدن لا يعرفون فعلاً ما يعانيه فقراء القرى وفلّاحوها. فالجفاف

طال وطحنَ تحالفُ انحباس السّماء وانشغالُ الدّولة بأزمة القصر القريةَ وزاد من فقرها. بدت لنفسها غريبة عن أهلها. حتى ملابسها العاديّة التي ذهبت بها أصبحت تخجل منها. رأت فيها عنفًا موجّهًا ضدّ أهلها رغم أن أمّها فرحت بثمرة كدّها. تراها وقد أصبحت امرأة كاملة.. امرأة قادرة على أن تعيل نفسها وتعيل أمّها وأباها العاجز. حدّثتها طويلاً عن الزّواج وبناء أسرة. قالت لها:

ـ «أريدك أن تتزوّجي قبل أن أغمض جفنيّ إلى الأبد».

لم تفهم حديثها إليها عن رغبتها في مواصلة الدّراسة فالرّجل عندها أهمّ شيء. فقدت زينة لغتها، لسانها الذي تخاطب به أمّها. كانت وهي تلميذة وطالبة أشدّ جرأة وإقناعًا رغم سلوكها غير المطابق للمعهود. أمّا الآن، حين أبدت لينًا في التّعامل مع الأمّ، فقد ظنّت أنّ عقلها كبر وينبغي لها أن تتزوّج.

قال لها عبد النّاصر مازحًا جادًّا:

«الجنّة تحت أقدام الأمّهات. فعلاً لِمَ لَمْ تحدّثيها عني، عن زوجك؟».

عـادًا إلى النّقاش القديم حول الصداق الاضطراريّ والـزّواج الاختياريّ. أصبحت اللّعبة واضحة يبدأ الأمر بالتّمييز الاصطلاحيّ وينتهي بخصومة مدارها على صدق المشاعر والنّظرة إلى مستقبلهما والحبّ من طرف واحد والطّموح الجامح الذي يعمي بصيرة زينة. ولكن هذه المرّة طعنها عبد النّاصر في الصميم. قال لها:

- «لقد توضحت حياتك ومهنتك وكذلك ساقتني الصّدف إلى أن أصبح صحفيًّا مترسّمًا. فلم لا نشهر زواجنا؟».

- «عدت إلى الإسطوانة القديمة. أمهلني سنة كي أنهي التّبريز. ثمّ ها إننا نعيش عيشة أزواج».

- «لا أظنّ، أنت تستفيدين من عيشة الأزواج وإيجابيّاتها دون أن تلتزمي بواجباتك..

ثارت ثائرة زينة. فقد كان كلام عبد النّاصر سمّا زعافا وهي التي عادت من قريتها محطّمة بما رأته وما أصبحت عليه وضعيّة أمّها وأبيها. تعالت أصواتهما. اتّهمته بالأنانيّة وعدم التّفهّم ودفعها إلى الالتزام بما لم تختره والعمل على تحطيم مستقبلها والقضاء على طموحاتها واختزالها في امرأة تقليديّة يستعبدها المناضل الثّوري الذي ترك الثّورة ليطبّع مع النّظام السّائد ويعمل كلب حراسة في أحد أجهزته الإيديولوجيّة، في صحيفة ناطقة باسم الحكومة تبرّر سياسة القمع والاستغلال. كان كلامًا عنيفًا لم يسمعه عبد النّاصر منها قبل ذلك اليوم. قال لها محتجًّا:

- «معناها أنا خائن؟».

- «لا معناها توقّف عن ادّعاء الحكمة الثّوريّة والنّزاهة والنّظافة. أنت بورجوازي صغير تبحث عن مصالحك وتقودك مرجعيّات عائلتك «البلديّة». فالثّوريّة عندك قشرة إذا كشطناها بانت حقيقتك... الرّجعيّة!».

ردّ عليها بغضب وسخرية. حدّثها عن أنانيّتها التي تسميّها طموحًا وانتهازيّتها التي تغلّفها بالانشغال بعملها. ذكر لها أنّه لم ير منها يومًا ما توليه المرأة الحقّ، حبيبة أو زوجة أو صاحبة، من عناية وملاطفة ورعاية واهتمام وانتباه لمن يقاسمها الحياة. تكتفي بكتبها ومستقبلها المهنيّ والعلميّ على حسابه. أفرغ ما في جعبته. لم يبق عنده إلّا القليل الذي يتّصل خصوصًا بأفضاله عليها. لم يشأ أن يقول ذلك. شعر أنّه انفعل كثيرًا وكان قاسيا معها ختم كلامه:

- «راجعي نفسك إذا كنت تريدين مواصلة العيش معي.. لم أعد أحتمل السّكوت.. لم أعد مستعدًّا لمراعاة نفسيّتك..

كانت تنظر إليه في دهشة وتعجّب. تبحلق صامتة كتمثال. نهضت

مسرعة. دخلت غرفة النّوم وأجهشت بالبكاء. أمّا هو فخيّر أن يستنشق الهواء خارج البيت.

15

تفاقمت الأزمة في البيت حين بدأت زينة تحْضر دروس التّبريز. عادت إلى عاداتها أيّام إعداد مذكّرة البحث. لا حديث بينهما عدا تحيّات الجيران في الصّباح والمساء وفي الفرص القليلة التي تجمعهما خصوصًا صباح الأحد. حتى هديّة عيد ميلادها، في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر، مرّت دون أن تسجّل في ذاكرتيهما على أنّها حدث استثنائي رغم قيمتها.

فقد حصل على المكافأة الإضافيّة الخاصّة بالملحق الذي يشرف عليه، مكافأة شهرين من العمل. طلب من نجلاء أن تختار لزينة دُمْلجًا وسلسلة رقبة. اختارتهما بذوقها الرّفيع. أضاف بعض المال. كانت تعرف أنّهما لزينة بمناسبة عيد ميلادها. اختارت هي حقيبة يدويّة كهديّة. أحضرت له السّلسلة والدّملج. سألها عن أيّهما أجمل في عينيها. اعتبرت أنّ الدّملج أحلى وأكثر بذخا. وضع السّلسلة في جيب سترته. طلب منها أن تغمض عينيها. فهمت رغم بعض الشّكوك. أحسّت بيديه تضعان الدّملج على معصم يمناها. كادت تطير فرحًا. لم تحفل بعيون الجالسين في المقهى. قبّلته بحرارة. ثمّ أخذت تقلّب الدّملج في معصمها. فجأة سألته بعد أن طارت سكرة الفرح بالهديّة الثّمينة:

- «لكنّك اشتريتها لزينة؟ لا يجوز..

- «من قال إنّها لزينة؟ أردت أن أهدي إليك أنت شيئًا يعجبك ولم أجد طريقة غير هذه».

كانت هديّة نجلاء صادقة، هديّة حقيقيّة لامرأة سخيّة لم تحسب معه

حسابًا لشيء حتى أنّها، كما يذكر، أرادت أن تدفع في النّزل مقابل الإقامة أو على الاقلّ اقتسامه معه، أمّا هديّة زينة فكانت، عنده، من باب الواجب لجارته التي تساكنه.

تردّد الطلياني في أن يفسّر لنجلاء أنّ زينة لم تهد إليه شيئًا ولا ينتظر منها حركة تدلّ على رقّة أو كياسة أو عناية فيشعر أنّها تحبّه مثلما يحبّها.

تعمّدت نجلاء أن تحضر من الغد إلى بيتهما. انتظرت عودتها من الدّروس المسائيّة. دخلت عليهما وزينة في المطبخ تستعدّ للعشاء في حين كان عبد النّاصر يشاهد حصّة تلفزيّة وأمامه أوراق كثيرة متناثرة جمعها مضطربًا، مرتبكًا حَالَمَا دخلت نجلاء. رحّبت بها زينة. أخفى عبد النّاصر ابتهاجه بمرآها.

حين قدّمت لها نجلاء الحقيبة اليدويّة مهنّئة بعيد ميلادها مع ما يتبع التّهنئة من عبارات مكرورة بطول العمر وعاقبة المائة عام وغير ذلك ممّا هو معتاد مألوف في مثل تلك المقامات، عانقتها زينة بقوّة شاكرة معجبة بالهديّة.

كان عبد النّاصر ينظر إليها متعجّبًا فقطع حديثهما الودّيّ موجّهًا كلامه إلى نجلاء:

– «أصبحت أغار منك، زوجتي فرحت بهديّتك ولم تفرح بهديّتي أبدًا».

لم تعلّق هذه ولا تلك، كأنّهما تجاهلتاه. بعد لحظات قليلة من الصّمت، عادت زينة لتحادث نجلاء فقاطعتها لتعلمها بأنّه ينبغي لها أن تغادر فالوقت قد تأخّر وهي جاءت فقط لتسلّمها هديّتها وفجأة سألتها:

– «وماذا أهداك زوجك المفدّى؟».

– «سلسلة.. .

- «هل أعجبتك؟ أأستطيع أن أراها؟».

- «طبعًا.. طبعًا.».

سألها عبد النّاصر ساخرًا:

_ «طبعًا أعجبتك؟ أم طبعًا تستطيع أن تراها نجلاء؟».

لم تجبه. ذهبت زينة لإحضارها من الغرفة. غمز عبد النّاصر نجلاء وأشار برأسه إلى أنّه يريد أن يرافقها خارج البيت. قالت نجلاء:

- «رائعة يا زينة».

التفتت لعبد النّاصر وقالت له:

- «مادام ذوقك رفيعًا إلى هذا الحدّ فإنّني أعلمك رسميًّا بأنّ عيد ميلادي في العشرين من جانفي، مازال أمامك متّسع من الوقت..

أخذت نجلاء تقلّب السلسلة كمن يراها لأوّل مرّة. وضعتها على صدرها. وقفت أمام مرآة معلّقة في الحائط قرب باب الدّار تتأمّلها. طلبت من زينة أن تضعها في عنقها. أخذت تنظر بإعجاب وتقلّبها على صدر زينة. ثمّ علّقت موجّهة كلامها إلى عبد النّاصر:

- «عليك أن تكمل حُلِيَّ زوجتك. هذه السلسلة تحتاج إلى أقراط ودملج!».

- «حاضر، سيّدتي نجلاء، لكن بعد العشرين من جانفي... وبعد حصول زينة على التّبريز، حتّى تعرف قيمتها وتفرح بها».

نظرت إليه زينة شزرًا وطلبت منه أن يرافق نجلاء إلى دارها فالسّاعة قد تأخّرت. قفز عبد النّاصر كمن كان ينتظر ذلك. وقد تعمّد أن يظهر بعض التّبرّم وهو يلبس حذاءه. وألحّت نجلاء على عدم إزعاجه.

16

في الطّريق إلى شارع 20 مارس، كانت نجلاء تتأبّط ذراع الطلياني. التفت إليها قائلاً:

- «أتعرفين؟ حين تمسكينني من ذراعي أشعر أنّني متوّج بالأنوثة والرقّة».

- «لماذا؟ أنا أوّل امرأة تتأبّط ذراعك؟!».

- «أنتِ.. أنتِ، ومعكِ فقط أشعر بهذا ».

حانت منها ابتسامة أزالت استغرابها. قالت له:

- «فقط لأنّني لعبتك الجديدة».

استأنف الطلياني غير آبه بما قالته:

- «يبدو أنني أصبحتُ مدمنًا عليك. إلى متى سنظلّ على هذه الحال؟ لا بدّ من حلّ..

- «أنت متزوّج.. أمّا أنا فلا قيد عليّ إلّا خوفي عليك وعلى علاقتي بزوجتك!».

- «أتتزوّجينني؟».

ضحكت بصوت مسموع. فردّ عليها:

- «أتحدّث جادًّا... أجد نفسي معك في راحة كبيرة..

- «اِسمع عبدو، أنت لا تعرفني».

- «عرفتك».

- «قلت لك لا تعرفني.. لو تزوّجت كلّ رجل أعجبته وأعجبني لجمعت الآن قبيلة.. ثم تداركت، لا تغضب أنا كرهت الزّواج».

- «فشل تجربة لا يعني الحكم بالفشل على جميعها ممّالم يقع».

- «أنا الآن أشعر بحرّية لن تتوفر لي إذا تزوّجتك. ثمّ ما هي مشكلتك؟ أنا حاضرة متى شئت! أنت تعجبني.. ومازلت أستمرئ لذّة لقائنا الأخير.. وحتى القبلة التي سرقتها منك أمس في المقهى ما زالت على شفتيّ..

وصلت إلى الدّار. أراد تقبيلها لكنّها نبّهته إلى أنّ أختها واقفة تنظر من بلّور النّافذة. طلب منها أن تزوره غدًا صباحًا، أن تتغيّب عن المعهد إن لزم الأمر فهو مشتاق إليها كثيرًا. ذكّرته بأنّه يشتغل. أعلمها أنّه يعمل على إنهاء تحقيق يتطلّب منه البقاء في البيت لتحريره.

17

أنهى عبد النّاصر كتابة تحقيقه. جاءت نجلاء لساعة واحدة بعد أن خرجت زينة. التقى سي عبد الحميد. أتمّ الافتتاحيّة بسرعة. كانت سهلة لأنّها تدور حول مشروع إزالة الأكواخ الذي بدأ بتعليمات من المجاهد الأكبر وتحليل أبعاد هذا القرار الإنسانيّة ودوره في تحسين ظروف عيش المواطنين باعتبار السّكن اللائق من الأولويّات التي يحرص المجاهد الأكبر على تجسيمها في أرض الواقع.

عاد إلى مكتب سي عبد الحميد بعد أن أصلح المقال. اقترح عليه تغيير المكان والذّهاب إلى مطعم آخر لا يعرف بتردّده عليه نظرًا إلى خطورة ما سيعرضه عليه. رفض أن يكون لقاؤهما، رغم طابعه المهني، في الجريدة. فالأمر لا يحتمل الانتظار وللحيطان آذان.

لم ير سي عبد الحميد عبد النّاصر على مثل ذاك الحماس لشيء كتبه مثلما رأى عليه يومها أمارات التّوتّر والشّعور بأهميّة ما يفعل. لاحظ له ذلك قائلاً له:

- «إنّك تذكّرني بشبابي حين أكتب شيئًا أشعر بأنّه استثنائيّ!».

لم يكن عبد النّاصر ينتظر مثل هذا المديح بقدر ما كان ينتظر أن

يبدي له رأيه في ما كتب. أخرج له من جيب سترته الدّاخلي، وكان مغلقًا بسلسلة، خمس ورقات متوسّطة الحجم مكتوبة بخطّه الصّغير المقروء بوضوح. تسلّمها سي عبد الحميد قائلاً:

- «طيّب، سألقي نظرة عليها رغم أنني متأكّد من أنّها ينبغي أن تذهب إلى المطبعة مباشرة..».

- «تمهّل سي عبد الحميد. اِقرأ رجاء. لا تكتفي بإلقاء نظرة».

كان سي عبد الحميد قد أخذ الأوراق وهو يبتسم. فتحها وقرأ: «ما ننفرد بنشره» في الأعلى وتحته العنوان الرّئيسي: «حقائق مذهلة قد تساعد على كشف المؤامرة».

انحسرت شفتَا سي عبد الحميد حتى زالت ابتسامته تمامًا. نظر إلى الطّاولات القليلة التي يجلس عليها حرفاء مطعم «حلقة الإيطاليّين» بشارع الحرّية. كان أغلبهم من الأجانب وطاولتهم في آخر القاعة على اليمين، إحدى الطّاولات الدّائريّة القليلة في ذاك المطعم.

وضع الأوراق على الطّاولة بعد أن كان يمسكها مرفوعة. شبّك أصابع يديه بحيث أصبح المقال أمامه هو فقط كتلميذ يخفي ورقة امتحانه عن زميله. كان وجه سي عبد الحميد يمتقع كلّما تقدّم في القراءة. يرفع وجهه أحيانًا ويلقي نظرة خاطفة على من في المطعم. ثمّ يعود لينكبّ على القراءة. كان يقرأ بسرعة ولهفة لا تخفيان. كان عبد النّاصر متوتّرا ينتظر التّصريح بالحكم على المقال من سيّد الصّحافيّين في تونس.

جمع سي عبد الحميد الأوراق الخمس، طواها، وضعها في جيب سترته الدّاخلي. ثمّ أخرجها وأعطاها إلى عبد النّاصر. طلب منه أن يعيدها حيث كانت. عبّ كأس الويسكي أمامه عبًّا. طلب كأسًا ثانية وعبد النّاصر ينتظر ما سيقوله له:

- «مزّق هذه الأوراق ولا تخبر بها أحدًا».

- «لماذا؟ معلوماتي صحيحة مؤكّدة».

- «اِفعل ما قلته لك. لا وقت للنّقاش».

ران على الطّاولة صمت ثقيل طويل. كان سي عبد الحميد يشرب كثيرًا ويكاد لا يأكل شيئًا من الطّعام.

أراد عبد النّاصر أن يكسر جدار الصّمت السّميك الذي أقامه سي عبد الحميد. بدا له مهمومًا يحلّق في عوالم داخليّة استعصى على عبد النّاصر أن يخمّن ما هي. يشرد أحيانًا. يشعل سيجارة جديدة من بقايا القديمة. قال له:

- «تريدني أن أتركك؟».

نظر إليه. أخبره بحركة من رأسه أنّ ذلك ليس مقصوده. طلب منه أن يغيّر مكانه ويقرّب كرسيّه إليه. أصبح سي عبد الحميد يرى جلّ من في المطعم، روّاده الجالسين والنّادلين. قال له:

- «أين تظنّ نفسك في أمريكا.. في فرنسا.. من سيحميك؟».

- «لكن لا شيء ضدّ الدّولة في ما كتبت.. ومعلوماتي من مصادر عليمة..

- «لا تهمّ مصادرك.. هذه المعلومات ذات طابع أمني لا يحقّ لك استعمالها..

- «مصادري أمنيّة ثابتة. ألم تقل لي إنّ الصّحفي الحقيقي هو الذي له صلات بالأمن دون أن يصبح واشِيًا؟».

- «صحيح ولكن لكي تعرف اتّجاهات الرّيح.. لا لكي تقف في مهبّ الرّيح عاريًا.. الفرق كبير. أنت الآن من سيحميك؟».

- «الصّحفي يقول الحقيقة وينقل الخبر.. إنّه تحقيق وليس مقال رأي».

ابتسم سي عبد الحميد ابتسامة من الأرجح أنّها على وجه الاستهزاء:

- «اسمع يا بنيّ.. الحقيقة قي تونس لها مصدر واحد هو الدّولة.. وهذه الأيّام وزارة الدّاخليّة هي الدولة.. والدّولة هي الدّاخليّة عندنا.. لم يطلب منك أحد أن تحلّ محلّ الوزير بن علي. له ثقة الزّعيم فلا تشاركه في ما يعرفه. دعك من كذبة الحقيقة. ثمّ ما رأيك لو كانت مصادرك تريد أن تتلاعب بك؟».

- «مستحيل! الوقائع عليها قرائن كثيرة».

- «لا تتسرّع، المستحيل ليس تونسيًّا خصوصًا مع الأمن، أمّا الوقائع فيمكن، ببيان من الدّاخليّة، أن تصبح أكاذيب. كفاك أوهامًا».

- «معنى هذا أنّ ما قلته خاطئ؟».

- «لماذا تفكّر بالخطإ والصّواب. أنا أتحدّث عمّن له شرعيّة القول، ولا أتحدّث عن مضمون ما قلت.. كنت ممتازًا من النّاحية المهنيّة، حذِرًا في تقديم المعلومات المتوفرة عندك. لا أحد حسب قانون الصّحافة يمكنه أن يرفع بك أو بالجريدة شكوى، معلوماتك في التّحقيق تليق بأكبر الصّحف والمجلّات الأجنبيّة لكنّها في تونس قد تعرّضك إلى أخطار لا تتصوّرها.. ثمّ إنني لا أنشرها في جريدة الحكومة.. لا يحقّ لي نشرها.. لا يمنعون صحفنا، ولا يصادرونها مثل الصّحف المستقلّة والمعارضة ولكنّنا لا نملك أيّة حصانة.. يصادرونني أنا، يدبّرون لي تهمة.. ولك تهمتين.. هذا كلّ ما في الأمر يا بنيّ».

- «فهمت. إذن نعرف الحقيقة ولا يجوز لنا قولها!».

- «تقريبًا، بل قل ليست كلّ الحقائق ينبغي أن تقال أو لك الحقّ في قولها.. حقائقك في هذا المقال لا تقولها أنت بل هناك من يحقّ له أن يقولها... واضح!».

- «واضح».

سكت الصحفي وسكت الرئيس المدير العام. إن هي إلّا لحظات حتى استأنف عبد الناصر الكلام:

- «هل أرسلها إلى صحيفة «ليبيراسيون» أو«لومند»؟».

- «سيرحّبون بها كثيرًا. ولكن لا أنصحك بذلك. بل أمنع عليك ذلك؟».

- «لماذا؟».

- «ببساطة ستتّهم بالتّخابر مع بلدان أجنبيّة أو ببيع أسرار أمنيّة. إذا أردت أن تصبح شهيدًا للصّحافة الحرّة مع حملات تضامن عالميّة معك مقابل السّجن القاسي فافعل ذلك».

18

كان التّحقيق حول اعتقال قائد الجهاز الخاصّ في حركة الاتّجاه الإسلامي في 27 أكتوبر 1987، كتبه الطلياني بعد أسبوع من إيقافه. لم يسمع بذلك أحد. قدّم عبد النّاصر المعلومة مع معطيات دقيقة عن عمليّة الإيقاف والسّاعة والظروف الحافّة تاركًا أمر تحديد مكان التّوقيف لقلّة المعلومات.

ولكنّ أهمّ ما في المقال هو رسم ملامح هذا العنصر القيادي وتقديم صورة واضحة عنه من حيث تكوينه ومساره التّاريخي ودوره في الجهاز الخاصّ وعلاقته المفترضة بعمليات التّفجير التي وقعت في شهر أوت 1987 في فنادق بمدينتيْ سوسة والمنستير السياحيّتين.

كان القائد أستاذ رياضيّات تكوّن منذ مرحلته الثّانويّة على أدبيّات الإخوان المسلمين وعلى رأسهم السّيد قطب وكتابات أبي الأعلى المودودي ومثّل حلقة الرّبط بين المدنيّين والعسكريّين خصوصًا بعد اعتقال زعيم الحركة سنة 1981.

كان الرجل الخطير محاطًا بكثير من الغموض. فقد قام بعدّة مهامّ من خلال أناس موزّعين في باريس وفرنكفورت من بينها محاولة توريد قنابل غاز مشلّ للحركة في جانفي 1986 عن طريق التّهريب لاستعمالها ضدّ قوّات مقاومة الشّغب ورجال الأمن وفي الجامعة خلال الصّراع مع طلبة اليسار.

شارك في المؤتمر السّرّي للحركة بقرية سليمان سنة 1984 بعد الإفراج عن القيادة التّاريخيّة إثر أحداث الخبز. وهو المؤتمر التي صدرت فيه الوثيقة المعروفة بـ «الرّؤية الفكريّة والمنهج الأصوليّ» ومنها اقتطع عبد النّاصر مقتطفات تَبرز الطّابع العنيف للحركة القائمة مقاصد **الجهاد ضدّ** المجتمع.

أصبح زعيم الحركة في هذا المؤتمر أميرًا للجماعة وفي الآن نفسه رئيسًا للمكتب التّنفيذي والمكتب السّياسي بعد أن أزاح بعض المؤسّسين وظلّ الرجل الخطير في موقعه. اتّفق مع عدد من القيادات على مشروع سمّيَ «مشروع البدائل» في مؤتمر استثنائيّ، عقد خلال صائفة 1986 بضاحية المنزه، بعد إزاحة بورقيبة لوزيره الأوّل مزالي وشعور الإسلاميّين ببداية العدّ التّنازلي للحركة مع النّظام.

ذكر عبد النّاصر في مقاله أسماء المدنيّين الذين كانوا على رأس المشروع والإعداد للتّنفيذ. لم يكن واضحًا بالنّسبة إلى عبد النّاصر ما سينفذ ولكنّه رجّح أنّ تفجيرات سوسة والمنستير من مكوّنات «مشروع البدائل» أو هي جزء من مشروع ثان كان مهندسه رئيس الحركة ابتداء من أوت 1987 وقد سمّي بـ«خطّة تنضيج الثّمرة».

فسّر عبد النّاصر بهذه الخطّة، بعد أن عاد إلى سلسلة من الأحداث مرتّبة تاريخيًّا، الحراكَ الذي شهدته الجامعة بالخصوص والمعاهد والتّحرّكات الميدانيّة والمناوشات شبه اليوميّة في أكثر من مكان في

الآن نفسه. وإلى هذا الحدّ يأتي إلقاء القبض على الرجل الخطير جزءًا من حملة الاعتقالات الواسعة للقيادات العلنيّة وتفكيك الشبكة السرّيّة والخلايا النائمة.

لم يكن هذا ما أزعج سي عبد الحميد. فمن البيّن أنّ المعطيات السابقة متأتّية من معلومات مخابراتيّة وأمنيّة. لم يطلب منه ذكر مصدره. فهم، ولم يكن مخطئًا في ذلك، أنّ لسي عثمان دخلاً في توفير بعضها على الأقلّ. غير أنّ معطيات أخرى وردت في التّحقيق هي التي أرعبته.

حقّق عبد النّاصر في مسألة تفجيرات النّزل الأربعة في سوسة والمنستير ليكشف ضلوع ابن إحدى الشّخصيّات السّياسيّة المرموقة من جهة السّاحل في التّفجيرات. وكان قد شارك، على الأقلّ، في توفير تسهيلات لوجستيّة. وهو ما يعني تورّطه مباشرة، سواء بالعلم بالخطّة دون الإبلاغ عنها أو بالمساعدة على تنفيذها نظرًا إلى استحالة الشّكّ فيه باعتباره ابن أحد أعمدة الجهاز الحاكم. وقد توفّرت لعبد النّاصر معلومات عن وجود حسابات سرّية في الخارج يموّل بواسطتها ابنُ الشّخصيّة السّياسيّة التّنظيمَ.

وهنا ركّز سي عبد الحميد على أنّ مثل هذا الاتّهام لا سند له وإيجاد الدّليل يتجاوزه مادامت السّلطات الأمنيّة والمخابرات لم توقف المعني بالأمر على حدّ علمه. ثمّ بدأ سلسلة من الافتراضات التي اعتبر مجرّد التّفكير فيها خطيرًا جدًّا. فهو يعني أنّ الأب إمّا أن يكون لا يعلم بانتماء الإبن واختياراته المذهبيّة والسّياسيّة وهذا مستبعد وخطير في حدّ ذاته. وإمّا أن يكون على علم ولكن عاطفة الأبوّة غلبت منطق الدّولة وهذه طامّة كبرى. وزاد في الافتراض أنّ هذه المعطيات إذا صحّت فتعني أنّ النّظام في حدّ ذاته غير متماسك وبدأت تنخره سوسة الإسلاميّين من الدّاخل. فإذا دخلت الجسم السّياسي فما الذي يمنع دخولها إلى الجسم

الأمنيّ والجسم العسكريّ؟ حينها سيثير التّحقيق الرّعب في النّفوس التي لم تهدأ بعد من وقع التّفجيرات غير المسبوقة التي شهدتها البلاد. فلم يكن إيقاف قيادات الاتّجاه الإسلامي كافيا لطمأنة النّاس. والمشكلة، حسب سي عبد الحميد، أنّ النّظام نفسه منقسم على مسألة خلافة الزّعيم والصّراعات في القصر على أوجها ويبدو أنّ ابنة أخت المجاهد الأكبر تسيطر كلّيًّا على الزّعيم. وحتى الأمل الذي كان يمثّله مزالي في إدراج الإسلاميّين في الدّورة السّياسيّة قد اضمحلّ منذ مدّة.

تأكّد عبد النّاصر من خلال تحليل سي عبد الحميد من أنّه قد يكون تسرّع في مسألة ابن الشّخصيّة السّياسيّة المتورّطة في التّفجيرات وإن كان متأكّدًا من وجود شبهات قويّة. فمصدره في ذلك أحد الإسلاميّين من جهة سوسة ملمّ بكثير من الأسرار وهو الآن في ورطة يريد أن يغادر التّنظيم ولكنّه يخاف على نفسه، ويخاف أن يقبض عليه بعد أن عاين الجانب العنيف للجهاز الخاصّ وإمكانيّة ذكر اسمه في أيّ تحقيق بما يؤدّي إلى إيقافه ولكنّه قرّر الخروج دون أن يلفت إليه انتباه التّنظيم والسلطة في الآن نفسه.

قدّر عبد النّاصر أنّ هذا الصّديق ليس صادقًا بل هو على الأرجح جاسوس مندسّ في الجماعة ولم يتفطّن إليه أحد. وقد صارح بذلك سي عثمان ولكنّه، على غير عادته، سارع بالإنكار مؤكّدًا أنّه لا ينتمي إلى الجهاز الأمني. بيد أنّ عبد النّاصر قرأ في عيني سي عثمان ارتباكًا غير طبيعيّ، لا يناسب ما يعرفه عنه من حزم ورباطة جأش وقوّة شخصيّة وبرودة أعصاب.

19

كان التحقيق مناسبة تبيّن منها عبد الناصر أنّ سي عبد الحميد، على

خلاف ما أكّده له أكثر من مرّة، من الإعلاميّين والمثقّفين والسّياسيّين الذين لعبوا ورقة الوزير محمد مزالي قبل عزله والتّنكيل به. فقد سمع ذلك من أكثر من شخص ولم يصدّق أمّا اليوم فقد توضّح له ذلك. أراد مزيد التّثبّت وجمع أدلّة أخرى على مواقف سي عبد الحميد فسأله:

«إذن أنت ممّن يرون ضرورة إدراج الإسلاميّين في اللّعبة السّياسيّة؟».

سكت متفكّرًا. ثمّ قال:

- «الآن، وقعت الفأس على الرأس. يتطلّب ذلك توضح أشياء كثيرة لا يبدو أنّها ستتوضح قريبًا. نحتاج إلى بضعة سنوات من الصّراع والدّماء المهدورة حتى يعرف الإسلاميّون ما معنى الدّولة وما معنى الصّراع... سيذهب كثيرون بين الأرجل في لعبة السّلطة بقذارتها.. لعبة لا قلب فيها ولا عواطف... الدّولة أقوى من العقائد، والحزب الاشتراكي الدستوري، محرّر البلاد، منغرس في كلّ قرية ودشرة.. وفي عقل كلّ تونسي.. نحتاج إلى وقت لتنضج الثّمرة أو تتعفّن فتسقط من تلقاء نفسها ولكن الدّولة ستستمرّ ومازال في عمر الحزب على الأقلّ خمسون سنة أخرى».

- «إذن لن يقع أيّ تغيير في بنية الدّولة حسب رأيك؟».

- «انظر.. خذ تاريخ البلاد. ذهبت فرنسا فبنى بورقيبة الدّولة من بقاياها بما وجده أمامه متاحًا. لم يسيطر بورقيبة إلى الآن بقوّة السّلاح بل بقوّة الدّولة وإرادتها. مرّ بجميع الأزمات من اليوسفيّين وانقلاب القوميّين، من الماويّين واليسراويّين.. ونحن الآن، منذ الثّورة الإيرانيّة، في مرحلة الإسلاميّين.. هؤلاء أيضًا لن يمرّوا.. نعم قد يتركون آثارهم ولكنّهم لن يمسكوا السّلطة. كلّ تغيير سيكون من الدّاخل. التّونسيّون ليسوا شعبًا ثوريًا. عُدْ إلى التّاريخ. كلّ اللّعبة تدار داخل الحزب الدّولة منذ مؤتمر بنزرت سنة 1964، بن صالح وجماعته، جماعة المستيري، عاشور والاتّحاد».

- «لكن الظّرف تغيّر.. سياسة الإصلاح الهيكليّ أدّى إلى كوارث.. الدّولة تكاد تفلس.. البنك العالمي وصندوق النقد الدوليّ يتحكّمان في كلّ شيء... وضرب الاتّحاد الآن لا يمكّن الكادحين والعمّال وحتى الموظّفين من أن يتنفّسوا.. الوضع كارثيّ.. يمكن أن ينفجر في أيّ لحظة وهذا ما يعطي للإسلاميّين فرصة الرّكوب على الحالة الثّوريّة».

- «دعك من حديث الجامعة. لا حالة ثوريّة ولا هم يحزنون. ضريبة مؤقّتة ينبغي أن تدفع. هؤلاء ليسوا أبناء مجتمعنا، إنّهم امتداد لتنظيم عالمي وراءه أموال كثيرة من أجل ضرب الأنموذج التّونسي وخصائص القوميّة التونسيّة ومكاسب دولة الاستقلال.. إنّهم يكرهوننا.. يكرهون حداثة بورقيبة.. يكرهون مجلّة الأحوال الشّخصيّة ومكاسب نسائنا.. أنسيت أنّهم أبناء حسن البنّا والسّيد قطب والمودودي ولا صلة تربطهم بخير الدّين والحدّاد والشّابّي وابن عاشور الأب والإبن.. لقد جاؤوا إلينا مثلما جاء الماويون والتروستكيون والنّاصريّون والبعثيّون قبلهم، خليطٌ من إخوان مصر ووهّابية ابن باز وحاكميّة الخميني..

- «ولكن بورقيبة نفسه أتى إلينا من الحداثة الفرنسيّة!؟».

«لاحظ أنك تقارن بين فكر يساير حركة التّاريخ وتجسّم في مؤسّسات، وبين فكر طوباويّ يحلم بالأمميّة أو الوحدة العربيّة أو الخلافة الإسلاميّة تجسّد خارج المجال الوطني في مؤسّسات متخلّفة مستبدّة تقهر الإنسان وتقتل كلّ إمكانيّة للالتحاق بالمدارات الكونيّة».

طفق عبد النّاصر يحلّل ظاهرة الإسلاميّين من زاوية نظره المادّيّة التّاريخيّة. اعتبرهم، كما كان يعتبرهم في الجامعة، نتاجًا لنمط الإنتاج شبه الإقطاعي شبه الرّأسمالي وعجز الدّولة الوطنيّة عن مقاومة الفقر ورضوخها لهيمنة رأس المال العالمي والدّوائر الإمبرياليّة.

رأى في الإسلاميّين تعبيرًا عن تفقير الأرياف وترييف المدن في العهد

البورقيبي. فالقوّة الاجتماعيّة التي يمثّلونها هي خليط من البورجوازيّة الصّغيرة في شقّها المحافظ إيديولوجيًّا والعاجزة اقتصاديًّا عن الارتقاء الاجتماعي إلى الشّريحة الأعلى من البوجوازيّة الصّغيرة، يُضاف إليها مُفقّرو الأرياف ومن نسيتهم التّنمية غير المتوازنة سواء في جهاتهم المحرومة أو في ما يحيط بالعاصمة من حزام تشكّل بسبب النّزوح في أوائل السّبعينات مع سياسة «الانفتاح الاقتصادي» والليبيراليّة المتوحّشة.

وأضاف عبد النّاصر إلى تحليله عاملاً سياسيًّا أراد به شقٌّ من حزب الدّستور ضرب اليسار التّونسي. فشجّع الإسلاميّين ورعاهم وسمح لهم بالعمل في المساجد وتكوين نوى لمجتمع موازٍ باسم الدّعوة إلى الدّين والأخلاق الحميدة. ذكر جمعيّات حفظ القرآن والمنظّمة الكشفيّة والدّروس الدّعويّة بالمساجد والخطب المنبريّة، إضافة إلى الجامعات والمبيتات الجامعيّة وداخل العائلات التي قسّموها إلى مؤمنين وكفّار ومتحجّبات وسافرات. حتى النّقابات التي عادوها وعادوا قياداتها في صراعها مع السّلطة خصوصًا في أحداث سنة 1978 عملوا على التّغلغل فيها وتخريبها من الدّاخل لتحويل وجهة الصّراع الاجتماعي.

اعتبر عبد النّاصر الإخوانجيّة بمثابة العفريت الذي كسر قمقما توهّم حزب الدّستور أنّه وضعه فيه. فقّست البيضة وكبر العفريت فبدأ بتكسير القمقم وارتدّ على صاحبه. لذلك فالصّراع الآن دائر في صفوف الرّجعيّة ولا مصلحة للجماهير الكادحة فيه.

بدا حماسه فيّاضا. كانت نظرات سي عبد الحميد بين الهدوء والحياد والإشفاق. تعليقه الوحيد أنّ عبد النّاصر لم يخرج بعد من عباءة المناضل الطّلّابي مستغربًا خطابًا مثل هذا من شخص ذكيّ دقيق الملاحظة ذي تحاليل تبرز اللّطائف والمفارقات. وضح له أنّه لا مفرّ من تعليمات الدّوائر الماليّة العالميّة رغم الضّريبة الاجتماعيّة المرتفعة. فعهد الدّولة

الرّاعية الحاضنة قد انتهى في العالم. اتّهم اليسار التّونسي بأنّه مازال يحلم بدولة دكتاتوريّة البروليتاريا والإطاحة بالنّظام مثله مثل الاتّجاه الإسلامي مع فرق في الألوان بين الأحمر والأسود والبنفسجيّ، وفي الشّعارات بين الطاغوت والإمبرياليّة، وفي الأهداف بين استبداد بيروقراطيّة قادة الحزب الثّوري واستبداد أشباه الفقهاء والمتستّرين بالدّين باسم الرّبّ وشريعته.

انتقل سي عبد الحميد ليذكّره بتحالف الأحزاب الشيوعيّة واليساريّة مع الأحزاب اللّيبيراليّة في مواجهة النّزعتين النّازية والفاشية. اعتبر أنّ المسألة في تونس تطرح على أساس الصّراع بين المتمسّكين بالمكاسب الحداثيّة التي جاءت بها دولة الاستقلال والخطر الإخواني الممزوج بتوابل وهّابيّة وشيعيّة إيرانيّة. استنتج أنّ التّقدّميّين في تونس ينبغي لهم أن يصطفوا مع حزب الزّعيم حامي الحداثة التّونسيّة رغم كلّ الاختلافات معه. أمّا المسألة الدّيمقراطيّة فهي آتية ولا ريب.

20

توقّف سي عبد الحميد كمن تذكّر شيئًا وخاطب عبد النّاصر:

– «بالمناسبة عليك أن تحذف من ملحق الخميس الفقرات التي ترجمتها من «طبائع الاستبداد» للكواكبي».

– «لكنّه ركن جديد لتعريف الفرنكوفونيّين بتاريخ التّنوير العربي..

– «أعرف. أعجبني عنوان الرّكن: «ذاكرة الحداثة العربيّة»».

– «إذن لمَ أحذفه؟!».

– «بسبب محتواه. فقد جاءني اليوم أبو السعود. ح وأعلمني بأنّك تجاوزت الخطوط الحمر وأنّ جريدة الحكومة أصبحت مثل صحف المعارضة. .

- «عجبا. الكلب!».

- «نعم. رأى أنّ النّصّ الذي اخترته توحي به إلى استبداد بورقيبة وانفراده بالسّلطة أو على الأقلّ يمكن أن يقرأ على هذا النّحو..

- «وهل أقنعك؟! فليمنعوا الكتاب.. إنّه تراث الحداثة الذي تدافع عنه الدّولة التّونسيّة ضدّ الإخوانجيّة... إنّه للتّحذير من استبدادهم لو قدّر لهم أن يتسلّموا الحكم».

- «لا تنفعل. كلٌّ يقوم بدوره. رأى أبو السّعود ذلك فليكن. مهمّته أن يلعب في خطّة حارس مرمى ليمنع مرور الكرات إلى شباكنا. لا معنى هنا للنّوايا أو للصّواب والخطإ».

- «إذن أخضعُ لغبائه وسوء نيّته وقراءته الخاطئة؟.».

- «أنا أيضًا أخضع له تجنّبًا لوجع الرّأس. هؤلاء كلاب لا يتورّعون عن أيّ شيء. يتوهّمون أنّهم يعرفون مصلحة الدّولة أكثر من بورقيبة والأمن السياسي نفسه. صدّقني لم يطلب مني أحد يومًا عدم الخوض في موضوع من المواضيع. أنا أعرف حدودي وكم من موضوع كنت أمرّره ولا يفطن له أحد. مذ جاء هذا الرّقيب الغبي أنزل سقف الممنوعات على هواه. إنّه يرتاب من كلّ شيء. يرى الثّورة في أيّ سطر والتّحريض والثّلب في كلّ كلمة. ماذا تريدني أن أفعل له. لقد أرسلته وزارة الإعلام بصفة رسميّة ليشتغل «مراقبًا عامًّا» للصّحيفة. خطّة لم أسمع بها من قبل. هو الذي يمضي الإذن بالسّحب مع سكرتير التّحرير».

توقّف سي عبد الحميد كأنّه ينتقي كلماته:

- «أتعرف من هو؟».

- «نعم. لي فكرة. كان سجينًا قديمًا بسبب نضاله الطّلّابي..

- «أحسنت. اليوم أصبح أخطر علينا من الدّستوريّين أنفسهم كأنّه

يريد أن يكفّر عن سنين معارضته للنّظام أو يسترضي أسياده أو ينتقم من صورته التي يراها لدى المحرّرين فيخصيهم بمقصّه بعد أن خصى نفسه».

- «ولكنّه مذ كان في الحركة الطّلّابيّة تفطّن إليه عدد من زملائه الذين لم يصدّقهم أحد. لقد شكّوا في أنّه بوليس. وحتى في السّجن يبدو أنّه كان يشي بهم وبمساعيهم في الإضراب عن الطّعام أو الاحتجاج على أوضاعهم السّجنيّة..

- «دعك من هذا. كلّكم مخترقون. الدّولة هي الدّولة. لقد ركّزت في كلّ واحد منّا شرطيًّا وواشيًا. بعضهم ظلّ نائمًا، وبعضهم يستفيق أحيانًا بحسب مصالحه والبعض الثّالث يجد ذلك حرفة. انظر حولك في الجريدة تراهم من كلّ لون ومذهب. لن نفهم شيئًا ما لم نفهم منطق الدّولة..

دخل الطلياني في جدال فلسفيّ عن الدّولة والسّلطة والثّورة فتنقّل بين هيغل وماركس والفوضويّين واتّخذ «الدّولة والثّورة» مرجعًا له في التّحليل الملموس للواقع الملموس. وكان سي عبد الحميد يضحك. لخص الحديث كلّه وما فيه من حماسة في كلمة:

- «اِيت بهم إلى تونس. سيجنون! ماذا سيجدون في شعب يرتعد من ظلّه، يصفّق لكلّ قادم، ينسجم معه مهما كان، يقبل القهر ويسهم فيه عن طواعيّة، يتلذّذ بالدّياثة والنّميمة والوشاية..

فهم عبد النّاصر أن سي عبد الحميد قد أطبق عليه السّكر. كان يعرف ذلك إذا أصبح متطرّفًا في أفكاره يعمّم ويسعى إلى البرهنة على تعميماته. كان يحتقر الشّعب ولا يؤمن إلّا بالنّخبة ولا يأسف إلّا على انحدار النّخب إلى مستوى الرّعاع في طريقة التّفكير والطّموح والأحلام الصّغيرة. وممّا كان يعجب عبد النّاصر في الرّئيس المدير العام أنّه لا يستثني نفسه من هذا النّقد القاسي حين تبدأ آلة عقله الكاسحة تزيل كلّ ما يوجد أمامها. لم يشأ أن يجادله استنادًا إلى قول سابق له:

- «الدّولة أكبر كذبة صنعتها البشريّة وصدّقتها. الدّولة هي أنا وأنت والسّكرتيرة التي تبذل لي في المكتب جسدها دون أن أطلب ذلك لأنّني أمثّل الدّولة في عينيها. معروف منذ القديم أنّ الدّولة أمارات وعلامات ولكنّها لا تلمس. أنّها إله خفيّ لم يحقّق أحد وجوده، لا يُرَى، لذلك يحبّونه ويكرهونه».

21

عاد عبد النّاصر يومها مثقل الرأس من الشّرب ومن النّقاش. كان منزعجًا ممّا قاله له سي عبد الحميد عن التّحقيق. أحسّ بالقهر ولكنّه فكّر في وضعه الجديد وفي ما سيفعله لو غادر الصّحيفة. لام نفسه على العودة إلى الكتابة في الشّأن الوطني مع وجود ذلك الخنزير وفي سياق لا يُطلب فيه من الإعلام إلّا أن يكون جهاز دعاية. قرّر أن يكتفيَ بملحقه الأسبوعي وبالصّفحات الثّقافيّة التي مازال فيها متنفّس للكتابة وإن كان الهوى يدفعه إلى السّياسة دفعًا.

وجد زينة نائمة ولكنّه حين استفاق تفطّن، على غير عادته، إلى ورقة ألصقتها على مرآة بيت الاستحمام تحيّيه فيها تحيّة الصّباح وتعلمه بأنّها ستسافر إلى قريتها لأنّ أمّها في وضعيّة صحيّة حرجة بين الحياة والموت. ذكرت له أنّها لا تعرف متى تعود.

تعكّر مزاج عبد النّاصر. لم يعرف ماذا يفعل. هل يذهب إلى القرية ليكون بجانب زينة؟ هل سيحرجها بذلك؟ كيف ستتصرّف في مثل تلك الظّروف؟ قد تحتاج إلى نقل أمّها إلى المستشفى؟ هل معها ما يكفي من المال؟ جالت في خاطره أفكار كثيرة ولكنّه استسلم بعد أن عرف أنّه لا يمكنه أن يفعل شيئًا في انتظار أن تطلب منه هي المساعدة التي تراها.

وصل إلى الجريدة في الحادية عشرة. كان يوظّب مادّة العدد الجديد ويستكمل تصوّر إخراجها وتنظيم المقالات وتوزيعها على الصّفحات الأربع. ناداه زميل له في قاعة التّحرير يعلمه بأنّ هناك من يطلبه في الهاتف. ظنّها زينة فإذا هي نجلاء. روت له أنّها اتصلت بزينة لتسأل عن أحوالها لدى صاحب دكّان الموادّ الغذائيّة في القرية. أعلمها بأنّ أمّها حملوها إلى المستشفى الجهوي وهي شبه مشلولة، في حالة غيبوبة، وأنّها تطلب من عبد النّاصر ألّا يقلق، فلها أقرباء في مدينة سليانة ولها ما يكفي من المال. وعدت بأن تتّصل بنجلاء على رقم البيت وتحيطها بكلّ جديد سواء وجدتها في البيت أو وجدت أمّها أو إحدى أخواتها.

لم تعاود نجلاء الاتّصال يومها. لم يشأ أن يطلبها. كان يومًا ثقيلاً بالنّسبة إليه رغم انشغاله بإعداد الملحق. أتمّ عمله مع عمّ حسن حوالي السّابعة والنّصف مساء إذ غيّر مقالتيْن في آخر لحظة إضافة إلى ترجمة نصّ لإسماعيل مظهر عن الدّاروينيّة تعويضا لترجمة المقتطف من كتاب «طبائع الاستبداد» الذي لم يرضَ عنه مقصّ أبو السّعود المسؤول عن تشخيص مصلحة النظام البورقيبي.

عاد إلى البيت مبكّرًا. كان قد اقتنى، من حانة قريبة من الجريدة، ما أمكن له من القوارير الخضر وضعها في الثّلّاجة لتبرد. اشترى بيتزا. وجلس يشاهد حوارًا سياسيًّا في القناة الثّانية الفرنسيّة.

لم يشعر بغياب زينة ولم يتذكّرها إلّا حين ذهب إلى المطبخ لفتح قارورة جديدة. كان غيابها واضحًا على طاولة المطبخ لولا حقيبتها المخصّصة للكتب والكرّاسات التي تستعملها للدّراسة والتّدريس.

لم يكن يخطر ببال عبد النّاصر أن يفتّش أدباش زينة. لم يعرف لِمَ عنّ له في تلك اللّيلة أن يقلّب ما في الحقيبة المتوسّطة الحجم. كتاب تدريس الفلسفة. تسطير في بعض الصّفحات. رسم لوجه يضحك أمام

بعض الفقرات. نقاط استفهام أمام جملة موضوعة بين معقوفيْن أو سطر عمودي في طرّة الكتاب اليمنى أو اليسرى. تعليقات قصيرة هنا وهناك بالفرنسيّة فهم أنّ بعضها ترجمة لمصطلحات وبعضها الآخر أقوال لفلاسفة وبعضها الثّالث نقد أو معارضة بفكرة أخرى أو اتّجاه فلسفيّ آخر. الباب الوحيد الذي كان خاليًا من ذلك هو باب التّحليل النّفسيّ والقسم المخصّص للفنّ. وأكثر التّعليقات في درس ماهيّة الفلسفة ونصوصه.

فتح حافظة أوراق من البلاستيك. جذاذات من ورق عاديّ أبيض مقطوع بالعرض. مطّات مشفوعة بجمل غير تامّة. نجيمات بعدها شواهد بالفرنسيّة. فقرات مؤطّرة تمثّل كلمات متتابعة تفصل بينها مطّات وأحيانًا ترد مرقّمة.

داخل تلك الجذاذات وجد ظرفًا عليه طابع بريديّ من فرنسا. تلمّسه. كان ثخينًا. سارع إلى فتحه. بطاقة بريديّة في شكل مطويّة كتب في وسطها:

- «عودة مدرسيّة موفّقة.

تهانيّ الخالصة بنجاحك في مذكّرة البحث في انتظار التّبريز.

نلتقي. قبلاتي.

إريك. ش».

عاد إلى الظّرف تثبّت من العنوان والمرسل إليه. كتب عليه بالفرنسيّة:

- «زينة. س

ص. ب. 142

مركز بريد باب منارة.

تونس، الجمهوريّة التّونسيّة».

على غلاف الظّرف حرفان لموضع المرسل: إ. ش بالأحرف التّاجية بالفرنسيّة. تأمّل غلاف البطاقة البريديّة من الجهتيْن. على وجه الغلاف صورة طريق وأفق يبدو بعيدًا. في الأفق وردة صغيرة حمراء تشدّ إليها النّظر كأنّها لحظة لمّا يتبيّن فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود تمامًا. وفي القفا أبيات شعريّة بخطّ غوطيّ ترجمتها:

- «لكلّ امرئٍ وردة تسكن مهجته

هي شمس نفسه المحتجبة

يبحث عنها حياتَه كلَّها،

ينتظر أشعّتها الدّافئة

إذا وجدها، وما أعسر أن يجدها،

عليه ألّا يتركها تذبل

تكفي لذلك،

كلمة «أحبّك».

ستفهمها الوردة بكلّ اللّغات

فيضوع عطرها في الأرجاء».

قفزت في ذهنه نجلاء مباشرة. نسي البطاقة وما فيها. نسي مرسلها ولم يهتمّ، في البداية، بأنّها موجّهة إلى زوجته قانونًا على الأقلّ وصاحبته التي تقاسمه الفراش واقعًا. أتكون نجلاء وردته الموعودة وشمسه الدّافئة؟ وماذا عن زينة؟

فهم كلّ شيء. هكذا تصوّر. عقلها متعلّق بإريك هذا. فيلسوفة كونيّة منفتحة على العالم وتريد أن تفتح فخذيها لرجل من الضّفّة الأخرى. من يكون؟ بم أجابته؟ هل تملك عنوانه؟ اعتبر المسألة تافهة. المهمّ أنّه عرف السّبب الذي يجعلها لا تقبل واقع زواجهما، أو أحد الأسباب على

الأقلّ. لِمَ لم تفاتحه في الأمر؟ لو كانت البطاقة بريئة إلى هذا الحدّ، بطاقة من صديق، لأخبرته. ولكن من هذا الصّديق الذي لا يعرفه؟ ألها الوقت لمثل هذه الصّداقات وهي التي تزعم أنّ طريقها واضحة لا تريد الحياد عنها، طريق البحث والوصول إلى الجامعة؟

قرر عبد النّاصر أن ينتظر ويشاهد. ستكشف له الأيّام الحقيقة. ما الذي يفعل بالحقيقة؟ ما يهمّه أنّه لم يعد أمامه أيّ إحساس محتمل بالذّنب. أصبح المجال مفتوحًا في انتظار أن يتوضح الأفق. لن يكون المخدوع الذي ينام على أذنيه. رأى بعينيه. ظنّت نبله في احترام خصوصيّاتها سذاجةً وغفلةً كأنّها لا تعرف عبد النّاصر الذي واجه الإسلاميّين في الجامعة وناور ولعب بالمكشوف، عبد النّاصر الذي كان يمنع نفسه من الغدر بالصّبايا من الرّفيقات اللّاتي تتهافتن عليه وتقدّمن أنفسهنّ قربانًا على مذبح وسامته وشهوته ولكنّه كان يتعفّف.

لا تعرف أنّ الطلياني اختار زينة في لحظة امتزجت فيها شهوتهما بالتضحية وبذل النفس أمام هراوات الأمن. كانت عنده لحظة نقاء ثوريّ وصفاء روحيّ امتزجت فيها روحاهما، أو هكذا خيّل إليه. نسِيت هذا كلّه. نسيته هو. ولو لم ينقذ نفسه بإتمام شهادته الجامعيّة وبالدّخول إلى الصّحافة لتركته فريسة للجوع ولهجرته بحثًا عن مصلحتها.

انتهت زينة؟ لم يكن عبد النّاصر، وهو في معمعان حديثه إلى نفسه، متأكّدًا من ذلك. ليترك لها فرصة أخرى في انتظار تحقيق طموحها. ولكن هل يرتوي العطشان مثلها؟ هل يشبع من يأكل من مائدة الطّموح طالبا ما وراء العرش؟

مسالك مُوحشة

1

لم يتحدّث عمّا اكتشفه من أمر زينة لنجلاء حين التقاها مساء الخميس. جلسَا في «الأنترناسيول»، أخذها إلى حانة النّزل في الدّاخل. حدّثته عن الجلطة الدّماغيّة التي أصيبت بها أمّ زينة. الآن تقبع في جناح العناية المركّزة. حالتها سيّئة حسب الأطبّاء ولم تتمكّن زينة من رؤيتها إلّا من وراء البلّور. أعلمته أنّ زينة قد اتصلت به في الجريدة ولكنّها لم تتمكّن من الحديث إليه.

عمل عبد النّاصر على تجاوز الحكاية بسرعة. كان هذا ردّ فعله وسلوكه كلّما أزعجه أمرٌ. لم يكن يحبّ المرض والحديث عن الأمراض. لم تكن نجلاء تعلم بذلك فاستسلمت لغزله بها وللمساته في ذاك الرّكن من الحانة. نسيت رائحة السّجائر التي تقلقها وتبعث فيها نوبات من السّعال. كانت منشرحة باسمة كعادتها تلاعبه بعينيها وتستلذّ حديثه. تترك يديه تسرحان حيث شاء غير آبهة بمن في الحانة. طلب منها عبد النّاصر أن تقضي اللّيلة في داره. فالتمست منه إرجاء ذلك إلى يوم الجمعة بما أنّها لا تدرّس يوم السّبت. عليها أن تعدّ كذبة قابلة للتّصديق لأمّها بالخصوص، فحتى زينة ليست في تونس وهو ما يصعّب عليها الأمر. قال لها في لهفة:

– «أريدك اليوم وغدًا وبعد غدٍ..

نقرت أنفه بسبّابة يدها اليمنى وخاطبته بنغمة محبّبة:

- «كفّ عن دلال الأطفال.. قلت لك ليلة غد.. أتثبّت مع زينة قبل المجيء إلى بيتك.. فما رأيك لو عادت غدًا؟».

- «لذلك ينبغي أن يكون اليوم..

- «غدًا عندي عمل في الثّامنة صباحاً. إذا كان الله يحبّنا لن تعود زينة غدًا».

قبل عبد النّاصر رفضها، على مضض، وإن كان في حالة اهتياج شديد ولكن لا حيلة له.

ذهب إلى الجريدة بعد أن تركته نجلاء. أصلح بسرعة افتتاحيّة كتبها سي عبد الحميد بنفسه وأرسلها منذ الصباح الباكر على غير العادة. فقد كان سيسافر لأربع وعشرين ساعة مع وزير الماليّة.

2

عاد عبد الناصر إلى الأنترناسيونال ليشرب قهوة مع صحفيّ شابّ كلّفه سي عبد الحميد بتدريبه على الصّحافة الثّقافيّة. سيتجوّل في الأقسام كلّها قبل أن يحدّد له القسم الذي يستقرّ فيه. كلّفه، بمناسبة صلاة الجمعة، بالتّجوّل في المدينة لينجز تحقيقًا عن الكتب الدّينيّة التي تباع على الأرصفة أمام الجوامع. يبحث في عناوينها وكتّابها ويتصفّح محتوياتها ليحدّد مواضيعها ويصنّفها ويسأل بائعيها عن أسعارها ومصدرها وأثمانها ومن يشتريها وهل تدرّ عليهم الأرباح الكافية وهل يحتاجون إلى بيع البخور والنّدّ والعطور الطّبيعيّة والسّبحات والسجّادات مع الكتب، وما العلاقة بين هذه البضائع كلّها؟

ظلّ الشّابّ مندهشًا من انثيال الأسئلة من فم عبد النّاصر. عبّر عن إعجابه بالموضوع وسأله عن كيفيّة اختيار مواضيعه مستقبلاً خصوصًا أنّه يرى هؤلاء الباعة أمام الجوامع ولكن لم يخطر بباله قطّ أنّ هذه الظاهرة

التي انتشرت منذ مدّة تصلح لأن تكون موضوع تحقيق ثقافيّ. قال له:

- «المواضيع ملقاة في الطريق. علينا فقط أن نستعيد قدرتنا على الدّهشة والتّساؤل. عدوّ الصّحفي هو التّآلف مع غير العادي واحتقار الأشياء البسيطة. أعمق الأفكار هي أبسطها ولكن علينا قبل ذلك أن نراها».

أتمّا شرب القهوتين. دفع الطلياني الحساب. ثمّ التفت إليه قائلاً:

- «أنا الآن ذاهب إلى السّوق المركزيّة. تعال معي، تلفّت حولك وابحث عن مواضيع ثقافيّة غير مطروقة من قبل. عليك أن تستكشفها بنفسك».

ضحك الشّابّ قال له إنّه لا يتصوّر الثقافة مع أكداس الخضر واللحوم والأسماك ولكن سيصحبه.

دخل عبد النّاصر سوق السّمك. اشترى قاروصتين كبيرتين وشيئًا من غلال البحر. تركهما للتّنظيف في محلّ صغير على يمين المدخل الرّئيسي. توغّل في السّوق الثّانية. تجول مع الشّابّ ثمّ اشترى سمك «الرّنكة» المجفّف. وقف أمام بائع المملّحات انتقى أصنافًا من الزّيتون بأفاويح متنوّعة، «هريسة عربي»، جبن «الريقوطة»، أجبانًا إيطاليّة. طلب منه التّثبّت ممّا يباع. توقّف عند بعض الجزّارين. اشترى من هذا صلامي بقري بالفستق ومن ذاك «كاربتشيو».

خرجا من ممرّ الجزّارين والمملّحات. عادا إلى محلّ تنظيف السّمك ثمّ تركا وراءهما سوق الخضر والغلال. سأله عمّا يمكن أن يكون موضوعًا ثقافيًّا في هذه السّوق.

بدا عماد الدّين الصحفيّ الشابّ حائرًا لا يعرف ما به يجيب. طلب منه عبد النّاصر أن يفكّر مليًّا ويجيبه حين تبين له المسألة أو المسائل. أصرّ الشابّ، في لهفة، على معرفة الأمر. بدا عبد النّاصر مزهوًّا بحسّه الثّقافيّ

الرّفيع. اكتفي بموضوعيْن اثنين على وجه التمثيل. دعاه إلى أن يسأل سؤالاً بسيطًا حول تاريخ هذه السّوق ومتى بنيت ولماذا وعلى أيّ طراز ولم وزّعت أركانها بذاك الشّكل وهل أدخلت عليه تحويرات.. إلخ. فمثل هذا التّحقيق التّاريخي مهمّ في معرفة تاريخ العمارة في المدينة الحديثة وتخطيط مدينة تونس كلّها.

أمّا الموضوع الثّاني فهو ما يميّز هذه السّوق من الموادّ التي لا توجد في جلّ الأسواق العاديّة ولأيّ أصناف الطّبخ تصلح؟. فالمطبخ التّونسي خليط من الأطعمة والمآكل البربريّة والأندلسيّة واليهوديّة والتركيّة والإيطاليّة وربّما غيرها ممّا لا نعرفه. ذكر له «الرنكة» التي اشتراها. سأله إن كان يعرف في أيّ الأطعمة توضع وما أصلها وإلى أيّ تقليد من تقاليد الطّعام تعود. أكّد له أن مائدتنا التّونسيّة فسيفساء متناسقة من المآكل المتوسّطيّة. هي صورة من ثقافات تمازجت لأنّ بلادنا حين نتثبّت تقع في قلب المتوسّط جزؤها في الضّفّة الشّماليّة التي لا تبعد عنّا بأكثر من تحليق طائر أو جولة سرب حمام وجزؤها الثّاني في الجنوب حيث تهبّ رياح السّموم من إفريقيا وريح الغرب وريح الشّرق.

اشترى عبد النّاصر بقيّة اللّوازم من مغازة «توتة» بباردو. أخذ له، في البيت، ساعة للرّاحة. ثمّ دخل المطبخ. كان كأيّة امرأة حرّة صَناع: أعدّ عجّة بالرّنكة. صبّها في قوالب من عجين مورّق لها شكل قوارب ودوائر، أعدّ بالقلقال قالبًا من العجين لطاجين خلطتُه من «الريقوطة» والتّنّ والجبن الإيطالي سهل الذّوبان وأوراق البقدونس والبيض. قطّع سلطة تونسيّة أضاف إليها بعض الخسّ وزيّنها بقطع من اللّيمون المملّح والزّيتون المقصوص ثمّ رشّ عليها نعناعًا مجفّفًا مسحوقًا، أعدّ صلصة بالرّند والإكليل وكثير من الثّوم، حمّر غلال البحر في المقلاة مخلوطة بالبصل والفلفل والزّعتر، أعدّ للسّمكتين الزّيت المخلوط بالثّوم

والكمّون. دهنهما به وتركهما في الثّلّاجة في صحفة من البلّور غطّاها بغلاف شفّاف.

كان كلّ شيء جاهزًا في انتظار الملكة!

3

أحسّ عبد النّاصر بأوجاع في رأسه. شرب حبّة «دوليبران»، استرخى على أريكة قاعة الجلوس. وضع يديه على صدغيه وبدأ يحرّكهما. شعر بدوار خفيف. نهض. اتّجه إلى الحمّام. غسل وجهه. فرك شعره. تأمّل وجهه في المرآة. بدت عيناه حمراوين وبدا وجهه ذابلاً، مصفرًّا. أحسّ أنّه غريب عن نفسه. أخذ يتحدّث إلى عبد النّاصر في المرآة:

- «ما بك؟ ما الذي أصابك؟ اِستفق. هذا يومٌ رائع. ستأتي نجلاء بعد قليل. أحسن استقبالها. لا تترك قواك تخور. أنت في حاجة اللّيلة إلى طاقتك كلّها. ليلة فرح لا ليلة كساد وانزعاج. لا تنكّد هذا اللّقاء».

لم تنفع نصائحه. كانت ساعته تشير إلى الثّامنة إلّا الرّبع. تأخّرت نجلاء. بدأت تساوره هواجس غريبة عنها وعن نفسه. أمّا هواجسه عن نفسه فظلّت تصاحبه إلى ساعة متأخّرة من وصول نجلاء إلى البيت بعد حواليْ نصف ساعة.

بدا منفعلاً بعض الانفعال وهو يسألها عن سبب تأخّرها ويعلمها بحيرته وقلقه عليها. كانت تبتسم وهي تقول:

- «أيّهما أفضل اللّوم أم القبل؟».

اعتذر لها عن خرقه وقلّة ذوقه. برّر ذلك بتعكّر مزاجه والضّيق الذي يشعر به. ردّت على تفسيره في تخابثٍ:

- «لا تخف، لا تنزعج جميع العشّاق هكذا في اللّقاءات التي يعوّلون عليها كثيرًا».

- «نجلاء، كفى سخرية، أحدّثك جادًّا».

- «إذن أنت منزعج لأنّك ستخون زوجتك مع صديقتها لأوّل مرّة في داركم..

ضحكت ثمّ أمسكت عبد النّاصر وألصقته إلى الحائط في حركة سريعة رشيقة وقد وضعت يديه الاثنتين على الحائط فوق رأسه وقبّلته بحرارة. شعر بانشراح كأنّه لم يكن متعكّر المزاج. قال لها بعفويّة:

- «ماذا فعلت!».

- «نفخت فيك من روحي وامتصصت مزاجك المتعكّر».

أمسك بها. أعاد بالضّبط ما فعلت له. كانت القبلة أطول وأعمق. كادت تقطع أنفاسيهما.

أراد أن يذهب إلى المطبخ ليحضر الطّعام فطلبت منه الانتظار. فتحت حقيبتها الرّياضيّة الواسعة. قدّمت له هديّة في شكل مستطيل. التمست منه أن يفتحها. كانت ساعة يد رجاليّة في شكل سوار. أحكمت غلقها في معصم عبد النّاصر قائلة:

- «من الآن ستعدّل ساعتك عليّ».

وقف في حالة استعداد كجنديّ أمام العقيد:

- «حاضر سيّدة روحي».

قبّلها وهو يُجلسها على الأريكة. غرقا في عسل الرّضاب استعدادًا للعشاء.

وضع السّمكتين في المقلاة. شرع ينقل الطّعام الذي سخنه تباعًا من المطبخ إلى طاولة قاعة الجلوس. كانت نجلاء قد دخلت الحمّام. غيّرت ملابسها هناك. عادت تنتظره على الأريكة. سألته إن كان يحتاج إلى أن تمدّ له يد المساعدة لإعداد الطّاولة. أعلمها بأنّ كلّ شيء جاهز

وأنّ الملكة، ملكة روحه، مخدومة دائمًا وسيأتي دورها في ما بعد عند المأدبة الكبرى.

4

انبهر عبد النّاصر بما رآه. كانت تلبس قميص نوم يكشف ركبتيها وجزءًا من فخذيها. قميص نوم من السّاتان بدون أكمام مقوّر الصّدر والظّهر. أطرافه العليا والسّفلى موشّاة بالدّانتيلا وفي موضع أعلى الصّدر فتحة في شكل نصفِ معيّنٍ موجّه إلى الأسفل يكشف عمّا بين النّهديْن. حصّارة الثّديين كانت بيضاء بدون حمّالتين على الكتفين، تضغط على النّهدين فتقرّبهما وتبرزهما أكثر. تحت قميص النّوم «سترينغ» خيوطه بيضاء مشبّكة ومطرّزة.

كان ينظر إليها متأمّلاً هذه الأنوثة الفيّاضة في شبه عريها. رآها بعين أخرى غير التي رآها بها في النّزل بالحمّامات آخر مرّة. زاد ألقها وزادت إبهاجًا. حتى جسدها البضّ كأنّه يراه لأوّل مرّة. لم يُخفِ إعجابه. سألها عمّا لاحظه. فأجابته بأنّ المرأة الحقيقيّة ينبغي أن تكون دائمًا في مظهر كأنّها لم تُرَ من قبل. نسي الطّعام وأراد أن يأكل من مأدبتها. ردّت عليه بأنّ اللّيل أمامهما طويل وهي تضع وجهها قبالة وجهه ممسكة بخدّيْه راسمة قبلة على شفتيْه.

انبهرت نجلاء بالمأدبة التي أعدّها لها. كانت تسأل عن الرّوائح المختلفة. ذاقت ممّا أمامها مستحسنة طيب ما أعدّ الطلياني. توقّفت عند عجّة «الرّنكة» في قوالب العجين المورّق. لم تستسغها. وجدتها قويّة الرّائحة والطعم. ألحّ عليها في أكلها وتلذّذها. امتنعت.

أخذ يحدّثها عنها سمكة من بحر الشّمال يتفننون هناك في طبخها وهي تجفف أيضًا وتصل إلينا من هناك مملّحة. حدّثها عن أخيه صلاح الدّين

الذي كان يحبّ العجّة بـ«الرّنكة» ولم يجد أطيب ولا ألذّ من «الرّنكة» التي تباع في تونس رغم أنّها مستوردة من بحر الشّمال. روى الطلياني الأسطورة التي لا يذكر أين قرأها.

تقول الخرافة إنّ «الرّنكة» من الأسماك الضّخمة جدًّا في أصلها. كانت ترعى من عشب بحر الشّمال مع الفِيَلَة والأكباش البحريّة. غير أنّها حين يكتمل البدر تكون بيضاء ناصعة البياض وفي غير ذلك الوقت تصبح سوداء قاتمة السّواد حتى أنّها لا تُرى في ظلمات بحر الشّمال. ولكنْ في اللّحظة الفاصلة بين اكتمال البدر وبداية تقلّصه، إذا اصطاد المرء واحدة من سمك «الرّنكة»، وجد في رأسها من الجانب الأيسر حجرة صغيرة في حجم حبّة الملح تسمّى «كلوبياس» وهناك من يسمّيها «سكولوبيدان» تمنح الرّجل إذا امتصّها طاقة جنسيّة لا تزول أبدًا حتى وهو شيخ وتمنع كذلك جسد المرأة من أن يتبدّل ويشيخ فتظلّ على الهيئة نفسها لحظة امتصاص حجرة «الرّنكة»، وقد تجعل جسمها صافيًا من الأمراض والعلل جميعًا. ولكن إذا اكتمل نموّ السّمكة دون أن يصطادها أحدٌ فسدَت من تلقاء نفسها وهلكت بأشواكها وحسكتها.

كان يتحدّث بحماس عن هذه السمكة. وكانت تنظر إليه متعجّبة. ثمّ قال لها:

«لا أدري لِمَ تعجبني أسطورة سمكة «الرّنكة».. أجدها تشبه الإنسان، إمّا أن يمنح الآخر الطّاقة والحياة وإمّا أن يهلك من الدّاخل..

- «إذن كن رنكتي وامنحني شبابي قبل أن يتآكل من الدّاخل.. ومن الخارج أيضًا».

كان الطلياني متأكّدا، بحدسه، أنّها ليلة اكتمال البدر. فكلّ هذا الألق والبهاء لا يمكن أن يكون صدفة. غرق في بحار نجلاء كلّها حيث هاجرت «الرّنكة» ووجدت ماء دافئًا منعشًا فباضت وفرّخت وعشّشت

لتمنح نجلاء ماء الحياة حتى تصفوَ روحُها الحلوة وتزكوَ انتعاشة جسدها الرّياضي المنحوت نحتًا.

5

كانت ليلة ليلاء بين مأدبة الطلياني مختلفة الألوان طيّبة الطّعوم، ومأدبة نجلاء التي باحت بأسرار جديدة اكتشفها وتلذّذ بها. لقد كانت سخيّة لم تبخل بما أمكن لها أن تجود به على هذا الطّلياني الذي تعلّمت منه التّآلف مع رائحة «الرّنكة» القويّة وطعمها اللّاذع المحبّب.

كانت تشعر أنّها فرس أصيلة وجدت راكبَها الذي تطمئنّ إليه. فرشاقة الفارس لا جدال فيها كأن كان يتدرّب عليها يوميًّا. فسرعان ما عرف كيف يتحكّم في فرسه حين تجمح أو يدعوها الصّهيل إلى أن تسرع فيلجمها واثقًا دون أن يوقف حميّتها أو يكبح جماحها بل يسايرها إلى أن يترجّل بها حتى يبلغ سدرة منتهى المتعة.

وجدته فارسا رشيقا نبيها يجمع حضور الذّهن وتوقّده إلى قوّة الجسد ومرونة العضلات وإتقان ألاعيب اليدين والرّجلين، وتنويع الوضعيّات اعتلاء واستفالاً كانت الفرس تراه كالمأخوذ بها.. كطائر تحمله الرّيح إلى حيث تشاء فيغمض عينيه منجذبا انجذابا سحريًا إلى أسفل سافلين كأنّه سيسقط مغشيًّا عليه أو منخطفا انخطافا إلى أعلى علّيّين كأنّه أيَّل يطير أو بُراق يخترق السّماء. ولكنّه، في اللّحظة المناسبة، لحظة السّقوط أو الاختفاء وراء السّحاب يصحو مرّة واحدة ليعود فيمسك زمام المبادرة ويصرّف نجلاء على هواه بلباقة وحزم.

كان يعرف كيف يرخي لها العنان فتهدأ وترتخي فتنساب كسيل من أعلى جبل ثمّ يكبحها عند بلوغ المرام فتنقاد إليه وهو يعالجها بحركات ساقيْه وفخذيه وبطنه وصدره، حركات مرنة ليّنة. يدور الذّراعان على

الظّهر والصّدر متناوبين. يستدير الجذع إلى الأمام أو الخلف. ينحني يمينًا إلى أن يلامس كلّ تفاصيل الجزء الأيسر من فرسه ثمّ يسارًا. تلتقي الخاصرتان. يتقلّب الرّاكب والفرس حتى لا تمييز بينهما. وتعود المداعبات على الوجه والشّفتين والأذنين والصّدغين والشّعر.

انتزع قميص الساتان بتؤدة بادئًا من أسفل الرّقبة، شدّ الرّباط شدًّا خفيفًا رقيقًا، نزل إلى سرج الصّدر ليرفع النّهدين بكلتا يديه. أمسك عرف الفرس، عقصتها وشعرها الرَّسْل، من خلف. فتح رباط السّرج وتعلّق بالظّهر مندفعًا واضعًا اليدين على البطن يمرّرهما من السّرّة إلى الرّقبة متّخذًا يديه رَحًى.

يحرّك أحدهما العنان قليلاً. يجذبه. اهتزاز مثير. ضغط يشتدّ شيئًا فشيئًا. شدّ وإرخاء. توقيعات بالمهماز على الجسد المتحفّز المنشدّ المتوتّر. حنين كحنين الإبل فصهيل من الفرس. تنفّسٌ موزونٌ فصياحُ الفارس من أثرِ السباق. كان ظهرها عزًّا وبطنها كنزًا. خير عميم في الفرس. أمّا الفارس فكانت الخيل والليل والبيداء تعرفه.

كانت في مرحٍ تامٍّ. ظهر مرحها في حمحمتها ثمّ وهوهتها إلى أن استحال الصّهيل جلجلة تركها بعدها لا متعبةً ولا مستزيدةً.

اتّكأ بجانبها. تذكّر تدفّقها. لم ير فرسا في حياته أقوى ولا أرشق. كانت فرسا أصيلة ملأت قلبه بهجة وجسده انتشاء لم يفارقه لوقت طويل في تلك اللّيلة.

وضعت رأسها على صدره. كانت تتذكّر طريقته في إرخاء العنان وجذبه، مرونة وليونة وحزم. استحضرت انخطافه وصحوه وحركته حولها وعليها كالخذروف. لكم أحبّت رشاقة يديه ولباقته ورفقه. كم أحبّت نخزه واختياله. كانت تسبح في مطلق الانطلاق والانعتاق من قيود الجسد.

غفت بجانبه مسترخية. ظلّ مُغمضًا عينيه. استفاق وقد ظهرت له زينة بوجه باك. لم يفهم أهو إحساس بالنّدم أم إشفاق عليها في محنتها مع أمّها؟ في الحالتيْن ما الّذي أحضرها لتنكّد عليه سهرته؟ داوى المشهد بحديث إلى نفسه: «إن هو إلّا صداق كما تحبّ أن تقول. فلتترك الأخريات يرحمنني مادامت عاجزة عن الرّحمة أو غير راغبة فيها».

التفت إلى نجلاء. كانت نائمة وعلى وجهها سحر الملائكة. فتنة تنضح من عُريها. احتملها برفق بين يديه ليضعها على الفراش في غرفة النّوم. استفاقت متكاسلة. ابتسمت له. وضعت يديها على عنقه ودفنت رأسها في صدره.

6

عاد إلى قاعة الجلوس. جمع أواني الطّعام وبقاياه. رتّب القاعة وغسل المواعين كلّها. كانت السّاعة تشير إلى الواحدة والنّصف. أحسّ بتكدّر وانزعاج كانا على قدر انتشائه ومتعته. أحسّ برأسه يثقل. لم يفهم ما الذي أصابه. فهو لم يشرب ليلتها إلّا قليلاً. لم يجد الوقت للشّرب من غير ماء نجلاء المنساب أمامه جدولا رقراقا.

رغب في الخروج إلى الشّارع ليستنشق الهواء. تذكّر أنّه لا يجوز ترك نجلاء في البيت وحدها. ماذا لو استفاقت ولم تجده؟ حاول أن يستدرج النّوم. هدّأ أعصابه. أخذ يعدّ بأصابعه وهو مغمض العينين. أطفأ الأباجورة فربّما كان الضّوء المنبعث منها، على خفوته، سببًا في هروب النّوم. بلغ في العدّ المائة أكثر من مرّة. كان في العادة ينام بعد المائة الثّانية. يسبّح مستعملاً إبهام يده اليمنى الذي يضعه على الأصابع الأربعة المتبقّية بالتّناوب. أحسّ باختناق. تنفّس. وقّع تنفسه. تقلّب في الفراش. أخذ كتابًا. قرأ بضعة صفحات. لم يفهم منها شيئًا. كان ذهنه مشتّتًا يسير في اتّجاهات كثيرة. استعاد صورًا من الجامعة وهو يخطب أو يناقش أو

يواجه قوّات الأمن في المظاهرات. عادت زينة مرّة أخرى تطلّ بوجهها الحزين. كانت قلقة، متوتّرة تبعث على الشّفقة. رأى «للّا جنينة» أمامه في بيتها تقدّم له العسل مخلوطًا بالجلجلان وحبّات الرّمّان في ملعقة كبيرة. ما الّذي عاد بها هي الأخرى؟ رأى وجه خالته وأمّه وجويدة. جلساته مع رفاقه في بيتهم، في غرفته بالطّابق العلوي. انتقل إلى بيت نجم الدّين. وجد نفسه مع نبيل وجعفر ورضا. أطلّت عليه زينة في المشهد أمام مركز القرجاني وهما نازلان من شاحنة الأمن. وقف أمامه سي عثمان قدّام المطعم وهو مع سي عبد الحميد. أنجيليكا في ليلة عيد ميلادها. الشّيخ علّالة الدّرويش في ميضاة المسجد ثمّ في بيت «للّا جنينة» عندما سقطت الكرة في وسط الدّار. أبو السّعود الرّقيب الغبي الذي يعرف مصلحة الدّولة. سمك «الرّنكة» في السّوق المركزيّة. يوم كتابة صداقه الذي حضرته يسر شاهدة عليه.

تدافعت الصّور. ما الذي وقع؟ «هل أستعيد شريط حياتي لأودّع ليلتي الأخيرة؟» تساءل عبد النّاصر وقد تملّكه الرّعب. تذكّر قصيدة لناظم حكمت عن الشّطآن التي لم يرتدها والحانات القذرة التي لم يزرها وأجود أنواع الخمور التي لم يذقها ولا ذاق أردأها أيضا. ما الذي عاشه ولمّا يبلغ الثّلاثين؟

ثمّة خلل مّا. في مكان مّا. ثمّة أمرٌ غامض. هل بدأت سمكة «الرّنكة» تتحلّل وتفسد فتهلك بأشواكها وحسكتها؟ ليكن! فهذه اللّيلة رأى البدر يملأ السّماء.. سيشهد حتمًا أنّه عاش مع نجلاء خلاصة ما انقضى وما سيأتي. سيرحل، إن كانت ساعة الرحيل قد أزفت، بعد لحظة.. بعد ساعة.. بعد ساعات.. سيرحل سعيدًا. سيكتبون على قبره بالحبر السّري أنّه عاش فعلاً. سيضعون على شاهدة القبر مات يوم ولادته في أحضان نجلاء، في اللّيلة الفاصلة بين السادس والسّابع من نوفمبر 1987.

لم يمت عبد النّاصر يومها لكنّه لم ينم إلّا ساعة أوساعتين رغم شدّة

الإرهاق والسّهر. بيد أنّ ما انثالَ عليه من صور مخزنة في ذاكرته وما انتابه من هواجس جعلاه، مع تعكّر المزاج، بين نوم ويقظة. ليلة من القلق والضّيق والشّعور بالاختناق.

7

لم يجد عبد النّاصر تفسيرًا لحالته تلك. ولكنّه كان يحبّ أن يربط ذلك بحدسه الذي لا يخطئ. فقد اعتبر حالته صورة من حالة البلاد ليلتها. كان الوزير الأوّل، وزير الداخليّة زين العابدين بن عليّ، يضع آخر اللّمسات لانقلابه على بورقيبة، كان يلمّع حذاءه العسكريّ ليطأ قصر الزعيم. كان مخاضًا صعبًا عاشه في جسده وذهنه. روى ذلك لسي عبد الحميد وهو يضحك.

لم يهدأ عبد النّاصر إلّا حين فتح الرّاديو بعيد السّادسة والنّصف. كان في حالة صفاء رغم قلّة النّوم. كاد فنجان القهوة يسقط من يده وهو يستمع إلى الصوت النّحاسي يقرع السّمع كموسيقى عسكريّة.

– «أيّها المواطنون، أيّتها المواطنات،

إنّ التضحيات الجسام التي أقدم عليها الزعيم الحبيب بورقيبة... لذلك أحببناه وقدّرناه وعملنا السنين الطوال تحت إمرته.. لكنّ الواجب الوطني يفرض علينا.. أنّه أصبح عاجزا.. نتولّى بعون اللّه وتوفيقه رئاسة الجمهوريّة...

فلا مكان للحقد والبغضاء والكراهية.. إنّ شعبنا بلغ من الوعي والنضج ما يسمح لكلّ أبنائه... يوفّر أسباب الديمقراطيّة المسؤولة على أساس سيادة الشعب فلا مجال في عصرنا إلى رئاسة مدى الحياة ولا لخلافة آليّة... شعبنا جدير بحياة سياسيّة متطوّرة.. لا مجال للظلم والقهر.. لا مكان للفوضى والتسيّب ولا سبيل لاستغلال النفوذ..

إنّه عهد جديد نفتحه معا على بركة اللّه بجدّ وعزم.. لتحيا تونس.. لتحيا الجمهوريّة

وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون».

لم يصدّق الأمر. بدأت تساؤلاته عمّا وقع. أراد الخروج إلى الشارع ليتطلّع إلى دبّابات الجيش والأمن المنتشرة ولا شكّ في كلّ مكان. أيقظ نجلاء التي انقلب وجهها من ملاك هادئ إلى ملاك منزعج. لم يكن يقصد طبعًا أن يوقظها بفظاظة. نسيت فظاظته جرّاء هول المفاجأة. ركضت معه إلى المطبخ في انتظار إعادة قراءة البيان. ذهلت. لم تعلّق بشيء. الكلمة الوحيدة التي قالتها في أسف بادٍ:

- «مسكين بورقيبة».

كانت السّاعة حوالي السّابعة إلّا خمس دقائق. أعلمها أنّه سيذهب إلى الجريدة. ترجّته ألّا يفعل فالأمور غير واضحة، والجيش في كلّ مكان. قالت له:

- «انقلاب.. ألا تفهم».

- «لكنّني صحفي.. يهمّني أن أعرف ماذا يجري. لا تخافي سأوصلك إلى داركم ثمّ أذهب».

- «الآن؟! مستحيل».

- «دعيني أر ماذا يوجد في الخارج ثمّ نقرّر».

أطلّ عبد النّاصر. لم يكن النّهج فارغًا. وجوه حذرة. أكثر المارّة صامتون أو يتهامسون. في شارع بورقيبة بباردو. اتجه نحو مجلس الأمّة. لا وجود لأيّة أمارة على انقلاب. لا حضور أمنيّ ولا دبّابات ولا جنود. نقل إليها البشرى. لم تصدّقه. لبست ملابسها على عجل. وضعت أدباشها في الحقيبة الرّياضيّة. كانا يحثّان الخطى. ودّعها في مدخل النّهج الذي تقطن فيه ليلتحق بالجريدة. طلبت منه أن يكلّمها.

8

حين وصل إلى المكتب وجد سي عبد الحميد قد سبقه إلى الجريدة هو وسكرتير التّحرير وبعض الإداريّين. كان الجميع في حالة صمت يتطلّعون إلى الأخبار التي قد ترد من وكالة تونس إفريقيا للأنباء. الإذاعة مفتوحة وصوت صالح جغام في البرنامج الصّباحي يمرّر الأغاني الوطنيّة ويبشّر بعهد جديد. صوت نعمة يصدح بأغنية: «تعدّى الزّين، الزّين تعدّى، راجع من السّهريّة، تعدّى».

رأى سي عبد الحميد متوتّرًا يقضم أظافره كطفل حائر. كان سكرتير التّحرير ينظر خاسئًا يخفي جريدة يوم السّبت وصورة المجاهد الأكبر في الصّفحة الأولى مع افتتاحيّة الرّئيس المدير العام، رئيس التّحرير. إحساس بالخزي والعار.

اقترب عبد النّاصر من سي عبد الحميد. قال له:

– «لا فائدة من الانتظار. المسألة واضحة. انقلاب عسكريّ بشهادة طبّيّة. أنا متأكّد أنّ الجميع سيفرحون. غمّة انجلت عن القلوب..

قاطعه سي عبد الحميد:

– «كفى.. دعني الآن».

طلب من سكرتير التّحرير مغادرة المكتب. أسرع إلى الباب منصاعًا إلى الأمر فتبعه عبد النّاصر. ناداه سي عبد الحميد وهو متّجه إلى الباب. حين أصبحا وحدهما نهض من كرسيّه. أغلق الباب. واقترب من عبد النّاصر:

– «لم أشأ الحديث أمامه. كيف ترى الأمر؟».

– «المسألة واضحة. أراه انقلابًا ناجحًا. لا تنس أنّ بن علي رجل عسكريّ وعنصر مخابرات قديم لا يترك ثغرات وراءه».

- «معناه ما كان يخشاه بورقيبة طيلة حياته قد وقع؟ عيّنه للقضاء على الإخوانجيّة فقضى عليه؟».

- «منذ أيّام كنت تحدّثني عن التّغيير من الدّاخل، من داخل جهاز الدّولة. لقد انتهى بورقيبة منذ مدّة طويلة ولم يعد رجل المرحلة. سترى. الجميع سيرحّب به. قلت لي إنّ شعب تونس يميل مع النّعماء حيث تميل.. شعاره اللّه ينصر من أصبح على الكرسيّ».

لم يجب سي عبد الحميد. واصل عبد النّاصر:

- «شخصيًّا لا أحبّ هذا الرّجل الذي قمع المتظاهرين وقتل النّاس. قلت لك ذلك منذ أن عُيّن وزيرًا أوّل. لي عداء لحكم العسكر، ولكنّ خطابه استوعب جميع مطالب المعارضة وطمأن أبناء الحزب والشّركاء في الخارج والقوى الدّوليّة. ماذا تنتظر؟».

- «أتتصوّر أنّه انقلاب فردي؟».

- «أبدًا هناك موافقة من الخارج ولا شكّ، ستثبت لك الأيّام ذلك».

- «هذا هو المرجّح».

نصح عبد النّاصر سي عبد الحميد بإصدار عدد استثنائي حالاً ولو في صفحة واحدة وجهًا وقفًا. نصحه أيضا بأن يختار صفّه من الآن مع بن علي، فبورقيبة لا مستقبل له. حثّه على أن يقامر ووعده بالرّبح.

في تلك اللّحظة رنّ الهاتف في مكتبه. كان الجهاز المخصّص للرّقم الخاص الذي لا يعرفه إلّا النّافذون في القصر والحزب والدّولة. أسرع سي عبد الحميد متلهّفًا. لم يسمع المكالمة ولكنّه كان متأكّدًا أنّها من شخصية مهمّة. سمعه يقول لمخاطبه:

- «طبعًا.. طبعًا.. بدأنا إعداد طبعة استثنائيّة تكون جاهزة في أقرب وقت. بالتّوفيق».

عرف فيما بعد أنّ الهاتف ورد عليه من الدّاخليّة. كان في الطّرف

الآخر من الهاتف أحد مدبّري الانقلاب، طلب منه أن يقوم بواجبه في دعم التّغيير المبارك.

طلب سي عبد الحميد من عبد الناصر أن ينكبّ الآن على تحرير مقال يرحّب فيه بالتّغيير ويعتبره أهمّ حدث بعد الاستقلال. لا بدّ من إبراز الطّابع الدّستوري لانتقال السّلطة باعتباره درسًا في العالم العربي. وصف بن علي بالمنقذ للدّولة وللبلاد فأخرجها من دوّامة الشّكّ والخوف ليدخل بها عهدا جديدا ملؤه الأمل. طلب منه أن يزيد بعض أفاويح الدّيمقراطيّة ومنكّهات المشاركة للجميع وحقوق الإنسان والإخلاص للوطن.

في الهاتف سمعه يطلب حضور المسؤولين عن الأقسام والمسؤولَيْن عن الموارد البشريّة والماليّة وسكرتير التّحرير

طلب من الحاضرين دعوة أعوان المطبعة خصوصًا تقنيّي الجريدة حالاً بإرسال سيّارات الإدارة لجلبهم إن لزم الأمر.

طلب من رؤساء الأقسام الخروج إلى الشّارع لالتقاط آراء النّاس على أن تكون إيجابيّة وصياغة ريبورتاج في مدّة لا تتجاوز السّاعة أو السّاعة والنّصف فهو يريد كلّ شيء في العاشرة على أقصى تقدير.

كلّف سكرتير التّحرير بجمع كلّ ما سينزل في وكالة تونس إفريقيا للأنباء من أخبار واعتماده مصدرًا أساسيًّا. اقترح أحدهم استجواب زعماء المعارضة، فنهره سي عبد الحميد.

أصدر تعليماته إلى سكرتير التّحرير باتّخاذ الاحتياطات ليصدر العدد في منتصف النّهار ويوزّع في العاصمة على الأقلّ. كان كلامه موجّهًا إليه وإلى المسؤول الماليّ بالخصوص.

تمّ كلّ شيء كما أراد سي عبد الحميد. جميع المقالات كانت جاهزة

في العاشرة. ولكن لم يجدوا مصمّم الجريدة. تكفّل عبد النّاصر بالمسألة. بدأ بصفحة للإعلانات لأنّ المادّة حسب تقديره لن تكفي لورقة مضاعفة من الحجم الكبير. دعاه سي عبد الحميد وهمس في أذنه:

- «افعل ما تشاء. ما يهمّني هو الصّفحة الأولى ودعم التّغيير وبن علي. أفهمت؟ هذا ليس عددًا من الجريدة إنّه موقف سياسيّ».

انكبّ عبد النّاصر على عمله. أعدّ تصميم الصّفحات بسرعة مذهلة رغم الخبر الذي وصله وهو في معمعة العمل. لقد ماتت أمّ زينة أمس ليلاً والدّفن بمقبرة القرية في ذلك اليوم بعد صلاة العصر.

9

بعيْد الحادية عشرة كانت الجريدة في المطبعة للسّحب. علم سي عبد الحميد بالخبر لأنّ نجلاء لم تتمكّن من الاتصال بعبد النّاصر. تركت المعلومة لدى موزع الهاتف. ناداه ومكّنه من هاتفه الخاص لإجراء ما يحتاج إليه من مكالمات. اتّفق مع نجلاء على الذهاب إلى بيت زينة في قريتها معًا.

غادر مكتب سي عبد الحميد مسرعًا. اعترضه عند باب المكتب تقدّم إليه بالتّعازي ثانية. قال له:

- « سيّارتي وسائقها بانتظارك عند باب الجريدة. احتط لنفسك وبلّغ تعازيَّ إلى الأستاذة».

شكره وانصرف.

كانت الطريق طويلة. مرًّا بقرًى وارياف لم يخطر على بالهما يومًا أن يمرًّا بها. ولولا نجلاء التي جلست بجانبه على الكرسيّ الخلفي للسّيّارة بسوادها الجليل الذي زادها ألقًا لطالت الطريق أكثر فأكثر. حاول السّائق أن يتجاذب مع عبد النّاصر أطراف الحديث عمّا حدث في فجر اليوم

لكنّه تعلّم الحذر من السّوّاق عامّة ومن سائقي الجريدة بالخصوص.

أنقذته نجلاء التي طلبت منه أن يأخذ نصيبًا من الرّاحة زاعمة أنّ آثار قلّة النّوم بادية على وجهه المرهق. برّر ذلك بمشقّة العمل منذ الصّباح. أرخى رأسه ونام نومًا متقطّعًا بعد أن أغلق ستائر نوافذ المرسيدس.

وصلاَ بعد الجنازة. سألاَ عن بيت زينة. كان بيتًا على سبيل المجاز. لم يكن يتصوّر أنّ تلك الفيلسوفة نشأت في ذاك الكوخ كنبتة شيطانيّة. لاحظ لأوّل مرّة المفارقة الفاضحة بين المسكن وساكنته.

بدت زينة عاديّة، لا دمعة ولا علامة على تأثّر. استغربَا الأمر أكثر حين أرادت أن تعود معهما في السّيّارة إلى تونس كأنّها أتمّت واجبًا ثقيلاً. قالت لها نجلاء:

- «عيب، إِبقي للفرق على الأقلّ».

ردّت:

- «لقد نتهى آخر رابط لي بالقرية، أنا الآن حرّة، حرّة كطيف النسيم».

قالتها بحياد وجفاف. علّقت نجلاء:

- «لا أعرف عاداتكم هنا. ألا تـزورون الميّت في صباح اليوم الموالي؟».

- «أنا أيضًا لا أعرف.. ولا يهمّني. طقوس وتقاليد وعادات. ذهبتْ مَنْ جِئتُ لأجلها أمّا البقيّة فلا علاقة لي بهم ولا بسننهم».

- «أنصحك بالبقاء إلى الفرق..

«أبـدًا. لي دروس تراكمت تنتظرني. ولي تلاميذ يستعدّون للباكالوريا».

- «ذهبت أمّك فما بالك بالدّروس!».

- «عاشت لأجل أن تراني في غير ما كانت هي عليه. ولا أكرمها إلّا بتحقيق رغبتها. أفهمت؟».

لم يتدخّل عبد النّاصر. لم تقدّمه إلى أبيها العجوز وأخيها. فهم الجميع أنّه شخصيّة مهمّة من تونس العاصمة. ظنّوا السّيّارة والسّائق تابعين له واعتقدوا أنّ نجلاء زوجته. أخذ الحاضرون الجالسون على الأرض أو على الكراسي القليلة يسألونه عن الوضع في البلاد. ربّما ذهب في وهمهم أنّه رجل نافذ رغم لباسه الشّبابي ولحيته المعفاة وحذائه الرياضيّ.

اتّفقت نجلاء مع زينة على أن تبقى لزيارة أمّها على الأقلّ في صباح اليوم الموالي ثمّ تعود مساء الأحد إلى تونس. أعلمت عبد النّاصر بذلك. لم يمانع. طلبت منهما إيصالها إلى سليانة، إلى دار خالها حيث أقامت طيلة الأيّام المنقضية. ستقضي اللّيلة هناك. ركبت معها زوجة خالها محتضنةً ابنها الرّضيع. لم يكن من الممكن أن يستقلّ الخال وبقيّة الأبناء السّيّارة معهم. حتى زوجة خالها لم تكن تعرف علاقتها به. كان ينتظر ولو إشارة، لمحة بسيطة في هذا الاتّجاه.

عندما نزلت من السّيّارة وكانت خالتها تودّع نجلاء، قبّل عبد النّاصر زينة ودس في حقيبتها أوراقًا نقديّة وعزّاها مرّة أخرى داعيًا لها بالصّبر الجميل.

10

أوصلهما السّائق إلى باردو، إلى رأس نهج البرتقال قبالة مقهى الحاج. ترجّلاَ إلى البيت. كانت نجلاء قد لاحظت شرود الطلياني وانغماسه في التفكير والتأمّل. بدا عليه بعض توتّر أدركته من خلال حركة رجله اليمنى وهو في السّيّارة ينظر إلى الطّريق والحقول والأشجار من النّافذة. اكتفت في السيّارة بالابتسامات تهديها إليه كلّما حانت منه التفاتة إليها والتقت عيناهما. كان يتصنّع الرّدّ على الابتسامة بأختها دون أن يقدر على إخفاء قلقه وتوتّره.

سألته حين وصلا إلى بائع الفطائر:

- «فيم تفكّر رنكتي؟».

- «لا شيء.. لا شيء.

صمتت. سألها إذا كانت تريد أن يوصلها إلى البيت الآن. أجابته بأنّها لن تتركه في حالته تلك إلّا إذا كان يرغب في التّخلّص منها. قال لها:

- «تعرفين أنّ هذا غير صحيح. لو كان بيدي لطلبت منك قضاء اللّيل معي!».

- «أفعلُ إن طلبت مني ذلك.. أنا أيضًا أريد أن أحتفل بين أحضانك بالعهد الجديد.. أنسيت أننا بدأنا نحن الانقلاب أمس؟».

انفرجت أسارير الطلياني. ظهرت على وجهه أمارات الابتهاج أصبح يحثّ الخطى في ما تبقّى من مسافة قصيرة تفصلهما عن الدّار. التمعت عيناه تلك الالتماعة التي أصبحت نجلاء تعرفه بها كلّما اشتدّ به الشّوق إليها.

لم ينتظر طويلاً. ما إن أغلق الباب حتى بدا الفارس المتوتّر يتلطّف ليحوّل تلك الشّحنات السّلبيّة داخله إلى طاقة متدفّقة تثير الفرس. تمّ كلّ شيء في سباق المسافات القصيرة بسلاسة وتناغم لا يخلوان من خشونة وعنف تشهد عليهما البقعة الزّرقاء في الرّقبة وزرّ السّروال الذي تمزّق وآثار الأظافر في ظهر عبد النّاصر وذراعيْه.

كان حفلَ تطهّرٍ من أدران صمت وكآبة وتوتّر تجمّعت أثناء الطّريق ذهابًا وإيابا.

قضى عبد النّاصر السّهرة وهو واضع رأسه على فخذيْ نجلاء يتابع القناة الوطنيّة حتى وهي تبثّ الأغاني المبتذلة. ففي تلك الأيّام أصبحت تفاهات التّلفزة مهمّة لأنّ كلّ شيء يمكن أن يقع. مازال النّاس تحت وقع

صدمة رحيل الزّعيم المجاهد الأكبر الذي كان وجهه ونشاطه يتصدّران نشرات الأخبار وتسبقهما توجيهاته. مازالوا أيضًا متوجّسين خيفة بما أنّهم لا يستطيعون أن يصدّقوا أنّ في البلاد رجلاً قويًا آخر. هل تنتهي الحكاية التي كانت تكبر كلّ يوم بالأقاويل وأحاديث المقاهي بمثل تلك السّهولة دون دم، دون مقاومة، دون مطالبة بالثّأر؟

كانت تعليقات نجلاء تثير حنقه: «مسكين بورقيبة»، «أنا لا أعرف زعيمًا آخر غيره»، «ماذا سيفعل له؟ هل سيقتله أم سيرميه في السّجن؟».

كان على قدر حنقه يكظم غيظه. صدق من قال: «كوني جميلة ولازمي الصّمت». يكفي أن يكون جسدها ثرثارًا. كانت أعضاء جسمها كلّها على قدر من الفصاحة والبلاغة! لم يكن أمامه من حلّ إلّا أن يضع سبّابته على شفتيْها فتظنّه يلاعبها وهو يطلب منها السّكوت. ينظر إليها وأذنه تصغي إلى كلّ كلمة تقال في التّلفزة.

تمعّن في خطاب زين العابدين بن عليّ وفي دلالاته وأبعاده الممكنة. أنصت إلى بيانات وكالة تونس إفريقيا للأنباء. كلّ الأسماء التي تذكر في نشرة الأنباء. سمع امرأة بسفساريّها في ريبورتاج تتحدّث مخاطبةً زين العابدين بن عليّ ردّا عن سؤال حول تقييمها للتّغيير الذي حصل في أعلى هرم السّلطة:

- « ربّي يحنّنو على أمّتو».

التقط عبد النّاصر الجملة. قفز من الأريكة. أحضر كنّشه الصّغير وسجّل ما قالته المرأة. صدر بعد يوميْن بتوقيع عبد النّاصر عمود في الصّحيفة يحلّل فيه الوعي العفوي لدى الشّعب ويبرز مطالب النّاس الحقيقيّة التي على القيادة الجديدة أن تأخذها بعين الاعتبار.

أمّا هو ففي زيْن نجلاء وجسدها الثّرثار يطلب الحنان الذي أغدقت عليه منه، ليلتَها، خيرا عميما. أيّة امرأة هذه! فنّانة ترسم بيديها وأصابعها

وشفتيها وصدرها ورجليها أحلى اللّوحات. تصوغ بصوتها وأنينها وزفراتها وأنفاسها أجمل القطع الموسيقيّة. تنعش بروائحها المتغيّرة المتبدّلة، من القبلة إلى الاسترخاء بعد النّزال كلّ مسامّ جلده وترويه من عسلها الذي تُسيله قطرات مصفّاةً ما يطفئ عطشًا لا ينتهي.

11

عادت زينة حوالى الخامسة بعد الزّوال. كان مساء الأحد ثقيلاً. استقبلها عبد النّاصر سائلاً عن أحوالها في كثير من التّلطّف والمواساة. وضعت أدباشها ودخلت مباشرة إلى الحمّام. أطالت المكوث فيه على غير عادتها. سألها عبد النّاصر أكثر من مرّة، من وراء الباب، إن كانت تحتاج إلى شيء. كان في الحقيقة يطمئنّ عليها فربّما أصابها مكروه خصوصًا حين لم تجبه في المرّة الأولى. فتح الباب دون استئذان وجدها قد ملأت الحوض ماءً يصّاعد منه بخار كثيف ملأ غرفة الحمّام. استرخت داخل الماء الذي يغطّي صدرها. كانت مغمضة العينين. محمرّة الوجه من أثر البخار.

استفاقت حين أحسّت بأنفاسه في الحمّام. نظرت إليه مبتسمة كالمخدّرة. جثت على ركبتيها. ظهر نصفها الأعلى. رأى حبّتيْ اللّوز على النهديْن النّافرين المشوّكيْن. مدّت له قفّاز الاغتسال المقدود من البشكير. سكبت عليه رغوة صابون. طلبت منه دلك ظهرها.

كان القفّاز في يديه ينزلق بمفعول الصّابون. مسّح على الرّقبة في خطٍّ مستقيم إلى منتصف الظّهر. مال إلى اليمين في اتّجاه الكتف. نزل إلى العضد وصولاً إلى العِطف. توغّل إلى الإبط الأيمن. انتقل برفق إلى كُعْبُرة الكتف وفراش الظّهر. ظلّ يحرّك القفّاز كمن يمسّد. مرّ إلى الكاهل بين الكتفين. ضغط على الفقرات السّتّ. انتقل إلى يسار ظهرها أعاد بدقّة ما فعله في الكتف والعضد والعِطف والإبط والكعبرة والفراش.

عاد إلى وسط الظّهر حيث الطّلأُ تابع فقرات الصّلب من الكاهل إلى الورك. كان المتنان يمينَ الصّلب ويسارَه ملساويْن. كم كان عبد النّاصر يحبّ المتن وملامسته عند المرأة. أحسّت بدغدغة حين أخذ يمرّر عليهما القفّاز. رأى لحمها يتشوّك. اهتاج. لم يدرِ كيف قفز داخل الحوض معها ولا متى نزع ملابسه.

البخار يصّاعد من جسدها المحمرّ. شعرها المجعّد منفوش. غرقًا في ماء الحوض الذي فاض فتدفّق على أرضيّة غرفة الاستحمام. قبّلته بشوق امرأة مغتلمة فاض عليه شبقها كما لم تفعل من قبل. استرخت على الفراش بلباس الحمّام. اتّكأ بجانبها يسألها ويلاطفها كزوج مخلص. التمست منه ألّا يقطع تأمّلاتها. الإجابة الوحيدة التي قدّمتها له:

- «صفحة جديدة في حياتي بدأت. لن أعود إلى القرية أبدا. أصبحتُ أمَّ نفسي».

12

تركها ترتاح. فتح التّلفزيون ليتابع ما قد يرد من أخبار. أدرك من خلال ما كان يشاهده أنّ شيئًا جديدًا قد وقع فعلاً. ثمّة غمّة انجلت عن البلاد كما انجلت عن زينة. قلبَ الزّينُ مجدًا قديمًا لم يشأ أن يذهب بنفسه، وقلبت زينة صفحة من سفر تاريخها الشّخصي. فكّر فى علاقته بها. هل ستبدأ صفحة جديدة حقًّا؟ قرّر أن يترك المسألة للأيّام تكشف عمّا تخبّئه له من مفاجآت رجا أن تكون سارّة ممتعة مثلما عاشه في الحمّام منذ قليل.

سمعها تخرج من غرفة النّوم متّجهة إلى المطبخ. لم يشأ إزعاجها. كان قد ترك على مصطبة المطبخ أكلاً أعدّه بنفسه تغذّى منه في منتصف النّهار مع نجلاء واستبقى للعشاء ما يكفي.

حين قصد المطبخ ليتعشّى وجدها جالسة على الطّاولة أمامها أوراقها

وكتبها. تعجّب في ما بينه وبين نفسه من هذه اللّهفة على الدّراسة ثمّ وجد لها عذرًا في إعداد درسها ليوم غد.

تشاغل بإعداد قهوة دون أن يقطع عليها حبل تفكيرها مثلما اتّفقَا على ذلك حين تكون جالسة تدرس على الطّاولة. ولكنّها بادرته:

- «في المرّة القادمة، قل لها أن تجمع أغراضها الشّخصيّة قبل أن تغادر الدّار».

- «مَنْ هي؟ عمّ تتحدّثين؟».

لم تجبه. انهمكت في أوراقها أعاد عليها السّؤاليْن. أجابته:

- «لا أعرفها ولكنّني أقصد صاحبة السّلسلة الفضّيّة هذه».

رمتها على مصطبة المطبخ حيث يقف عبد النّاصر دون أن تلتفت إليه. كانت سلسلة فضّيّة فعلاً رآها في رجل نجلاء ليلة أمس حين كانت تمدّ رجليْها على طاولة قاعة الجلوس.

- «لا أعرف لمن هي؟ لا أعرف..

ربّما سقطت منها وهي تغسل رجليْها قبل النّوم أوتغيّر ملابسها في الصّباح، لا يعرف أين وجدت زينة هذه السّلسلة الملعونة.

التفتت إليه وهي تمسك غضبها وتتصنع الهدوء وبعض الحكمة:

- «لا يهمّني ماذا تفعل، فقط أطلب شيئين: ألّا يتمّ شيء في فراشي وألّا تضعني في وضعيّة محرجة مع نسائك».

- «أيّ فراش وأيّ نساء..

قاطعته بحزم:

- «انتهى الموضوع بالنّسبة إليّ. أنت حرّ وأنا حرّة. رجاءً قلبت الصّفحة».

ظلّت عبارتا «أنت حرّ» و«أنا حرّة» ترنّ في أذنيه. أغلق الموضوع

كما أرادت. لعن في سرّه نجلاء رغم أنّ فكرة السّلسلة أسفل السّاق في موضع الخلخال كانت رائعة ومثيرة.

13

طلَبَتْه زينة يوم الثّلاثاء وهو في الجريدة. أوّل مرّة تتّصل به على الهاتف وتتحصّل عليه. كان في صوتها دلع لم يعهده. لم يصدّق. ترجّته أن يعود باكرًا مع الثّامنة.

فتح الباب. كانت قاعة الجلوس مضاءة إضاءة خافتة. على الطّاولة شموع أربع أو خمس تشتعل. رائحة عطر اصطناعيّ. هرولت زينة نحوه.

لم يصدّق ما يراه. فقد غيّرت تسريحة شعرها وقصّته على الطّريقة الإيطاليّة. بدت امرأة أخرى كأنّه لم يرها من قبل. بدا وجهها أوضح وأحلى. لاحظ أنّها أطول قليلاً من ذي قبل. كانت تلبس حذاء ذا كعب. لأوّل مرّة يراها في تنّورة رماديّة فوق الرّكبة بقليل مع جوارب طويلة مشبّكة رماديّة. المريول فستقيّ خفيف.

رأى بعض الاخضرار على جفنيْها ولمسة بالقلم الأخضر على رموش العينين وأحمر شفاه خفيف على شفتيْها.

قال لها:

- «ما هذا الزّين والعين؟!».

اقتربت منه. التصقت به. ألصقته إلى الحائط ممسكة بيديه الإثنتيْن اللّتيْن وضعتهما على الحائط فوق رأسه.. في المكان نفسه الذي قبّلته فيه نجلاء. أيّة مصادفة! كانت قبلاتها وحركاتها وشبقها على غير ما رأى من نجلاء.. لكلّ زهرة رحيقُها وعطرُها المميّزان. لم يشأ أن يقارن ولكنّ تشابه الوضعيّتيْن فرض عليه النظر إلى الاختلافات والموافقات. تأكّد أنّ المرء لا ينزل إلى نهر اللّذّة مرّتيْن إلّا إذا اختلفَ النّهران. بدا لعبد النّاصر أنّها، بقدرة قادر، أصبحت على استعداد لأن ترويه منه.

لم يفهم ما حدث ولم يشأ أن يسأل. وهذا من طبع عبد النّاصر في كلّ شيء. لا يعبّر، إلّا نادرًا، عن دهشته أو عمّا يجول في خاطره.

قدّمت له هديّة. فتحها فإذا هي محفظة نقود من الجلد الرّفيع معها قدّاحة من نوع «زيبو» ذكّرته بالأشرطة الأمريكيّة. قالت له:

- «حبيبي أصبح شخصيّة مهمّة لا تليق به القدّاحات العاديّة!».

ردّ عليها بأسلوبه في الغزل الذي ينزل عليه كالوحي فيخرج بمثابة جوامع الكلم:

- «كلّ القدّاحات عاديّة، إلّا أنتِ، قدّاحتي المجنونة!».

عانقها شاكرًا. تذكّر أنّها أوّل هديّة منها. لم يقل لها شيئًا ولكنّه بدأ يشكّ أنّ في الأمر سرًّا. كيف لزينة التي لا تعرف إلّا الكتب والطّريق إلى المدرسة والجامعة والمكتبات وأوراقها في المطبخ أن تعرف مثل هذه الهدايا.. وبهذه الدّقّة التي تليق بامرأة مجرّبة تتسوّق على الأقلّ وتعرف ما يريده الرّجال ويحبّونه؟!

تعشَّيَا معًا، تجاذبَا أطراف الحديث. كان يميل إلى مغازلتها لأنّها حلَتْ في عينيه فعلاً وأحسّ بوهج شوقٍ مبهم إليها. ظلّ يقدّم رجلاً ويؤخر الثّانية. يتثبّت من هذا التّغيير دون أن يجعلها تفطن إلى ما يدور في ذهنه. كانت، وهو يغازلها، مستسلمة له تاركة عقلها ومفاهيمها الفلسفيّة وصرامتها في مكانٍ ما بعيدٍ عن المطبخ رغم الأوراق على الكرسيّ.

بعد العشاء الذي أحضرته هي من السّوق، وأحضرت معه حبّات من التّفّاح الأحمر والبرتقال «الطّومسون»، نقلت أوراقها إلى الطّاولة. قبّلته مطولّا وجلست تشتغل. أمّا هو فذهب إلى التّلفزيون كعادته خلال الأيّام الفارطة.

فتحت زينة حقيبة مفاجآتها لتخرج منها، يومًا بعد يوم، كنوزًا عديدة.

فليلة السّبت مثلاً لبست له قميص نوم بالدّنتيلا، وكانت قد تعطّرت بعطر جديد يوم الخميس. أصبح لها أصناف ثلاثة من العطور في أقلّ من أسبوع!. بدأت منضدةُ الزّينة في غرفة النّوم والمنضدة البلّوريّة فوق المغسل في غرفة الحمّام تمتلئ بأدوات التّجميل المختلفة وإن لم تكن زينة تضع كثيرًا من المكياج. اشترت مجفف شعر تسوّي به تسريحتها الجديدة ومثبّت شعر في بخّاخة.

والأهمّ من ذلك بالنّسبة إلى الطلياني أنّها كشفت أنوثتها التي كانت تخفيها وراء مظهرها الجادّ، وفي أعطاف أوراقها وكتبها وحرصها على النّجاح في الدّراسة. لمّا تأنّثت زينة زاد تعلّقها بالطلياني وبدت منجذبة إليه. أصبحت تسرق من وقت دراستها وإعداد دروسها ما تسنح به الفرص لتلاطفه وتدعوه إلى الفراش أو تجامعه في قاعة الجلوس على الأريكة أو على الزّربيّة أو في أيّ مكان يحلو لها. كانت تذكّره بواقعة حوض الاستحمام وغزوه لها غزوةً ترسّخت كالوشم في ذاكرتها، في ذاكرتها الجديدة بعد أن أضحت «أمّ نفسها» كما قالت.

أصبح الطلياني يتذكّرها طيلة اليوم وهو في الجريدة ويعود بلهفة العاشق إلى البيت يريد رؤية معشوقته. أصبح طعم الحياة مع زينة حلوًا حقًّا يذكّره بعسل «للّا جنينة». أصبحت زينة تُلْعِقه عسلاً حرًّا من «الكالاتوس» أو البرتقال أو الزعتر البرّيّ كلّ صباح حين ينهض باكرًا أو تضعه له في فمه بعد الجماع. كانت تقول له:

- «أنت تدخن كثيرًا. وليس أنفع للصّدر والحنجرة من العسل».

لم يكن بمقدوره أن يمانع. فالعسل من يد زينة حلاوة خالصة وشفاء لا ريب فيه للنّفس على الأقلّ.

14

عندما التقى نجلاء التي زارته في الجريدة، بعد أيّام قليلة من بداية تغيير زينة لنمط حياتها وعلاقتها بالطلياني، تأكّد أنّها هي اليد الخفيّة التي يبحث عنها. كان قد افترض ذلك ثمّ استبعده ثمّ لم يجد غيره تفسيرا وجيها.

طلبه عون الاستقبال في الأسفل فنزل مسرعًا. سرق قبلة فقالت له:

- «بعيد عن العين.. بعيد عن الشّفتين والعقل والقلب».

بدأ يحدّثها، حتى قبل الوصول إلى مقهى الأنترناسيونال، عن زينة في شكلها الجديد وعن المفاجأة التي صاحبت ذلك التّغيير. كانت تبتسم بخبث وسألته:

- «أصبحت تعجبك أكثر. أليس كذلك؟».

ردّ بالإيجاب. فعبّرت له عن سرورها بذلك. باغتها بسؤال في صيغة إثبات:

- «كنت متأكّدًا أنّك وراء كلّ هذا».

لم تجبه. ظلّت تنظر إليه كمن ينتظر أن يكمل المخاطب كلامه. واصل.

- «لم فعلت ذلك؟».

فسّرت له نجلاء أنّ زينة صديقتها وتبوح لها بأسرارها كلّها بما في ذلك السّلسلة التي نسيتها. كانت تشكّ فيه. فلم تحاول أن تكذب عليها ولا أن تفضح علاقتهما. اتّخذتْ طريقا أخرى. أفهمت زينة أنّها أهملت الطلياني فلا لوم عليه إذا بحث عن متعته لدى الأخريات. وقد اكتشفت نجلاء، على خلاف ما كانت تتصوّر، أنّ زينة تغار على زوجها ولكنّها لا تعرف كيف تحافظ عليه من جهة ولا تملك الوسائل التي بها تستطيع أن

تجعله منشدًّا إليها من جهة أخرى. فكلّ ما وقع من تغيير هو فعلاً بإيحاء وتوجيه منها.

عبّر لها الطلياني عن استغرابه ممّا فعلت مع زينة:

- «ألا ترين أنّ ما فعلتِهِ ضدّكِ؟».

أجابته بأنّها فعلت ذلك لصديقة طموحة منهمكة في تحقيق طموحها وتتمتّع بجمال طالما أهملته. ونجلاء تحبّ الجمال لذلك صادقتها. وأضافت أنّ أصولها غير المدينيّة جعلتها غير خبيرة بطرق إبراز جمالها وإظهاره والإعلاء من شأنها. إنّه جمال خام ساذج قابل للانطماس في أيّ وقت إن لم تتعهّده.

أعاد عليها سؤاله لأنّها لم تجبه. سألته إن كان يريد فعلاً أن تجيبه بما تعتقده في قرارة نفسها. فردّ عليها بالإيجاب. حينها قالت له:

- «أنتم الرّجال لا تفهمون. لا ترون في المرأة إلّا الغيرة. نعم نحن نغار. ونحبّ الرّجل الذي يجعلنا نغار. الغيرة عندنا مصدر حياة وتشبّث بالحياة. لا أخفي عليك أنني أرى نفسي أحلى النّساء. أصبحت أقلق وأنزعج كفرس تركض وحدها في ميدان السّباق..

ذبّلت عينيها واقتربت ثمّ أضافت:

- «أعرف أنّني الوحيدة الجديرة بك، وأريد أن أغار عليك. لذا أحتاج إلى منافس فوجدته في زينة. كانت أمامي ولم أتفطّن إليها إلّا حين عرفت أنّها تغار عليك.. أفهمت! لن تجد امرأة تصارحك بمثل ما أصارحك به أنا».

أفهمته أنّها وجدت فعلاً فارسًا مغوارًا ولا يزعجها أن يركب غيرها وبالخصوص زينة لأنّه سيقارن وسيعرف فرسه في اللّحظة المناسبة. فإن لم تكن جديرة به فذاك حظّها الذي لن تبكيه. صارحته بأنّها بعد اليومين

اللّذين قضّتهما معه خرجت من حيّز الإعجاب لتدخل منطقة رجراجة اسمها الحبّ، اعترفت أنّها تحبّه ولكنّها لا تريده، لا هو ولا غيره، زوجًا. قالت له:

– «حتّى في هذا ينبغي أن تكون المنافسة شريفة. لا أريد اختطافك من صديقتي. أكره ما تفعله النّساء مع صديقاتهنّ».

سألها عن سبب غيابها هذه الأيّام كلّها. ضحكت. اتّهمته بنسيانها فبحثت عن غيره ووجدته. قالت له بالفرنسيّة جادّة:

– «كنت حائضًا. متعكّرة المزاج».

أضافت:

– «ولكنّني الآن مشتاقة إليك. متى أراك؟».

– «الآن إن شئت!».

لم يكن بيت الصّحفي صديق الطلياني بعيدًا. ترجّلاَ إليه فأطفآ الحريق الذي كاد يلتهم نجلاء. لم يكن لديهما متّسع من الوقت. تمّ كلّ شيء بسرعة رغم أنّ البيت لم يكن مرتّبًا ولا نظيفًا. رائحة النّوم مازالت تلازمه والفراش في حالة يرثى لها. بيت على صورة بؤس الكثير من الصّحفيّين العزّاب وبؤس صحافتنا حتى بعد «التّغيير المبارك» بأيّام. لاحظ ذلك عبد النّاصر ولم يتكلّم ولكنّ نجلاء لاحظت واحتجّت إلى أن اقترحت عليه أن يبحث عن شقّة لهما قريبة من الجريدة يتقاسمان كراءها. لكنّها لم تخف إعجابها بإنجاز مهمّة إطفاء الحريق واقفين معتمدة على لياقتها البدنيّة الممتازة وليونتها بالخصوص. كانت تلك الطريقة في إطفاء الحرائق على حدّ زعمها اكتشافا رائعا رغم رائحة البيت الخانقة.

السكّة المقفلة

1

كانت زينة ونجلاء والجريدة والبلاد مع بطلها الجديد الذي غيّر حياتها، كانوا جميعًا في حالة غبطة وانتشاء. ثمّة أمل جديد أطلّ على النّاس أفرادًا وجماعات. شخصان فقط كانا، كلّ على طريقته، يكذبان أكثر ممّا يصدّقان: سي عبد الحميد وعبد النّاصر. وثمّة شخص آخر لا يريد أن يصدّق بتاتًا وظلّ يواصل ما يعتقد أنّه يندرج ضمن مصلحة الدّولة العليا: أبو السّعود. ح الرّقيب الذي تجرّأ عليه بعض الصّحفيّين. فقد ذهب في وهمهم أنّ الصّحافة أصبحت حرّة.

كان أبو السعود يقول كلّما تصادم مع صحفيّ:

- «أنا أؤدّي واجبي كما أراه وأعتقده، وعلى سي عبد الحميد أن يتحمّل مسؤوليّته. ليست لي تعليمات جديدة».

والحقّ أنّ أبو السعود كان أكثر الأشخاص انضباطًا وهو يعرف ما لا يعرفه الآخرون. فحين قال إنّه لا توجد تعليمات في هذا العهد الجديد فهو لا يكذب. لا شيء تغيّر ولكنّ التّدخّلات السّافرة أصبحت منعدمة. ومهما يكن من أمر فجلّ المقالات كانت تحرث في أرض التّفاؤل وانتظار تجسّد المعجزة. لم يجد صحفي واحدٌ في كلام بن علي ما

يدعو إلى الرّيبة. ماذا يريدون أكثر؟ إذا تحدّث النّاس عن الهويّة العربيّة الإسلاميّة تبيّن أنّ بن علي هو من ردّ الاعتبار لديننا الحنيف وهويتنا العزيزة وللقوميّين والعروبيّين أن يفسّروا ذلك كما يحلو لهم فقد أضاف إلى العروبة نكهة كانت تفتقدها وهي الدّيمقراطيّة. فماذا بعد هذا؟ ما الّذي تبقّى لهم؟ الوحدة العربيّة؟ فلنبنها بطريقة عقلانيّة ولنبدأ بالحوار المغاربي. إنّ العصر عصر التّكتّلات الكبرى والمصالح والاقتصاد أمّا عروبة الشّعارات فقد أهلكتنا وزادتنا انقسامًا.

وللإسلاميّين الذين سجنهم بورقيبة وكاد يقطع رأس زعيمهم أن يروا بالملموس بيوت الله عامرة. عليهم فقط أن يستجيبوا للقانون بتغيير تسميتهم حتى لا يحتكروا الإسلام دين الشّعب، خصوصًا أنّ الآذان أصبح «يشرقع» في التّلفزيون والرّاديوهات مباشرة كلّما حانت الصّلاة. ثمّ لِمَ المزايدة والتّزيّد والتّشكيك؟ ألم يقل كبيرهم الذي علّمهم السّحر: «ثقتي في الله ثمّ في بن عليّ». كيف لا يقول ذلك وقد فكّ رقبته من حبل المشنقة؟

أمّا اليسار، عموم اليسار عدا المتطرّفين من أمثال المجموعات الصغيرة في الجامعة، فقد شكّك في بن علي فأقصى نفسه من المشهد بنفسه ليختبئ في صفوف الطلبة. إنّهم شرذمة لا يقرأ لها حساب في ميزان السّياسة التّونسية داخليًّا وخارجيًّا.

أمّا جماعات حقوق الإنسان واللّيبراليّون فماذا تبقّى لهم غير مساعدة البطل المنقذ على الدّخول بالبلاد في العصر الدّيمقراطيّ المبنيّ على احترام إرادة الشّعب وحقوق الخلق مادام الرّئيس بنفسه قد صرّح في بيانه الخالد أن «لا ظلم بعد اليوم»؟

أمّا اتّحاد الشّغل فأزمته في طريق الحلّ ولن يكون أكثر رحمة بالعمال بالفكر والسّاعد من ابن الشّعب الذي طلع من رحمه، من عائلة تونسيّة

مثل آلاف العائلات لا جاه ولا مال ولا حَسَب ولا نَسَب. يفخر به قومُه ووطنُه لكنّهما لن يردّا له الجميل أبدا.

هذه نظرة أبو السعود وكان يراها متجسّدة في المقالات والأعمدة. وهو، كما يقول، بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه المساس بالمشروع الجديد الذي بعث الأمل في النّفوس. ولو كان مسؤولاً في تلك المجلّة غير المسؤولة لمنع هشام جعيّط من نشر ذلك المقال التّافه الذي يشكّك فيه في شرعيّة من أنقذ البلاد بتحذلق الجامعيّين وغباء المفكرين وأشباه المفكّرين. يشقّق الألفاظ ويتقعّر باحثًا عن الفرق بين الدّولة والسّلطة والنّفوذ وبين الشّرعية والمشروعية والشّريعة وما إلى هذا من الخزعبلات التي لا نأكل بها الخبز ولا نشرب الماء. ثمّة أناس لا يعجبهم العجب ولو تفرّغ للتّاريخ والكوفة والجزيرة العربيّة لكان خيرًا له ولنا.

هكذا تكلّم أبو السعود ذات يوم ولم يفهم النّاس أنّه كان على حقّ ولكن لا نَبِي في قومه. والنّاس يحكمون بالظّاهر، وظاهره أنّه رقيب ممقوت.

2

ظلّ سي عبد الحميد مرتابا رغم مرور أسابيع على ما صار يسمّى بالتحوّل المبارك وترسّخ أقدام بن علي وحكومته ومباركة الفاعلين السياسيّين والاجتماعيّين له. كانت افتتاحيّاته التي يكتب جلّها بنفسه وبأسلوبه الملحميّ الشاعريّ الرّائق تبرز الآفاق العريضة التي فتحها التّغيير أمام التّونسيّين. كان يركّز على مبدإ الديمقراطيّة وشرعية الإنقاذ وخطة المعالجة الرصينة واستراتيجية التنمية الشاملة. تفطن إلى أنّ أغلب شعارات المرحلة مستمدة من التّقارير والالتزامات الدولية الموقّعة في المنتظم الأممي وهيئاته المختلفة أو في الدّوائر المموّلة للاقتصاد

التّونسي. فكان في كل مرة ينتقي مفهوما جديدا أو فكرة يعمّق فيهما النّظر على قدر ما يتحمّله عمود الافتتاحيّة، ليكشف التّمشّي العقلاني للرّئيس والخيارات الواقعية والأبعاد الإنسانية والحرص على إدخال البلاد ضمن الأسئلة الكونيّة الكبرى.

وأسعد أيّام سي عبد الحميد يوم يخطب الرئيس أو يقوم بزيارة فجئيّة لمنطقة محرومة من «مناطق الظلّ» أو مؤسّسة حكوميّة يتفقّدها أو يعلن عن إجراء جديد. ففي الخطاب عِبَرٌ ودلالة وأبعاد للتّحليل. وما كان أقدره على استخراج الفكرة الجديدة حقًّا من كلّ خطاب! ما أذكى تحليله للزّيارة الفجئيّة توقيتًا ومكانًا وأسلوبًا وكلمات أو جملا مقتضبة تتضمّن معاني وإشارات ينبغي أن يفهمها النّاس نخبًا وجماهير! وما أطرف تناوله للإجراءات المختلفة والتوصيات والقرارات مهما كانت بساطتها! إذ يجد فيها معقوليّة لا يراها إلّا هو كأنّ بن علي يبوح له دون بقيّة الصّحفيّين والسّياسيين والمثقّفين بأسرار خطّته الإستراتيجية ونظرته الاستشرافيّة!

كان عبد النّاصر يناقشه أحيانا، خارج العمل طبعا، حين يكونان في لحظة صفاء يطعمان ويشربان، فيردّ عليه سي عبد الحميد ساخرًا:

-«لِمَ وجع الرأس؟ كلّهم راضون. هل أنا تشي غيفارا؟ البركة فيكم أنتم أنا أكاد أبلغ السّتّين».

كان سي عبد الحميد يسرّ له بأنّ تلك الزيارات الفجئيّة خطّة للتسويق السياسي ذكيّة في البداية لكن تكرارها سيكشف طابعها الشّعبوي الفلكلوري فلا دلالات ولا إشارات ولا هم يحزنون. لا شيء تغيّر في العمق. والخطابات التي تعلّم بن علي قراءتها، بعد أن كان يهجّيها كلمة كلمة ولا يتمّها إلّا بشقّ الأنفس، لا تعدو أن تكون صياغات لمحتوى التّقارير وسياسات التّكنوقراطيّين في الوزارات.

كان ينبّهه دائمًا إلى أنّ بورقيبة ترك إدارة قويّة ونخبة إداريّة ممتازة

لولاها لانهارت البلاد منذ مدّة ولسقطت الدّولة في أيدي أيّ طامع شقيّ أو مغامر مغرور مثل الإسلاميّين. ولا أحد بإمكانه أن يُسقط دولة التّكنوقراط الذين يحكمون من وراء ستار ينكفئون على أنفسهم لحظة الأزمات ليحافظوا على الحدّ الأدنى وينطلقون، مبدعين خلّاقين، إذا وجدوا دفعًا سياسيًّا قويًّا. كان يؤكّد أنّ بن علي يحتاج إليهم الآن ولكنّه لن يتركهم يشتغلون وسيضربهم يومًا، أو سيستميل أفضلهم، وحينها يبدأ في حفر قبره.

وأمّا الإجراءات الجديدة فهي عند سي عبد الحميد، حين يشرب وتنفتح لديه شهيّة الكلام والنّقد ويصبح عقله يشتغل وحسّه النّقدي يتّقد، فهي حملات إعلاميّة وجزء من العمل اليومي لمؤسّسات الرّئاسة والحزب والإدارة. فالدّولة لا تحتاج إلى ذلك التّطبيل والتّزمير. قال له كالواثق ممّا يقول:

- «انتظر قليلاً سنعود إلى توجيهات الرّئيس في حلّة جديدة ولكن بدون كاريزما الزّعيم».

كان سي عبد الحميد في سرّه وقرارة نفسه غير مقتنع ببن عليّ. ردّ عبد النّاصر ذلك في بادئ الأمر إلى تربيته البورقيبيّة وميوله المخفيّة لمزالي. غضب حين صارحه بذلك وعرض عليه تحليله لبورقيبة الذي عاش في الوقت الضّائع منذ أوائل السّبعينات وقبل مؤتمر المنستير. لقد انتهى بالنّسبة إليه منذ ذلك الحين ولم يعرف كيف يبقى زعيمًا خالدًا. كان يحتاج إمّا إلى الاستشهاد والموت في المعركة (وهو ما فات منذ أوّل الاستقلال) وإمّا مغادرة المسرح مكرّما. لكنّ جنون العظمة وإحساسه المبالغ فيه بالأبوّة منعاه من ذلك.

لم يكن عبد النّاصر متّفقًا مع سي عبد الحميد في جميع تحاليله لما وقع ولا في طريقة تعاطيه مع الوضع الجديد. لكنّه كان يناقشه بلطف.

كان يؤكّد على الصّفة العسكريّة الانقلابيّة لبن علي مهما أظهر من مدنيّة. وصل به الأمر إلى حدّ اتّهامه بالعمالة للأمريكان مستدلاّ بما بدأ يتسرّب عن دوره أيّام كان ملحقًا عسكريًّا بسفارة تونس في بولونيا. زد على ذلك أنّه اعتبر ما وقع تغييرًا لِقِطَع الشّطرنج التي يلعب بها «السّواحليّة». فالنّافذون في تلك الجهة غارقون في المال والعلاقات والشّبكات يضعون أيديهم على مفاتيح الدّولة. يملكون المال والوعي السّياسي وقادرون على قلب الطّاولة في كلّ آن وحين. فبن عليّ سيحمي مصالح هؤلاء قبل غيرهم وسيكون تلميذًا نجيبًا للدّوائر الماليّة العالميّة يطبّق سياستها حرفيًّا.

كان يركّز على أنّ بن علي لا يملك أيّ تصوّر اجتماعيّ أو سياسيّ جديد وسيكتفي ببعض الإصلاحات الشّكليّة لتمرير حبّة الإصلاح الهيكليّ للاقتصاد ومزيد ربطه بالمصالح الغربيّة. وسياسيًّا سيكون أخطر من بورقيبة لأنّه، منذ اللّحظة الأولى، ابتلعَ خصومَه جميعا ووضعَهم في جيب سترته بمعسول الكلام. فما الذي سيطالبون به الآن؟

3

ولئن لم تتغيّر نجلاء مع تغيّر الوضع في البلاد فإنّ زينة بدت، بعد أسابيع، أشبه ما تكون بزين العابدين مع حفظ الفوارق في مجالات العمل وطبيعة الاهتمامات وأساليب التحرّك.

ظلّت نجلاء بهيّة سخيّة. تعرف ماذا تريد من الطلياني. تمنحه كلّ ما ينقصه وأكثر ولا تزعجه في حياته. تعرف متى تظهر له ومتى تختفي. دائمًا متجدّدة لا يؤثّر فيها كرّ الأيّام ولا يمسّ روحها الحلوة المرحة. فتنة بعثها الله للطلياني كي تؤكّد له أنّ الحياة، رغم سكلّ شيء، تستحقّ أن تُعاش. كانت صورة من الوجه الرّائع للحياة، خمرةً لذيذة يستطيبها، وشاطئا دافئا يستريح فيه، وجسدا رياضيّا يهصره فيتقاطر متعة منعشة. لا تطلب شيئًا

غير الوصال، ومتى أمكن له. لا تفرض شيئًا غير أن يقودها الفارس إلى مبتغاها. هي تحت طلبه متى شاء، وإذا شاءت هي عرفت كيف يكون لها دون ضغط أو إكراه. لم تكن فيلسوفة في فكرها ولكنّها جماع فلسفة الذكاء والإخلاص واللذّة. فلسفة عمليّة حسّيّة تنضح بروحانيّة خاصّة.

أمّا زينة، فبعد أن حاولت فجأة أن تكون امرأة تغار على زوجها، لم تستطع أن تحافظ على النّسق الذي بدأت به. كان يعسر عليها أن تجمع إلى دراستها وعملها الاهتمام الذي يتطلّبه الدّفاع عن عرين أسدها. فذلك يتطلّب من المرأة الخبيرة تفرّغًا وإبداعًا وقدرة على الابتكار، ولكن أنّى يكون ذلك لزينة التي لم تتخلّ عن طموحها ولا عن سذاجتها وليس لها الوقت لتكتسب الخبرة الكافية من التّجربة الشّاقّة التي دفعتها إليها نجلاء دفعًا.

ولكن لو اقتصر الأمر على الطّموح والسّذاجة لهان. فقد حدث لزينة ما لم يكن في حسبانها وتواطأت في ذلك مع نجلاء. اعتبر الطلياني ذلك تواطؤًا أفسد علاقته بنجلاء وبدأ ينذر بالقطيعة مع زينة.

قالت له نجلاء إنّها تصرّفت مع صديقتها بما أملاه عليها واجب الصّداقة وضمير المرأة التي تتعاطف مع بنت جنسها. مازالت زينة صغيرة، في الرابعة والعشرين، غيرُها لم ينه الأستاذيّة بعد. ولا يمكن للمرأة أن تنفتح شهوتها ويتحرّك فيها ذاك الإحساس المعجز إن لم يطلبه جسدها وترغب فيه نفسها. أمّا ما وقع فهو حادث طريق عاديّ كان ينبغي معه إزالة حجر العثرة لتستمرّ في طريقها الذي اختارته ورغبت فيه.

اتّهمته بأنّه مثل جميع الرّجال لا يرى إلّا مصلحته ورغبته حتّى على حساب المرأة التي يقاسمها الفراش. كانت متنمّرة في الدّفاع عن زينة بشكل لم يتخيّله. تخونها مع زوجها وتدافع عنها؟ تدافع عن أخطائها مع زوجها وأنانيّتها وتفكيرها في نفسها. أقسم لها أنّه لا يفهم من مواقفها

شيئًا. وأقسمت له أنّه لن يقدر على فهم ما هو أبعد من المواطن الحسّاسة في جسد المرأة. أحسّت بأنّها قست عليه فأضافت كلمة «تقريبًا».

ذكّرها بأنّه من المدافعين عن النّساء ولكنّه لا يقبل ما فعلته زينة. لقد خيّبت أمله وداست رجاء دفينا في نفسه. لا مبرّر عنده مقبولاً، لا الدّراسة ولا الرّغبة. كان عليها على الأقلّ أن تعلمه وتستشيره. قد يختلفان. قد يحتكمان إلى نجلاء أو إلى غيرها. لا يقبل أن يعامل كغريب أو كطرطور أو كزوج مخدوع لا يعلم شيئًا إلّا بعد وقوع المصيبة.

4

عادت زينة يومًا إلى البيت مرهقة وقد اعتقد أنّها ذهبت إلى المكتبة الوطنيّة. كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا لم يذهب الطلياني بعد إلى الجريدة. كانت نجلاء معها. رأى في عيونهما شيئًا كأنّهما يداريان حرجًا أاو يخفيان عنه خبرًا.

اكتفت نجلاء بإعلامه بأنّ زينة مريضة وعادت للتّوّ من الطّبيب. سأل عن المرض فأخبرته زينة بأنّه مرض نسائي يتطلّب راحة يوم أو يومين وهي ترغب في أن تنام.

فتح عبد النّاصر النّافذة لتهوئة الغرفة. رتّب الفراش لزينة. أحضر لها ملابس النّوم، في حين كانت هي مع نجلاء في المطبخ. سمعها تتوسّل إليها أن تصيب بعض الطّعام، « عصير وخبز وزبدة. سمعها تقول لها إنّ جسمها ضعيف ولا بدّ لها أن تأكل.

عاد عبد النّاصر ليستفسر عن أحوالها. كان وجهها مصفرًّا وكانت قواها خائرة. تحاملت على نفسها وساعدتها نجلاء لتغيّر ملابسها وتلازم الفراش. أعطتها قرصا.

غمز عبد النّاصر نجلاء داعيًا إيّاها إلى قاعة الجلوس. سألها عمّا

أصاب زينة. فلم تقدّم له معلومة جديدة وركّزت على مرضها النّسائي وأنّها سترتاح آخر هذا اليوم أو غدًا وعليه ألّا يقلق.

اتّخذت نجلاء موقع عبد النّاصر في الفراش واتّكأت مع زينة بعد أن اتّفقت معها على إعداد حساء خضر في الغداء وشيّ كبد خروف ستشتريه من القصّاب الموجود قرب الدّار. سمع عبد النّاصر الحوار بينهما فأسرع ليحضر لوازم الحساء وبعض اللّحوم. عاد بالمشتريات فأعلمته أنّه بإمكانه أن يذهب إلى عمله وستبقى هي مع زينة. كان ذلك في الأسبوع الأخير من عطلة الشّتاء.

تصوّرَ في أوّل يوم أنّ مرضها هو الّذي جعلها متوتّرة مهمومة. فذهب ألقُها وتلبّدت الغيوم في سماء وجهها الصّبوح. بدت له ساهمة حزينة. سألها أكثر من مرّة فكانت تصطنع ابتسامة تنتزعها من شفتيها انتزاعًا.

لاحظ أنّ دمعات تنزل أحيانًا من عينها فتخفيها. يجد أحيانًا عينيها حمراوين من أثر البكاء. لكنّها تتمالك نفسها وتوهمه بأنّها تدرس وقد انكبّت على أوراقها. أصبحت تتجنبه وتصدّه بدعوى الإرهاق والتّعب أو بسبب توعّك صحيّ خفيف أو تعكّر مزاج أو شعور بالضّيق.

حاول مع نجلاء أن يفهم حالة زينة. ولكن لا جواب. كانت نجلاء، بحرفيّة وإتقان، تقلب سؤاله عليه متّهمة إيّاه بأنّه لم يعد يرغب فيها ولا يشتهيها. فيقع في شركها، يبرّر ويكذب ويعد بقضاء أوقات حلوة.

لم يعد عبد النّاصر يحتمل أكثر مزاج زينة. اعتقد أحيانًا أنّ حدادها على أمّها لم يتمّ كما ينبغي أن يكون. ذهب المرض وظلّ تعكّر المزاج على حاله. كان يحدس أنّ شيئًا وقع تخفيه عليه كلّ من زينة ونجلاء. لم يتبيّنه. هل حدّثتها عن علاقتهما؟ هل نقل إليها مرضًا جنسيًّا ما كان عند نجلاء وسبّب لها المرض النّسائي الذي تحدّثتا عنه؟

5

عاودت الطلياني حمّى السّهر خارج البيت مع سي عبد الحميد أو بعض الأصدقاء من الصّحفيّين والفنّانين والجامعيّين والمثقّفين. كان يحبّ تلك اللّقاءات التي تجعله يكتشف أناسًا يفكّرون بطريقة تختلف عنه. لكلّ واحد منهم قصّة ومسار وأسلوب يميّزه. ولكنّ بؤس المجتمع يجعلهم كالقطرس الذي لا يستطيع الطّيران، يعيقه جناحاه اللّذان جُعِلاَ أصلاً لتلك المهمّة. فكثير من الثّقافة والفن في هذه البلاد يسبّب بلاء كثيرا يبدأ بمعاقرة الخمور ليصل إلى الجنون مرورًا باليأس والإحباط والسّأم وضروب من العدميّة غير المبدعة. عُصَابيّون يصرّفون عصابهم كلٌّ بطريقته. يعثر أحيانًا على حسناء بينهم تغرق في الخمرة أو تخفي خجلاً مّا أو عقدة نفسيّة تعظم أو تقلّ بحسب الحالات. يعرف عادة أن بها سوسة مأساة تنخرها.

كان حسنه ولسانه الذي يغزل الحرير كافيين ليصل إلى أيّة غادة منهن. كثيرًا ما كانت الواحدة منهنّ، حتّى أمام صويحباتها، تبادر ولا تتمالك نفسها أمام يوسف تلك المطاعم والمقاهي والحانات.

عرف الكثيرين خلال تلك الأيّام التي غرقت فيها زينة في عزلتها الجديدة مع الكتب والأوراق أحيانًا ومع نفسها وحكاياتها التي تداريها أحيانًا أخرى.

يعود في اللّيل فيعاين عليها أمارات التّعب والأرق والسّهاد. يسألها عمّا بها فتكتفي بزفرات وتخفي وجهها. يسمعها أحيانًا تشهق شهقات تخفيها أو تمسح دموعًا بيديها. تنام نوما مضطربًا.

بدت له، من خلال معاينته لها ومراقبته لسلوكها وتصرّفاتها ووجهها وهيئتها، تعيش حالة اكتئاب. على الأقلّ من البيّن أنّها تشعر بتعب وقد وهن منها الجسم ولكنّها تغالب نفسها لتجلس على الطاولة للمراجعة والدّراسة.

تصيبها خلال الأيّام الأولى بعد عودتها المفاجئة مع نجلاء، نوبة من الحمّى تعالجها بالأدوية. تشكو من أوجاع في الجهة اليسرى من الظّهر. أوجاع قاتلة تتلوّى بسببها كالدّجاجة المخنوقة. لم يكن «البراسيتمول» كافيًا لإزالة تلك الآلام. شكت بعد أربعة أيّام تقريبًا من مغص في البطن وانقباض. خاف عبد النّاصر عليها كثيرًا حين أعلمته، وهي تتوجّع وقد اصفرّ وجهها، بأنّها تشعر بوخز في فرجها في المهبل تحديدًا كما لو كانت مسامير تدقّ هناك. ألحّ على مرافقتها إلى الطّبيب. كان ذلك في الصّباح حوالي العاشرة لكنّها أصرّت على أن يطلب نجلاء لتكون معها ورفضت أن يرافقها هو.

أعدّت لها نجلاء منقوع ترنجيّة ساخنًا. اتّفقت معها على أن تبقى بجانبها خلال الأيّام القليلة التي بقيت من العطلة.

تغيّر الجوّ في الدّار. ملأت نجلاء بأنوثتها الفيّاضة الفضاء وعمّرت البيت بمرحها وبهجتها. أصبحت تعتني بزينة كأنّها ابنتها وبالطلياني كأنّه زوجها!. لم يعرف من أين تأتي بتلك الطّاقة كلّها، تلك الطّاقة على العطاء وقلب النكد بهجةً. إنّها آسية فعلاً. لقد بدأت زينة تتماثل للشّفاء وتبرأ من علّتها لو لا غلالة من حزن ظلّت تلفّ وجهها.

6

أهمّ ما فعلته نجلاء، حين أصبحت سيّدة البيت، هو السّهر بنفسها على إعداد حفل رأس السّنة الجديدة. قرّرت أن يكون في الدّار بعد أن عبّرت عن عدم رغبتها في السّهر لا في مطعم ولا في نزل. ولكنّ السّهرة انقلبت نكدًا افتتحوا به السّنة الجديدة 1988.

أحضر كعكة الحفل التي تمكّن من الحصول عليها بشقّ الأنفس. وجد كعكة صغيرة تفي بالحاجة لدى «مرطّبات بن يدّر» بباردو بعد أن

يئس. ففي كلّ مكان زحام وتهافت. فكّر في اقتناء «فاشران» جاهز من مغازة «توتة». أضاف إلى الكعكة كعكة المثلّجات تلك.

كان قبل يومين قد اشترى ما يكفي من النّبيذ والبيرة إضافة إلى قارورة الويسكي التي أهداها له صديق جلبها من فرنسا.

لم تعدَّ نجلاء شيئًا. جلبت كلّ شيء جاهزًا من دار أبيها. فأيادي خالتي «نعيمة»، أمّها، تصنع العجب بأقلّ ما يكون. أعلمته أنّ كلّ تلك الطّواجن والسّلطات والمصليات من صنع إحدى أخواتها، الوسطى تحديدًا، بتعليمات وتوصيات منها هي. قال في نفسه يبدو أنّها عائلة بنات ماهرات في كلّ شيء. أراد أن يمزح مع نجلاء إلّا أنّه تذكّر أنّ زينة معهما تغالب كدرها لتشاركهما استقبال السّنة الجديدة.

كان الحديث، كجلّ أحاديث تلك اللّقاءات، أشتاتا بحسب ما يرد على الخواطر. يسير في كلّ اتّجاه دون نظام. أخرج عبد النّاصر مخزونه من النكت الخضراء وغير الخضراء. شاركته نجلاء بما حفظته من نكت عادل إمام ومسرحيّاته وبالخصوص مسرحيّة «مدرسة المشاغبين». ضحكوا كما لم يضحكوا من قبل. انتقلوا للحديث عن أمانيهم في السّنة الجديدة. أمانيهم لأنفسهم. اتّفق ثلاثتهم على تمني النّجاح لزينة كي تصبح أستاذة مبرّزة وتدخل الجامعة. برّرت زينة ذلك بأنّه حلمها الذي تريده أن يتحقّق. برّرته نجلاء بأنّ زينة تستحقّ كلّ الخير وقد تعبت لأجل مبتغاها ذاك وسهرت اللّيالي. أمّا الطلياني فقد برّره تبريرًا لم يعجب زينة. أحرجها وسبّب امتعاضها وترك نجلاء تبتسم وترتبك قليلاً.

كان نجاح زينة بالنّسبة إليه بداية حياته الحقيقيّة لأنّها ستنتهي من حكاية التّمييز بين الصداق والزّواج وتستعدّ لإنجاب بنت رائعة ذكيّة مثلها. ذكر أنّه يحبّ البنات لأنّه يعتبر، كما قالت الأغنية، أنّ المستقبل امرأة ولأنّ المرأة التّونسيّة مفخرتنا الأولى أمّا إذا كان ولدًا فسيكون مناضلاً مثل أبيه.

سارعت نجلاء إلى تغيير الموضوع قائلة:

- «وأنا هل نسيتموني؟ أنا أحبّ أن أجد زوجًا مخلصًا رائعًا ويكون صديقًا لعبد النّاصر وشبيهه.. حتى لا أغار من زينة».

ضحكت زينة ووافقتها مضيفة:

- «أنت قلبك كبير وستجدين من يستحقّك».

التفت إليها عبد النّاصر مازحًا:

- «أنا آخر منتوج من نوعي. لقد أُغلق مصنع « زينب» أبوابه منذ سنوات..

ثمّ أردف:

- «لا حلّ لك إلّا بصعود الإسلاميّين إلى الحكم بعونه تعالى. حينها سيرخصون لنا في الزّواج بأربع فتكونين أنت الثّانية عدا ملك يميني.. ويساري أيضًا».

قهقهت نجلاء قائلة:

«أشهد أنّـي أوّل مَـن آمن بالإسلاميّين.. سأصوّت لهم في الانتخابات».

أمّا زينة فقد خرجت من حزنها، للحظات، وقرصت عبد النّاصر من فخذه قائلة:

- «موافقة على نجلاء فقط. ولكن هل أنت قادر على الجمع بين امرأتين؟».

أجابها عبد النّاصر مواصلاً الفذلكة في الظّاهر أمّا سريرته فلا تعلمها ربّما إلّا نجلاء:

- «أمامنا نهاية أسبوع طويلة من الخميس إلى الأحد سأجرّب بمرافقتك خلالها ثمّ نقرّر حين يصل الإسلاميّون إلى الحكم. ما رأيك؟».

لم تعرف زينة كيف تجيب. التفت إلى نجلاء يسألها فقالت بتخابث:

- «حين يتهلّل وجه زينة ثانية وتبلّ من مرضها سنرى».

ما إن ذكرت المرض حتى أصرّ عبد النّاصر على الاستفسار عمّا وقع. كان إصراره غير عاديّ. صارحهما بأنّه يشعر أنّ في كلامهما سرًّا لا يفهم لم تخفيانه عنه. فزينة زوجته ويراها منذ مدّة في حالة غير طبيعيّة بكوابيسها ودموعها وأرقها وأوجاعها. أكّد لهما أنّ من حقّه أن يعرف وأنّه يحبّ زينة ولا يمكن أن يراها على تلك الحال ويسكت كما لو كان الأمر متعلّقًا بجارة. لمّح إلى أنّه رأى أشياء خاصّة جدًّا «نسائيّة» كما قالتَا لم يعهدها. فقد طالت فترة الحيض ولمح دمًا متكبّدًا حين ساعد زينة، مرّة، على مغادرة غرفة الاستحمام.

اعترف لهما أنّه قرأ دليل استعمال المضادّ الحيوي الذي تستعمله والأقراص التي توقف السّيلان. ذكر أنّه ليس طبيبًا ولكنّه يعرف أنّه دواء للتّعفّن. وله افتراضات وحدوس لا يريد أن يصدمهما بها.

ظلّت زينة ونجلاء تنظران إلى بعضهما البعض. كانتا تعرفان ذكاء عبد النّاصر ولكنّهما لم تصدّقا أنّه قد ربط بين هذه القرائن كلّها. لاحظتا أنّ مزاج عبد النّاصر بدأ يتعكّر. أشارت نجلاء إلى زينة برأسها ألّا تخبره. سعت إلى تغيير الموضوع لكنه حرن ولم يتزحزح قيد أنملة. ذهبت نجلاء لإحضار طبق آخر من المطبخ. حين عادت وجدت زينة تتمّ كلامًا قد بدأته:

.. فلم يكن أمامي من حلّ إلّا الإجهاض».

7

ظلّت نجلاء واقفة مندهشة. جالت ببصرها بين زينة التي وضعت رأسها بين يديها منهارة تنساب دموعها على خدّيها وبين عبد النّاصر

الذي بدأ يضغط على فكّيه ويمسّح أنفه وشاربيْه وشعر لحيته. صَمَتَ صمتًا مرعبًا، وبكتْ بكاء مرّا.

سعت نجلاء إلى تغيير الحال. جلست قرب زينة. جذبتها إليها. أخذت تدعوها إلى كفكفة دموعها والكفّ عن البكاء. خاطبت عبد النّاصر راجية منه أن يترك الموضوع ليوم غد حتى لا تفسد السّهرة.

ابتسم مستهزئًا وشرع في إطلاق الرّصاص، رصاص من الكلمات القاسية. اتّهم زينة بالتّفكير في مصلحتها الشّخصيّة دون مراعاة مشاعره ونظرته إلى الأشياء قال لها:

- «كان ابنا مشتركًا فلم اتّخذت القرار وحدك؟ لم غلّبت طموحك على رغبتي أنا؟».

حين طلبت منه نجلاء أن يتفهّم دوافع زينة اتّهمها بالتّواطؤ معها وأقسم أنّها هي السّبب في حثّها على الإجهاض. تماسكت وردّت عليه:

- «أنت تعرف أنّ لزينة شخصيّة مستقلّة، ومن الإهانة أن تجعلها تابعة لي».

لم يعرف كيف يردّ عليها. فثمّة توازن دقيق في تلك الوضعيّة. وكلّ اختلال سيجعلهما تتضامنان ضدّه. قرّر ألّا يدخل في لعبة شقّ الصّفوف. فقد حصل ما حصل ولا فائدة من فتح جراح جديدة.

طلبت منه نجلاء أن يراعي مشاعر زينة. فهي تشعر بالذّنب والأسف. أفكارها مشوّشة عدا التّعب والإرهاق والانهيار النّفسيّ. ذكّرته بأنّها تتصوّر أكثر منه مشاعر المرأة وإحساسها بالخواء والنّدم الذي يأكلها.

أخذ عبد النّاصر يصفّق هازئًا:

- «محامية بارعة.. برافو.. برافو..».

ترجّته بحزم أن يكفّ عن الاستهزاء لأنّ الأمر جدّي أكثر ممّا يتصوّر. تدخّلت زينة بعد صمت طال:

- «هب أنني أنانيّة كما تقول.. وتصرّفت في جسدي بحرّيّة دون استشارتك. الآن، وقد علمت بكلّ شيء، اِفعل ما تريد.. قرّرْ، سيدي القاضي، ومُرْني. سأنصاع إلى أوامرك».

حدّثته حديثًا مؤثّرًا عن مشاعر الأمومة التي تحرّكت فيها. قالت له إنّه لن يستطيع أن يعرف لذّة سيلان قطرات الحليب من ثدييها وما الذي يخلّفه لديها من شعور قويّ بالنّدم وإحساس فظيع بالذّنب. بدأت تتحدّث عن أنّها لم تعش الحداد على أمّها كما ينبغي لها أن تعيشه، وها هو حداد ثان على ابنتها التي كانت محتملة أو ابنها الذي كانت سترى فيه عبد النّاصر. صرخت في وجهه:

- «يكفيني حدادان وندم وأوجاع وشعور قاسٍ.. أحسّ بذلك في جسدي وليس مجرّد فكرة في ذهني. أتعرف ما معنى الوجع في الأحشاء؟ ما معنى تمزّق الرّوح والنّفس؟ أتعرف.. أتعرف...

انهارت زينة في ما يشبه الدّوخة. فقدت الوعي. أسرع عبد النّاصر يرشّ الماء على وجهها. أحضر قارورة العطر التي قرّبها من أنفها لتشمّها. بخّ منها على وجهها وفوق شفتها العليا. أخذتها نجلاء إلى الفراش.

بعد أن اطمأنّ على زينة فتح التّلفاز يشاهد برنامجًا غنائيًّا في القناة الإيطاليّة. شرب كثيرًا وحده. بدأ سنته الجديدة بالسكر. بعد ساعة التحقت به نجلاء هنّأته بالسّنة الجديدة تمنت له كلّ ما يمكن أن يجود به لسانها من حلو الأماني. عانقها وغرقا في قبلة عميقة. سأل عن زينة. ذهب إليها لتهنئتها ولكنّها كانت غارقة في النّوم. وغرق مع نجلاء في عسلها وعُسيْلتها. لم يناما إلّا بعد أربع ساعات من السّنة الجديدة.

لامته نجلاء على حدّته مع زينة لكن بأسلوبها الذي لا يترك له فرصة للرّدّ أو النّقاش. لوم وعتاب كالغزل الذي يضعف أمامه وينسى غضبه. كاد السّكر يتعته فتعتعته نجلاء بخمرها. كان متوتّرًا. امتصّت منه توتّره

كما امتصّت غضبه. نسي زينة النّائمة في الغرفة الأخرى وخبر الإجهاض الذي عكّر مزاجه. كيف لهذه السّاحرة ألّا تذهب بعقله؟

أرادت أن تنام، على خلاف بقيّة الأيّام، في قاعة الجلوس. أقسم الطلياني أن تأخذ مكانه حتى تعلق رائحتُها بالفراش واللّحاف والمخدّة. كانت ستذهب لتنام. تذكّر، في تلك السّاعة المتأخّرة، وعلى الرّغم من الإرهاق بسبب السّهر، يوم ذهبا إلى بيت صديقه الصّحفيّ. قال لها نعيد الكرّة في غرفة رئيف الخالية. لم تكن تعرفها. لم تدخلها ولو مرّة. فتحها الطلياني. أنارت بألقها تلك الحجرة المظلمة وغمرت رائحة أنفاسها الطيّبة جوّها المتعكّر، ضاع فيها عطر نجلاء. قالت له:

- «مكان يصلح للرّياضة والتّدرّب على فنون جديدة معك!».

8

كانت تلك الليلة آخر عهده عاطفيًّا بزينة. فقد تماثلت إلى الشّفاء التّامّ وعادت إلى عملها ودراستها. فهمت بدورها أنّ شيئًا ما تهشّم ولكنّها لا تملك الوقت ولا راحة البال ولا الوسائل للمْلمته سواء لترمي به في الخارج أو لتصلحه قدر الإمكان أو لتتعايش معه. مرّة أخرى يخذلها طموحها في الوصول إلى التّدريس بالجامعة. ولا تجد الوقت ولا الجهد لتهتمّ بحياتها وبِرَاهِن علاقتها بعبد النّاصر فما بالك بمستقبلها. حتى نجلاء، لم يعد عبد النّاصر في السّنة الجديدة يراها بكثرة. أصبحت حياته أقرب إلى البوهيميّة يقضيها بين الحانات والمطاعم وفي بيوت الأصدقاء والخليلات والمعجبات. حياة ملؤها الأحاديث والنّقاشات والشّرب والقصف والعزف والمغامرات العابرة كيفما اتّفق. لم يعد ذاك الأرستقراطيّ الذي ينتقي فرائسه. دخل مرحلة جديدة. أصبحت النّساء عنده إدمانًا كإدمانه الخمرة. نسقٌ في الحياة ظاهره بهجةٌ وحقيقته بحث

محموم عن نسيان شيء مّا. لكن ما يحسب للطلياني أنّه في ذلك كلّه كان يرخي الحبل لشهواته، لحيوانيّته التي يضطلع بها، لنزواته، لجنونه ولكنّه يظلّ، في اللّحظة المناسبة، صاحيا لا يغيب وعيه البتّة. كان كمن يستلذّ الانحدار إلى ذلك المستنقع، يوهم بأنّه يتماهى معه، يستعيد فيه بعض ما كان يراه في حيّه لدى «الباندِيّة» وأصحاب السّوابق رغم الإهاب الثّقافي والفني الذي يبدو لغير العارف. كان يسير في اتجاه السقوط، قد يترنح، قد يعثر عثرات قاتلة بيد أنّه ينتصب واقفا في اللّحظة الفارقة.

وفي هذا حكايات بعضها سمعته من عبد النّاصر وبعضها الآخر منقول عنه بسند صحيح وبعضها الثّالث عرفته على سبيل الصّدفة. وكنت أيّامها في قريتي بريف القيروان أعلّم أبناء الشّعب الفلسفة والحكمة. ولو رويت ما سمعته لتطلّب مني تدوينه ونقله بأقصى قدر من الأمانة والتّماسك مئات الصّفحات التي لا أقدر على تحريرها لطولها ولا أريد أن أفعل ذلك لأنّها استطرادات قد تضيع عنّي خيط الحكاية التي أدّت بعبد الناصر إلى فضيحة المقبرة. فالواقع أنّ الكثير منها لا يضيف لنا شيئًا عن حياة عبد النّاصر ودوافعه في ضرب الإمام الشّيخ علّالة يوم دفن سي محمود. ولكنّ الكثير منها قد يدلّ على ما عاناه عبد النّاصر وهو ممزّق بين استسلامه لتلك الأجواء البائسة في الوسط الثّقافي والإعلامي التّونسي ووعيه الحادّ بأنّها لا تثري فيه حسًّا ولا تطوّر معنى. إنّه السّأم الذي يتغذّى من السّأم والقرف الذي يتولّد من القرف. وعلى حدّ معرفتي بعبد النّاصر وشغفه بالتّجديد والتّغيير والتّبدّل وبحثه عمّا يثري أحاسيسه ومعارفه وحساسيّته ونظرته إلى الحياة فإنّ كلّ تلك الأجواء دخلها اضطرارًا لا اختيارًا. إنّها أجواء لتنمية العبث واللّامعنى وعبد النّاصر رجل جادٌّ حتى في هزله يبحث عن صميم الدّلالات وكبير المعاني حتى في أوج متعته ولذّته الحسّيّتيْن.

مفترق الطرق

1

كانت سنة 1988 بالنّسبة إلى عبد النّاصر موسومة بالعبث واللّامعنى. ولكنّه اكتشف فيها صورة أخرى مشابهة للصّورة التي كان يعرفها في حيّهم لدى صنف آخر من النّاس.

ففي الحيّ تغيّر المكان والناس. بدأ أهل الحيّ من العائلات الكبيرة الميسورة أو حتى من العائلات الفقيرة يغادرونه إلى أماكن وأحياء جديدة. ظهرت أصنافٌ أخرى من اللّهجات ووجوهٌ جديدة لا تسلك السّلوك المألوف الذي تربّى عليه أبناء الحيّ. فكنت ترى شبّانًا لا يميّزون بين بنات الحيّ والبنات المارّات صدفة من هذا النّهج أو ذاك فلا يتورّعون عن سبّ الجلالة أو التّلفّظ بنابي الألفاظ الجنسيّة التي تذكر الأعضاء التّناسليّة. لا رادع لهم حين يغازلون بنات العائلات بطريقة سوقيّة. سمع أهل الحيّ عن تواتر سرقات البيوت التي أصبحت تغلّق بعد أن كانت مفتوحة طيلة النّهار للجيران مهما تباعدت الدّيار.

في آخر النّهج يجتمع شبّان يدخنون ويتحدّثون في كلّ شيء بصوت مرتفع حديثًا موشّى بالبذاءات والسّباب. ثمّ شيئًا فشيئًا، أصبح أهل الحيّ يرونهم يفتحون قوارير الجعة وأحيانًا النّبيذ الرّخيص. يشربون جهرًا أمام الكبار والشّيوخ الذين يستعيذون بالله ويحوقلون ويلعنون ولكنّهم لا يقدرون على الحديث إليهم أو دعوتهم إلى احترام الحيّ وتقاليده.

وقد تجرّأ يومًا عمّ بشير الخبّاز على ذلك فسمع ما لم يسمعه طيلة حياته. ولولا شيخوخته لضربوه بعد أن هدّدوه.

كان خلال الصّيف، بعد أن تخفت الحرارة، يرشّ الطّريق أمام الحانوت، يضع محبس الحبق ويجلس على كرسيّه الدّوّاح الذي كان الأطفال يحسدونه عليه. يأخذ أعوادًا يركب فيها حبّات الياسمين أو الفلّ ويحيطها بورق التّوت يلفّها بخيط أبيض فيكون المشموم الذي يرشقه على أذنه. يأتي أصحابه ويجالسونه. لم يكن عمّ بشير يدخّن إلّا النّرجيلة التي يتقاسمها الحاضرون معه.

وقد رأى يومًا، في الصيف المنقضي، بعض الشّبّان متجمّعين في النّهج يتلفّظون كالعادة ببذاءاتهم التي يبدعون في استنباطها وتطويرها وتطريزها. طلب منهم أن يحترموا المارّة وأن يكفّوا عن صخبهم. من يومها أصبح الحيّ لا يرى عمّ بشير ولا محبس الحبق والنّرجيلة عند باب الحانوت. كان ذلك إيذانًا بهيمنة الأغراب و»الأقعار» على الحيّ نهائيًا. لقد دشّن الحيّ عهدا جديدا لا بركة فيه ولا خير.

تطوّر الأمر إلى شبكات وعصابات تتاجر بالخمور خلسة وتبيع أصنافا من الحشيش و»الزّطلة» والأقراص المخدّرة وتخيف الفتيات من الخروج حين يبدأ الظّلام يخيّم صيفًا أو شتاء. فللحيّ سادة جدد سرعان ما التحق بهم فريق من الملتحين الذين استعمروا مسجد الحيّ فأصبح عامرًا طيلة اليوم. كثير من المنحرفين الجدد هؤلاء هداهم الله وأصبحوا الذّراع التي تحمي إخوتهم في الدّين من بطش الأسياد الجدد. ولكنّ كثيرًا أيضًا من الوجوه الغريبة أصبحت تصول وتجول في الحيّ. وقع تقاسم دقيق ضمني للنّفوذ بين جماعة الإيمان واللّحيّ وجماعة بيع الخمور والزّطلة والأقراص خلسة. أمّا بقيّة السّكّان خصوصًا العاديّين والأصليّين، فكانوا ينظرون إلى حال الحيّ بعين الانزعاج والقلق ثمّ السّخط ولكن ما باليد حيلة.

غير أنّ الطلياني كان يعيش في عالم آخر، عالم الحلم بمجتمع فاضل تزول فيه الطّبقات وتتحقّق فيه الثّورة. كان يعتبر هذه الجماعات الجديدة ضحايا التّنمية والسياسة اللّيبيراليّة المتوحّشة التي دفعت النّاس إلى النّزوح. وكان يسمّيهم بالبروليتاريا الرثّة وهم أخطر النّاس على الثّورة القادمة لأنّه يمكن لأيّ كان من أعداء الثّورة أن يوظّفهم ضدّ أصحاب المصلحة الحقيقيّة في التّغيير. إنّهم ضحايا يصبحون جلّادين تحت الطّلب يخدمون الثّورة المضادّة ولهم من الآن صلات برجال الأمن الذين يغضون عنهم الطّرف ليحصلوا، تحت الضّغط، على نصيبهم من قوارير الخمر مجانًا فلا يطبّقون القانون إلّا إذا اختلفوا معهم في عدد قوارير الجعة والنبيذ أو عند التّطاول عليهم. ويذكر أحداثًا كثيرة كان شاهدًا عليها، خصومات آخر اللّيل بين أحد باعة الخمر وسيّارة أمن، ملاحقات على السّطوح وإخراج للأمواس والخناجر وحتّى السيوف، محاولات ابتزاز وتحويل وجهة فتاة ضائعة أو عاهرة جديدة يجتمع عليها نفر منهم للتّداول عليها ثمّ يضربونها فتفرّ بجلدها منهم.

ولولا قدرات عبد النّاصر البدنيّة ولياقته التي تمكّنه من مواجهة من يتجرّأ منهم عليه لَسلبوه مرّة ماله أو لَطعنوه غدرًا. ولكنّه لقّن أحدهم درسًا جلب له خشية هؤلاء الأسياد الجدد منه وأبعدهم عنه.

ذهب يوما إلى بيت الحاج والحاجّة لزيارة عائليّة خاطفة من باب صلة الرحم. أوقفه أحد أبطال الحيّ الجدد. طلب منه مالاً امتنع. أخرج الفتى، ولمّا يبلغ العشرين، موسى هدّده بها. كان قصيرًا يكاد لا يصل إلى صدر عبد النّاصر. أدخل عبد الناصر يده إلى جيب سروال «الدجينز» الخلفي موهمًا الفتى بأنّه سيمنحه المال وبحركة رشيقة ضرب بالبرودكان يده التي تمسك الموسى وقبض عليه ليسلّمه إلى مركز الشّرطة وهو يتوسّل له معتذرًا. سمع الآخرون بذلك. كان الشّابّ منحرفًا جديدًا لا سند له من

أسياد الحيّ الذين جاؤوا إلى عبد النّاصر يتبرّؤون ممّا فعله ذاك «الفرخ» اللّقيط.

2

تفطّن عبد النّاصر إلى أنّ ما رآه في حيّه وجد له أشباها ونظائر في عالم الصّحفيّين والمثقّفين الذين كان يجالسهم. فهم يشتغلون بمنطق العصابات والشّبكات يتصارعون في ما بينهم باللّفظ وأحيانًا بالأيدي. عالم نميمة وضغائن واغتياب وكذب ونفاق ونرجسيّات جريحة جارحة. عالم بلا أخلاق موروثة تقليديّة وبلا أخلاق جديدة تليق بحاملي القلم. يتصرّفون كـ»بانديّة» الحيّ وجلّهم لا يقرأ حتى الصّحيفة التي يكتب فيها. أمّا الكتب ومتابعة الجديد في الأدب والفكر والثّقافة فهذا مطلب بعيد المنال. كان يندهش لذلك ويتساءل كيف يمكن لمن لا يقرأ أن يكتب؟ فقد تعلّم أنّ المطالعة والكتابة وجهان لعملة واحدة. تجد الواحد منهم بلباس رثّ اشتراه من «الفريب» وعلى رقبة قميصه رطل من الأوساخ، وعلى صدريّته بقع من الزّيت. سرواله غير مكويّ. حذاؤه لم يعرف إليه شمع التّلميع طريقًا منذ أن لبسه.

يتشدّقون بأسماء كبيرة يسمعون بها. يتلقّفونها من أفواه مثقّفين أو جامعيّين فيُقحمونها في غير سياقاتها عادة. يستعملون كلمات من قاموس الفلسفة لا يدركون ما دلالتها وما قصد بها صانعوها. يتحدّثون عن أفلام لم يشاهدوها أو كتب لم يقرؤوها. أحاديث هي جزء من أطباق «الكمية» والنقل التي أمامهم يلطّفون بها مرارة الجعة أو قروصة النّبيذ المشبع بالبخّارة.

لم يكن عبد النّاصر في البداية ممّن يقبل هذا التّعدّي السّافر الصّارخ على الأفكار والمفاهيم والنّظريّات فلا يتورّع عن المجادلة والمناقشة

والتّصحيح والمراجعة. لم يفهم أنّ بين الجماعة قاعدة ضمنيّة. كلّهم يعرفون أنّهم يكذبون ولكنّهم يتواطؤون على التّصديق دون تجريح أو تشكيك. فتراهم يَعْجَبُون لتدخّلات عبد النّاصر وتصويباته. كان عندهم أنموذجًا للتّبجّح الذي يقبلونه أوّل الأمر ثمّ يصبح مزعجًا لهم. تكرّر ذلك منه إلى أن أصبح كالمصاب بالجرب لا يرغبون في مجالسته. ما إن فهم قاعدة اللّعبة حتى أصبح يتسلّى بأحاديثهم وكذبهم على أنفسهم. بل بلغ به الأمر حدّ اختلاق نظريّات ومفاهيم سرعان ما أصبحت تتداول وتنسب لأسماء فلاسفة موهومين. كان يروي لهم حكايات على أنّها من أفلام فتعود الحكاية إليه بصيغة أخرى فيبدي اهتمامًا بها سائلاً عن المخرج والممثّلين وكاتب السّيناريو فلا يجد جوابًا إمّا بسبب نسيان من شاهد الفيلم أو بسبب انتقاله إلى موضوع آخر.

كانت الصّحفيّات وأخبارهن وأسرارهنّ، والممثّلات والفنّانات ومغامراتهن وعلاقاتهنّ، الطّبقَ الرّئيسي للجلسات. هذه تعاشر رئيس التّحرير أو المدير وتلك تخون زوجها باتّفاق معه على أن يفعل كلّ واحد منهما ما يريد، وثالثة مختصّة بالتّحرّش بزملائها الصّحفيّين في كلّ مكان، بما في ذلك في المراحيض، ورابعة طلّقت زميلهم من زوجته الجميلة رغم أنّها لا تملك ربع محاسنها، وخامسة مختصّة في الإيقاع بالرّؤوس الكبيرة من السّياسيّين والنّافذين ثمّ تفاخر باستدراجهم إلى مخدعها.. حكايات من هذا النّوع لا تتجاوز النّصف الأسفل. وإنّهم ليعجبون من عبد النّاصر حين يسألهم عن الدّوافع والأسباب والمسبّبات لمثل هذا السّلوك أو حين يسخر منهم متّهمًا هذا أو ذاك بأنّه يغار ممّن يتحدّث عنهم لأنّه لا يستطيع أن يكون مكان أحدهم. فَهُمْ أهلُ عفّة وحرص على حميد الأخلاق في ظاهر الحكاية وحالمون تغذّيهم الاستيهامات ليصلوا إلى هذه أو تلك. وهو ما يراه عيانًا حين تجالسهم امرأة من دنيا الثّقافة أو

الصّحافة. ترى القضبان قد استوت واقفة والشّهوة تكاد ترسل حِمَمًا من العيون.

باح عالم الصّحافة والثّقافة لعبد النّاصر بأسراره كلّها. أصبح يراه مارستانًا كبيرًا دمّر نزلاءه بالأكاذيب والأوهام والخمرة والكبت والزّطلة أحيانًا. زال الفارق الكيفي بين حملة الأقلام والفكر وحملة الخناجر وباعة الخمر خلسةً.

3

كان سي عبد الحميد يقول في بعض جلساته بعد أن يكون قد كتب في عدد الصّباح مقالاً أو افتتاحيّة أو عمودًا في مدح بن عليّ المنقذ صانع التّغيير:

- «العامّة بمحافظتها وفقرها وجهلها ترى فيه الخلاص، والنّخبة المثقّفة تزايد على الحسّ الشّعبي لتصوغ التّفاهة والغباء بكلام منمّق».

كان عبد النّاصر يطرق مخفيًا ابتسامته. يفهم عنه سي عبد الحميد موقفه فيواصل.

- «طبعًا كلّنا براغ في هذه الآلة الضّخمة، آلة تعميم التّفاهة والكذب. أنا طيلة حياتي لم أعرف مهنة غير هذه. ماذا تريديني أن أفعل؟ خبزة مرّة، وفصام عليّ أن أتحمّل مسؤوليّته وإلّا جننت فأنقل إلى مستشفى «الرّازي» أو أنتحر أو أصبح معارضًا. وكلّها ضروب من الجنون لا أقدر عليها. لقد صفر القطار وانطلق مسرعًا منذ مدّة».

يومها بدأ سي عبد الحميد يقترح على عبد النّاصر أن يبحث لنفسه عن مخرج من هذا الوضع لأنّه يراه سيغرق في الوحل. كان يعتبر أنّ الدّكتاتوريّة الحقيقيّة آتية لا ريب فيها وعندها سيترحّم النّاس على بورقيبة. أكّد له أنّه لا ثقة له في نوايا بن عليّ. كان خطيرًا يستميل الجميع

ويسترضي الجميع. إنّه مستعدّ لأن يصبح قائدًا إسلاميًّا أو قائدًا عروبيًّا أو حتى قائدًا ماركسيًّا لينينيًّا المهم أن يكون «قائدًا» فيحافظ على عرشه الذي اغتصبه. لم تنزل قطرة دم ولكن هذا أخطر من تدفّق الدّماء. ليست ميزة تحسب له. لهذه البلاد قابليّة للفتح والإخضاع، ركبها القرطاجيّون والوندال والرّومان والفاتحون والشّيعة والخوارج وبنو هلال والأتراك والإسبان والفرنسيّون. توجّعتْ قليلاً ولكنّها كانت تحتضنهم بصدر رحب. ورغم قشور المحافظة والتّديّن ظلّت تمارس عهرها ولا تطلب إلّا السّتر. لقد فهم بن عليّ هذا واستوعب الدّرس جيّدًا ولن يتركها إلّا بالدّم. كان يقول في نغمة لا تخلو من النّبوءة:

- «اِنتظر. منذ الوهلة الأولى سحب البساط من الجميع. سيسوّي بطريقة ما ملفّ الخوانجيّة ثمّ يضع في الرّف بقيّة الملفّات وبعد ذلك يتفرّغ لممارسة هوايته في الإجرام».

وعد سي عبد الحميد عبد النّاصر بأن يساعده لدى معارفه من الإعلاميّين الغربيّين والمؤسّسات الإعلاميّة الفرنكوفونيّة على الحصول على صفة مراسل. كان متأكّدا من أنّ عبد النّاصر سيصبح صحفيًّا ذا مستوى دوليّ. وقد وفى بوعده حين سنحت فرصة الدّخول إلى وكالة (أ. ف. ب) بفضل وساطة من سي عبد الحميد. كان يقول:

- «هذه البلاد آلة عمياء لسحق الذّكاء».

ولم يردّ سي عبد الحميد على مقصود عبد النّاصر حين ذكر له أنّ الأذكياء أحيانًا يسحقون أنفسهم بأنفسهم إذا كانت نفوسهم كبيرة وطموحاتهم أكبر. لم يفهمه لأنّ عبد الناصر كان يتحدّث عن زينة التي تركها لتبريزها مثلما تركها لبحثها في السّنة المنقضية.

4

صار لزينة عادات جديدة بعد مضي شهرين أو ثلاثة من السّنة الجديدة 1988. تكاد تقطن في المكتبة الوطنيّة. تذهب إليها مباشرة بعد أن تتمّ دروسها في المعهد. تتغدّى في حانوت «كفتاجي» بالمدينة العتيقة، على ما أخبرته نجلاء التي اشترت سيّارة صغيرة أراحتها من النّهوض باكرًا جدًّا وأراحت معها زينة من مشقّة النّقل العموميّ واكتظاظه. تترجّل من المكتبة الوطنيّة مع زملاء لها إلى كلّية 9 أفريل لتحضر الدّروس ثمّ تعود إلى البيت. لم يكن عبد النّاصر يعرف ما تفعله بعد عودتها ولكنّه يعاين بقايَا السّندويتش والبيتزا والكوكا كولا والخبز وجبن «القرويار» أو «الرّيقوطة» ويعاين، أحيانًا، بقايا زيت زيتون في صحفة صغيرة. يجدها تغطّ في نومها ولا يلتقيان لأنّه ينهض من الفراش متأخّرًا.

وجد مرّات قليلة جدًّا أوراقًا صغيرة، تكتبها له وهو نائم، عليها عبارات من نوع «اشتقت إليك» فيفهم أنّها تريده. وكان كثيرًا ما يكسر نسق حياته الجديدة فيعود باكرًا ليؤدّي مهامّه في إطفاء نار الشّوق من باب الواجب أوّلاً ومن باب البقيّة الباقية من الأمل في علاقة سويّة معها بعد أن تنهي هذا التّبريز الذي دمّرت به أعصابه ثانيا.

يجد أحيانًا ورقة عليها: «كيف حالك؟ أنا قلقة عليك من نظام حياتك هذا. سهرك كثير وشخيرك قويّ مخيف في اللّيل». وكثيرًا ما يردّ عليها على قفا الورقة نفسها: «لا تقلقي أنا بخير. العمل مرهق ولكنّه شيّق».

وجد مرّة ورقة كدّرت يومه. فعاد إلى البيت منزعجًا ليبرّر ويناقش ويمتصّ غضبها بفصاحته التي تخونه في مثل تلك الحالات. كان على الورقة الكلام التّالي: «أعرف أنك لا تحبّ استعمال العازل ولكنّه ضروري مع كثرة علاقاتك. لذا فالرّجاء احترامي أنا على الأقلّ والحرص على صحّتي وصحّتك أيضًا، فهي تهمّني. رجاء استعمل العازل لأنّ

أصناف الأمراض المنقولة جنسيًّا كثيرة لا تؤثّر فيك ولا تفطن إليها ولكنّها تصيبني أنا. على الأقلّ لتخف من «السّيدا». لم أعد أحتمل تكرّر العدوى جرّاء قلّة وعيك بقواعد الصّحّة. قبلاتي».

كانت نجلاء قد لاحظت له الشّيء نفسه مرّة وفسّرت له أنّه نقل إليها مرضًا معديًا وبيّنت حساسيّة الأمر بالنّسبة إلى النّساء موضحة أنّ المسألة لا تتعلّق بالمرأة النّظيفة أو غير النّظيفة وإنّما كلّ امرأة معرّضة لهذه المشاكل بسبب أنّ الرّجل ناقل للعدوى حتى إن لم تبرز عنده أمارات مرض.

وعَدَا مثل هذه الوريقات التي يسمّيها عبد النّاصر «حروز» وبعض اللّقاءات التي يجامعها فيها حسب الطّلب، لم يعد بينهما فعليًّا شيء يذكر. حتى فطور الصّباح يوم الأحد أصبح مختصرًا جدًّا لسببين: أوّلهما أنّ زينة لم تعد تحتفل به الاحتفال الذي كانت تقيمه من قبل. فمنذ إجهاضها تغيّرت نفسيّتها وأصبحت متكدّرة، قلقة. وثانيهما أنّ عبد النّاصر أصبح يذهب إلى الجريدة في غياب بقيّة المحرّرين ليعدّ ملحقه الأسبوعي بهدوء قبل ثلاثة أيّام من موعد تسليمه للطبع إذ هي من الصّفحات الميّتة بلغة الصحافة لا تتطلّب تحيينًا إلّا في ما ندر وإذا طرأ طارئ عوّض الافتتاحيّة فحسب وأدخل الحدث الجديد فيها. وكثيرا ما تجتمع لديه مادّة مهمّة تكفيه لملء ملاحق شهرين أو أكثر.

وحين اقتربت امتحانات التّبريز في النّصف الثّاني من شهر ماي أصبحت الدّار بديلاً من المكتبة الوطنيّة. أحضرت معها زميلةً لها وزميلاً يأتيان من الصّباح الباكر ويغادران في ساعة متأخّرة. أتمّت زينة برنامجها مع تلاميذ الباكالوريا الذين شرعوا في إجراء الاختبارات التجريبيّة البيضاء. رفعت من نسق تحضيراتها. اشترت آلة جديدة لإعداد القهوة. أصبحت الثّلّاجة مليئة مشروبات وغلالاً وقد علم عبد النّاصر

أنّ زميلتها تقطن ضاحية باردو. كلّ يوم يأتي أخوها الصغير، عند الغداء، معه قفّة فيها ما لذّ وطاب ليتفرّغ ثلاثتهم للمراجعة. كان قد أصاب منها معهم مرّتين أو ثلاثا حين تأخّر في النّهوض من النّوم بعد ليلة سهر فيها إلى الفجر.

كان وجود زميليْ زينة في الدّار عاملاً مخفّفًا من توتّرها كأنّه منحها طاقة جديدة على العمل في هدوء وسكينة. ولعلّ شعورها باقتراب موعد المباراة الرّسميّة التي ستتوّج بعدها بطلة لمناظرة التّبريز جعلها تصنع من ضعفها قوّة ومن توتّرها هدوءًا وسكينة ومن طموحها تألّقًا وتوهّجًا.

5

كانت زينة تعود بعد كلّ اختبار من اختبارات المناظرة في تلك الأيّام الأربعة المُضنية تقفز فرحًا بما كتبت وتضع اللّمسات الأخيرة لتحضير امتحان اليوم الموالي. أمّا صديقتُها فبدت أقلّ تفاؤلاً وأمّا صديقها فيستعدّ للخيبة كأحسن ما يكون الاستعداد.

تعود بأوراقها فرحة تأخذ عبد النّاصر بالأحضان، تعانقه كطفلة تستقبل أباها، تأخذه من يده تحدّثه عمّا كتبت تريه خطاطة تحريرها، تستذكر متن نصّها. كانت تقول كلامًا صعبًا لا يفقهه جيّدًا وإن كان يجده متماسكًا مترابطًا. هو أيضًا اعتقد، اعتقادَ يقينٍ، أنّها كالعادة ستكون المتفوّقة وكان يضحك ملء شدقيْه وهو يحدّثها هازئًا:

- «دنيا واللّه! مناضلة يساريّة تمدّ يدها في يوم العلم لتتسلّم من السّفّاح بن عليّ جائزة رئيس الجمهوريّة!».

قضت الأيّام الفاصلة بين الانتهاء من امتحانات التّبريز وانتظار النّتائج نائمة تستعيد بعض قواها التي أنهكتها سنةٌ من العمل الدّؤوب المتّصل. لم تترك مصدرًا أو مرجعًا لم تقرأه، تحسّنت لغتها الألمانيّة كثيرًا، أنجزت

عروضًا مكتوبة وشفويّة وشروحَ نصوصٍ وترجمات أثارت غيرة زملائها من المستبرزين وإعجاب أساتذتها جميعًا. كانت كلّ القرائن والأدلّة تؤكّد أنّها ستكون على رأس القائمة.

لم تتوتّر إلّا في اليوم الموعود، يوم التّصريح بالنّتيجة، طلبت من عبد النّاصر أن يكون معها في الكلّية بعد الزّوال لينتظر تعليق النّتيجة. كانت حرارة شهر جوان خانقة. وكان اليوم يوم ثلاثاء. حجز في مطعم «دار الجلد» طاولة احتفالاً بنجاحها في الكتابي في انتظار نجاحها النّهائي بعد الاختبارات الشّفاهيّة.

رَأَيا زملاءها يتراكضون في اتّجاه عون الإدارة الذي فتح سبورة تعليق نتائج المناظرة في بهو المرحلة الثّالثة. اشرأبّت الأعناق تتطلّع إلى النّتائج. نظر عبد النّاصر، وكان أمامه ثلاثة أو أربعة طلبة، إلى القائمة. كانت زينة بجانبه تنتظر التّأكيد. لم يَرَ اسمها في رأس القائمة. كانت قائمة قصيرة لا يتجاوز عدد الأسماء فيها الخمسة. نظر نازلاً فصاعدًا. لا وجود لزينة. اقترب أكثر. تثبّت. دقّق. أعاد القراءة. تأكّد أنّها لم تنجح. في برهة فكّر في كيفيّة تبليغها الخبر

التفت فوجد صديقتها التي أعدّت معها الامتحان تعانقها بقوّة وهي تبكي. كانت زينة تسأل عن النّتيجة. وجوه النّاجحين والمخفقين تحملق في زينة مذهولة كأنّها لا تصدّق. خيّم جوّ من الصّمت والدّهشة.

لم تُظهِر زينة في بداية الأمر أي ردّ فعلَ. ظلّت متماسكة. ذهبت لتتأكّد بأمّ عينيها. كانت تهمّ بالنّزول إلى البهو فإذا بها تلمح الأستاذ رئيس اللّجنة قادمًا من رواق مكاتب الأساتذة رفقةَ الأستاذة التي امتدحتها في مناقشة مذكّرة الكفاءة في البحث مديحًا رائعًا. اتّجهت نحوه. تبعها عبد النّاصر. أوقفت الأستاذيْن وسألتهما ببرودة:

- «لماذا لم أنجح؟».

«جميعنا تأسّف. أنت أفضل طالبة لكنّك أخفقت في المقال، تحصّلت على اثنين من عشرين».

- «تقصد في المادّة التي تدرّسها أنتَ..

- «نعم للأسف. كانت الأوراق بدون أسماء حفاظًا على سرّيّة الاختبار».

وفي دهشة من الجميع، فتحت زينة إزارها وعرّت صدرها وأخذت تصرخ في وجه الأستاذ:

بدون أسماء يا ابن الفاجرة أَلِأنّني لم أمكّنك من نفسي بعد تحرّشك بي، ألأنّك لم تذق من عسيلتي تدمّرُ ورقتي بموضوعيّة قضيبك..

بصقت عليه. رفعت يدها. لطمته لطمةً سُمِعَ صَدَاهَا يتردّد. هاجت تسبّه وتلعنه ببذيء الكلام الذي لم يسمعها عبد الناصر تنطق مثله البتّة. لبؤة في حالة هيجان. مسكها عبد النّاصر من خلف وحملها بعيدًا عن الأستاذ الذي طأطأ رأسه وغادر الكلّية مسرعًا. بقيت الأستاذة مندهشة تنظر إلى زينة في تلك الحالة. كانت تقطّع شعرها وتبكي بكاء حارقًا. انهارت على الأرض تمزّق ملابسها. ساعدته صديقتُها على تهدئتها. اجتمع حولهم الطّلبة وبعض الموظّفين والعمّال. لم تكن الكلّية، في ذاك المساء من شهر جوان، مكتظّة بالنّاس بسبب الفراغ من الامتحانات والعمل بنظام الحصّة الواحدة في آن.

6

قضت زينة ليلتها مريضة. أحضر لها طبيب اللّيل بعد أن ساءت حالتها. حقنها حقنة لتستريح وتنام. لم تنهض بعدها إلّا في حوالي العاشرة صباحًا. تدبّر أمره لتكون نجلاء بجانبها خصوصًا أنّ عليه أن

يعيد كتابة افتتاحيّة الملحق الذي يصدر يوم الخميس بعد الإعلان عن إجراءات جديدة في مجال نشر الكتاب وتوزيعه.

أصرّت زينة على ملاقاة العميد ورئيس الجامعة والوزير إن لزم الأمر. طلب منها عبد الناصر أن تعتنيَ بصحّتها فلها الوقت الكافي للطّعن أو التّظلّم أو الوقوف أمام المحاكم إن شاءت إلّا أنّه ينبغي ألّا تقع في أخطاء تعود عليها بالوبال مثلما فعلت يوم أمس. قد يكون الأستاذ نذلاً حقًّا ولكن ما فعلته يجعلها في موقع الجلّاد لا الضّحيّة.

لم تعرف زينة كيف قضت ليلتها الثّانية. من الغد ذهب معها عبد النّاصر لملاقاة العميد. عبّر عن أسفه لرسوبها فهو يعرف تميّزها وردّ الأمر إلى لعبة الحظّ في المناظرات. أفهمته أنّها تريد مراجعة ثانية لورقتها لأنّها تشكّ في صحّة الدرجة المسندة إليها. أفهمها أنّه لا وجود في القانون للإصلاح الثّاني لأنّه يعني التّشكيك في نزاهة الأستاذ الذي يعتبر خبيرًا في ميدانه، ولا خبير يمكنه أن يراجع تقييمه الأكاديمي. وضح لها أنّ التّقاليد الجامعيّة تسمح فقط بالتّثبّت من الخطإ المادّي أي مدى مطابقة الدرجة المصرّح بها للدرجة المثبتة على ورقة الاختبار. فسّر لها الإجراء الذي يتطلّب منها تقديم مطلب عبر مكتب الضّبط ودعوة رئيس لجنة الامتحان للاطّلاع على الورقة. وعدها بأن يتثبّت بنفسه مع رئيس اللّجنة بقطع النّظر عن حقّها هي في المطالبة بذلك من عدمه.

طفق يلومها على ما قالته للأستاذ وعلى سلوكها معه. فقد رفع بالأمس تقريرًا يطلب فيه إحالتها على مجلس التّأديب لسوء السّلوك والتّطاول على الأستاذ والادّعاء بالباطل مع احتفاظه بحقّه الشّخصي في متابعتها قضائيًّا. اقترح عليها أن تتّصل بالأستاذ لتعتذر منه عساه يسحب تقريره لأنّه مجبر إداريًّا على دعوة مجلس التّأديب وإحالتها عليه مع ضمان حقّها في الدّفاع عن نفسها.

كان العميد يتحدّث هادئًا برصانة العلماء وجدّ الإداريّين، ورغم ذلك لم يخف تعاطفه مع زينة الطّالبة المتميزة. ولكنّه حين قدّم اقتراحه ذاك ثارت ثائرتها. هدّأها عبد النّاصر احترامًا للمقام. تماسكت وروت للعميد تحرّش الأستاذ بها. كان قد كلّفها دون بقيّة الطّلبة بثلاثة عروض منذ بداية السّنة ليدعوها إلى مكتبه بحجّة التّباحث معها في العرض حتى يوجّهها. وحين يغلق الباب يبدأ في مغازلتها فتتعمّد عدم فهم قصده. كان في البداية يلاطفها في الكلام فتسعى دائمًا إلى إرجاعه إلى الموضوع وغالبًا ما تنجح، ثمّ حين تكرّرت مغازلته لها وأصرّت على صدّه أصبح يهدّدها بالرّسوب وبالنّتائج الوخيمة لتصرّفها معه. أفهمته أنّها ليست لها مشكلة أخلاقيّة معه بل مشكلتها مبدئيّة بما أنّها امرأة متزوّجة (تعجّب عبد النّاصر فهذه أوّل مرّة تقول ذلك أمامه وباقتناع لكن في مصلحتها دائمًا!) وليست على استعداد لخيانة زوجها (أعجبت الكلمة عبد النّاصر وقد قالتها زينة بثقة!). ولكنّه رغم هذه التّوضيحات المهذبة أصرّ على النّيل منها. أمسكها مرّة وألصقها بحائط في المكتب وأخذ يحاول تقبيلها من فمها أو خدّها أو رقبتها وهي تمانع وحين أحسّت باهتياجه صفعته. كان ذلك آخر مرّة تزوره في مكتبه. قال لها العميد:

- «لماذا لم ترفعي تقريرًا في الإبّان؟».

- «كنت حريصة على عدم تشويه الأستاذ، فأنا هنا لأدرس وأنجح لا لأتعرّض إلى مثل هذه التّفاهات».

- «ورغم ذلك تعرّضت إليها. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا بمجرّد الكلام لا بدّ من التّوثيق كتابيًّا لاتّخاذ أيّ إجراء إداري.. على الأقلّ كان عليك الاتّصال بي لإحاطتي علمًا».

كان الأسف والحرج باديَيْن على وجه العميد ولكنّه لم يكن يريد أن يظهر لها منهما أكثر ممّا يجب. سألها:

- «هل أخبرت زملاءك أو بعضهم حينها، هل أخبرت زوجك؟».

- «لا لم أكن أريد تشويه الأستاذ. أمّا زوجي فرأيت أن أترك حياتي الشخصيّة منفصلة عن دراستي.. ثمّ بإمكانك التأكّد من سمعته.. إنّه يفعل ذلك مع طالبات أخريات».

- «لا مشكلة عندي في تصديقك ولكنّ تصديقي لا عبرة به إداريًّا. كلّ من سيسمع بالتّهم سيقول، هذه عفّة جاءت متأخّرة، بعد فوات الأوان.. للأسف».

تدخّل عبد النّاصر عندها بعد أن ظلّ ساكتًا طيلة اللّقاء:

- «سيّدي العميد إذن ماذا نفعل؟».

- «للأسف.. ليس لكم اختيارات كثيرة واقعيًّا. لا بدّ في البداية من التّثبّت من الدرجة وأرجو ألّا تكون مطابقة لما يوجد في الورقة.. الشّفاهي يبدأ غدًا سأحرص على أن أعرف الحقيقة اليوم».

تدخّلت زينة بحدّة:

- «لن تجد شيئًا. كان يعرف الدرجة ومتأكّدًا منها، وعند التصريح بالنّتيجة كانت معه الأستاذة..

- «أعرف أنّ كلامي لن يرضيك ولكنّني لا أحبّ أن أتركك تتعلّقين بسراب خلّب..

أطرق برهة ثمّ عاد ليقول:

- «ليس أمامك إلّا أن تعيدي السّنة..

أطرقت زينة قليلاً. ثمّ انتصبت واقفة كالغاضبة:

- «لا ألدغ من ذاك الثّعبان مرّتيْن.. لن يرى قبلة واحدة.. وسأدخل الجامعة رغمًا عنه».

ظلّ العميد ينظر إليها دون تعليق. وقف إيذانا بانتهاء المقابلة، سلّم على عبد النّاصر والتفت إلى زينة:

- «تعجبني شجاعتك ويعجبني إصرارك ولكن إيّاك والتهوّر».

اتجهت نحو الباب دون أن تسلّم. كان ذلك آخر مرّة تضع فيها رجليها في الكلّية العريقة.

7

أصبحت زينة تستهلك أكثر من علبتيْ سجائر في اليوم. أفرغت في بضعة أيّام قوارير المشروبات الرّوحيّة الفاخرة التي كان عبد النّاصر يخبّئها في الخزانة للمناسبات الكبرى. لم يكن مزاجها متعكّرًا. كانت هادئة تمرّ بمرحلة سكينة بيد أنّها كانت تفكّر كثيرًا وتخربش على أوراق بيضاء رموزًا وعلامات وكلمات تصعب قراءتها.

حاول أن يكون بجانبها، أن يفكّر معها. كانت تلتمس في لطف أن يتركها لحالها. سعى مرّات إلى أن يخرجا معا في نزهة أو أن يذهبا إلى مطعم أو نزل يقضيان فيه نهاية أسبوع. كانت تردّ عليه عروضه بكياسة لم يعهدها فيها. سعى، عن طريق نجلاء، إلى أن يعرف ما تفكّر فيه ولكنّه أخفق.

8

في أواخر شهر جويلية أعلمت زينةُ الطلياني أنّها ستسافر إلى باريس. ظنّ أنّها تريد تغيير الأجواء سألها عن الإقامة وإن كان لها معارف هناك فأعلمته أنّه لا إشكال من هذه النّاحية. طلب منها أن يسافرَا معًا فرفضت. قالت له:

- «أحبّ أن أسافر وحدي.. سأواجه مصيري وحدي».

لم يفهم عبد النّاصر أنّها لم تكن تقصد السّياحة. اكتفت بالقول إنّها ستتثبّت من شيء هناك لم تشأ أن تفصح عنه. يجب أن تكون وحدها.

فكّر طويلاً في الأمر والأسباب والدّواعي فاستقرّ تفكيره على أنّها ستسأل ربّما عن الدّراسة في إحدى الجامعات الفرنسيّة إن كان يمكنها أن تعدّ التّبريز عن بعد أو بالمراسلة. رأى في ذلك فكرة جيّدة خصوصًا أنّ الأستاذ الملعون لن يتركها تمرّ إلّا على جثّته.

عادت بعد أسبوع لتطلب الطّلاق لأنّها ستستقرّ في فرنسا. ضحك الطلياني في البداية واتّهمها بالجنون. قال لها مازحًا:

- «إذن ستصبحين من عمّالنا بالخارج! لنبق متزوّجيْن فربّما احتجتُ إلى الجنسيّة الفرنسيّة بعد أن تحصلي عليها أنتِ!».

كان يعرف زينة في لحظات جدّها المفرط. امتعضت من كلامه ولكنّها بهدوء أفهمته أنّها تريد الطّلاق في أقرب وقت. زادت في توضيح الأسباب قائلة إنّها لم تعد تحبّه ولا تراه زوجًا تبني معه مستقبلها. رأت طريقيْهما مختلفيْن ولا أفق يمكن أن يجمعهما. لم يكن الطلياني يصدّق ما تقوله له. كان يظنّها مجرّد نزوة. اعتقد أنّها تبحث عن صيغة لجمع شظايا طموحها المهشّم جرّاء خيبة التّبريز.

كان إصرارها قويًّا على الانفصال حتى بلغ بها الأمر إلى حدّ تهديده بخيانته مع رجل مثلما فعل هو مع نساء أخريات. لم تكن بحاجة إلى توتير الأجواء بينهما والوصول إلى الحلول القصوى. بدأت علاقتُهما بالتّراضي وينبغي أن ينتهي ما بينهما بالتّراضي. حاولت إقناعه بأنّها لن تتراجع عن قرارها وأنّها تعرف ما تفعل وما تريد وفي جميع الحالات بالصداق أو بالطّلاق لن تبقى في تونس.. ستترك كلّ شيء: الدّار والعمل والزّوج لتبدأ حياة جديدة من الصّفر. أكّدت له في لحظة وضوح ومصارحة أنّها فقدت طعم الحياة في البلاد وبدأت تشعر بحرّيتها أكثر منذ توفيت أمّها. ذكّرته بأنّها حين قالت إنّها أصبحت «أمّ نفسها» لم تكن تمزح ولم يكن ذلك منها تعبيرًا مجازيًّا بقدر ما كان خلاصة إحساس حقيقيّ.

كانت تحدّثه بهدوء لم يعهده فيها مذ عرفها. تأكّد بعد لَأْيٍ أنّها جادّة في ما تريد ولن يقف أمامها أحد. ستسير في طريقها كالإعصار.

بعد نقاشات مطوّلة وافق على ما تريد. سيتركها ولكنّه أكّد لها، بنرجسيّة الرّجل الذي لا يعرف غضب المرأة المحطّمة، أنّها ستندم يومًا ولن يقبل أن تعود إليه. أجابته:

- «أنا الآن أعيش مرحلة ما بعد الحرص والنّدم والأمل واليأس والخير والشّرّ..

صحا عقله الواعي. ضرب أخماسه في أسداسه وقال لنفسه إنّ علاقتهما انتهت منذ مدّة فلمَ يحرص على استبقائها؟ لم يعيشا حقًّا إلّا أشهرًا قليلة قبل الصداق وكلّ ما جاء بعده إنّما هو بمثابة خطّيْن أحدهما مقعّر والآخر محدّب ما إن يلتقيا حتى يفترقَا وهكذا دواليك.

انقطعت احتمالات التلاقي منذ أن اختارت الإجهاض لتمسح الوشم الوحيد الذي كان يمكن أن يكون باقيًا في حياتهما. لم تكن إذن مخطئة حين اعتبرت ما بينهما صداقًا لا زواجًا. لعلّها كانت تخطّط لذلك منذ البداية حتى قبل الإجهاض. لكن هو أيضًا تجاوز مرحلة النّدم واليأس والتشاؤم. لقد علّمته نجلاء، بل «للّا جنيْنة» من قبل، أن يفكّر، رغم الإهاب الأخلاقيّ والمبدئيّ، بعيدًا عن الثّنائيات القاتلة من وفاء وخيانة وخير وشرّ وعدل وظلم وحبّ وكره.

10

من باب الصدفة، وُضعت القضيّة بين يديْ قاضٍ تبيّن أنّه أحد أصهار سي عبد الحميد. أمكن لعبد الناصر أن يطيل الإجراءات. اعتقد أنّه من الضروريّ أن يمهلها الوقت الكافي لتراجع قرارها فوقْعُ إخفاقها في المناظرة على نفسيّتها مؤلمٌ جدًّا. لم تخف زينة تبرّمها من ذلك. تركت المعهد وقضيّة الطلاق والبلاد.

لم يبلغَا شهر نوفمبر من سنة 1989 حتّى صدر حكم الطّلاق بالتّراضي. كانت زينة، قبل ذلك بسنة تقريبا، قد أضحت في الواقع «أمّ نفسها»، حرّة تشقّ طريقها الجديدة وحدها، وحدها «تقريبا»، في إحدى ضواحي مدينة باريس... برفقة إريك. ش.

الدروب الملتوية

1

حافظتُ على علاقتي بزينة التي راسلتني وبعثت إليّ برقم هاتفها. التقينا حين زارت تونس للسّياحة مع زوجها الفرنسي الذي عاشت معه دون صداق مصادق عليه في المحاكم التّونسيّة لأنّه لم يُشْهِرْ إسلامَه على ما يقتضيه القانون في بلادنا.

رأيت إريك. ش. أوائل سنة 1990 وتحدّثت معه. هو باحث في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا مختصّ في علم الاجتماع. رجل غزير الثّقافة يفتخر بأنّه من أبناء ثورة ماي 1968، يساريّ الهوى والتّفكير ارتبط بالباحثين الذين ساروا على منهج بيير بورديو وكتبوا في مجلّته الشّهيرة التي أسّسها. وقد اختصّ تحديدًا في علم اجتماع الميديا ويهتمّ بالتوازي مع ذلك بالحركات الإسلاميّة في المغرب العربيّ.

التقته زينة أوّل مرّة مع عبد الناصر ولكنّها لم تأبه له. ثمّ تعرّفت عليه، بعد أيّام، في ندوة عقدها معهد البحوث المغاربيّة المعاصرة بتونس وكانت طالبة في سنتها النهائيّة. لاحظ فيها نباهة وعلمًا وحماسةً. استمعت إليه يحاضر حول العلاقة بين السياسة والدين في كتب المناقب فوجدت في خطابه عمقًا وجدّة ونفاذ بصيرة. دعاها إلى عشاء خاصّ فقبلت. تحدّثَا مطوّلاً في أمور الفكر والفلسفة والثّقافة فزاد إعجاب كلّ منهما بالآخر.

كان إريك من المناصرين لقضايا العرب وعلى رأسها القضيّة الفلسطينيّة. وقد بدا لي موقفه هذا مزيجًا من النّظرة الرّومنسيّة إلى الشّرق والعرب ومن الفكر اليساري المساند لقضايا الشّعوب المضطهدة. والأرجح عندي أنّه رأى في زينة بفكرها الثاقب وبجمالها البربري الذي يقرّبها في لون العيون والبشرة والقامة من الآريات ضربًا من الجمع بين صورتيْ الشّرق الرّومنسيّة والغرب بعقلانيّته وحداثته.

قد أكون مخطئًا في وصفي هذا ولكنْ ثمّة عامل آخر مهمّ. ففي سنة 1990 كانت زينة في السّادسة والعشرين من العمر وعرفها إريك وهي في الثّانية والعشرين. أمّا هو فيبدو في حوالي السّتّين قد ينقص عنها سنتيْن أو ثلاثا وقد يزيد مثلهما بلحيته الكثّة المبيضّة وشعره الرّمادي من شدّة تداخل البياض والسّواد فيه. كان أنيقًا أناقة الجامعيّين والباحثين الفرنسيّين رغم ملابسه العاديّة. ولكنّه، والحقّ يقال، ذو شخصيّة مميّزة وحديث ممتع يشدّ الانتباه مع لباقة في التّعامل. كان إذا تكلّم يتحمّس كما لو كان سياسيًّا يخطب في اجتماع عام وإذا سكت ليستمع فهو هادئ يصغي بانتباه.

وعلى حدّ معرفتي بزينة فإنّ هذا الصنف من الرّجال يغريها بثقافته ويشعرها بالاطمئنان والحماية. فهو كما هو واضح في سنّ أبيها. زد على ذلك أنّه باحث مرموق.

وقد أسرّت لي أنّها بعد العشاء معه في المطعم وانجذابهما إلى بعضهما البعض قضت اللّيل معه في غرفته بالنّزل فاحتضنها بحنوّ لم تعرفه من قبل وقبّلها قبلات أذابتها وكهربت جسدها ولولا أنّها كانت حائضًا يومها لواصلاَ إلى الفجر خصوصًا أنّه كان سيغادر في الصّباح الباكر.

كان ذلك قبيل أيّام من بداية علاقتها بالطلياني وقبيْل حادثة كلّيّة الآداب

بمنوبة. ظلّاَ بعد ذلك، يتراسلان. امتنعت أكثر من مرّة عن ملاقاته. هنّأها بنجاحها في شهادة الكفاءة في البحث. لم يقطع الصلة بها. عاد إلى تونس في فترة إجهاضها ولم يتمكّن من رؤيتها. جاء خصّيصًا لملاقاتها ولكنّها أخلفت موعدها بسبب حالتها الصّحّيّة ونفسيّتها السّيّئة آنذاك.

2

وأشهد، شهادة صدقٍ، أنّ إريك، كما رأيته، يموت في حبّ زينة ويعاملها كدرّة ثمينة يخشى أن تسقط من بين يديه. إذا تكلّمت نظر إليها بإعجاب شديد، وإذا طلبت منه شيئًا سارع إلى تنفيذه دون نقاش، وإذا كلّمته بغلظتها ورعونتها اللّتيْن لم تفارقَاها غض الطّرف بابتسامته. كان ينظر إليها مسبّحًا للرّحمان الذي برى هذه التّحفة أمامه.

أمّا هي فلم تتغيّر. ازدادت ثقةً بالنّفس وصرامةً في التعامل ونمّت فظاظتها التي نسمّيها بلهجة أبناء حيّنا «تجلطيم» ولم تتعلّم من الفرنسيّين آداب التّعامل ولا الكياسة ولا اللّطافة. ومهما يكن من أمر فماذا يعنيني أنا؟ الرّجل راضٍ سعيد بصاحبته فهل سألعب دور القاضي؟

وأكبر ظنّي، بحسب خبرتي القليلة بالنّساء ونفسيّاتهنّ، أنّها ليست مشبعة الشّهوات والرّغبات. فلا شكّ في أنّها، في هذا المجال، تقارن بينه وبين الطلياني بحكم الفارق في السّن. وهو ما يجعل إريك أيضًا يرضى بما يصل أحيانًا، حتى أمامي في اللّقاءات القليلة جدًّا التي جمعتني بهما، إلى حدّ الإهانة التي توجّهها له حتى عندما يتحدّث في اختصاصه. فهي لا تمنع نفسها من أن تقول له مثلاً «لا غير صحيح.. » أو «تحليل ساذج للظّاهرة» أو «دعك من هذه التّرهات التي ما انفككت تعيدها في كلّ مناسبة..
وكان يصمت ولا يردّ إلّا بابتسامته الدّالّة على الإعجاب. وقد تدارك مرّة أمامي الأمر قائلاً لي بعد إحدى الإهانات من النّوع الذي ذكرته:

- «تعرف، هذا العقل الجبّار الذي أمامك (يقصد عقل زينة) صوّب لي أخطاء معرفيّة ومنهجيّة لم أتفطّن إليها أبدًا... إنّها شعلة من الذّكاء..

ولست أعرف إن كان يجامل أو يعتقد فعلاً في ما يقول. ولكنّ الرّاجح عندي أنّه يجلس منها مجلس التّلميذ أمام أستاذة خالطًا بين العلم وموضوعيّته، وما بينهما من علاقة معقّدة ملتبسة.

هكذا هم الرّجال الذين يتزوّجون، حين يبدأون في فقدان بريقهم وفحولتهم، فتيات لهن نصف سنّهم وأحيانًا ثلثه. يعتقدون أنّ المرأة تعيد لهم شبابهم وهي في حقيقة الأمر تصنع منهم دُمًى مضحكة تنبطح أمام صانعها وتنصاع له انصياع المؤمن الفقير إلى ربّه.

والواقع أنّ القليل الذي عرفته عن زينة في تجربتها الباريسيّة وعن حياتها مع إريك وبعض الأخبار التي أمدّتني بها أو حصلتُ عليها من باب الصّدفة من خلال بعض التّونسيّين الذين عاشوا في فرنسا وعرفوا إريك، تمكّنني من أن أتصوّر المسار المأسويّ الذي سارت فيه والنّهاية المرعبة التي انتهت إليها. إنّها حكاية محزنة تؤكّد أنّ هذه البلاد كما يحبّ أن يقول عبد النّاصر وسي عبد الحميد تدفع أبناءها إلى الدّمار والضّياع وتقصي الأذكياء أو تصرّ على أن تحتويهم ليصبحوا مثل بقيّة النّاس وأحيانًا أقلّ. فقد ذهبت من أجل أن تصبح مبرّزة أو دكتورة وأستاذة جامعيّة فلم تحقّق من حلمها إلّا أن أصبحت تعيش في كنف إريك طفلة شقيّة يتلهّى بها وهو الشّيخ المتصابي بمعاييرنا التّونسيّة فتطلق العنان لجنونها ورغباتها التي تنتهي إلى أن تذهب بوقاره تمامًا. وعلى كلّ حال لم يعجبني المصير الذي آلتْ إليه زينة ولو بقيتْ مع عبد النّاصر لكانت حالها مختلفة.

3

مرّت حياة عبد النّاصر في مرحلة ما بعد زينة بين الجريدة التي أصبح

يبذل فيها جهدًا مضاعفًا، بحكم تفرّغه التّامّ، وبين الحانات والمطاعم وصيد الحسناوات والتّخطيط للإيقاع بهن وأحيانًا دون تخطيط. الفرق الوحيد أنّه أصبح له بيت يجمع فيه طرائده، بيت لا يشاركه فيه أحدٌ اقتناه صلاح الدّين في حيّ النصر وطلب من أخيه أن يسكنه ويعتني به كبيته تماما.

كان الطلياني يعاشر أحيانا امرأة لأيّام معدودات ثمّ يفترقان. لم تعد له أوهام عن النّساء. دخل في منطق المصالح وإن لم يتخلّ عن حسن المعاشرة. وقد عاف النساء في فترة حياته تلك. فكّر في أن يستعيد علاقته بنجلاء التي زارته في بيت نهج البرتقال فواسته وعبّرت عن وقوفها معه في محنته. ولكنّه بعد فترة قصيرة ألحقها بذكريات خيباته مع النساء.

ويذكر عبد النّاصر أنّه صار، بعد تلك الزيارة، يلتقي نجلاء بكثرة. فقد أصبحت بسيّارتها الجديدة أكثر حرّيّة في التّنقّل والسّهر وتخلّصت من عبء زينة. ولكنّ السّبب الحقيقيّ هو صديقة لها حلّاقة توطّدت الصّلة بينهما منذ بضعة أشهر. تعرّفت عليها في قاعة للرّياضة كانتا ترتادانها. ثمّ وجدت في نجلاء حريفة ممتازة بشوشة إلى أن أصبحت على عادة الحلّاقات موضع أسرارها. وقد حدّثتها نجلاء عن الطلياني بعد أن روت لها الحلّاقة أسرارًا أخرى عن علاقتها بالرّجال النّافذين في دولة العهد الجديد والسّياسيّين الصاعدين وأصحاب رؤوس الأموال.

ألحّت الحلّاقة على دعوة نجلاء إلى حفل ببيتها. فهم الطلياني أنّه حفل لانتداب الجميلات لمتعة أصحاب النّفوذ. كانت نجلاء ساذجة واعتقدت أنّها دعتها بدافع الصّداقة. نبّهها إلى هذا الاحتمال قبل ساعات من الذهاب إلى الحفل. وجدت نفسها في ورطة، إذا اعتذرت يكون ذلك منها سوء أدب، وإذا قبلت فإنّها لن تعرف ماذا سيقع وفي أيّ شرك ستجد نفسها. ألحّ الطلياني عليها بعدم الذّهاب تجنّبًا لتلك الأوساط الموبوءة

لكنّه في الواقع، على ما أسرّ لي، أحسّ بشيء من الغيرة عليها وقليل من الخوف.

تردّدت نجلاء كثيرًا ثمّ كعادتها وجدت الحلّ. يذهب معها الطلياني على أنّه صاحبها أو خطيبها أو ما شابه خصوصًا أنّ الحلّاقة سمعت عنه. ولإغرائه بمرافقتها وعدته بأنّه إذا رأى امرأة أحلى منها توسّطت له فيها! فالمهمّ أن ينقذها من هذه الورطة.

كان البيت فيلّا كبيرة بسور عال في أحد الأنهج الخلفيّة من ضاحية المنزه التّاسع. لبست لباس سهرة يبرز مفاتنها جميعًا. أمّا هو فقد لبس كسوة إيطاليّة الفصالة بنّيّة تحتها قميص أزرق زرقة السّماء ولكن دون ربطة عنق. فبدا إيطاليًّا يشكّ النّاظر إليه في أنّ له دماء عربيّةً تجري في عروقه. زاد في بثّ البلبلة في الحاضرين اتّفاقه مع نجلاء ألّا يتكلّم إلّا بالفرنسيّة طيلة السّهرة. كانا بشهادة الجميع أجمل زوجين في حفل كانت النّساء فيه أكثر عددًا من الرّجال: عزباوات ومطلّقات وفنّانات وحلّاقات. أمّا الرّجال فعدد منهم من حاملي السّيجار والبطون الكبيرة، وعدد آخر من الذين يتصنّعون الوقار ولكنّهم منذ الكأس الثّالثة يذهب الرّقص والغناء بوقارهم.

التهمتهما العيون حين دخلا. نزع الرّجال ملابس نجلاء قطعة قطعة بنظراتهم التي تفيض شهوة كشهوة الذّئاب. أكلت الحاضرات عبد النّاصر أكلاً بابتساماتهنّ وألسنتهنّ التي تجول على الشّفتين تاركة رضابهن. أحسّ بلمساتٍ باليد مثيرةٍ وهو يصافح بعضهن وغمزات مشحونة دلالاً من بعضهنّ الآخر، وضغطًا أشبه بالقرص على الذّراع عند التّحيّة أو على الفخذ أثناء تبادل الحديث وهو جالس.

كان نصيبه من الحلّاقة غمزًا ورضابًا على الشّفتين وقرصًا إلى حدٍّ تفطّنت معه نجلاء إلى مساعيها في الإيقاع به. التفتت إليه بحذقها وخبرتها سائلة إن كانت قد أعجبته. فهمس في أذنها:

- «شفتاها كأذنيْ فيل هنديّ..

ظلّت طيلة السّهرة تسأله عن رأيه في كلّ واحدة، وفي كلّ مرّة يرى عيبًا من العيوب. تعمّد ألّا يتركها وحدها حتى لا ينقضّ عليها أحد الكواسر. دعتها الحلّاقة إلى باحة قرب المطبخ فالتحق بهما الطلياني. فهم أنّها تخطّط لشيء فقرّر أن يغامر بإسقاط الحواجز كلّها. اقترب من الحلّاقة قائلاً:

- «شكرًا سيّدتي على دعوتك لنا. لكن هل توجد غرفة لنا؟».

فوجئت الحلّاقة بطلبه ولكنّها، وهي الخبيرة في ما يبدو بالرّجال، أجابته دون تردّد:

- «نجلاء أختي. والغرفة التي سآخذكما إليها ستكون لكما متى شئتما».

اصطحبتهما إلى الطّابق العلوي. أرتهما الغرفة والحمّام. أغلقت وراءها باب الممرّ المفضي إلى الأدراج وانسحبت. حين عادًا قالت لهما:

- «بالصّحّة والعافية. لا تنسيَا أنّني جادّة في تمكينكما من تلك الغرفة متى رغبتما في ذلك».

كان الانطباع العام أنّ وجود الطلياني قد أزعج الرّجال الحاضرين بقدر ما أزعج وجود نجلاء النساء اللواتي كان بودّهن التهامه. ولكن للسّفن أن تشتهي وللرّياح أن تهبّ كما يحلو لها.

خلال السّهرة عرف عبد النّاصر الحاضرين فردًا فردًا من رجال الأعمال وكبار الموظّفين في الدّولة وأكبرهم مكانة هو كاتب للدّولة شابّ يتميّز ببعض الغباء إذ طفق يرقص وسمح لإحدى الحاضرات بتصويره. ولكنّ أهمّ اكتشافاته إحدى المناضلات الكبيرات في جمعيّة تعنى بالأمّهات تأكّد بعد مدّة أنّ سي عبد الحميد يعرفها وأنّها مختصّة

في جلب النّساء، متزوّجات أو مطلّقات أو عزباوات، إلى أسرّة الوزراء ليزيلوا التّوتّر والتّشنّج اللّذيْن يسبّبهما لهم العمل في حكومة سيادته، صانع التّغيير، رجل العمل والكدّ والبذل من أجل الوطن. اعترف له سي عبد الحميد في لحظة مسارّة نادرة أنّه تمتّع هو نفسه ببعض ما جادت به عليه يداها البيضاوان. وعلى كلّ حال فهي امرأة علاقات عامّة واتّصال. أسرّ له بأنّ لها حظوة ومكانة لدى سيادته ولها شبكة من العلاقات الوطنيّة والدّوليّة أهّلتها لأن تحظى بثقة الرّئيس الذي كلّفها، رغم حذره الفطريّ، بمهامّ صعبة تمكّنت بفضل حنكتها وحسن تدبيرها من تنفيذها بسرعة وإتقان. قال له سي عبد الحميد بنبرة النبوءة التي يتصنّعها كلّما اعتقد أنّه يراهن على شيء مّا لا ينتظره الآخرون:

- «هذه المرأة على بشاعة منظرها تتمتّع بثقافة مهمّة في الحياة وسيكون لها شأن كبير».

تلك الأمسية مع نجلاء أخرجت الطلياني من أجواء المطاعم والحانات الموبوءة في لقاءات مع أهل مهنته ومن شابههم. وأخرجته كذلك من حياة نجلاء نهائيّا.

لم يعرف كيف انساقت وراء الحلّاقة وعالمها وأيّ متعة وجدتها فيه. حين تفطّن إلى ذلك كان الأوان قد فات. دخلت نجلاء، في كآبة دائمة فقدت معها ابتسامتها والطّاقة التي تبثّها في أيّ مكان تدخله. أصبحت جسدًا بلا روح، آلة لذّة لطالبيها تتصرّف بطريقة متصنّعة كما لاحظ عبد النّاصر في بعض اللّقاءات التي جمعتهما قبل أن يفترقَا إلى الأبد.

احترفت العهر ببطاقة شبه رسميّة. أصبحت تلعب في ميادين واسعة مع قروش كبيرة في المال والسّياسة. صارت المفضلة لدى المناضلة الكبيرة في جمعيّة الأمّهات، تدفعها إلى أن تكون أمًّا لكلّ يتيم من أبناء بن عليّ تساعده حتى يؤدّيَ مهامّه الجليلة من أجل الوطن في دولة التّغيير المبارك والعهد الجديد السّعيد.

انتهى كلّ شيء بين عبد النّاصر ونجلاء، وبدون ضجيج، لأنّه أصبح يعافها ويشمّ في جسدها روائح عفنة لأصناف من الرجال الذين لا يطيقهم رغم لترات العطور التي تستحمّ بها. ذهب رونقها في عينيه رغم أنّه ظلّ بالنّسبة إليها الرّجل الوحيد الذي يثيرها حسًّا ومعنى. أفهمته ذلك فأعلمها بأنّه لم يعد يستطيع أن ينافقها. حاولت مرارًا ولكنّها فهمت أخيرًا أنّ القصّة قد انتهت وإلى الأبد.

4

بعد انتخابات أفريل 1989 التحق عبد النّاصر بوكالة فرنسا للأنباء (أ. ف. ب) وقضى أكثر من سنة وبضعة أشهر في مكتبها بتونس إثر وفاة الحاج محمود. ثمّ سافر إلى أماكن أخرى سمعتُ مجرّد سماع أنّها قبرص والسّودان والصّومال ولبنان والعراق ثمّ عاد إلى تونس سنة 1994 ليفتح شركة « عيون» للاتّصال والإشهار والإعلان ويبدأ حياة أخرى أغرب ممّا أرويه الآن.

أمّا ظروف هذه الهجرة فسأعود إليها لاحقًا، وأمّا عن أسباب العودة فليس لي الخبر اليقين. حاولت أن أستجليَ الأمر من عبد النّاصر نفسه ولكنّني فهمت من طريقته في الكلام ولفّه ودورانه أنّه لا يريد أن يتحدّث في الأمر.

غير أنّ ألسنة السّوء أجمعت على أنّه طُرد من (أ. ف. ب). وظلّت أسباب الطّرد تُتَناقل دون دليل أو يقين. فبعضهم تحدّث عن اشتراء جهات استخباريّة في لبنان أو العراق لعبد النّاصر وحين بلغ النّبأ إدارة (أ. ف. ب) أطردته. وهذا مستبعد جدًّا عندي. فلا أظنّ أنّ الوعي السّياسي الذي يملكه عبد النّاصر يمكن أن يوقعه في هذه الألاعيب الحقيرة. فهو كان يجنّد الخلق لمّا كان طالبًا ويعسر تجنيده.

وهناك تقوّلات أخرى لا فائدة من ذكرها. فكثير من الصّحفيّين يزعمون أنّ عبد النّاصر بدون سي عبد الحميد لا يساوي شيئًا. ولم يفهموا العلاقة بين الرّئيس المدير العام وهذا المصحّح الذي أصبح، بين ليلة وضحاها، صحفيًّا لامعًا. فألطف هذه التقوّلات وأشدّها بذاءة في الآن نفسه (بذاءة تصل إلى حدّ النّذالة والتّشويه على سبيل التّشفّي) تزعم أنّ لسي عبد لحميد ميولاً مثليّة. ولكن مثل هذا الكلام لا يأبه له العاقل عمومًا ولا يمكنني أن أقبله بتاتًا، لأنّ عبد النّاصر لم يكن، خبرا وعيانا منذ نشأتنا في الحيّ، شاذًّا بأيّ شكل من الأشكال لا فاعلاً ولا مفعولاً به.

إنّ مثل هذه الاتّهامات لا تأتي إلّا من السّوقة والعوامّ لا ممّن يميّزون ويَزِنون كلامهم بميزان من ذهب. وربّما كان مثل هذا الحديث فلتة من الفلتات الحاقدة في جلسة خمريّة من تلك الجلسات التي ينفس فيها صحافيّونا ومثقّفونا وفنّانونا عن مكبوتاتهم ومركّباتهم ويطلقون العنان لخيالٍ مريضٍ وأوهام بائسة.

إنّني أميل إلى اعتبار هذا حديث خرافة لا ينطلي على من بقيت له مسكة من عقل. وأقرب الأقاويل موافقة للواقع، لما فيها من معقوليّة، ما راج عن دور سي عبد الحميد في دخول عبد النّاصر إلى (أ. ف. ب). وهي أقاويل، رغم أنّها محتملة، قلّما تتردّد في شأن عبد النّاصر. ولا عبرة هنا بالتّواتر لأنّ مجتمع الصّحافيّين مجتمع أحقاد وغيرة وحسد. فسي عبد الحميد معروف في الأوساط الصّحفيّة وأوساط المراسلين الدّوليّين في تونس وله صلات بالصّحافيّين الفرنسيّين الذين يقدّرون كتاباته ويعتبرونه، كالتّونسيّين تماما، من المراجع الكبرى في الصّحافة التّونسيّة باللّغتين. أضف إلى ذلك مكانته المتميّزة باعتباره مشرفًا على جريدة حكوميّة هي الأكثر مبيعًا وتعبيرًا عن توجّهات الدّولة.

وقد يكون المسؤول عن مكتب تونس احتاج إلى إثراء الفريق العامل

معه خصوصًا أنّ البلاد شهدت تحوّلاً مهمًّا وبدأ عهد جديد يرتسم في الأفق مع وعود بالتّعدّديّة السّياسيّة والدّيمقراطيّة وبداية انفراج المسألة النّقابيّة وإخراج الإسلاميّين من السّجون وتحسّس الطّريق إلى ما يسمّى وقتها «بالمعالجة الوطنيّة» على قاعدة ما يعرف بالميثاق الوطنيّ سنة 1988 ودخول الإسلاميّين انتخابات أفريل 1989 بقائمات مستقلّة حصدت من الأصوات ما أرعب النّخبة السّياسيّة والنّخبة الحداثيّة بما في ذلك اليساريّون الذين كانوا قيادات في تنظيمات سرّيّة بتونس وفرنسا ثمّ انتموا إلى الحزب الاشتراكيّ الدّستوريّ الذي غير اسمه ليصبح «التّجمّع الدّستوري الدّيمقراطي». فالوضع كان مفتوحًا على احتمالات شتّى مع تواتر الأحداث والإجراءات والقرارات وبداية تغيّر في المعادلة السّياسيّة والاجتماعيّة.

والأرجح أنّ سي عبد الحميد سئل عمّن يرشّح من الصّحفيّين الممتازين القادرين على مجاراة نسق العمل الحرفيّ في وكالة أنباء ذات مصداقيّة مثل (أ. ف. ب) فساق اسم أفضل صحفيّ عنده يعرفه كما يعرف كفّه، وهو عبد النّاصر.

ولست أرى في هذا أيّ عيب بل هو في تقديري اختيار صائب خصوصًا بعد النّجاح الباهر الذي لقيه ملحق «كرّاسات أدبيّة». فأين الإشكال إذن إذا تركنا جانبا الحسد والغيرة؟ أمّا الحديث عن التجربة ومراكمتها فهو نسبيّ لأنّ صحفيًّا ذكيًّا له استعدادات سابقة مثل استعدادات عبد النّاصر وثقافة متنوّعة مثل ثقافته، يمكن أن يلتقط في فترة قصيرة ما يتطلّب عند غيره سنوات. فالخبرة مسألة نوعيّة لا تقاس بالأيّام والأشهر والأعوام. فكم من صحفي قضّى سنوات عديدة في دنيا صاحبة الجلالة ولكنّه لا يعرف بعد عشر سنوات مثلاً كيف يحاور سياسيًّا أو أديبًا أو حتى مواطنًا عاديًّا.

5

وأصل الحكاية أنّ سي عبد الحميد كلّف عبد النّاصر، بُعيد طلاقه مباشرة، بتقديم تصوّر عن ملفّ حول الذّكرى الأولى للتّغيير المبارك. تردّد في البداية ثمّ قبل شريطة ألّا يذكر اسمه في فريق الإعداد وألّا يوقّع أيّ مقال مهما كان. اختلفَا لأوّل مرّة حول المسألة ولكنّه أقنعه بأنّه إذا كتب سيعود إلى الأحداث ليحلّلها من وجهة نظره هو. فإذا ضمن له عدم تدخّل أبو السّعود نشرَ المقال قبل أن يقدّم المطلوب منه. اشترط أيضًا أن يختار الصّحفيّين الذين سيشتغلون معه في هذا الملحق الخاصّ.

كان ذلك كثيرًا على سي عبد الحميد الذي قال له ساخرا:

- «لم يبق إلّا أن أضعك مكاني رئيسًا للتّحرير أو رئيسًا مديرًا عامًّا للصحيفة!».

ذكّر سي عبد الحميد بحديث سابق بينهما خشي فيه عليه من الاحتواء الذي يعني القضاء المبرم عليه وألحّ على وعده بأن يخرجه من هذا الوحل.

كانت الصّفقة واضحة: يعدّ عبد النّاصر كلّ شيء بما في ذلك اختيار الصّور وصياغة سيناريو الانقلاب بطريقة مشوّقة وتقديم أهمّ الإنجازات وردود الفعل الوطنيّة والعربيّة والدّوليّة والتّطوّرات والمؤشّرات ويكون في الصّورة سي عبد الحميد باعتباره فعل كلّ شيء. أكّد له أنّ الملحق الذي سيُعِدّه سيكون، بتميّزه وأناقته، مصعد سي عبد الحميد إلى عرش الإعلام في تونس، سيجعله الرّجل الأوّل في الإعلام بالبلاد من فرط إعجاب بن علي به.

وأنجز حرّ ما وعد: كان ملحق عبد النّاصر استثنائيًّا حقًّا وكان سي عبد الحميد واسطة الخير بينه وبين وكالة فرنسا للأنباء بعد أن فتح له الباب لمراسلة صحيفة بلجيكيّة فرنكوفونيّة عن الوضع في تونس، خصوصًا

عن ملفّ الإسلاميّين. ولكنّ مصعد وزارة الإعلام كان متعطّلا فلم يقدر سي عبد الحميد على استخدامه للوصول إلى مكتب الوزير.

6

وجد عبد النّاصر موطئ قدم في الصّحافة العالميّة. دخل إليها من بوّابة مراسلة الجريدة البلجيكيّة ثمّ نزل إلى ساحة الإعلام الحقيقيّة عبر وكالة (أ. ف. ب). فقد كان مصدرًا مهما، بفضل شبكة علاقاته الواسعة، لأخبار عديدة وريبورتاجات ومتابعات دقيقة لما كان يجري في الأرياف من صراع شرس بين قائمات التّجمّع الدّستوري الدّيمقراطي، وريث الحزب الاشتراكي الدّستوري، المنتشر كالأخطبوط في طول البلاد وعرضها وبين القائمات المستقلّة اسمًا والتّابعة فعلاً لحزب حركة النّهضة، وريث حركة الاتّجاه الإسلامي، الذي لم تعترف به سلطة بن عليّ حتى بعد تغيير اسمه سنة 1988.

تنقّل عبد النّاصر في قرى مختلف الولايات لينقل آراء النّاس وأجواء التّنافس الذي أظهرت فيه حركة النّهضة قدرات على التّعبئة رهيبة أبرزت شعبيّتها. ولكنّه نقل أيضًا سطحيّة المرشّحين الذين قدّموا باسم النّهضة مواقف معادية لمجلّة الأحوال الشّخصيّة وللحرّيات الفرديّة وحقوق الإنسان.

كان شهر أفريل من سنة 1989 شهرًا صعبًا بالنّسبة إلى عبد النّاصر وهو يتنقّل بين المدن والأرياف ولكنّه كان شهرًا مهمًّا لأنّه عرف تونس الأعماق المحافظة المتديّنة التي يرى قسمًا منها في زعيم الحركة الإسلاميّة نبيًّا جديدًا ويعتقد قسم ثان بأنّ بن عليّ منقذٌ مخلِّصٌ.

تعلّم عبد النّاصر خلال تلك الفترة كيف يقدّم الخبر بالحذف والتّقصير والتّطويل والتّشذيب والتّكثيف والتّوسيع والتّرتيب حتى يعبّر عن موقفه ورأيه الشّخصي من دون أن يظهر الأمر كذلك.

اعتبر بقاءه في مكتب تونس، إضافة إلى أداء مهمّته، فترةَ تربّصٍ مهمّةً استفاد خلالها من توجيهات مدير المكتب، وهو فرنسي، ومساعدة زملاء له صحفيّين تونسيّين وفرنسيّين. لم يكن له ولا لهم الوقت الكافي لتدريبه فألقوا به في نهر الانتخابات المتقلّب. اعتبر نفسه يمارس الصّحافة لأوّل مرّة في حياته. أمّا ما كان يكتبه في الصّحيفة فهو مجرّد أدب. حتى أسلوبه في التّعبير تغيّر. أصبح أبسط وأدقّ وأكثر مقروئيّة دون أن يتخلّى عن تلك اللّمسة السّحريّة التي تشعّ من قلمه.

7

عاد عبد النّاصر بقوّة إلى سالف حياته البوهيميّة بعد انتهاء الانتخابات وهجره لنجلاء. ورغم مرور أكثر من سنة ونصف على طلاقه من زينة فقد ظلّ يتحدّث عنها بمزيج من السّخرية والمرارة وبألم ممض يحاول أن يداريه دون أن يجد إلى ذلك سبيلا. كنت، وأنا اصغي إليه، أترسّم نقمة وسُخطًا ورغبة في الثّأر. كيف لها أن تتركه وهو من هو؟ لقد جرحته في كبريائه جرحا غائرا حين طرحته جانبا بظاهر يدها.

وربّما هذا ما يفسّر مسارعته إلى لملمة حطام نفسه المعذبة ما إن التقى ريم. أراد بكلّ اندفاع وبأسلوب مميّز أعرفه لديه أن يعاود السّير في طريق الحياة ولكنّه أسرع أكثر ممّا يجب وقفز قفزًا وجد به نفسه في بئر عميقة معطّلة أوصلته إلى حال الهستيريا التي كان عليها في المقبرة يوم دفن الحاج محمود أو على الأقلّ كان ذلك حاسما في وصوله إلى تلك الحالة.

وتقديري الشّخصي أنّ الطلياني قد أضاع الجهات السّتّ، بعد طلاقه من زينة، دون أن يفقد عقله تمامًا. أصبح كلّ يوم يبحث عن طريدة جديدة لم يكن يهتمّ بسنّها أو جمالها أو صفاتها أو ذاتها. أتصوّر أنّ بيت صلاح الدين بحيّ النّصر أصبح مبغًى وحانةً إلى أن ذهبت بعقله، لأمر مًّا، ريم.

المضيق

1

أعدّ عبد النّاصر كلّ شيء بترتيب متقن كعادته حين يستقبل ضيوفه، وأكثر من العادة هذه المرّة. فقد توصّل إلى موعد معها بشقّ الأنفس على غير عادته مع النّساء والحسان. نفرت ريم. س في البداية ولم يفهم سرّ نفورها. ردّ الأمر إلى صغر سنّها. وتصوّر أنّها خافت. ولكنّه تراجع عن هذا الافتراض لأنّ جلّ بنات هذه الأيام يرغبن في جني حلاوة اللّقاء دون عناء الهيام والغرام ومشاقّ الالتزامات مع الشّبّان الذين في سنّهن.

افترض أنّ ثقتها في نفسها جعلتها تبلغ حدّ التّبجّح والمكابرة والتّمنّع بوضع جدار صدٍّ سميك. غير أنّه اعتبر هذا الافتراض مخالفًا لما يعرفه عن النّساء والحسان. فهو أوّلاً في هيئته ووسامته وملامحه الإيطاليّة ذو سحر فتّاك المفعول ترتمي أمامه أيّة غادة «جاثية على ركبتيها» كما قالت له أكثر من واحدة، صديقةً أو عشيقةً. والغواني ثانيًا مهما بلغن من الحسن والجمال يحملْن، ولا جدال، إحساسًا بالنّقص بسبب أنف لا يعجبهنّ أو حاجبين رقيقين أكثر من اللّزوم أو شفتين صغيرتين أو كبيرتين. لا ترضى النّساء عن أنفسهنّ مهما أُوتِينَ من تناسق وتناغم. ثمّة نقطة ما سوداء في أجمل اللّوحات. هكذا يعتقدن. ولن تشذّ ريم عن هذه القاعدة مهما بلغت بها الثقة بالنّفس.

وخلال مراقبته لها عن بعد في العمارة من النّافذة أو في ركن من النّهج أو من السّاحة التي تتوسّط البنايات الخمس داخل أسوار إقامة «الأميرات»، درس الطلياني أدقّ تفاصيل حياتها. عرف ساعة خروجها يوميًّا وساعة عودتها. تابعها في الحافلة وفي سيّارات الأجرة. عرف الكلّية التي تدرس فيها، قاعات الشّاي التي تجالس داخلها أصدقاءها من الفتيان والفتيات. كانت مراقبة أشبه بالمحاصرة استعمل فيها الطلياني جميع التّقنيّات التي تعلّمها أثناء عمله في الصحافة وقبله أثناء عمله السّرّي في التّنظيم أيّام الجامعة وزاد على حذره المفرط الذي أصبح عنده جبلّة، خبرته التي اكتسبها عبر الأيّام في قراءة النّفوس من الوجوه والحركات وألوان السّلوك وطريقة الوقوف والتّحادث. وكانت ريم موضوعًا محبّذًا في تلك الأيّام الأخيرة قبيل وفاة الحاج محمود صبّ فيه عصارة تجربته مع البشر، ومعرفته الاجتماعيّة وتحليلاته للطّباع والنّفوس.

كان الطلياني يعوّل كثيرًا على مغامرته الجديدة، ترك كلّ شيء تقريبا من أجل الإيقاع بريم حتى أضحت تحدّيًا بالنّسبة إليه: «هذه الغادة لي أو أعلّق الحذاء كما يفعل لاعبو كرة القدم» قال لنفسه. تاب عن البحث عن امرأة ينسى بها زينة. ماذا ينتظر بعد طلاق مهين وفرار زوجة راهن عليها؟ أصبح يؤمن بالحكمة التي سمعها من أحد العملة في مطبعة الجريدة، حين دار الحديث عن حمّادي المصمّم. لقد بدأ يشيخ ولا بدّ له من امرأة تعتني به في أخريات أيّامه. فأجابه:

- «لِمَ يشتري بقرة والحليب يباع في السّوق؟».

قرّر الطلياني بعد خيبته في الفيلسوفة ألّا يهتمّ بحليب يشتريه بالجملة بل يكتفي بالتّفصيل. سيبقى ثورًا ينتقي من هذه المزرعة الكبيرة أحلى بقراتها.

2

اِشترى أحلى المرطّبات مالحها وحلوها. أعدّ إبريقًا من القهوة وعصائر متنوّعة. أخرج الأطباق الفضّيّة وكؤوس الكريستال التي اشترتها أخته يسر غصبًا عنه لأنّها تليق بالبيت الجديد واعتبرتها هديّة منها إليه. رشّ رائحة الخزامى في قاعة الجلوس وفي المدخل والممرّ. لم ينس وضع قطعة صابون لم تستعمل من قبل ومنشفة استحمام نظيفة. فربّما احتاجت إليها ريم لو سارت خطّته كما أراد. لم ينس وضع قبقاب ثان. فلئن تخلّى عن عادة الذّهاب إلى الحمّام العمومي مع أبيه منذ سنوات طويلة فإنّه لا يتصوّر الخروج من بيت الاستحمام في غير القبقاب. ربّما هي ذكرى ظلّت عزيزة على نفسه.

سمع النّاقوس يرنّ حوالي السّادسة والرّبع. لا يهمّ. تأخير بربع ساعة لا يزعج. دخلت ريم بطولها الفارع وشعرها العسلي المنسدل على كتفيها. كانت تلبس «دجينز» أزرق يعلو حذاء رياضيًّا وفوقه قميص صوف مخضوضر. لم تضع على وجهها من «المكياج» إلّا لمسة خفيفة بفرشاة في الجفن الأعلى وقلم في الجفن الأسفل. كانت بشرتها ورديّة رطبة. تعمّد وهو يستقبلها في الباب أن يقبّلها من خدّيها بشفتيه. كان كمن يضع شفتيه على قطن رفيع أو على حلوى «لحية جدّي» التي كان يشتريها له أبوه، وهو صغير، من أمام حديقة الحيوانات بالبلفدير.

رآها أوّل مرّة وكان واقفًا في شرفة بيته في أواسط شهر مارس من سنة 1990. كانت تباشير الربيع تضفي على الجوّ إحساسا بالدفء. وقف في الشرفة ينظر إلى السّاحة التي تتوسّط الأبراج في إقامة الأميرات. توقّفت سيّارة فخمة. خرج من السّيّارة كهل كان يقودها، وشابّان من الكرسي الخلفي وتبعتهما فتاة. لم يكن لون فستانها فقط جذّابًا، ولا كان قوامها الممشوق فحسب يخطف البصر. من الطابق الثالث حيث يقطن، رأى

من ذلك العلوّ فستانها الأحمر مقوّرًا يكشف الرّقبة والكتفين وجزءًا من الظّهر والصّدر. وكان الجانب العلوي من نهديها بارزًا من الفستان. لم ير الوجه جيّدًا. ركّز نظره على الصّدر الذي فاجأه ظهوره في مرمى بصره. ظلّ يتابع إنزال الشّابّيْن بعض الأدباش من السيّارة. قدّر أنّه لا يمكن إلّا أن تكون عروسًا جديدة تستعدّ لتأثيث بيتها وقد يكون أحد الشّابّين زوجها المنتظر. لم يخطر بباله أبدًا أن تكون طالبة. جاءت لتقطن في بيت أختها في الطابق الخامس. فالعمارة الرّاقية بعيدة نسبيًّا عن الجامعات وثمن الكراء مرتفع جدًّا بالنّسبة إلى طالبة في سنّها.

أسرع إلى المصعد. تعمّد استراق النّظر إليها. لم تبد اهتمامًا به ولكنّه على الأقلّ وجد وجهها مقبولا ولو لم يكن على موعد مع أصدقائه لتابع الوضع عن كثب. على الأقلّ عرف الطّابق أمّا الشّقّة فسيأتي وقتها.

3

لم يرها بعد ذلك إلّا مرّة أو مرّتين. كاد ينسى الموضوع في بادئ الأمر. انشغل أسابيع بمغامراته اليائسة. ولكنّه في أواخر شهر جوان التقاها صدفة. رآها تدخل العمارة أسرع جاريًا. وجد باب المصعد قد انفتح. وصل في آخر لحظة وقد كاد الباب ينغلق. بدا عليه اللّهاث الذي لم يستطع إيقافه رغم ما بذله من جهد. سلّم عليها. ردّت بنصف سلام. رحّب بها في عمارتهم فلم تردّ وظلّت تنظر إلى أرضيّة المصعد. نزل في الطّابق الثّالث حيّاها تحيّة المساء دون أن يعرف هل ردّت عليه أم لا

بقي يتساءل بينه وبين نفسه عن هذا الجفاف والغرور والتّبجّح والوقاحة والاحتقار. لم تلق عليه حتى نظرة استكشاف. لم ترفع رأسها من أرضيّة المصعد طيلة الثّواني التي تطلّبها الصّعود وفتح الباب وغلقه ثانية. لم تحاول استراق النّظر ولو من إحدى المرَايَا التي تحيط بالجوانب الثلاثة من المصعد. سكنتْ ريمُ رأسَ الطلياني.

صعد، بعد ذلك، إلى الطّابق الخامس. تردّد بين شقّتين. نزل إلى «الأنترفون». ضغط على زرّ التّخاطب الشّقّة عدد 11، أجابه طفل صغير. عرف أنّه أخطأ. جرّب زرّ الشقّة عدد 12. لم يردّ أحدٌ. كرّر ذلك مرّات. جرّب في أوقات مختلفة ولا من مجيب. لعلّه فاسد! ترك الأمر في البداية للصّدفة.

رآها مرّة أخرى في المصعد مع فتاة أخرى تفوقها حسنًا ولكنّها تصرّفت بغير ما تصرّفت به ريم. فقد بدت فتاة اجتماعيّة وأكثر حيويّة وخفّة روح. أحسّ الطلياني أنّها أعجبت به ومالت إليه. ترك أمرها معلّقًا لأنّ ريم هي المبتغى. يومها قرّر أن يبدأ في مراقبتها.

اكترى سيّارة. نهض في السّابعة صباحًا. رآها تغادر العمارة حوالي السّابعة والنّصف. في اليوم الموالي، أوقفت سيّارة أجرة. سار السّائق باتّجاه المنزه السّادس ثمّ تجاوزه إلى أن دار على اليمين في الطّريق «إكس». كان الزّحام على أشدّه حوالي الثّامنة إلّا الرّبع. لم يصل إلى باب سعدون إلّا في الثّامنة وعشرين دقيقة. توقّف حذو رصيف قبالة سوق باب سيدي عبد السلام. نزلت ريم. قطعت الطّريق في الاتّجاه المقابل. تجاوزت سكّة المترو الخفيف واتجهت نحو مدرسة الفنون الجميلة. ظلّ يتابعها بنظراته من بعيد إلى أن غابت داخل البناية.

ظلّ طيلة أسبوع ينهض في السّاعة نفسها إلى أن حفظ جدول خروجها كلّ صباح. لكنّ أوقات عودتها من المدرسة غير مضبوطة. تفرّغ للمسألة فأمكن له أن يكتشف أشياء عديدة. يوم الإثنين غادرت المدرسة في الثّانية والنّصف. ركبت المترو مع طلبة آخرين. توقّفوا في محطّة ابن رشيق. تجوّلوا في شارع بورقيبة إلى حدود الخامسة بعد الزّوال.

يوم الثّلاثاء غادرت المدرسة بعد الرّابعة والنّصف بقليل. استقلّت سيّارة أجرة مع صديقتين. اتّجهن إلى قاعة شاي بالمنزه السّادس قريبة

من مغازة «مونوبري» والمجمع التجاري «الدكاكين الخمسين». عادت إلى الشّقّة حوالي السّابعة والنّصف.

يوم الأربعاء، خرجت في الخامسة والنّصف ذهبت مباشرة من المدرسة إلى الشّقّة.

يوم الخميس، غادرت المدرسة في حوالي السّاعة الواحدة بعد الزّوال. عادت مباشرة إلى الشّقّة.

يوم الجمعة، غادرت بعد الرّابعة والنّصف صحبة فتاتين (رجّح عبد الناصر أنّهما طالبتان) وطالب واتّجهوا مترجّلين إلى فضاء «التياترو» الملاصق لنزل «أبو نوّاس» قرب باب الخضراء. لمحهم يشاهدون معرضًا للفنون التّشكيليّة ثمّ دخلوا إلى المسرح لمشاهدة مسرحيّة توفيق الجبالي «كلام اللّيل». تأكّد أنّ الطّالب الذي معهنّ كان صديقًا للطّالبة الأخرى. فقد جلس وراءهم ورأى أثناء العرض الطّالب وزميلته يتصرّفان كعشيقيْن.

أمّا يوم السّبت فقد انتظر إلى العاشرة صباحًا ولم تنزل ريم. رجّح أنّ الامتحانات قد انتهت. تأكّد من ذلك حين رآها حوالي منتصف النّهار تستقلّ سيّارة أجرة أوقفتها في محطّة المنصف باي. تبعها إلى سيّارة «اللوّاج»: كان مكتوبًا عليها «تونس- سوسة».

كم تمنى أن يوصلها في سيّارته. سيسير بأقلّ سرعة ممكنة. سيتوقّف في محطّتين ليأكلا سندويتشًا، ليشري لها شكلاطة فاخرة وعصيرًا طازجًا، ليشرب قهوة، ليتعلّل بملء خزّان البنزين ويملأ عينيه منها ويتملّى حديثها ويحدّد نبرات صوتها، صوتها موسيقى رقيقة ولا شكّ. لكنّ خطّته الدّقيقة الصّارمة لا تسمح له بتحقيق مثل هذه الرّغبة الآن. كان عليه، كما كان يقول لنفسه، أن يصبر ويصابر ويثابر. كاد تشوّقه لمعرفة كل شيء عن ريم يدفعه إلى السّير وراء السيّارة التي استقلّتها. لِمَ لا؟ بيد

أنّ الآتي سيكون أجمل وأحلى. وسيمتلئ سمعه بموسيقاها الرّائعة بعد يوم، أو أسبوع أو شهر كما تصوّر ورسم. لا بدّ من ريم وإن طال السّفر.

4

كلّ ما خطّط له الطلياني سقط في الماء. لقد أتعب نفسه صبرا وانتظارا ومراقبة وملاحقة لصيقة دون فائدة. فقد كان الأمر أبسط ممّا تصوّر لأنّ صدف الحياة أقوى وأغرب ممّا خطّط ورسم وحسب وتصوّر. تأتيك من حيث لا تدري مهما بلغ بك التّخيّل ومهما أبديت من نباهة وفطنة وذكاء.

كان الطلياني مواظبا على مطعم «البيت الأبيض» ليلة الجمعة. لا يجلس على طاولة بل يكتفي باختيار مقعد على منضدة الحانة الدّائريّة. يحبّ أن يبقى وحده يتعشّى وينال نصيبه من الشّرب. يفتتحه بقارورتين خضراوين ثمّ قارورة نبيذ أحمر ويختم عزفه الأسبوعي المنفرد على أوتار وحدته وتأمّلاته بكأس «تيبارين». تلك عادة سنّها لنفسه يعتبرها يوم راحة من الأصدقاء والنّساء منذ أن بدأ عمله في وكالة (أ. ف. ب). كانت أمسية سعيدة بالنّسبة إليه يقضيها جالسًا يتأمّل الطّاولات ومن عليها والوافدين والخارجين يحاول أن يدرّب ذهنه على تصوّر حيراتهم وعقدهم واستيهاماتهم ومساراتهم وخيباتهم ومسرّاتهم ونذالاتهم وأمجادهم. يرى فيهم بعض صورته، وبالخصوص هذا الشّوق إلى الحياة المكلّل بالألم والزّيف. أمسية للانتشاء بالتّأمّلات جعلته يفكّر في أن يكتب رواية يستوحيها من تخيّلاته ولكنّه كان يفضل سيناريو للسّينما، لشريط طويل، شريطه الأوّل الذي لم يستطع كتابته رغم نصائح صديقه الهادي. خ والكتب التي قدّمها إليه ليقرأها حول كتابة السّيناريو ورغم الأشرطة التي جعله يشاهدها ويحلّلها له والمقاطع التي درّبه على صياغتها بصريًّا وأعادها معه أكثر من مرّة.

كان حلم حياة الطلياني أن يترك أثرا فنّيًا مادامت زينة قد حرمته من أن يصنع معها رائعة من لحم ودم تثبت له أنّه مرّ من هذا العالم وترك أثرا بديعا. لم يترك ذُرّيّة تشهد عليه فليكن الشريط السينمائيّ وريثه الشرعيّ والشاهد عليه. ويبدو أنّه يومها أتيحت له الفرصة، وجد بداية الحكاية التي يحبّ أن يحكيها.

أتمّ تصفّح مجلّة «ستوديو ماغازين» لشهر جوان. وجدها لدى بائع الصّحف حين دخل لاقتناء علبة سجائر. أكمل القارورتين الخضراوين. انهمك في تصفح المجلّة ثم رماها جانبًا. رفع رأسه ليبدأ حفل تأمّل الوجوه فأبصر ريم.. نعم هي نفسها تجلس إلى طاولة معها امرأة متوسطة العمر وثلاثة رجال. لا يعرف منهم إلّا منير أحد التّقنيّين الذين يشتغلون في وكالة إشهار وكان يأتي إلى الجريدة ليتابع نشر إعلانات الوكالة. كانت ريم منشرحة. كانوا يشربون نبيذًا أبيض. والمرأة تتمزّزُ مشروبًا روحيًّا قدّر، من لونه، أنّه «فودكا».

نادى النّادل. طلب منه أن يقدّم كوكتالاً للفتاة وكأسًا من الفودكا للمرأة ونبيذًا أبيض للرّجال الثّلاثة هديّة منه إليهم.

التفتوا جميعًا يتطلّعون إلى باعث الهديّة. لم يتعرّف عليه منير. أقبل أحد الرّجليْن الآخريْن. شكره وكان متحرّجًا من سؤاله إن كان يعرف أحدهم. قال له: «هديّة مني إلى صديقي وأصدقائه في الطّاولة». لم يفهم شيئًا، أخبر الجماعة. نهض منير مسرعًا يعانق عبد النّاصر ويرحّب به كما لم يرحّب به من قبل. لمح الجماعة تتحدّث عنه وتعمّد ألّا يظهر أنّه تفطّن إلى ذلك.

إنْ هي إلّا ربع ساعة حتى جاءه منير ليجدّد له شكر المجموعة وطلب منه أن يشرب كأسًا معهم على الطّاولة. تمنّع عبد النّاصر في البداية إلى أن جاء أحد الرّجليْن ملحًّا قال له:

- «لا تحرمنا من مجالسة صحفيّ بارع مثلك».

كان أحد الرّجلين صديقا لمنير ينشّط في أحد النوادي السّينمائيّة التابعة لجمعيّة النّقد السّينمائي. معلّم أعزب. أمّا الرّجل الثّاني فهو إطار ببنك وابن عمّ المعلّم الناقد وزوج المرأة الوسط. امرأة عاديّة عليها بعض البدانة تنطق «أني» مثل زوجها بدل «أنا». قدّموها على أنّها خالة ريم. رحّب بها عبد النّاصر دون أن يظهر أنّه يعرفها. لكنّه قال لها:

- «وجهك ليس غريبًا.. أين رأيتك.. أنت... والأخ..

أشار إلى المعلّم الذي يحبّ السّينما. كان قد ألحقه إلحاقًا فأخذ الكلمة ليؤكّد أنّه يعرفه أيضًا. ذكر الطلياني له ولهم ولريم بالخصوص من باب «إيّاك أعني يا جارة»، أنّهما ربّما التقيا في إحدى جلسات النّقد السّينمائي التي نظّمتها الجمعيّة وغطّاها بما أنّه كان يشرف على الملحق الثقافي الأكثر شهرة في تونس.

كانت ريم تنظر إليه بإعجاب، تكاد تلتهمه بعينيها التهامًا وهو يتشاغل بالنّظر إلى الآخرين ويمرّ عليها مرور الكرام.

ما إن أنهى كلامه مع المعلّم النّاقد السّينمائي حتى قالت له ريم بحماس:

- «أذكر جيّدًا أنني رأيتك. ألست من قاطني العمارة «د» في إقامة الأميرات».

أجاب مصطنعًا الاندهاش:

- «أنت خطيرة. تعرفين مقرّ سكناي. حتى منير لا يعرفه».

أجابت مرتبكة:

- «مجرّد صدفة سي عبد النّاصر».

- «كنت أمزح معك. هل لديك عائلة أو صديقة تزورينها هناك؟».

- «لا أنا أقطن في العمارة نفسها.. في بيت أختي».

- «إذن نحن جيران ولا أدري. أيّ صدفة سعيدة... تشرّفنا. سهرة ممتعة مع منير فأصدقاؤه هم أصدقائي إن شرّفكم ذلك».

تكلّم جميعهم مؤكّدين أنّه شرف لهم أن يتعرّفوا على رجل مثله.. مثقّف وناجح مهنيًّا وله مكانة في دنيا الثقافة والإعلام. أعاد الاستئذان متعلّلاً بأنّ له موعدًا غدًا في الصّباح الباكر مع مخرج يشتغل معه على شريطه السّينمائي الأوّل. نهض فأمسك به المعلّم النّاقد ليسأله عن شريطه فطلب ألّا يفسد سهرتهم الرّائقة بحديث طويل لكنّه وعده بالحديث معه في لقاء آخر. اِستوقفته خالة ريم لتطلب منه أن يجد دورًا لابنة أختها التي تتحرّق لأن تصبح ممثّلة سينمائيّة. لم يردّ الطلياني. نظر إلى الخالة ثمّ إلى ريم. وقال مازحًا:

- «الجار أوصى عليه الرّسول. أعدكم بأن أنظر في الأمر مع المخرج غدًا».

طلبت خالة ريم بجرأة لم يتوقّعها رقم هاتفه في البيت أو الشغل. أملى على الجميع الرّقمين. ذكّرهم بأنّه إذا لم يتلقّ مكالمتهم لانشغاله بالعمل أو لغيابه عن البيت فلهم أن يتركوا رسالة في المجيب الآلي ورقم الهاتف ليعاود الاتصال بهم.

5

في منتصف نهار السّبت وجد رسالة صوتيّة من ريم. فهم أنّها ملهوفة. لم يتّصل بها إلّا بعد ساعتين تقريبًا. كان يودّ لو كلّمها في الحال لكنّه تركها تزداد لهفة. قرّر أن يصبر فعليه أن يكمل خطّته. لقد أهدته الصّدفة ما لم يكن يحلم به. لذلك فالطّريق ممهّدة في تقديره لكن عليه أن يتريّث. فعلى قدر الرّغبة يكون التّأنّي وعلى قدر اتّقاد الشّهوة ينبغي أن يكون إتقان التّنفيذ.

عرف أنّ خالتها وزوجها قد قضيَا اللّيل في الشقّة بالعمارة نفسها وأنّهما ذهبَا لقضاء بعض الشّؤون الخاصّة وزيارة أصدقاء لهما في

تونس. طلب منها أن يقبلوا دعوته اللّيلة للعشاء فرفضت بسرعة وقالت له في الهاتف:

- «أريد أن أراك وحدي..

أحسّت أنّها تسرّعت في البوح بما ترغب فيه. ظلّ صامتًا يبتسم. حاولت تدارك تسرّعها فأردفت:

- «أردت أن أقول لا يمكن أن نراك معًا فلهم اللّيلة برنامج آخر».

- «ستكونين معهم إذن؟».

- «نعم.. للأسف».

- «لا تتأسّفي.. الآتي أجمل. إذن متى يمكننا أن نلتقي.. لقد تحدّثت مع المخرج ولي مشروع شريط لك!».

شعر أنّها تكاد تطير فرحًا وتتصنع الرّصانة ولكن صوتها المنشرح في الهاتف فضحها:

- «غدًا سيعودان إلى سوسة.. هل نلتقي حوالي السّادسة؟ أكون قد أنهيت التزاماتي معهم».

«ساعة تشائين.. أنا أقطن في الطّابق الثّالث.. الشّقّة عدد 7.. تجدينني في انتظارك».

- «أوكي.. أراك غدًا».

- «باي.. زينة..

- « تقصد ريم؟».

- «لا أنت من هنا فصاعدًا زينة.. زينة بطلة الشّريط...

ضحك فضحكت. واصل في شيء من الغزل:

- «أرى فيك زينة.. سترين حين أروي لك السّيناريو غدًا».

6

حوالي السّادسة والرّبع حين دخلت أشرق مساء يوم الأحد ثقيل الظّلّ. حرّك حضورها موجة من الفتنة في الشّقّة. اختار لها مكانًا قرب الأباجورة. كانت الأضواء خافتة ورائحة الخزامى تعمّ الغرفة. أحسّ بانجذابها وإعجابها بالبيت. استسمحها لحظات ليعود حاملاً إليها باقة صغيرة من ثلاث وردات حمراء. فرحت بها واعتذرت أنّها جاءت دون أن تحمل شيئًا في يدها. أجابها بأنّ حضورها إلى البيت أكبر هديّة. قال لها:

- «يمكنك إهدائي قبلة».

بدت جريئة مستسلمة له عكس ما كانت تظهر. قبّلته. كان يرغب في أن يضمّها إليه لكنّ صوت عقله دعاه إلى التّأنّي مرّة أخرى. شعر بحاجة إلى أن يضمّها إليه لأنّ رائحتها ذكّرته برائحة للّا جنينة. صحيح لم تكن تزيّن جلدها بالحرقوص ولا تسوّك فمها مثل جنينة والأكيد أنّ عصرهما مختلف غير أنّه اشتمّ فيها رائحة يعرفها جيّدا. إنّها رائحة «للّا جنينة» عند عودتها من الحمّام. كيف عادت إليه هذه الرّائحة؟ رائحة للّا جنينة التي يعرفها مذ كان صغيرًا وعرفها أكثر، ملأ بها خياشيمه، مذ بلغ الخامسة عشرة. لا شكّ أنّ ريم قد خرجت للتوّ من الحمّام.

أدرك بحدسه أنّه لو طلب منها أيّ شيء لفعلت. تأكّد أنّ مظهرها، فتاةً صارمةً، لا يتماشى وحقيقتها ولا سنّها. قدّر أنّها لا تتجاوز الثّانية والعشرين في أحسن الأحوال. كانت في سنتها الثّالثة بالجامعة. سألت مباشرة عن الدّور الذي سيسند إليها. لم تترك له فرصة التّعرّف عليها أكثر.

فكّر في أن يقول لها إنّ السّيناريو سيكتبانه معًا وعليها أن تروي له حياتها بالتّفصيل، أن تكون هي بطلة الحكاية وبطلة الشّريط وأن يقوم هو بصياغة الأحداث التي سترويها له بطريقة فنّيّة. فكّر في أن يحدّثها عن الكتابة الثّنائيّة فبدل أن يعطيها سمكة يعلّمها كيف تصطادها وتتمتّع بها. وجد أنّ هذا المقترح قد يخيفها ويبعدها عنه لأنّه يتطلّب درجة من

الثّقة به كبيرة وتجربة في الحياة. ثمّ ماذا لو كانت حياتها عاديّة عدا بعض مغامرات الصّبية والتّلاميذ؟

فكّر أيضًا في أن يقوم بالعكس أي أن يروي لها حياته هو، أو أجزاء منها. ستكون مناسبة له ليعيد ترتيب الأشياء في ذاكرته ويبحث عن معنى حياته الذي يراه مسارا من التّلاشي والخيبات والخيانات الصّغيرة والتّبريرات الحقيرة. كيف يطرح أمامها أوراقه كلّها؟ هل ستفهمه في مثل سنّها وتجربتها؟ نعم. هو في حالة من اليأس بعد افتراقه عن زينة. يحتاج فعلاً إلى أن يجلس أمام شخص مّا علّه يساعده على أن يستجليَ ملامح الماضي والحاضر ويتطلّع إلى الآتي بغموضه والتباسه. غير أنّه خمّن أنّ كلفة ذلك قد تكون باهظة عليه وأنّها لو اكتشفت ما يعتبره في حياته خسّة وقذارة لفرّت فرار سجين مفترض من جلّاد محتمل. ثم إنّها صغيرة وقد لا تفهم مثل هذه الأمور. ترك الفكرة جانبًا، على ما فيها من إغراء.

صنع حكاية للسّيناريو الذي لم يكتبه. جمع فيه نثارا من حكايات النّساء اللّاتي عرفهن. سمّى البطلة زينة. وصفها كما يصف ريم. أقنعها أنّ زينة عنده نسخة مطابقة للأصل من ريم. اطمأنّت إلى ذلك وانفتحت شهيّتها.

نبّهها منذ البداية إلى أنّ السّينما لا تحتمل الأخلاقيّات الكاذبة. حدّثها عن السّينما التّونسيّة وجرأتها، وأوهمها أنّ النّوري بوزيد مثلا قد ضاعف كثيرًا جرعة الجرأة لذلك لا يمكنه أن يكون أقلّ منه جرأة. قال لها لا تهتمّي بما يقال عن أنّ السّينما التّونسيّة سينما الشّذوذ والعراء. فالواقع، كما يعرفه وتعرفه هي ولا شكّ، أفظع بكثير ممّا يشاهد في الأشرطة التونسيّة. وافقته على ما قال. تقدّم خطوات في نقد المجتمع واتهمه بالنّفاق والكذب وقمع حرّية الفرد. وافقته مرّة أخرى.

كان يتكلّم ويراها مسحورة ببلاغته لا تجد سبيلاً إلى إضافة ولو كلمة. تحرّك رأسها موافقة. فماذا تفعل هذه الطامحة إلى سحر الشّاشة أمام من سيفتح لها أبواب النّجوميّة؟

لخّص لها السّيناريو قائلاً:

- «حكاية زينة هي حكاية فتاة من السّاحل أبوها شخصيّة اجتماعيّة مرموقة وأمّها أجنبيّة. كانت ضحيّة ثقافتيْن إحداهما منفتحة، متحرّرة تلقّتها من أمّها والأخرى شرقيّة محافظة منغلقة تلقّتها من أبيها. عاشت زينة صدمة الجامعة حيث وجدت العالم أوسع من عالمها الصّغير الذي سجنها فيه الأب. ولكنّه قريب من عالمِ الرّوايات التي كانت تقرؤها والأفلام التي كانت تشاهدها. عاشت تمزّقًا بين الثّقافتين من جهة وبين ما أراده لها أبوها وما وجدته في واقعها الجديد من جهة أخرى. تتزوّج وهي طالبة رجلاً لم يرض الأب عن زواجها منه، تتزوّجه رغمًا عن عائلتها. كان ذلك أسلوبها في الثّورة على الأب. ويفشل زواجها بعد سنة إذ يصبح زوجها عنيفًا معقّدًا نفسيًّا أكثر من أبيها، يغار عليها من رفّة الطّير وحركة النّسيم. وحينها بدأت رحلة البحث عن مستقبلها وذاتها وحرّيتها. رأت حياتها سلسلة من الخيبات في الرّجال والمغامرات التي لا تزيدها إلّا صعوبة في التّأقلم مع المجتمع. صنعت لنفسها وهمًا هو مغالبة المجتمع الذي تريد الخروج عنه من جهة وانتظار فارس أحلام لن يأتي لأنّها ما عادت تؤمن بالحبّ من جهة أخرى».

فسّر لها أنّ المفارقة في الشّريط تستند إلى إحساس زينة نفسها بالإخفاق والفشل في مشروعها وتحكّم علاقة كره الأب وعشقه فيها من ناحية، وبين ما اكتسبته خلال ذلك المسار المتعرّج من وعي بمجتمعها وجسدها ونفسيّتها. ويفهم من الشّريط الذي يجمع بين البعدين الاجتماعي والنّفسي أنّها كانت تروي قصّتها لمحلّل نفسانيّ يجعلها تتفطّن إلى أنّها تعيش حالة عُصَاب تدفعها إلى التمتّع بتعذيب نفسها والانتقام من جسدها أكثر ممّا كانت تنتقم من أبيها ومن المجتمع. وفي كلّ هذا يبحث الشّريط عن تشريح حالة المرأة التّونسيّة وتناقضاتها وصراعاتها والألم العميق الذي تشعر به.

كان الطلياني يحدّثها ببطء، يريد أن يطيل الحديث وكانت هي كالتّلميذة النّجيبة تستمع إلى أستاذها بإعجاب وانبهار.

حين طلب منها أن تنتقل للجلوس بجانبه لم تمانع. وضع يده على فخذها وهو يتحدّث فلم تمنعه من ذلك. استدار نصف استدارة ليمسّح على خدّها ويدخل أصابعه في شعرها المنسدل فابتسمت ابتسامة الرّضى. قبّلها على خدّها فاتّسعت ابتسامتها. أمسك بشفتيها ليقبّلهما قبلة خفيفة فأغمضت عينيها. نزل إلى رقبتها فتأوّهت في غنج. لمس صدرها فأرخت رأسها على الأريكة. لم ير عبد النّاصر أسهل من هذه الصّبيّة التي بدت له أوّل الأمر متكبّرة متعالية.

بدأ يستعدّ إلى ما هو أهمّ أراد أن يحتفل بها احتفالاً خاصًّا. سألها إن كانت تريد مشروبًا روحيًّا. فتح على نخبها قارورة «فودكا»، فقد كانت على ما أعلمته تحبّ الفودكا. ولكم تمنّت، ليلةَ لقائِهما في «البيت الأبيض»، أن يهديها كأسًا من الفودكا سرّا لأنّها لا تشرب أمام زوج خالتها. بدأت نفساهما تنشرحان. شربا كأسا أولى على وقع قبلات أذابتها كالزّبدة وهيّجته كثور.

ما إن فرغ من صبّ الكأسين الثّانيتين حتى رنّ الهاتف. رفض أخذ المكالمة أعاد الطالب الاتّصال مرّات متتابعة. شكّ في أن المسألة جادّة. كانت يسر في الجهة الأخرى من الخطّ تبكي وتصرخ:

- «مات أبي.. مات الحاج...

7

امتقع لون عبد النّاصر. تعكّر مزاجه. استنشق الهواء بقوّة سألته ريم عمّا به. لم يخبرها. عاد يحضنها بقوّة. شرب كأسا بسرعة. كان معها جسدًا وعقله في بيتهم، في باب الجديد. حضرته صورة الحاج محمود مسجّى. ظلّ يطردها ليتملّى وجه ريم أمامه. أحسّت أنّ شيئًا غير عادي

وقع ولكنّها أمام قبلاته القويّة العنيفة ظلّت تلقي رأسها على الأريكة مغمضة العينين. لم تكن تتفاعل إلّا بتأوّهات مصطنعة لم تدر أنّها زادت عبد النّاصر اهتياجا. حملها إلى غرفة نومه. كانت تضع يديها على رقبته كالمستعدّة للحرث. نزع ثيابه بسرعة وهي ملقاة على السّرير تنتظر ما سيفعل بها. نزع ثيابها بسرعة أيضا. وضعت يديها على موضع السّرّ كأنّها تتغطّى بهما. تركته يسرح في مروجها الغضّة. لم يكن ما يفعله خاليًا من الخشونة والعنف. لم تكن تتفاعل معه.

حين اقترب من موضع السرّ أحكمت وضع يديها في مستوى العانة وقالت له:

- «لا لا أنا عذراء!».

استدارت. فهم أنّها تعرض عليه شيئا آخر. جن جنونه ولكنّه لم يحرّك ساكنًا. لم تكن تنظر إليه. لم تفهم ما وقع. التفتت إليه. وجدته شاخصًا بعينيه، شارد الذّهن كمن يستذكر شيئًا. سألته:

- «ما بك؟».

لم يجبها. رأت قطعة الحبل مرتخية. كان ساهمًا. جاثيًا على ركبتيه فوق السّرير. أصبح وجهه المليح كوجه شيطان رجيم. كان يرتعش محملقا وفجأة انهار على الفراش. ارتعدت. لم تجرؤ على سؤاله. احتارت ماذا تفعل. أصابها ذعر كبير. لبست بسرعة ثيابها. أخذت من قاعة الجلوس حقيبتها اليدويّة. غادرت الشّقّة. أغلقت الباب. تناهت إلى سمعها غمغمة وحمحمة مرعبتين من داخل الغرفة.

رأس الدرب

1

هاتفني عبد النّاصر وكان في حالة انهيار تامّ. طلب مني أن أستعدّ لأخرج معه. ليلتها أخذني إلى بيتهم. بكى أمام جثّة أبيه، وهو مسجّى أمامه، بكاء صبيّة روّعها اليتم. كنت أرافقه وأنا لا أدري ما أفعل. وبغتة غسل وجهه في بيت الاستحمام وطلب مني أن نغادر الدّار.

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة والنصف تقريبا. ذهبنا إلى حلق الوادي. الشاطئ مليء بالغادين والرائحين يتنزهون. المطاعم عامرة. انزوينا هناك في مستوى «كرّاكة» حلق الوادي من جهة البحر. على الشاطئ، وقف يحكي ويبكي. كانت رطوبة البحر فوق احتمالي. فحساسيّتي في الأنف والأذن والحنجرة مفرطة منذ صغري. لم أهتم لهذا الأمر، لا بأس أن أجد نفسي على شاطئ البحر ونسائمه المشبعة برائحة الملح، فصديقي يحتاج إليّ.

لم يحدّثني عن الحاج محمود رحمه الله. كان حديثه عن ريم.. ريم التي لا أعرفها إلى اليوم. ذكر لي كلّ شيء بالتّفصيل. كان يشعر بخصاء فظيع. كأنّ بطنه ابتلعت آلته. وضع يده هناك فلم يجد شيئًا. كان يتكلّم ويبكي وأنا لا أعرف ما أفعل. لم يكن من اللّائق أن أكذّبه. نعم أنا صديقه

ولكنّني لست طبيبًا. حاولت أن أفسّر له أنّه مجرّد شعور ويجب مراجعة الطّبيب فلعلّه اضطراب نفسيّ نتيجة عجزه عن مجامعة ريم.

كان يصرّ على أنّه ذِكْرى رجلٍ، لم يعد قادرًا على تحريك ساكن من جسد امرأة. كان مصرًّا على أنّ ماً يتدلّى بين فخذيه مجرّد حبل مرتخ في أحسن الحالات.

حاولت تهدئته إلى أن جلس على الرّمل. قرفصت. تربّع كما كنّا نتربّع أيّام الكتّاب. لم يكن ينظر إليّ في عينيّ.

أخذ يحدّثني عمّا فعله الإمام به وهو بين الثّامنة والعاشرة. حين استدارت ريم، على عادة كثير من الصّبايا اللّاتي يردن أن يحتفظن بعذريّتهن، انثالت عليه مشاهد اعتداء علّالة، ناظر مسجد الحيّ الذي يشتغل لدى سي الشاذلي، والد للّا جنينة.

2

كان الحاج محمود قد أرسل ابنه الصبيّ في قيلولة من قيلولات صيف تونس القائظ ليشتري علبة سجائر. ناداه علّالة الدّرويش، كما كنّا نسمّيه، من باب المسجد. اتّجه نحوه فجذبه بقوّة وأدخله إلى الميضاة. فهم الصّبي أنّ في الأمر شيئًا غير عادي. وضع علّالة يده على فم الصبيّ. كاد يختنق لولا أنّه تنفس من أنفه. أنزل علّالة الدرويش سرواله وأنزل تبّان الصّبيّ. كان الطلياني يحاول الإفلات من قبضته. أحسّ ببصاق وبقطعة لحم صغيرة مرتخية. لم يعرف كيف تركه علّالة لحال سبيله.

اشترى السّجائر وعاد بسرعة مذهولاً. سلّم علبة السّجائر لأبيه وجرى مسرعا إلى المرحاض ليغتسل. غطس «سليبه» القطني في الماء ثمّ أخذ يمزّقه. يذكر ذلك جيّدًا لأنّ جويدة أشبعته ضربًا بتعليمات من أمّه زينب

حين تفطّنت إلى «سليبه» الممزّق. لم تكن تدري أنّ ما تمزّق في نفس الصّبيّ أهمّ وأخطر.

قال لي عبد النّاصر إنّه فكّر، بعد ذلك، في الانتحار. أخذ سكّينًا من المطبخ في قيلولة يوم الغد، بعد ليلة طويلة قضاها متألّمًا. لم يشعر بألمه أحدٌ. أدخلها معه إلى المرحاض وبدأ يحاول غرسها في بطنه. أراد أن يبقر البطن بيد أنّ خوفه من الألم الذي قد يسبّبه الجرح ومن مشهد الدّماء أثناياه عن ذلك. فقد كان يكره عيد الأضحى لأنّه لا يحتمل فيه رؤية الدّماء تسيل رغم أنّ الحاج محمود، وكان يذبح بنفسه خروف العيد، يدعوه إلى أن يشاهد طقس الأضحية ليكون مثله حين يكبر. منذ صغره كان يكره الخرفان المذبوحة ويختبئ حتى لا يرى النّحر. وكانوا يصرّون دائمًا على أن يرى الدّماء تسيل. أنقذته مشاهد النّحر من أن ينتحر.

3

كاد علّالة الدّرويش، قبل أن يصبح إمامًا وزوجًا للّلا جنينة، أن يستفرد به مرّة أخرى وهو في التّاسعة أو العاشرة من العمر. كنّا أربعة نلعب في الزقاق معا. انتهت القيلولة وما يزال الطّقس حارًّا. لكنّنا معروفون في عائلاتنا بأنّنا شياطين القيلولة، لا ننام ويُخشى دائمًا من هرجنا ومرجنا الذي يوقظ النّيام.

أذكر، وقد ذكّرني بذلك عبد النّاصر، أنني قذفت الكرة بقوّة فوقعت في دار للّا جنينة. كانت الكرة على ملك عبد النّاصر. فررنا جميعًا خوفًا من بطش الإمام سي الشاذلي والد جنينة. بيد أنّ عبد النّاصر طرق الباب، بحكم معرفته بالبيت من الدّاخل فهما جيران لا يفصل بينهما إلّا حائط، فانفتح. دخل يجري لجلب الكرة.

لمّا عاد ليخرج إلى الزّقاق ويعيد دعوتنا لمواصلة اللعب، وجد علّالة

الدّرويش فاتحًا يديه ينتظره وهو يضحك ضحكة شيطانيّة. كان يلبس، على ما يذكر الطلياني، جبّة متّسخة مخطّطة بالأبيض والرّمادي الغامق. أخذ يجري وسط الدّار هاربًا من علّالة الذي كان يجري وراءه يحاول الإمساك به. كان عبد النّاصر خائفًا فذكرى ميضاة المسجد لم تمّح من ذهنه. أصابه الرّعب. بدأ يبكي خصوصًا أنّ علّالة أمسك به. انهار عبد النّاصر وأخذته سِنَةٌ من نشيج. غير أنّه سمع زغردات كانت تقترب من الدّار ثمّ طرقًا قويًّا على باب دار للّا جنينة. ارتبك علّالة وأطلق سراح الصّبيّ دون أن يفعل شيئًا. أسرع الصّبي نحو الباب. فتحه. فأخذته جنينة بين يديها تقبّله وتلاعبه. كانت مرفوقة بالخادمتين. اشتمّ رائحة الحمّام. فهم في ما بعد من أحاديث إخواته أنّهنّ كنّ في الحمّام استعدادا لزواج إحدى بنات الجيران من الزّقاق الآخر بالنّهج نفسه. المهمّ أنّهن عدن في الوقت المناسب. نسي عبد النّاصر رعبه وأسكرته رائحة الحرقوص والعطر والسّواك في فم جنينة وهي تقبّله. كانت لا تقبّله إلّا من فمه ورقبته. إنّها الرّائحة نفسها التي وجدها في ريم حين زارته في بيته، رائحة الحمّام. فلمَ لمْ تهبه ما كانت تهبه له للّا جنينة؟ لمَ استدارت كما أداره، في ميضاة المسجد، علّالة الملعون ولد العاهرة المنافق؟

لقد فاحت منها رائحة للّا جنينة المنعشة وهي على الأريكة في قاعة الجلوس. وحين استدارت، وهي على السرير، أفعمت أنفه رائحة الميضاة وبصاق اللّوطيّ العاجز، «الخنادقي» علّالة.

حاولتُ أن أهوّن على الطلياني ذكراه هذه. فآلة الإمام علّالة معطّلة وهذا ما يعرفه الجميع في الحيّ كما أشاعت عنه للّا جنينة التي اعتبروها عاقرًا زيفًا وبهتانًا. عليه أن يحمد خالقه لأنّه لم يخترقه. فالحكايات في الحيّ كثيرة وكم من صبيّ أورثوه هذه الصّنعة فاستحكمت فيه ولم يعد له من خلاص منها. ذكّرتُه حتى ببعض «باندية» الحي الذين كانوا مزدوجين

جنسيًّا. أعدت عليه حكمة الأقدمين: «ليس مأبونا من يؤخذ بالغلبة». لم ينفع ذلك كلّه. كان إحساس الطلياني فظيعًا. كان نشيجه وهو يروي لي أسراره كنشيج أرملة شابّة. نزل مخاطه من أنفه مدرارًا ولم يكن لي إلّا أن أحضر له مناديل ورقيّة من السّيّارة.

لم تنفع تعليقاتي المطمئنة فعاد الطلياني يستحضر تفاصيل أخرى. بدا صاحيًا. كفّت دموعه وإن كنت أرى عينيه منتفختين حمراوين من أثر البكاء. اعتبر أنّ علّالة كان يتدرّب عليه للانتصاب. كان عنّينًا ولا شكّ. إذا استفاق ذكره قليلاً عاد ليرتخي كخرطوم ماء مهترئ ينفخه الماء المتدفّق بقوّة فإذا أغلقت الحنفيّة وقع على الأرض كذيل كلب مهزول. استذكر الطلياني الجنون الذي يصيبه وذاك الزّفير الذي يخرجه كتيّار من نار. كان يظهر في هيئة شيطان. تجحظ عيناه ويتّسع منخراه وتنتفخ أوداجه، وهو البدين، انتفاخًا.

تذكّر الصبي أنّه بعد حادثة السّقيفة، سقيفة دار سي الشاذلي، باغته الشّيخ علّالة بعد حوالي أسبوعين. كان يلعب فوق السطح المجاور لسطح الجيران. ينصب الفخاخ لعصافير الزّيتون. كم كنّا نحبّ هذه اللّعبة في الصّيف. لم يصطد، مثل أكثر صبيان الحيّ، أبدًا عصفوراً لكنّه كان يعيش على أمل اصطياد واحد.. عصفور واحد فقط.

أمسك به من خلف وهو جاثٍ يركّب الفخّ. يد ثقيلة تمسكه من رقبته. لم يتمكّن من الالتفات. أدار الصّبيّ إليه طفق يلحس رقبته بلسانه الأحرش وهو يحاول التملّص منه. يضع يده على أجزاء الجسد الهشّ ويقبض على مؤخّرته بيد واحدة. يضربه على ذكره ضربًا موجعًا. كان الطلياني يتمنّع يحاول الفرار ويكتم أنفاسه وصوته خوفًا من الفضيحة، أو هكذا بدا له. حانت من الإمام علّالة حركة سريعة أراد بها أن ينزع تبّان الطلياني. أفلت منه وكاد يسقط وهو هارب باتّجاه السّلّم الموضوع في الطّابق العلوي

قرب غرفة صلاح الدّين. نزل سريعًا أدراج السّلّم. قفز درجين، درجين. كان قلبه الصّغير يدقّ بقوّة وكان يلهث. تذكّر أنّ يدي علّالة النذل كانتا ترتعشان. أحسّ بقطرات من العرق على ظهره. كان الصبيّ عاري الجسم دون «مريول خلعة». نزلت تلك القطرات على لحمه كماء النار حارقة، مؤذية، مؤلمة. ما يزال يذكرها كما لو أنّها نزلت للتّوّ.

تذكّر عبد النّاصر أنّ الصّدفة العجيبة وحدها أنقذته يوم السّقيفة. فقد كانت الدّار خالية فعلاً. فعلاوة على جنينة والخادمتين اللّاتي كنّ في الحمّام، فقد علم في ما بعد أنّ الحاج الشّاذلي، والد جنينة، قد سافر إلى بنزرت لحضور موكب جنازة صديق له قديم. لذلك تخلّى يومها عن طقوسه اليوميّة: العودة منتصف النّهار إلى البيت ومطالعة جريدة «الصّباح» بعد الفطور الذي ينبغي أن يكون جاهزًا وشرب كأس الشّاي الأخضر بالنّعناع صيفًا والأحمر شتاء. كاد الحاج الشاذلي، من حيث لا يدري، يقضي على الصّبي ويذهب بالبقيّة التي مازالت في روحه.

4

طال لقاؤنا على شاطئ حلق الوادي. لم أجرؤ على أن أطلب من عبد النّاصر الجلوس في السّيّارة أو العودة إلى البيت. لم أدر ماذا أفعل فقد اصطفاني ليفضي إليّ. ليلتها انفتح صندوقُ الذّكريات ليخرج الطلياني ما يراه معيبًا قذرًا وأراه، بالمقارنة مع ما أعرفه عن غيره، أحداثا عارضة بسيطة لا تستحقّ كلّ هذه الأوجاع والدّموع والمخاط. لم أعد أعرف وأنا أفكّر، كعادتي دون أن أفصح، هل تعود حالته تلك إلى مزيج من ظلال خيبته إثر طلاقه من زينة ومن وقع نبإ موت الحاج محمود وتداخل ذلك كلّه مع الخطّة التي أراد بها أن يتوّج رغبته الشّديدة في وطء ريم مهما

كان الثّمن. لِمَ أصرّ على مواصلة المداعبات والملاطفات مع تلك الشّابّة الطّالبة رغم هاتف يسر والنّبإ الموجع؟ كيف أمكنه أن يواصل ما كان فيه؟ وبأيّة نفسيّة؟ ألم يكن قد قضى بنفسه على إمكانيّة أن يكون اللّقاء حلوًا ممتعًا كما تخيّله بسبب حرصه على إتمام المهمّة بدل إرجائها؟ أليس الأمر أبعد ما يكون عمّا عرضته ريم عليه من حلّ لإشباع رغبته؟ أعرف أنّني كنت أهذي في داخلي لمّا كان عبد النّاصر يتأمّل اللّيل والبحر والرّمل وأنا أمتلئ بالرّطوبة القاتلة.

كنت أفكّر في ضرورة النهوض باكرا للمشاركة في تصحيح امتحانات دورة التدارك للباكالوريا. فكّرت أيضا في الجنازة من الغد. وكان عليّ أن أعود إلى البيت لأستحمّ وأنال نصيبا من الراحة.

لم ينقذني إلّا وقوف عبد النّاصر فجأة متثاقلاً. خلت أنّه يريد التّرجّل على الرّمل ففرحت بتوجّهه نحو السّيّارة. سألته ماذا يريد أن يفعل؟ لم يكن يعرف وجهته ولا غرضه. استغللت الفرصة لأذكّره بواجبه غدًا في حضور الجنازة والوقوف مع العائلة وقبول العزاء وهو ما يتطلّب منه مجهودًا بدنيًّا كبيرًا. عليه أن يأخذ نصيبًا من الرّاحة. اقترحت عليه أن يبيت عندي فالسّاعة قد تأخّرت وقاربت الثّانية بعد منتصف اللّيل.

لا أخفي عليكم أنّني كنت أفكّر في نفسي بقدر ما كنت أفكّر فيه. وبدا لي في السّيّارة، ونحن عائدان إلى باردو عبر الطّريق الرّابطة بين حلق الوادي ووسط العاصمة، أنّه قد استفاق وانبعثت فيه طاقة جديدة أحيته في حين كنت أغالب النّعاس الذي بدأ ينصبّ في مقلتيّ. كان عليّ أن أظلّ صاحيًا من باب الاحتياط فربّما شرد أو سها أو لم ير سيّارة أو عربة أمامه رغم أنّه كان يسير في غير سرعة.

استفاق عبد النّاصر وانتعش وعاد ليفتح خزّان الذّكريات. سألني بعد صمت طويل:

- «هل تعرف رائحة للّا جنينة؟».

- «ماذا؟! من أين لي أن أعرفها؟».

لاحظت أنّ عينيه انفتحتا وعلت ابتسامةُ حنينٍ أو بقايا لذّةٍ يتلمّضها بين شفتيه وهو يتحدّث عن للّا جنينة.

5

قال لي:

«أتعرف رائحة السّواك واللّوبان العربي المرّ؟ أتعرف رائحة النّعناع والزّعتر والإكليل والخزامى والمردقوش؟ أتعرف رائحة الحنّاء والحرقوص؟ أتعرف رائحة النّدّ حين تختلط برائحة الأترجّ؟ أتعرف رائحة القهوة التّركيّة الممزوجة بقشرة البرتقال المجففة المرحيّة؟ أو رائحة احتراق قلوب الإجّاص أو التّفّاح في الكانون؟ اِجمع هذه الرّوائح كلّها لو استطعت واخلطها خلطًا ورشّ بها للّا جنينة سأميّزها في جسدها وأغراضها وملابسها ولحافها رائحةً رائحةً. كان جسمها مِصْفاةً تستخلص من هذه الرّوائح روحَها وتلقي الزّائد الخانق منها. كلّ مرّة تكون برائحة تغلب الرّوائح الأخرى».

استفقت على روائح هذه الذّكريات التي اصّاعدت في تلك اللّيلة لتنعش الرّوح. فقد كنّا جميعًا، ونحن صبيان في الحيّ، نقف نسترق النّظر إلى جنينة ابنة الإمام الحاج الشّاذلي حين تمرّ. كانت تضع السّفساري بطريقة مختلفة تمامًا، تمشي بدلع على وقع طقطقة «طماقها» كاشفة رجليها إلى مستوى الرّبلتين.

كانت أوّل امرأة تلبس سلسلة ذهبيّة في عقب رجلها، رجلها اليمنى تحديدًا، وكنّا نعجب لذلك. عرفنا الخلخال لدى بعض نساء الجيران الجدد الذين أخذوا يتوافدون بملابسهم الرّيفيّة، بالملية بالخصوص

وبالوشم على الجبين أو في الأنف والوجنتين وأحيانا في اليدين والرّجلين. أمّا السّلسلة الذّهبيّة فبدعة أحدثتها جنينة ولم نر من يقلّدها في ذلك.

مازلت أذكر صوت طرشقة علكة اللّوبان الذي تلوكه وهي تسير محرّكة كتفيها مرخية رأسها إلى اليمين مرّة وإلى اليسار مرّة يكاد سفساريها يسقط إلى أكتافها فتظلّ تُعْنَى بإرجاعه إلى موضعه.

كانت تدير الرّقاب إليها بعينيها الواسعتين وبشرتها المحمرّة وشعرها اللّيلي الفاحم. بيد أنّني لا أذكر رجلاً تجرّأ عليها، حتى رهط «الباندية» كانوا يتجنّبونها غاضّين البصر أو يلتفتون إليها بعد أن تتجاوزهم. والحقّ أنّنا لم نرها يومًا تسير وحدها. فإمّا أن يصحبها علّالة الدّرويش أو إحدى الخادمتين.

كنّا جميعًا في الحيّ نعرف أنّها عاشت يتيمة ماتت أمّها بعد أن سمعت صرختها الأولى. فسّر النّاس ذلك بقضاء الله وقدره ولكنّني سمعت مرّة أمّي ترجع الأمر إلى خطإ من القابلة التي وسّعت أكثر ممّا يجب بملقط الجنين من المنفذ لخروج الجنين وربّما اخترقت غشاء من الأغشية فنزفت دمًا كثيرًا لم تستطع إيقافه. كانت قابلة جديدة تعلّمت أصول المهنة عن «يينّا» اليهوديّة، ويقال الإيطاليّة غير أنّه شتان بين الثّرى والثّريّا.

ربّما كان هذا الأمر سببًا في استحياء رجال الحيّ، بما في ذلك عتاة الزّناة، من السّعي إلى الإيقاع بجنينة رغم غنجها ودلالها.

كان أهل الحيّ جميعا يعرفون أنّ جنينة تربّت كالأميرة. خادمتان رهن إشارتها، وعلّالة الدّرويش يقوم بجميع الشّؤون وأب عطوف ظلّ وفيًّا لذكرى زوجته. رفض أن يتزوّج بعدها وتفرّغ، على حدّ قوله، لتربية جنينة. سمّاها كذلك على اسم جدّتها لأمّها عساها تكون صورة منها عقلا ورصانة ولباقة وكياسة وحسن تدبير.

كبرت البنت وكان أبوها يدلّلها تعويضًا لها عن حرمانها من الأمومة. أراد أن يكون أبًا وأمًّا بطريقته. وكان يقول للنّاس:

- «لقد عوّضني الله، سبحانه مالك الملك، عن وفاة المرحومة. فحين ولدتْ جنينة حملتْ معها الخير والرّزق العميم. سبحانه لا يأخذ إلّا ليعطي أضعافًا مضاعفة».

وفعلاً فقد وافق ميلاد جنينة حصول سي الشّاذلي، ولم يكن وقتها قد أدّى فريضة الحجّ، على ثروة طائلة: عقارات عديدة في المدينة العتيقة من حوانيت وبيوت متوسّطة وكبيرة وأراض شاسعة في ضاحيتيْ منوبة والمرناقيّة، ومعاصر للزّيتون إضافة إلى ما كان يملكه من غابات القوارص في الوطن القبليّ. فقد كان أصيل جهة نابل واستقرّ في تونس بعد دراسته بالجامع الأعظم وزواجه من أمّ جنينة التي تنحدر من عائلة بنزرتيّة. كان زواجًا غريبًا نوعًا ما في ذاك الوقت لكنّ نتاجه كان طيّبًا. فقد جمعت جنينة البنت بين حرارة النّساء النّابليّات المتأتّية، على ما يقال، من الفلفل الحار وغنج البنزرتيّات الذي لم تزده معاشرة الفرنسيّين والطّليان والمالطيّين إلّا ظرفا وتهذيبًا.

وقد ورثت المرحومة أمّ جنينة عن أبيها بعض العقارات والأراضي وقوارب الصّيد. فكلّف سيدي الشّاذلي أحد معارفه بجني خيراتها شهريًّا.

6

يشهد الجميع أنّ سي الشّاذلي وزوجته لم يكونا يبخلان بشيء على السّائلين وعابري السّبيل وضعاف الحال من أهل الحيّ. كانا يقدّمان الكثير في صمت دون إحراج للمحتاجين. وكلّ شيء كان يمرّ عبر المسجد الصّغير في آخر النّهج. فقد تفرّغ له سي الشّاذلي وأصلحه ورمّم ما يحتاج منه إلى ترميم وغيّر محرابه تمامًا إذ أعاد بناءه معتمدًا على خبرة

الحرفيّين من نابل في مجال التّزويق والزّخرفة واعتمد على خبرة من تبقّى في سوق القلّالين من المختصّين في الجليز ليعيد تبليط الأرضيّة كلّها. لقد أصبح المسجد «جامع الزّيتونة الصّغير» كما يحلو لأهل الحيّ أن يسمّوه تفاخرا وتبرّكا. وكان من الطّبيعي أن يصبح سي الشاذلي إمامَ الخمسِ في المسجد بعد أن عجز شيخٌ هرم عن إمامة أهل الحيّ. فقد أنفق سي الشّاذلي مالا كثيرا ثمّ إنّ تقواه لا يرقى إليها الشّكّ فهو حاضرٌ في الصّلوات متفرّغٌ تمامًا مع استعداد دائم وحضور متواصل.

وممّن انتشلهم سي الشّاذلي من الخصاصة والفقر علّالة الدّرويش. رجل بدين، قصير لا تخطئ العين حين تراه أماراتِ البلاهة والبلادة والغباء على وجهه ولكنّه كان طيّعًا خدومًا لا تسمع منه إلّا التّنعيم والشّكر. حدّثنا عنه بعض الكبار ممّن كانوا يسخرون منه. فعلّالة لا يُعرف له أصل ولا فصل. اكتشفوه أوائل الاستقلال طفلا متشرّدا بأسماله القذرة البالية. احتضنه، بادئ الأمر، صاحب الحمّام الذي مكّنه من الاستحمام بعد أن يغادره المستحمّون وألبسه ما يستر من قديم الثّياب وسمح له بالمبيت فوق الحصر لينهض فجرًا فيتكفّل بجلب الحطب وتسخين الحمّام والقيام بمهمّة «الفرانقي» ثمّ يفتحه للمستحمّين. كلّ ذلك مقابل الإقامة وما يجود به عليه من طعام.

غير أنّ التّحوّل الحقيقي الأوّل في حياة علّالة كان مع سي الشّاذلي. فقد استغلّ غضبَ صاحب الحمّام عليه بسبب مشكلة لم أسمع تفاصيلها من أحد لينتدبه إلى العمل معه. فأصبحت لعلّالة غرفة في بيت سي الشّاذلي الكبير، غرفة محترمة بفراش وثير وخزانة للملابس.

كان طعامه يصله في اوقاته، صباحًا أو وظهرا وعشاء، إلى غرفته. تعامله الخادمتان كسائر مَنْ في البيت وترعيان شؤونه بما في ذلك تنظيف غرفته وغسل ملابسه رغم ما يشبّ من صراخ أحيانًا بسبب أعقاب

السّجائر الشعبيّة الرخيصة من نوع «الأرتي» التي يلقيها على أرضيّة الغرفة أو بسبب حفظ ملابسه القذرة في الخزانة بدل أن يضعها في سلّة غسل الملابس التي وضعتاها له في غرفته. كان علّالة ينظر إلى الخادمتين نظرة بلهاء كأنّه لا يفهم ما تقصدان أو ما تريدان منه بالضّبط.

أصبحت حياتُه منظّمة على إيقاع حياة سي الشّاذلي. يحضر الصّلوات الخمس معه. ينظّف المسجد يوميّا ويشرف على حملة التّنظيف الأسبوعيّة، صباح كلّ جمعة. علّمه الآذان. فمن حسن الحظّ أنّ صوته مقبول مسموع. أصبح كساعة سويسريّة. يعرف متى يذهب إلى المسجد ومتى يحين وقت الآذان وما عليه أن يفعله من قبل ومن بعد. يعرف توقيت الذّهاب إلى السّوق، ماذا سيشتري من الخضار والجزّار وبائع السّمك والعطّار. ولكنّه دائمًا ينسى شيئًا أوصته زوجة سي الشاذلي بشرائه. فيعود أكثر من مرّة ليحضر هذا أو ذاك ممّا نسي.

وخلال هذه المرحلة الجديدة من حياة علّالة ظلّت صفة الدّرويش تلاحقه رغم أنّه أصبح في مظهره لا يختلف كثيرًا عن بقيّة رجال الحيّ بل اكتسب بالمعاشرة والتّجربة بعض الخبث والحيلة وطول اللّسان. لم يعد يسكت عن الإهانة فيردّ طلب بعض النّاس إذا دعوه إلى إحضار شيء أو اقتنائه من السّوق.

7

أصبح سي الشّاذلي، شيئًا فشيئًا، يصطحبُ علّالة إلى المنازل حين يكون له حفل سُلامِيّة. فسي الشّاذلي فنّان أيضًا، فنّان صوفيّ، يحفظ الأناشيد الدّينيّة على الطّريقة القادريّة والشّاذليّة وله تطويرات في الإنشاد الدّيني. يستعيد الأغاني الرّائجة ويركّب عليها بسليقته الصّافية وثقافته الصّوفيّة كلمات جديدة في مدح المصطفى خير البريّة ومناجاة ربّ

العزّة. وكثيرٌ ممّا يسمع اليوم في فرق السّلاميّة هو من كلمات الحاج الشّاذلي ولكن النّاس لم يوثّقوا ذلك ولم يكن لحقوق التّأليف بالنّسبة إليه أيّ معنى. بل لم تكن تخطر على بال أحد. ويتحدّث كبار الحيّ عن صوته القويّ الشّجيّ والانخطاف الذي يأخذه من النّاس إذا أمسك الدفّ وسط المنشدين ووصل إلى أداء «يا بلحسن يا شاذلي. ويذكر كبارُنا أيضًا أنّهم لم يسمعوا صوتًا أصفى ولا أحلى من صوت الحاج الشّاذلي وهو ينشد البردة للبوصيري:

«مولاي صلّ وسلّم دائماً أبدا على حبيبك خير الخلق كلّهم...

وإذا فرغ منها كان يعطف عليها، دون غيره من المنشدين، معارضة شوقي لها «ريم على القاع بين البان والعلم..

أصبح علّالة بمرور الوقت، مختصّا في تسخين الدّفوف. وليس أمرها، كما قد يتوهّم غير العارفين، رهينَ تقريبها من الكانون بل هي فنّ قائم الذّات لأنّ جلدة االدفّ ينبغي أن تسخّن بتؤدة كالطّعام الذي يطبخ على نار هادئة فلا تكون النّار التي تصل إلى الجلدة قويّة ولا فاترة. ثمّة توازن دقيق يمكن معه للجلدة أن تستويَ بالضّبط كالعود إذا عدّلتَ أوتاره أو القانون إذا كبستَ أزراره. تعلّم «الفرانقي» القديم هذا الفن الدقيق وشرح اللّه صدره لتلك المهمّة فتخلّى عن جلافته وأصبح رقيقًا مع جلدة الدفّ. فهو يقدّر درجة الحرارة دون محرار، يقدّرها بمجرّد وضع اليد أعلى الكانون حسب مسافة لا يحتاج في معرفتها إلى مقياس.

كان الحاج الشّاذلي راضيًا كلّ الرّضى عن أداء علّالة سواء في قضاء شؤون البيت أو العناية بالمسجد ونظافته أو إعداد الدفوف للإنشاد.

8

وكانت المفاجأة الكبرى، مفاجأة القرن بالنّسبة إلى كلّ أبناء الحيّ،

نسائهم ورجالهم شيبهم وشبابهم صباياهم وعجائزهم. انتشر خبر زواج علّالة من للّا جنينة. لم يصدّقوا جميعهم الخبر في البداية. اعتبروه إشاعة أو مزاحا ماسطا. ضحك النّاس واستغربوا من هذه الحكاية الفارغة. لم يتجرّأ أحد فيسأل الحاج الشّاذلي عن الإشاعة التي قد تكون مغرضة. كانوا متأكّدين من أنّهم سيستثيرون غضبه. مثل هذا الكلام يعتبر سبّة وعيبًا كبيرًا. كيف لابنة الحاج محمود فاتنة الجمال التي ضحّى بحياته من أجلها أن يزوّجها لشخص مقطوع من شجرة، لحبل حمله السّيل من بين ما حمل، لخادمه الأمين، «لفرانقي» قديم؟ ابنة الحسب والنّسب والوريثة الوحيدة لثروة الحاج الشّاذلي الطّائلة تتزوّج خادمًا ومسخنا للدفوف؟ لِمَ؟ أهي عوراء؟ عرجاء؟ مغتصبة؟ ما الذي ينقصها؟ لو طلب الحاج من أيّ واحد من فتيان الحي أن يتزوّجها لجثْوا على ركبهم طائعين شاكرين مقبّلين الأيدي والأرجل. لو جاز له أن يخطب لابنته أيّ واحد من أبناء العائلات الكبيرة في تونس العاصمة أو نابل أو بنزرت.. من أقصى شمال البلاد إلى جنوبها لكان مسرورًا ممنونا حامدا ربّه على النعم الكثيرة التي تتيحها له هذه الزيجة. صحيح، الصّبيّة مدلّلة ولكن يحقّ لها ذلك فهي وحيدة أبيها. صحيح أنّها غادرت المدرسة مبكّرًا ولكنّ مصير الفتاة أن تكون في حماية رجل.. رجل حقيقيّ وليس ظلَّ رجلٍ مثل علّالة الدّرويش. هل يعطي الحاج الشّاذلي ابنته وشطر مملكته وثروته لعلّالة؟ هل يصبح ذاك الدّرويش المتخلّف ذهنياً صهرًا للحاج الشّاذلي؟ هراء في هراء في هراء. ما أنذل أولاد الحيّ وما ألذع ألسنتهم النّتنة.

ورغم ذلك صدق أصحاب الألسنة النّتنة. زد على ذلك أنّ الزّواج كان زواجًا يليق ببنات العائلات الكبيرة اللّاتي يتزوّجن من أبناء الأكابر. سبعة أيّام وسبع ليال بالتّمام والكمال. كلّ ليلة حفلة ولباس مختلف ومشروبات ومآكل وقصاع ملأى بما لذّ وطاب وطاولات تنصب وفرق

موسيقيّة. لأوّل مرّة رأى أبناء الحيّ كوكبة من ألمع نجوم الطرب: صفيّة الشّامية وعلي الرّياحي والهادي الجويني وراوول جورنو والهادي القلّال ومحمّد ساسي وأحمد حمزة وشبيلة راشد والفنّانتين عليّة ونعمة في بدايتهما والطّاهر غرسة في شبابه.. فضلا عن ملك الكمنجة رضا القلعي وغيرهم ممّن ليسوا في شهرتهم، في بيت الحاج الشّاذلي الذي غصّ بالخلق.

أصبح الحيّ قبلة ألمع نجوم تونس. ولو كان الوقت كافيًا لأحضر الحاج الشّاذلي بماله الوفير محمد عبد الوهّاب وأمّ كلثوم وكارم محمود وسعاد محمّد وفائزة أحمد وشهرزاد إن لزم الأمر.

كان فَرَحًا حقيقيًّا ومهرجانًا فنّيًّا خالدًا مايزال من بقي من الشيوخ والعجائز في حيّنا إلى يومنا هذا يلهجون بذكره ويتحسّرون عليه.

تمّ الزّواج بسرعة وسط ابتهاج الحاضرين الذين لم يكفّوا طيلة اللّيالي السّبع عن التّهامس، فالجيران وأبناء الحيّ كانوا يشتمّون رائحة عطنة في الحكاية. ولكنّهم لا يملكون الخبر اليقين وليست لهم أدلّة على ما يتوهّمون. فكنت ترى الواحد منهم بعد أن بذل ما بذل في الافتراض والاستيهام والتّخيّل والتزيّد يسارع بإبداء تعاطفه مع الصّبيّة اليتيمة وأبيها الوقور المحترم. يتذكّرون أياديه البيضاء عليهم جميعًا، على جميع العائلات التي لا شكّ في أنّها قصدته يومًا في سلفة لا ترجع أو صلح بين أفرادها بدا لها عسير المنال أو حفل إنشاد ديني يقسم ألّا ينال عليه أجرًا بل يدفع أجور العاملين معه من جيبه. مَنْ مِنْ هذه العائلات لم يقف له الحاج الشّاذلي وقفةَ أبٍ في زواج ابنه أو ابنته، يدفع بلا حساب ويرسل الأقفاف والسّلال وصناديق الخضر والغلال والخرفان مذبوحة وحيّة ولا ينسى الهدايا للعروس وللعريس.. وهي هدايا عادة ما تكون من ذهب خالص سميك باهظ الثّمن.

ومهما فعلوا ليرجعوا خيره السّابق فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا. يكفيهم أن يروه مسرورًا سرورًا بالغًا في تلك السّهرات. فقد بلغ به الطّرب حدّ نزع جبّته والرّقص أمام الجميع. تخلّى عن وقاره للتّعبير عن فرحه بزواج ابنته. لم يبد عليه شيء ممّا ينغّص فرحته. كان يرحّب بالجميع ويشكر لهم حضورهم ويدعوهم إلى الرّقص أو الجلوس أو الزّيادة من هذا اللّون من ألوان الطّعام الكثيرة الوفيرة. يقدّم بيديه كأس «الرّوزاطة» أو قطعة البقلاوة، بقلاوة الباي، أو البجاويّة الصفاقسيّة أو كعك الورقة الذي تفوح منه رائحة النّسري.

كان الجميع، رغم كلّ وجوه الغرابة التي لاحظوها في هذه الزّيجة غير المعقولة، يتمنّى للحاج الشّاذلي دوام الفرح والبهجة في سرّهم وعلنهم. ماذا تفيد نظرتهم إلى علّالة الدّرويش أو احتقارهم له أو عدّه غير كفء ليتزوّج تلك الزّهرة الفوّاحة.. بل الجنينة الفوّاحة كلّها أو ماذا يفيد حتى مجرّد تحفّظهم مادام القاضي راضيا يبدي كلّ هذا القدر من السّعادة بابنته وصهره؟

ولكنّ أماني الجيران وأهل الحيّ ظلّت حقًّا أماني يستحيل تحقّقها. فلا سعادة الحاج الشّاذلي دامت ولا فرحه استمرّ ولا تمتّع بثروته الطّائلة بعد أن اختار بعلاً لوحيدته. لم يمرّ شهر على زواج علّالة وجنينة حتّى أخذ الرّحمان أمانته. كأنّه أتمّ مهمّته التي وجد لأجل تحقيقها. قد يكون مات راضيًا وذهبت روحه إلى باريها مطمئنّة على مستقبل ابنته سواء مع زوجها علّالة أو بثروتها الطّائلة. ولكن أغلب الظّنّ، ظنّ الجيران على الأقلّ وأهل الحيّ، أنّه مات غمًّا فقبر ابنته من حيث أراد لها حياة هانئة في كنف رجل. ولكن متى كان علّالة رجلاً كفءًا مناسبًا ليرتع في حديقة جنينة؟

كنت أعرف هذه الحكاية في عمومها وبشيء من التّفصيل. كنّا، أنا

وعبد النّاصر، صغيرين حين حضرنا مع عائلتينا مهرجان زواج جنينة. لم نكن نحفل بما يدور بين الكبار ولا نعرف ما يجول في أذهانهم. كانت فرصة لنا لنتمتّع بالحلويات والمشروبات واللّعب مع الأتراب. أذكر ذلك ذكرى بعيدة ولكن من لا يعرف في الحيّ حكاية جنينة وعلّالة؟ ففي عائلاتنا كنّا نسمع النّساء من حين إلى آخر يستحضرن الحكاية كلّما سمعن غريبة من الغرائب التي تقع في ذلك البيت الذي أصابته اللّعنة، بيت الحاج الشّاذلي رحمه الله. تعود الحكاية، كما تحبّ النّساء عندنا أن يعدن ويكرّرن، كلّما ذكر أمامهنّ اسم علّالة أو خبر عن جنينة.

9

أضاف لي عبد النّاصر، في تلك اللّيلة، ونحن عائدان إلى تونس من حلق الوادي، أسرارًا لم أكن أعرفها. فنحن فعلا أبناء حيّ واحد ولكنّنا لا نقطن في الزّقاق نفسه ولم أكن أتردّد على دار الحاج الشاذلي البتّة مثلما كان يفعل عبد النّاصر منذ صباه الأوّل. والحقيقة التي اكتشفتها أنّ الحاجّة زينب كانت تعامل جنينة كإحدى بناتها خصوصًا بعد أن غادرت المدرسة في السّنة الخامسة أو السّادسة من التّعليم الابتدائيّ. هكذا قرّرت أن تتوقّف عن الدّراسة في يوم مشهود وضعت فيه كراريسها وكتبها في جفنة الغسيل الكبيرة المصنوعة من النّحاس وصبّت عليها الكحول وأشعلت النّار إلى أن حوّلتها رمادًا. لامتها يومها الحاجّة زينب ولم يلمها أبوها رغم أنّ ما فعلته لم يعجبه.

أصبحت جنينة تقضي يومها في بيت الطلياني تفعل بالضّبط ما تفعله أخواته خصوصًا أكبرهنّ جويدة. علّمتها الطّبخ والغسيل وتنظيف البيت. كانت كسولة ولا تقبل القيام بمثل تلك الأشغال التي تعتبرها أشغالاً للخادمات إلّا إذا طلبتها الحاجّة زينب أو جويدة. علّمتها التّطريز في

أماسي الصّيف وغزل الملابس بالإبرتين في الشّتاء. أبدت جنينة مهارة فائقة في هذه الفنون اليدويّة. كانت سريعة العمل تنهي «قرقافها» أو «شبكتها» أو «مريولها الصّوفي» قبل جويدة وبإتقان كبير نادر. لها يد سحريّة تغزل الحرير بمجرّد لمسه.

لمّا وجدت الحاجّة زينب فيها تلك القدرات علّمتها الفصالة والخياطة فبرعت فيهما. لم تكن تستعمل الورق المقوّى لتفصيل أنموذج تقصّ وفقه القماش. كانت تنظر إلى الشّخص، تتناول المقصّ، تقدّر بعينيها الواسعتين مقاسه دون استعمال المتر، تكتفي ببعض الدّبابيس لمسك أجزاء الفستان أو السّروال فيخرج كأنّها قاست الثوب على قالب جُرّب فصَحّ. ولكنّها ظلّت كسولة، تفعل ذلك، إن فعلتْ، من باب تمضية الوقت وملء الفراغ لا غير.

كانت جنينة امرأة صَنَاعَ تعرف كلّ شيء ممّا يلزم للدّار وتؤدّي جميع المهامّ التي تؤدّيها النّساء بإتقان وفن. ولكن بعد أن مات أبوها لم تعد الحاجّة زينب وزوجها يسمعون إلّا الصّراخ، صراخ جنينة ليل نهار. تدعو على علّالة دعاء مرًّا يفتّت الحصى. طردت الخادمتين بعد بضعة أسابيع. وبقيت وحيدة في الدّار طيلة اليوم لا تخرج ولا أحد يعرف ماذا تفعل.

جاء علّالة إلى الحاج محمود طلب منه أن تتدخّل الحاجة زينب لديها كي تعقّلها. فقد أصبحت تراه شيطانا رجيما، تصرخ في وجهه كلّما رأته، تضربه بكلّ ما تجده أمامها. لم ينفع معها هجره للبيت وبقاؤه في المسجد طيلة اليوم من الفجر إلى ما بعد العشاء (لقد أصبح إمام الخمس بعد أن ورث من صهره هذا المنصب دون أن يحتجّ أحد!). لم يعد شبعان في بطنه ولا مرتاحًا في نومه. حكمت عليه أن ينام في غرفته القديمة ولا تتركه ينام إلّا بعد تلاوة ما تجود به قريحتها من دعاء عليه وسخط ونخط وغضب من شيء لا يعرفه.

أقسم أنّه لم يمسسها أبدًا منذ زواجهما. حكمت عليه، أيّاما، بالنّوم على الزّربيّة أسفل الفراش. يستيقظ من النّوم ليجدها تبصق على وجهه وتركله برجليها وأحيانًا تفرغ شربيّة الماء عليه وهو نائم. أصبح يغلق باب غرفته التي لا يجد من ينظّفها ولا من يغسل ملابسه. يحضر ما لذّ وطاب من النّعم والخيرات التي جاد بها عليه الحاج الشّاذلي. فقد كتب له عقارين باسمه يدرّان عليه جراية محترمة وورّثه فرقة السّلاميّة للإنشاد الدينيّ التي تسمح له بالنّصيب الأكبر من المداخيل مقارنة ببقيّة الأعضاء. يشتري كالعادة، وأكثر، الخضر والغلال واللّحوم والأسماك. لا يذكر أنّه تخلّى يومًا عن واجبه. أصبح منذ سنوات يعرف ما تحتاج إليه الدّار ولكنّها مذ طردت الخادمتين أصبح اللّحم ينتن والخضر تفسد والغلال تخرج الدّود والسّمك يتحلّل فتفوح رائحته العطنة دون أن يفتح أحدٌ القرطاس أو الكيس أو يتطلّع إلى ما تحويه القفّة. لا يعرف ماذا تفعل جنينة في الدّار التي أصبحت إسطبلاً. ماذا تأكل؟ كيف تقضي يومها؟ وحده الرّاديو تنبعث منه الأصوات والأغاني، ليلَ نهارَ، منذ أن تفتتح الإذاعة الإرسال إلى أن يتوقّف آخر اللّيل.

في قيلولة من قيلولات شهر سبتمبر حضر شيطان القايلة عبد النّاصر مشهدًا لم يره في حياته من قبل رغم أنّ أمّه زينب هي الفاتقة النّاطقة في البيت، ولا يخلو سلوكها من خشونة وحدّة وشرّ أحيانًا. تعالى صراخ للّا جنينة (أو»نانا» كما اعتاد أن يناديها الطلياني منذ صغره مثلما ينادي أخته الكبرى جويدة)، من وسط دارها. تعالت قرقعةُ أدباش تصطدم بالأرضيّة المرصّعة بالرّخام وسُمع انكسار كؤوس وشقشقة مواعين من النّحاس وارتطام كراسٍ صغيرة من الخشب جعلت للجلوس على المائدة. هذا ما تبيّنه الصّبي الذي لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمره. ولكنّ الجميع في بيت الحاج محمود سمع علّالة الدّرويش يترجّى جنينة أن تتركه لحال سبيله.

نهض الحاج محمود منزعجًا من قَطْعِ قيلولته، وأخذت الحاجّة زينب تولول بسبب هذه الجيرة المقلقة التي تقتحم عليهم سكونهم وهدوءهم حتى في مثل تلك الأوقات. صرخ الحاج محمود في وجه زوجته:

- «أيّ همّ هذا الذي أصابنا به الله».

- «وما دخلي أنا. مثلي مثلك، البنت ضاعت منذ توفي أبوها».

10

استغفر الحاج محمود مولاه العليّ العظيم وحوقل. اتّجه نحو باب الدّار. تبعته الحاجّة زينب وكان الصّبيّ وراءهما لم يفطن لوجوده أحد.

في وسط الدّار رأوْا للّا جنينة راكبة على علّالة وهي شبه عارية. مزّقت جبّته. غرست أظافرها في وجهه فتركت خدوشًا دامية. شجّت رأسه الذي كان ينزف. كان علّالة يحاول أن يغطّيَ رأسه بيديه ليمنع لطمها ولكمها.

أدار الحاج محمود وجهه. وقف الطلياني في آخر السّقيفة منبهرًا بعراء ظهرها وفخذيْها. لم تكن تلبس إلّا تبّانًا أبيض يَلْمَعُ مُحلّى بالدّنتيل. عرف فيما بعد أنّ ذاك القماش يسمّى «ساتان» وأنّه ليّن الملمس تكاد اليد تنزلق فيه ما إن توضع عليه. كان يضحك من الحال التي شاهد عليها علّالة الدّرويش «لا يستحقّ ابن الكلب إلّا ذلك» قال الفتى في نفسه. زادت معزّة للّا جنينة عنده. لقد أخذت بعضًا من ثأره من هذا الفأر الحقير. لو كان مثلها طولاً وقوّة لفعل أكثر ممّا فعلت.

نهرت الحاجّة زينب للّا جنينة وانتزعتها بصعوبة من فوق علّالة. أدخلتها غرفة نومها. أسرع علّالة باتّجاه سي محمود ينشج ويشكوه ما فعلت به للّا جنينة. أراه آثار عضّات كثيرة على يديه الاثنتيْن. كادت تنتزع معهما اللّحم. فقد غرست الأسنان عميقًا في اللّحم. أمّا الخدوش والحمرة التي تعلو موضعًا من الجبين والكدمة في موضع مقابل لها فقد

كانت جميعها واضحة للعيان وضوح قطرات الدّم النّازف. طلب منه الحاج محمود أن يذهب إلى المسجد على أن يلتحق به بعد حين. لم ينتبه علّالة، وهو يغادر البيت، للصبي المتخفّي قرب بيت «المؤونة» في السقيفة الطويلة.

سمع الحاجّة زينب تنادي الحاج. أسرع إلى الغرفة التي انبعث منها الصّوت. اقترب الطلياني من الغرفة يسترق السّمع. ثمّ لمّا غرق ثلاثتهم في الحديث أصبح يتلصّص من الرتاج المنسدل على باب الغرفة ليحمي الخشب من المطر شتاء ومن أشعّة الشّمس صيفًا.

بدأت الحاجّة زينب تلوم للّا جنينة على الحالة التي عليها الغرفة. قالت لها:

- «ماذا دهاك؟ هل علّمتُك هذا؟ هذه زريبة خنازير وليست غرفة؟».

كانت للّا جنينة مطأطئة رأسها، ترفع عينيها أحيانًا في استحياء دون أن تتكلّم. ذكّرتها بأنّها أصبحت ربّة بيت وزوجة وعليها أن تتصرّف بمقتضى ذلك. إنّها بنت الحسب والنّسب، بنت الحاج الشّاذلي، وما أدراك ما الحاج الشّاذلي، وعليها أن تشرّف أباها في قبره وتريح أمّها في نومتها الأبديّة. قالت لها:

- «أتدرين أنّ أباك يتقلّب الآن في قبره؟ فارحميه هو على الأقلّ».

انحدرت دمعات من عيني للّا جنينة. كفكفتها الحاجّة بمنديل وجدته على الطّاولة. أردفت:

- «البكاء لا ينفع، إنّه جمرات في قلوب أهل القبور. انظري إلى نفسك وبيتك وزوجك ماذا يقول النّاس عنّا؟ كفّي عن صنيعك هذا لتكفّ عنّا ألسنة النّاس. يعيّشك بنيّتي. أنت الآن في عيون الجيران ابنة زينب».

تدخّل الحاج محمود:

- «ما تفعلينه يا بنيّتي لا يرضي الله ولا رسوله. لقد أوصاني أبوك قبل مماته بك خيرًا. أنت دَيْن وضعه المرحوم في رقبتي فلا تثقلي عليّ. قولي لي ما بك؟ ماذا تريدين؟».

انخرطت للّا جنينة في نوبة بكاء. التصقت بـ«تاتا زينب»، كما كانت تناديها، فعانقتها ووضعت رأسها على كتفها. كانت أم الطلياني تمرّر يدها اليمنى على شعر جنينة وتطلب منها أن تكفّ عن البكاء. قالت لها:

- «أنت زينة بنات الحيّ. لا ينقصك شيء ونحن، أنا وعمّك محمود، بقربك نساعدك إذا احتجت إلى أيّ شيء. قولي. هل ضربك علّالة؟ هل أهانك؟ هل تركك محتاجة؟ أني أراه المسكين طوع بنانك».

أراد الحاج محمود في ما يبدو أن يختم الموضوع ليعود إلى قيلولته التي أفسدتها عليه للّا جنينة. فقال:

- «هيّا، يعيّش بنتي، فرّحينا بصبيّ».

نهرته الحاجّة زينب بعينيها وأمرته، بحاجبيها، بأن يغادر الغرفة دون أن تفطن للّا جنينة إلى ذلك. جرى عبد النّاصر باتّجاه الباب. وجده الأب في السّقيفة. فقال له:

- «ماذا تفعل هنا؟ كالعادة تتنصّت على الكبار؟».

أقسم له الفتى أنّه كان ينتظره ولم يسمع شيئًا من الحديث. خيّل إليه أن أباه سيعاقبه بحمله معه إلى غرفة النّوم ليرقده عنوة. وهو ما كان يفعله دائمًا إذا غضب أو خاف أن يشوّش في مثل تلك الساعة بهرجه ومرجه. لكنّ الحاج محمود لم يفعل ذلك.

وإن هي إلّا ساعة حتى دخلت الحاجّة زينب ومعها للّا جنينة إلى البيت. سخّنت الماء واغتسلت. لبست ثيابًا أخرى نظيفة. ومن يومها أصبحت للّا جنينة لا تفارق بيت الحاج والحاجّة إلّا لتنام. وعبر الأيّام

عادت إليها ابتسامتها الفاتنة وضحكتها المغرية وعلكتها التي تطرشقها بطريقة لا تعرف سرّها إلّا هي. كانت ولا ريب صفقة من تدبير زينب وتنفيذ سي محمود. ووجد الطلياني نفسه أكبر مستفيد. فقد أصبحت جنينة قريبة جدّا منه. وفي تلك الغرفة بالطابق العلويّ من بيت الحاج محمود كانت تلاطفه وتلاعبه وتدلّله وتعتني به حتّى في اغتساله ونظافته!

11

مدّة ثلاث سنوات أو أربع، ظلّ على ذلك الإعجاب بما تركه صلاح الدّين: الإسطوانات والكتب والكرسيّ الهزّاز.. وللّا جنينة. بيد أنّ غرفته لم تعد مكانًا آمنًا لخلوته بها. سمع الحاجّة زينب تكلّمها في المطبخ يومًا في الأمر. قالت لها:

- «لقد كبر الولد، يا جنينة. وأنت أمانة عندي في البيت».

- «ماذا تقصدين خالتي زينب؟ لقد تربّى عبد النّاصر على يديّ».

- «لا أقصدك أنت كما تعلمين، بل عينا الولد أصبحتا حرشاوين».

- «ما هذا الكلام إنّه في مقام ابني أو أخي».

- «رغم ذلك، الحيطة واجبة..، لقد نبّهني إلى ذلك الحاج محمود».

سكتت للّا جنينة. وبدأت تقضي وقتًا أكثر في دارها. لم تقطع الصّلة تمامًا لكنّها كانت تتعلّل بأعمال عديدة تشرف عليها مع الخادمتيْن. أضحت تطبخ طعامًا كثيرًا ترسل منه إلى دار الحاجّ على وجه الإكرام والمحبّة. لم تقطع كذلك صلتها بالفتى الذي كبر. أحيانا، تنتصب له إحدى الخادمتيْن في الباب تنتظره فتدعوه خفية إلى البيت لأنّ للّا جنينة تريده في أمرٍ عاجل. فهم أنّ الخادمتين متواطئتان معها. لم يسأل عن الأمر بيد أنّ جميع القرائن تدلّ عليه. وما همّ شابّ في سنّه يتّقد اشتهاء لجسد باذخ مثل جسد للّا جنينة بمثل تلك الحيثيّات؟ لقد رضيت، وهي زوجة رجل، عنّين ولا شكّ، بذلك فكيف لا يرضى هو؟

ولمّا كان السّرّ إذا عرفه شخص ثالث لم يعد سرًّا قرّر عبد النّاصر وقد جاوز الثّامنة عشرة بقليل أن يوقف اللّعب بالنّار. فقد أصبحت لعبه مع للّا جنينة جادًا أكثر ممّا يجب. أصبحت تطلبه بكثرة، وتناديه إحدى الخادمتيْن المنتصبتيْن أمام باب الدّار مرّات في اليوم الواحد خصوصًا أيّام العطل وفي الصّيف. لاحظ أنّ للّا جنينة أضحت مدمنة على جسد الفتى (أهو صلاح الدّين أم عبد النّاصر؟). لم تعد ترضى بالدّقائق التي يتطلّبها الوصال وإطفاء النّيران الملتهبة. صارت تودّ لو قضى اللّيل معها تحادثه وتروي له الحكايات وتغنّي وترقص وتقدّم له الشّاي والفواكه والغلال حسب الفصول. أصبحت تؤثره بـ«الكورديان» المصنوع من محّ البيض والسكّر وتعدّ معجون السّفرجل الممزوج بالشاميّة وتخلط العسل باللّوز والبندق والفستق تقدّمه له قبل الجماع وبعده. تقدّم له أحيانا عسل الملكة وحبّات صفراء تذيبها في كأس من الحليب السّاخن. تقول له:

- «اشرب فهو مفيد للإنعاظ».

وإن صار هذا كلّه، بمرور الأشهر، يشعره بأنّه سجين رغبات للّا جنينة فإنّ القطرة التي أفاضت الكأس جاءت يوم أخبرته أخته الصّغرى يسر عمّا يدور من أحاديث في الدّار عن علاقة بينه وبين للّا جنينة. حذّرته من خطّة تضعها نساء البيت بتدبير من الشّرّ المطلق، أمّه زينب، للإمساك به متلبّسًا بالجريمة. فالمسألة مازالت مجرّد تقوّلات وهمسات ولم يسمع بها الحاج محمود بعدُ لذلك عليه الانتباه والتّيقّظ.

لم يكن من السّهل عليه أن يترك جنينة وخيراتها ولم يكن من الهيّن عليه أيضا أن ينكشف سرّهما بالحجّة والدّليل. لم يخبر جنينة ولكنّه لم يعد يستجيب لطلب إحدى الخادمتيْن. كان كلّ مرّة يتعلّل بشيء.

12

وجد مرّة للّا جنينة نفسها على الباب تنتظره. كان الباب مغلقًا ولم يدر كيف ظهرت له. طلب منها في ارتباك ظاهر أن تدخل إلى السّقيفة بعد أن التفت إلى الجهات كلّها واطمأنّ ألّا أحد يراهما. كان مشتاقًا إليها فعلاً فلم يلمسها منذ أكثر من أسبوعين. بدأت بلومه عن هجرها طيلة تلك المدّة. حاول أن ينوّع الحجج والتّبريرات التي يصطنعها في غير نظام. خطر له أن يعلمها بأنّه يستعدّ للحصول على «الشّهادة الكبيرة» في السنة المقبلة. أخذ يحدّثها بإطناب عمّا تتطلّبه هذه الشهادة من عمل وكدّ وجهد. لم تقتنع بكلامه.

ذهبت بعيدًا في التّعبير عن تعلّقها به. عبّرت عن استعدادها لأن تطلّق علّالة وتتزوّجه هو.. أن تكتب له ورثتها كلّها. لا تريد شيئًا من الحياة. تريده هو. هو ولا شيء آخر. لم تترك له فرصة للحديث. جذبته بقوّة، كانت كالمجنونة، دخلت في حالة غريبة تقبّله وتعانقه وهي تنزع ثيابه. لم يعرف ماذا يفعل. أطفأت نارها في جسده المتّقد. شرق بملعقة العسل الكبيرة التي وضعتها في فمه غصبا عنه. كاد يموت اختناقًا وهي تطبطب على ظهره وتسكب الماء في الكأس. كانت تردّد اسم صلاح الدّين. هدأ وهدأتْ. استغلّ الفرصة وقال لها:

– «أنت لا تريدينني أنا، تتخيّلين صلاح الدّين وأنت معي».

نظرت إليه كأنّها تفاجأت بكلامه. فهم أنّ وقع كلامه كان قويّا عليها فواصل:

– «هذا أمر لا يعجبني. أنا هو أنا. أنا لست صلاح الدّين وأنت مازلت تعيشين على ذكراه. اِستفيقي لست صلاح الدّين... أفهمت.. أفهمت..».

تركها مذهولة. وضعت رأسها بين يديها. أصبحت جثّة هامدة. تركها في الفراش عارية وغادر الدّار مسرعًا. وكان ذلك آخر عهده بها.

يعاوده الحنين إليها فيردّه عقله إلى المخاطر التي نبّهته إليها يسر. لم يكن الأمر سهلاً ولكن إرادة عبد النّاصر كانت أقوى. وأقوى من ذلك أنّه غالب غيرته عليها وهو يراها تستقبل مرّات في دارها صبيانًا دونه حسنًا وأقلّ منه سنًّا. كانوا يدخلون ويخرجون محملين بالحلوى والفواكه والغلال. فَهِمَ أنّها وجدت بدائل منه. ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا. كاد يقتله الشّعور بالذّنب تارة وبالغيرة تارة أخرى غير أنّه تشاغل عن ذلك كلّه.

13

فاحت روائح أخرى عطنة من دار العنّين الشّيخ علّالة الإمام. ولكنّ الرّواية الرّسميّة في الحيّ، الرّواية التي أرضت الجميع، هي أنّ للّا جنينة عاقر وتحبّ الأطفال والصّبيان تعوّض بهم تعطّل بئرها ونضوب الماء منها لذلك أصبح بيتها مزارًا لعديد من فتيان الحيّ.

أمّا الشّيخ علّالة فيروي أنّ زوجته قد أصابتها لوثة ولا تصلح أن تكون زوجة لرجل ورع تقيّ مثله. فهي تدخن ولا تؤدّي واجباتها الدّينيّة ولا تحبّ أن يُذكر لها حجّ أو عمرة. كانت تجاهر بالإفطار في رمضان أمام الخادمتين والزّائرين. فيظلّ يطلب لها الهداية ويدعو لها بحسن العاقبة. هي في نهاية الأمر زوجته التي ابتلاه الله بها وعليه أن يصبر فربّك يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء.

أمّا في دار الحاج محمود فسرعان ما يُطوى الحديث إذا ذكر اسم للّا جنينة كأنّ اسمها بعير أجرب أو كلمة نابية تقال في تلك الدّار الشّريفة العفيفة: دار الحاجّة زينب والحاج محمود رحمه الله رحمة واسعة على قدر جنازته الضّخمة المهيبة في ذاك اليوم المشهود الذي لم يفسده إلّا اعتداء عبد النّاصر على الشّيخ علّالة إمام المسجد.

تمّت

المحتوى

شكري المبخوت

الطلياني

رغم كلّ شيء ثمّة أمرٌ ما يربطهما أكثر من الزواج الذي ساقته الظّروف والصّدفة. حين تشرع شفتا الطلياني تمتصّان رضاب تلك القصبة المفكّرة وتجوس يداه في ملمسها الليّن، تصبح غصنًا أخضر غضًّا يتلوّى كلّما مسّته ريحُ الرّغبةِ. هذه النّبتة الشّيطانيّة مذهلةٌ قُلّبٌ لا تستقرّ على هيئة واحدة. يراها غصنًا جافًّا أو جذعًا يابسًا أحيانًا. وتكون أحيانًا أخرى عُودًا منوّرًا طيّبَ الرّيح يجدّد الحواسّ التي تبلّدت.

ربّما كان ذلك بعض ما جعل طريقيهما يفترقان في أكثر الأيّام، ولكنّهما يلتقيان في لحظة لا يعرفان سرّها.

واعترفت زينة بأنّ الطلياني يمكن أن تراه في لحظات غضبه كجحيم "دانتي" أو سقوط "أورفيوس"،

ولكنّها تراه في لحظات شهوته عاشقًا هنديًا مستعدًّا للموت عشقًا. لقد كان شهوة موقوتة لا تعرف متى تنفجر ولا تترك في الجسد مكانًا لا تصله الحروق اللّذيذة أو الشّظايا القاتلة..

لم تصارح زينة عبد النّاصر برأيها هذا فيه. وهو كذلك لم يفعل. بيد أنّ في المسألة شيئًا دقيقًا عميقًا لم تتمكّن من فهمه. فقد كانت تأخذها في البداية سكرة ممزوجة برعدة كأنّها في حالة شطح للذّوبان في جسد عبد النّاصر والانصهار الكلّي فيه. جسده حقل مغناطيس بهيّ ينوّم الحواس ويستنفرها في الآن نفسه. يذهب بالعقل فتتخدّر الأعضاء كلّها. يجعلها تشعر في آن واحد بألم لا يُطاق ولذّة لا توصف. فتستسلم وترضخ. بيد أنّها حالَمَا تثوب إلى رشدها لا يبقى إلاّ ألَمٌ حادٌّ مروّع في أحشائها أسفل البطن، كأنّ إبَرًا غليظةً تنخرها من الدّاخل وتحرّكها يد خفيّة تظلّ تحفر وتحفر ولا تتوقّف.

لوحة الغلاف: حميد الدين بوعلي



